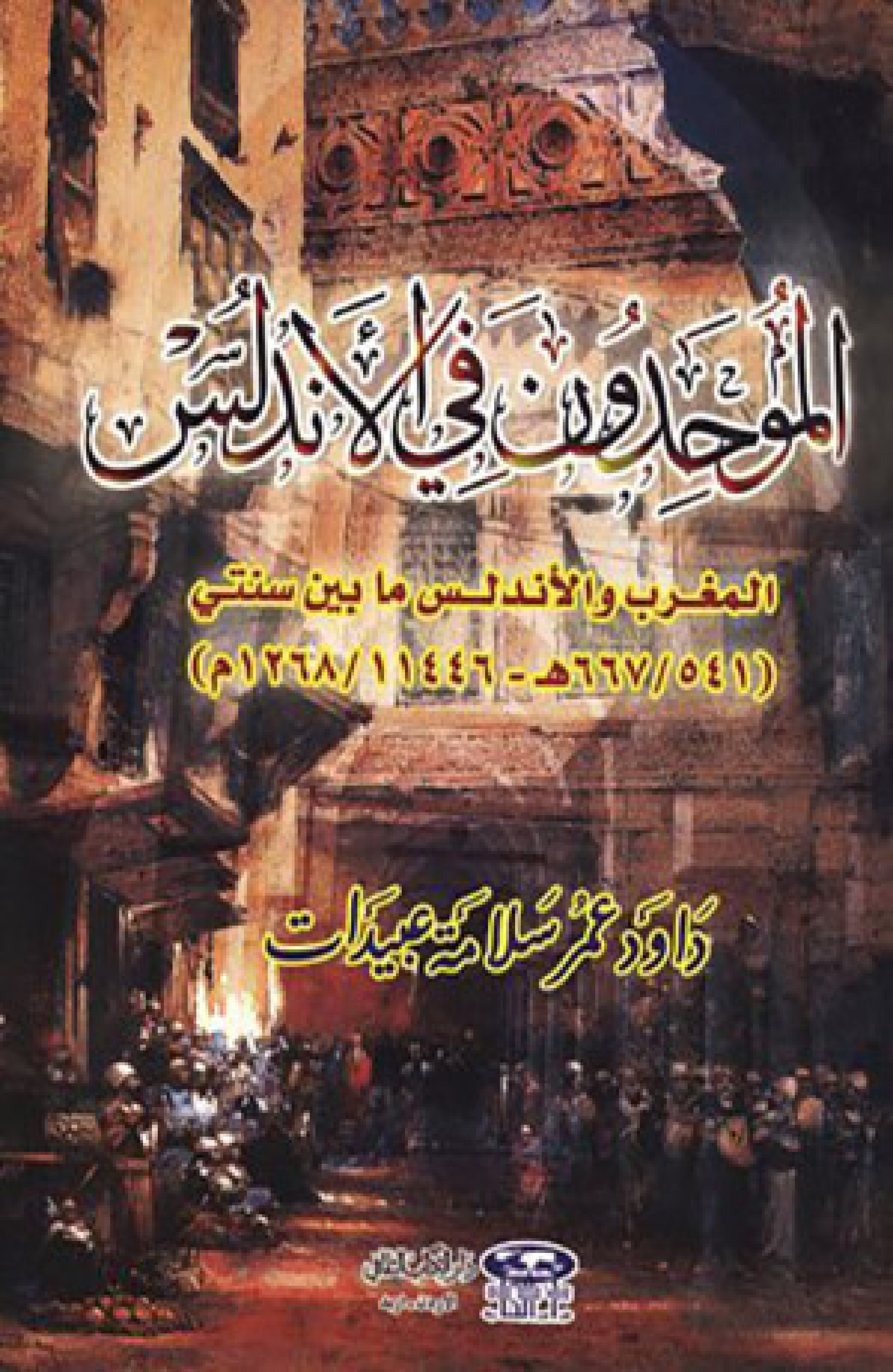

الموحدون في الأندلس
المغرب والأندلس ما بين سنتي
(٥٤١/٦٦٧هـ - ١١٤٦/١٢٦٨م)
داود عمر سلامة عبيدات

الموحدون في الأندلس

المغرب والأندلس ما بين سنتي (541/667هـ - 1146/1268م)

بسم الله الرحمن الرحيم



١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠٠٥ / ٦/١٥٢٢)

٩٥٦,٠٦٥١٥

عبيدات، داود عمر سلامة

الموحدون في الأندلس:المغرب والأندلس ما بين سنتي(٥٤١/٦٦٧هـ ١١٤٦/١٢٦٨)/داود عمر سلامة عبيدات .ـ اربد: دار الكتاب الثقافي، ٢٠٠٥

(...) ص.

ر.أ (٢٠٠٥ / ٦/١٥٢٢)

الواصفات: / الموحدون١١٣٠-١٢٦٩//الأندلس//المغرب//تاريخ المغرب

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر (٢٠٠٥ / ٦/١٢٦٦)

دار الوضاح للنشر والتوزيع

الأردن - عمان

ت : ٠٠٩٦٢٦٤٦١٣٠٧٦





شارع إيدون إشارة الإسكان

تلفون

(٠٠٩٦٢-٢ - ٧٢٦١٦١٦)

فاكس

(٠٠٩٦٢-٢-٧٢٥٠٣٤٧)

ص.ب (٦٢٠٣٤٧-٢١١)

Dar Al-Ketab

PUBLISHERS

Irbid - Jordan

Tel:

(00962-2-7261616)

Fax:

(00962-2-7250347)

P. O. Box: (*211-620347*)

E-mail:

Dar_ Alkitab1@hotmail.Com



دار المتنبي للنشر والتوزيع

الأردن - إربد - تلفاكس: (٧٢٦١٦١٦)

الموحدون في الأندلس

المغرب والأندلس ما بين سنتي (541/667هـ - 1146/1268م)

تأليـف
داود عمر سلامة عبيدات

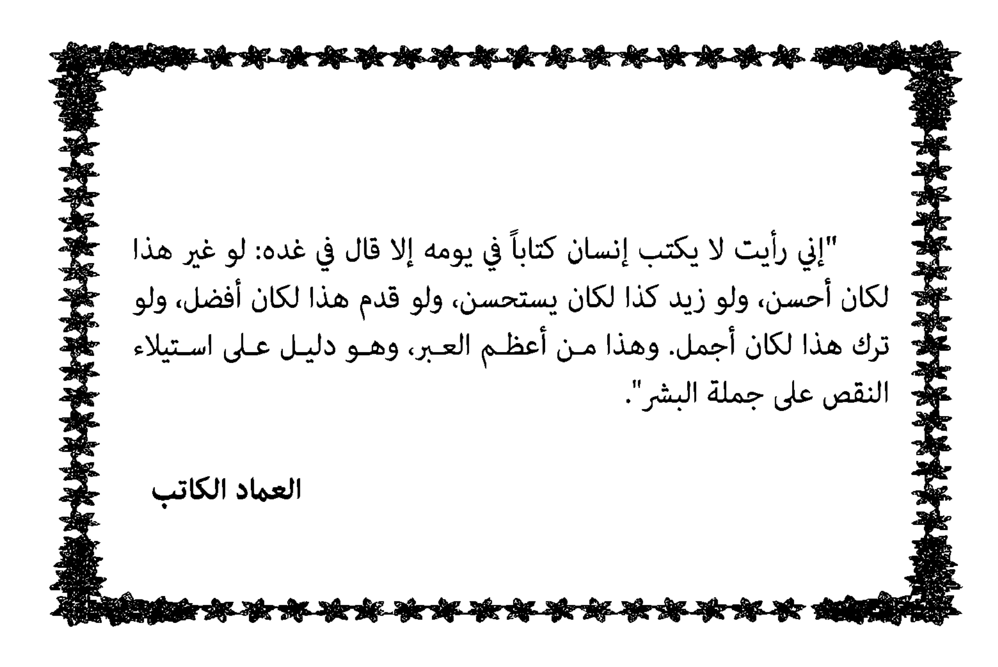
دار الكتاب الثقافي
الأردن - إربد




"لو عور ض كتاب سبعين مرة لوجد فيه
خطأ، أبي الله أن يكون صحيحًا غير كتابه"

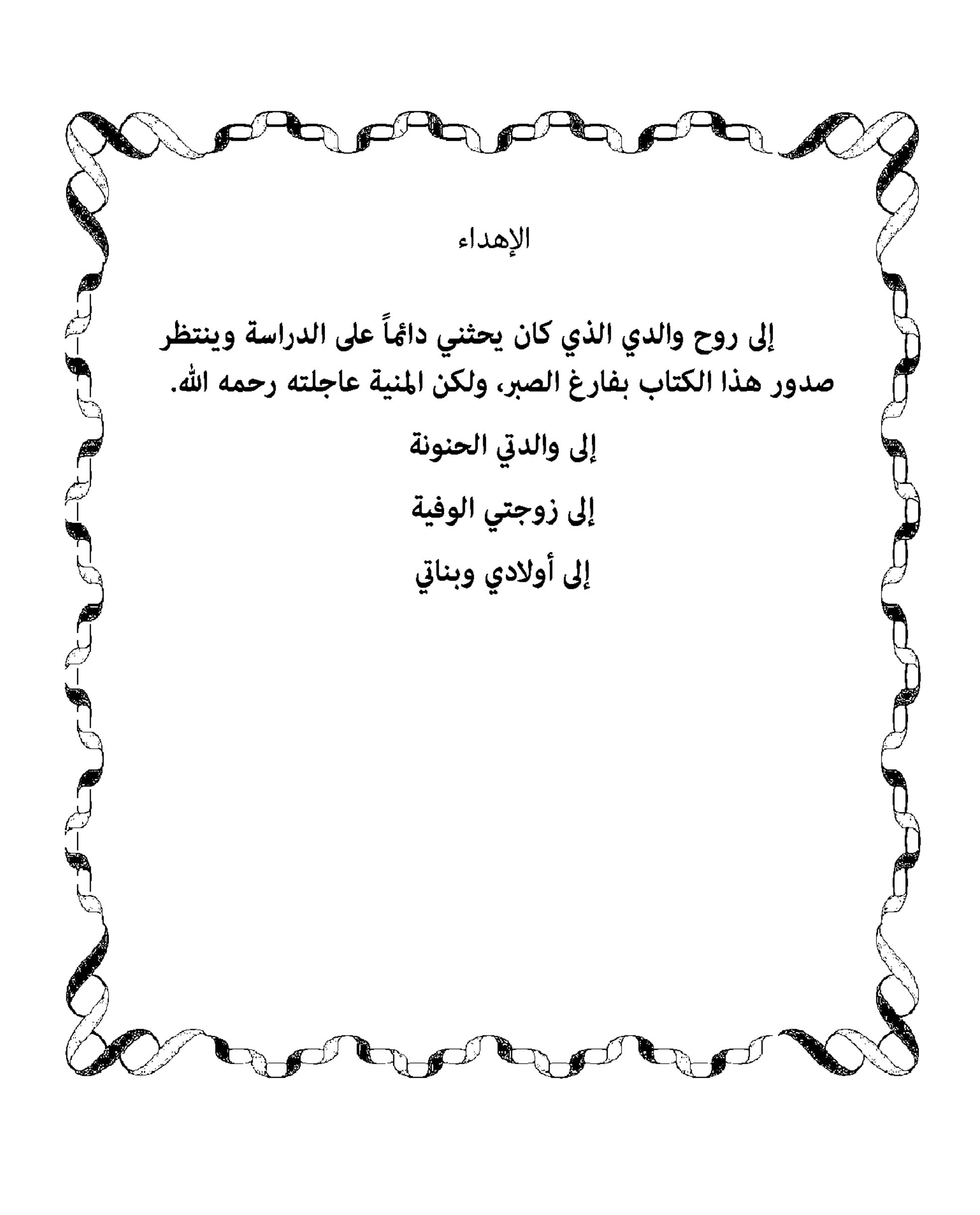
المزني صاحب الإمام الشافعي



"إني رأيت لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر".

العماد الكاتب



الإهداء

إلى روح والدي الذي كان يحثني دائماً على الدراسة وينتظر صدور هذا الكتاب بفارغ الصبر، ولكن المنية عاجلته رحمه الله.

إلى والدتي الحنونة

إلى زوجتي الوفية

إلى أولادي وبناتي

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

كنت في مرحلة الماجستير قد درست فترة حكم المرابطين، وقد مهدت رسالتي لي الطريق لدراسة المرحلة التالية: وهي مرحلة الموحدين، ويعد عصر المرابطين العصر الذي تشكلت فيه أول دولة قوية في المغرب العربي امتدت من الجزائر إلى حدود طليطلة في الأندلس والمحيط الأطلسي غربا، وقد صبغت هذه الدولة المغرب العربي بصبغتها المغربية وأعطته هويته الثقافية والحضارية.

انهارت دولة المرابطين في المغرب وفي الأندلس، ثم قامت على أنقاضها دولة الموحدين رائدة تجربة وحدة المغرب العربي الكبير من غرب مصر إلى حدود طليطلة، في الجناح الغربي العربي، حاملة لواء الجهاد مرة أخرى في تصديها لما يسمى ظلماً بحركة الاسترداد.

وكانت الإرهاصات السابقة على نشوء هذه الدولة تتمثل في دعوة ابن تومرت الذي نجح في استمالة القبائل بأسلوب دعوته التي كانت وعظية في بداياتها، وكان يرى وجوب العودة للإسلام في مراحله الأولى، على أساس دعوة دينية إصلاحية شعارها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن أهدافها البعيدة تحقيق دولة إسلامية شاملة، كما كان عليه المسلمون في عهد الراشدين، فكان ابن تومرت مرشد الحركة على مذهب الأشعرية في تحليليه للآيات القرآنية، وعلى خطة ابن حزم في الفقه، وربما تأثر ابن تومرت بمبدأ الشيعة في العصمة والإمامة، ونهج خطة التدريس لجمع الأتباع والأنصار، فنحا منحى الجدل والمناظرة لإقناع المترددين، ثم حمل السيف وسيلة لتثبيت الدعوة وإعلان الدولة؛ فأفتى بقتال جميع الخصوم الذين يعترضون دعوة التوحيد، إلى أن يؤمنوا بمذهبه ويتفيأوا ظلاله.

ويعد المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين عبد المؤمن بن علي- وكان معاصراً لنور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي صانعي أمجاد الشرق في تصديهما للصليبيين، وشهدت المرحلة التي ظهر فيها عبد المؤمن انقسام المغرب والأندلس إلى دويلات متنازعة، كما أن الروح العسكرية، المغربية الأندلسية قد ضعفت وبالمقابل فإن دول النصارى تزداد قوة واتحاداً بدعم قوي من باباوات روما، وترتب على ذلك تفجر الصراعات التي اجتاحت المغرب والأندلس، ومزقت وحدتها.

غاية البحث: التعرف على مدى قدرة الموحدين في تحقيق أهدافهم، ومدى التزامهم بالمنهجية التي بشر بها إمامهم ابن تومرت، ومدى ملاءمتها للواقع، ثم الوقوف على دور الموحدين وتصديهم للعنف النصراني الزاحف إلى الأندلس، وأخيراً معرفة الدور الموحدي في التطوير الحضاري والإبداع الإنساني في المغرب والأندلس. كذلك كان البحث حريصاً على إيضاح الأحوال والظروف وشرحها، والبحث في العوامل والمسوغات التي رافقت الموحدين في نجاحهم وتعثرهم على السواء.

ويثبت البحث بجلاء أن الحقبة التي عاشها الموحدون، كانت نقطة انطلاق الحضارة المغربية المتميزة، وبدء ظهور الثقافة الإقليمية المصطبغة باللون المغربي الأصيل التي لم تعد فيها المغرب مجرد تابع للأندلس والمشرق.

لذلك اخترت هذا الموضوع في فترة كانت فيها المغرب والأندلس بين خصمين عنيدين، وقوتين ضاغطتين، تتوسط بينهما أشباح لرؤساء محليين يطلبون المغنم والجاه. أولاهما نصارى النورمان الذين أحاطوا بشرق المغرب من المهدية، وأما القوة الأخرى في الشمال، فتتمثل بنصارى أسبانية، إذ يتفجرون حماسة وغيرة على النصرانية، ويشعلون نار الثورة بين المسلمين في الأندلس لتكريس التشظي وتجذير العداوة بين شعبها، ليكون ذلك من الحواجز التي تعرقل نوايا الموحدين وتجميد خططهم.

ويظهر أن هذه الحقبة لم يطرقها أحد من الباحثين بشكل متسلسل جامع، ولم يتعرض أحد (حسب اطلاعي) للعلاقات المغربية الايبرية في العصور الوسيطة بشكل متكامل كما هو الآن، وإنما هي لمحات مبثوثة في بعض المصادر والمراجع، ومتناثرة بأشكال مختلفة هنا وهناك.

لذلك حاولت أن أقوم بهذا الجهد المتواضع عن تلك الفترة المأساوية من تاريخ العرب في ذلك الجزء القصي، وجهدت أن أبين مدى تصميم الموحدين الجدي للحفاظ على البلاد المغربية بأيدٍ مغربية، فعزمت على اختيار موضوع البحث، رغم شح المصادر الكافية في متناول يدي، غير أن إحساسي بأهمية الموضوع دفعني بإلحاح للاستفادة مما تحتويه بعض المصادر والوثائق من جامعات الأردن الرسمية الخمس، وجامعاتها الأربع الخاصة، ومعاهدها العلمية، ومن مكتبات مصر والعراق والمغرب، ومن المكتبات الخاصة لدى كثيرين من المعارف والأصّدقاء، فضلاً عما تحتويه مكتبتي المتواضعة.

وكنت أركض خلف الصفحات مكدوداً، لخلو بعضها من المادة المطلوبة، حيث ملأ الشعر والمقالات التاريخية تلك الصفحات. لذلك واجهتني كثير من الصعوبات، منها

عدم اتقاني اللغة الأسبانية وإن اعتمدت على ترجمات لها ففي أغلبها وجهة نظر مترجميها، في ما عدا بعضها، إذ ترجمت لي على الخصوص، وأخذت منها في الفصول الأخيرة.

غير أن انكبابي على المصادر المكتوبة باللغة الإنجليزية عوضت الجزء الأهم من ذلك، إذ أخذت مني الجهد الكبير في الترجمة وبالرجوع إلى "قواميس اللغة"، وقد ذلل جزءاً من هذه الصعوبات أستاذي الدكتور عبد المجيد نعنعي، إذ شرّع لي أبواب معرفته وهداني إلى جملة وافرة من المصادر والمراجع المكتوبة باللغة العربية والإنجليزية فجزاه الله خيراً، وأدامه هادياً للمعرفة وطلاب العلم.

أما خطة البحث فقد احتوت على خمسة فصول، يتفرع كل فصل إلى عناوين فرعية تقتضيها الدراسة. ويتقدم البحث فصل تمهيدي، يتناول أسباب اضطراب دولة المرابطين وثورة الأندلس عليها والموسوم "الأندلس أواخر حكم المرابطين"، وتضمن الفصل الأول: "قيام دولة الموحدين"، وتطرق البحث إلى ابن تومرت مؤسس الدولة، ثم رحلته إلى الشرق وعودته وانتفاضته على المرابطين، وسيطرة عبد المؤمن على المغرب، والأندلس والإجهاز على دولة المرابطين.

وعالج الفصل الثاني "التحديات التي واجهت الموحدين" في المغرب والأندلس، الانتفاضات الأولى ضد الموحدين، وثورات شرق الأندلس والحروب الأسبانية وتوافقهم على حرب المسلمين.

أما الفصل الثالث فخصص للحياة الاقتصادية بدعائمها الثلاث، الزراعية والصناعية والتجارية وأشارت الدراسة إلى بعض الصعوبات التي كانت تؤثر على نمو الزراعة، وتقدم الصناعة، وإعاقة الحركة التجارية.

وتطرق الفصل الرابع إلى الحياة الاجتماعية التي عاشها الموحدون حكاماً وأفراداً في جناحي الدولة المغرب والأندلس، وبين التجاوزات في البذخ والترف الذي وصلوا إليه، في اللباس والطعام والشراب والسلوك، وأثر هذه الحياة على المجتمع الأسباني المجاور، من عادات اجتماعية وسبل عيشهم في السلوك واللباس والأكل وتبادل التحية وغيرها: من الممارسات التي كان يعيشها المجتمع الأندلسي، وأشار الفصل إلى اهتمام الموحدين في العمران من قصور ومستشفيات ومساجد ومتنزهات وغيرها.

وأخيراً الفصل الخامس، فقد أوليته اهتماما خاصاً، إذ توجهت الدراسة فيه إلى الحياة الثقافية، وإلى النتاج العلمي والفكري، ومستوى الإبداع الذي توصل إليه، وثم إلى المراكز الثقافية التي انتشرت في دولة الموحدين وبخاصة في الإقليم الأندلسي.

المؤلف

داوود عمر سلامة الجروان عبيدات



الفصـل الأول

الدعوة الموحدية في المغرب

١- نسب محمد بن تومرت:

تشير المصادر إلتي بين أيدينا مثل: المعجب، والحلل الموشية، والانيس المطرب بروض القرطاس، والعبر، والاستقصاء، وكتاب اخبار المهدي ابن تومرت، إلى اصله الطالبي مع الحذر والاضطراب في رواية نسبه، وترده إلى دماء بربرية تربية ونسبا وعصبية إلى قبيلة "هرغة" إحدى بطون القبيلة البربرية الكبرى مصموده[١]، التي تعتبر اكثر القبائل البربرية عددا، واشدها مراسا، واكثرها نفوذا في الجاهلية والاسلام، واعرقها ثراء وكانت اسرة ابن تومرت تسكن قرية، "إيجلي أن وارغن[٢]"، من قوم يعرفون بإيسرغينن وهم الشرفاء بلسان المصامدة[٣]. وينتسب إلى أسرة ذات دين وشرف ونسب، وكان يلقب "أمغار" و "أسافو" ، ومعناه باللسان البربري الضياء لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد لملازمتها[٤].

وقد أسند إليه نسب شريف ينتهي ألى النبي صلى الله عليه وسلم، تناقلته بعض كتب التاريخ في مسالك عديدة، وطرق مختلفة.

يمكن بعد الاطلاع عليها، بغض النظر عن الإختلافات الجزئية التي بينها، أن نوردها ليكون القارئ على إطلاع تام على ما ذكرته المصادر[٥].

وفي مقدمة هؤلاء، ابو بكر الصنهاجي المعروف بالبيدق إذ يقول: "ينقل من يوثق بنقله من قرابته وغيرهم أنه "أي إبن تومرت" هو محمد بن عبدالله بن وكلّيد بن بامصل بن حمزة بن عيسى بن عبدالله بن إدريس بن ادريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا نسبه الصحيح.[٦]

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٢٩٩-٣٠١؛ تسكن هرغه في الأطلس الصغير جنوب بلاد المغرب في بلاد السوس، وتنسب إلى الحسن بن علي بن طالب.
ابن خلكان: الوفيات،، ج٥، ص:٥٥.
(٢) تقع على جبال الأطلس الصغير في المغرب؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٢٩٩-٣٠١.
(٣) المراكشي: المعجب، ص:٢٦٢.
(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠١؛
مجهول: الحلل الموشية، ص:١٠٣.
(٥) البيدق: أخبار المهدي، ابن تومرت، ص:٢١.
(٦) المصدر نفسه.

ثم يبين صاحب الحلل الموشية، أنه، محمد بن الله بن عبدالرحمن بن هود ابن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى ابن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب.[1]

ويشير المراكش: أنه محمد بن تومرت نسبة متصلة بالحسن بن علي ابن أبي طالب وجدت بخطه، هو كما نقله ابن خلكان.[2] ويثبت ابن خلكان أنه: محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن هود بن خالد ابن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى ابن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن ابن علي بن ابي طالب[3]، ويردف قائلاً: وجدت على ظهر بعض كتب النسب بخط بعض اهل الأدب من عصره، نسب ابن تومرت المذكور فنقلته كما وجدته.

أما ابن ابي ذرع يقول: "محمد بن عبدالله المعروف بتومرت[4] بن عبدالرحمن ابن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر ابن يحيى بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن ابن علي بن أبي طالب[5]، وقيل هو دعي في هذا النسب، وهو رجل من هرغة[6] من قبائل المصامدة، ويعرف بمحمد بن تومرت الهرغي، وقيل هو من كنفيسه[7] والله أعلم".

ويذكر ابن خلدون: محمد بن عبدالله بن وجلّيد بن بامصال بن حمزة بن عيسى وذكر نسبا آخر: محمد بن تومرت بن نيطاوس بن ساولا بن سفيون من الكلديس بن خالد، وفي نسخة أخرى: محمد بن تومرت بن تيطاوين بن سافلا بن مسيغون بن

---

(١) مجهول: الحلل الموتية، ص:١٠٣، ويتبين لنا بعد أن اورد البيدق نسب المهدي السابق، انه ساق رواية هذا النسب (أي الذي ساقه الحلل الموشية)، وقال: ان قرابته، اي قرابة المهدي، وأهل العناية بهذا الشأن لا يعرفون هذه الرواية، البيدق: أخبار المهدي، ص:٢١.

(٢) المراكشي: المجب، ص:٢٦٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص:٤٥-٤٦.

(٤) تومرت أو أمغار بلغة البربر، أي الشيخ، ولعله كان شيخ قريته، فورث ابنه محمد، هذه المشيخة أو الرياسة؛ زنيبر: تاريخ العصر الوسيط، ص:٢٠٦.

(٥) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٧٢.

(٦) هرغة: قبية كبيرة من المصامدة في جبل السوس في أقصى المغرب، تنسب إلى الحسن بن علي بن ابي طالب، نزلت في ذلك المكان، أيام الفتح الاسلامي، على يد موسى بن نصير. ابن خلكان: الوفيات، ج٥، ص:٤٧.

(٧) كنفيه: فخذ من قبيلة مصمودة؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٢٩٩-٣٠١.

إيكلديس بن خالد، ويكرر ذكر النسب فيقول: "وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه في أهل البيت"، وأنه محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رياح بن محمد بن سليمان بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي ادريس الأكبر[١].

فهذا النسب الذي يورده إبن خلدون. فالاسماء ما قبل الأخيرة فية تدل على أنها بربريه، ويقول ابن خلكان: إصطنع لنفسه (أي ابن تومرت" نسبا ينتهي به إلى علي بن ابي طالب[٢].

من خلال هذه النصوص يتبين لنا أن المؤرخين القدامى عرضوا هذا النسب في صيغة القبول، على الرغم من الخلل والاضطراب في إيراد الاسماء وتسلسلها، وكانوا في تراوح بين التأكيد الجازم في قطعية وحماس، كما هو موقف المنتصرين للموحدين مثل البيدق، وبين مجرد القبول الضمني الذي يفهم من عدم الإعتراض بالطعن، كما هو موقف المعتدلين، مثل المراكش وابن خلدون.

أما المراكشي المعاصر ألف كتابه في المشرق بعيداً عن أعين بني عبدالمؤمن عندما ترك المغرب، على غير رغبة منه، على ما يبدو، إلى المشرق، تائها في بيداء من الهموم والحنين الدائم والقلق المؤرق[٣]، إلا أن بعض النصوص لمؤرخين من متأخري القدامى بخاصة، عرضوا هذا النسب العلوي لابن تومرت بما يوضح عن شكهم فيه. فهذا ابن أبي ذرع يشكك في نسبه كما مر سابقاً.

ولهذا نراهم مختلفين فيما بينهم، فمن مقدم ومن مؤخر،ومن مسقط ومن مقحم، على أنه ليس في ما أثبتناه عنهم، منه ما يضر ولا ينفع.

يظهر من كل ما تقدم أن ابن تومرت كان على الأرجح عربي الأصل طالبيا ينتمي إلى أحد أولاد الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب، أي إلى الادارسه أو ابناء عمومتهم الذين تبددوا بين القبائل البربرية بعد الحسن بن كنون، آخر امرائهم بالمغرب، وانتسبوا اليها دما ومصاهرة ولغة وقبيلة، وإن منهم لم يعرف العربية على الاطلاق، الى ان ظهروا في مدة ملوك الطوائف، باسم "بني حمود" من الأحزاب البربرية[٤]، فانتحلوا

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠١.
(٢) ابن خلكان: الوفيات، ج٥، ٤٥-٥٥؛ ج٣، ص:٢٣٧-٢٤١.
(٣) المراكشي: المعجب، ص: و، من المقدمة.
(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٢٩٥، ٢٩٦.

أسماء غير عربية، واتخذوا زوجاتهم، وصار لهم أمهات بربريات، وربما كان ابن تومرت من العلويين المغمورين الذين عاشوا ببلاد السوس، ونسوا أصلهم العربي "إلى أن خلعوا شارة ذلك النسب واستحالت صبغتهم منه إلى البداوة "، حتى كان من أمره ما كان.(١)

فأعاد تشكيل أسماء عربية لتتسق مع أصله ودعوته. ويقول الناصري: "وذلك في جمادى الاولى سنة ٣٧٥هـ/٩٨٤م، ركدت ريح العلوية بالمغرب، وتفرق جمعهم وانقرضت دولتهم، وتفرقت الأدارسة في قبائل المغرب، ولاذوا بالاختفاء، إلى أن خلعوا شارة ذلك النسب الشريف، واستحالت صبغتهم منه إلى البداوة"(٢) وهذه العبارة الأخيرة منقولة عن ابن خلدون. وبذلك يكون قد تجمع في محمد بن تومرت دماء العلويين، وأخلاق البربر.

ومن العلويين من انتسب الى قبائل غمارة التي تقطن شمال شرق المغرب، وكانوا لحمة جيش عبدالمؤمن في حصاره لمدينة سبتة، "فكانت لغمارة هؤلاء السابقة، التي رعيت لهم سائر أيام الدولة"(٣)

ومما سبق تبين ان افراد عائلة ابن تومرت، كان يطلق عليهم الأشراف، مما يوحي بانحدارهم من أصل نبوي، حسب ما هو متعارف عليه بأصقاع المغرب حتى الوقت الحاضر؛ فأصبح لهذا النسب من المبررات والمؤيدات أكثر مما عليه من النواقض؛ ويبقى الاعتراض عليه محتاجا الى الحجج المقنعة، وهذا ما عناه ابن خلدون بقوله: "وأما انكارهم نسبه (أي ابن تومرت)، في أهل البيت، فلا تعضده حجة لهم مع أنه ثبت أنه ادعاه، وانتسب اليه، فلا دليل يقوم على بطلانه، لأن الناس مصدقون في أنسابهم".(٤)

ومن الراجح ان الذين ينكرون نسب ابن تومرت الطالبي الى أهل البيت، سببه يعود إلى الحسد الذي يكمن في نفوسهم، وهم ممن عز عليهم ذهاب دولة لمتونة على يد هذا الدعي، اذ خالفهم في اجتهاداتهم، ولم يقلد أحدا من الفقهاء، بل اجتهد بنفسه، وأسس حركة توحيدية على أنقاضها بين القبائل التي توزعت اشتاتا من حدود مصر الى

---

(١) المصدر نفسه، ص:٢٩٥؛ ج١، ص:٢٧.
(٢) الناصري: الاستقصاء، ج١، ص:٢٠٤؛ ابن خلدون: العبر، ج١، ص:٢٧.
(٣) السراج: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج١، ق٤، ص:٩٧٦-٩٨٨،تح، محمد الحبيب الهيلة، في ترجمة ضافية لابن تومرت؛
ابن خلدون: العجر، ج٦، ص:٢٩٧.
(٤) ابن خلدون: العبر، ج١، ص:٢٧.

شاطئ المحيط الاطلسي، الى قلب اسبانيا، حيث أقام دولة أعز واشد شوكة وأكثر انصارا من دولة المرابطين، لا نكاد نعثر في الشرق الاسلامي، على ما يدانيها او يساويها سطوة ونفوذا.

٢- رحلة ابن تومرت إلى الشرق وعودته:

محمد بن عبدالله المعروف بتومرت، طلب العلم في أشهر معاهد المغرب، فاس ومراكش، وفي الوقت نفسه كانت تنافس الأخيرة بغداد وغيرها من حواضر العالم الاسلامي، ثم ارتحل إلى الاندلس ميمماً حواضرها وقواعد العلم فيها، وفي أثناء تجواله في تلك البلاد ساءه ما وصل اليه كتاب الاحياء للغزالي من ازدراء واتلاف.[١]

ومن المرجح أن اقامته بالاندلس لم يطل امدها، كما يذكر ابن خلدون أنه: "مرّ بالاندلس ودخل قرطبة، وهي اذ ذاك دار علم، ثم أجاز الى الاسكندرية"[٢].

وهناك جعل من نفسه "علامة استفهام" دائمة، فلا يسمع أن فلانا يعرف حكمة أو فقها أو علما الا سارع اليه وتعلم عنه، وسرعان ما أخذ طريقه إلى المشرق، وحط رحاله بالشام سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م، واتصل بالامام ابي عبدالله الحضرمي، وتتلمذ على يديه مدة، ومن ثم شد الرحال إلى شخصية مشرقية فذّة، كانت رائدة لثورة فكرية عميقة الجذور، وهي شخصية ابي حامد الغزالي في بغداد[٣].

فهل تكون هذه الثورة الفكرية من المبررات التي اقنعته لانجاز مشروع رحلته،وقوت من همته على تحقيقها ليكون قريبا هناك من منبع هذه الثورة، ويطلع بنفسه على الأسس والوسائل والأسباب التي تضمن له النجاح، اذا ما أراد ان يبدأ خطته في التغيير؟!

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٢٩٩؛
ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٧٢.
مجهول: الحلل الموثية، ص:١٠٤؛ المراكشي: المعجب، ص:٢٦٣.

(٢) لم تطل اقامة ابن تومرت بالاندلس، فلعل قرطبة كانت قد ألهبت شوق هذا الشاب إلى المشرق، حيث كانت صاحبة الراية، في معارضة الغزالي، ومنها كان القاضي ابن حمدين يدير الحملة الفكرية ضده بتأييد من الدولة المرابطية؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠١، مجهول: الحلل الموشية، ص:١٠٤.

(٣) كان للغزالي ذكر لامع بالمغرب، منذ صدور تلك الفتوى منه إلى يوسف ابن ناشفين، لينهي الاخير حكم ملوك الطوائف، ويضم الاندلس إلى الدولة المرابطية.
المصدر نفسه، ص: ٢٤٩.

فلربما اجتمع ابن تومرت بالامام الغزالي، وحضر جانبا من محاضراته وندواته وأجرى حديثا معه، وأقام مدة ثلاث سنوات[١].

واتصل أثناء هذه المدة بأبي بكر الشاشي، صادرا عن بغداد، واستمع منه إلى مبادئ الفقه وعلم الكلام[٢]. ونهض إلى مكة لتأدية فريضة الحج فيها، واطلع بنفسه على أوضاع الخلافتين، العباسية والفاطمية، وأثر الخلاف والمجادلات بينهما، فاكتسب بذلك علما وسياسة، وهاله مدة اقامته القصيرة بمكة (أقام بمكة مديدة)[٣]، ما عليه المسلمون من الضعف والتخاذل، والمطارحات الجدلية، فوقف خطيبا معلنا ثورته في البيت الحرام على الأوضاع الفاسدة في الخلافتين، الفاطمية في مصر، والعباسية في العراق والمشرق الاسلامي، وتقرر السلطة العباسية دفعه إلى السجن، ثم تعفو عنه وتطرده إلى خارج البلاد.[٤]

وخرج منها إلى مصر، وألقى عصا تسياره في الاسكندرية في طريق عودته إلى بلاده، وفي الاسكندرية جعل يختلف إلى مجلس ابي الوليد الطرطوشي، الفقيه المتبحر في السياسة الشرعية التي الف فيها كتابه "سراج الملوك"، وكان ثائراً على البدعه.[٥] فكأنما وجد ابن تومرت في تلك المجالس من الطعن في الحوادث اليومية، والبدع المنتشرة والمتأصلة، ما يتجاوب مع نفسه التي اشتد فيها التصميم على محاربة ما خالف الشريعة من عادات القوم في أي مكان يحل فيه.[٦]

بدا يمعن في الطعن على انحرافات الناس،وسلوكياتهم الذاتية، وتعرض إلى الاشخاص، حتى لقد ضاق به أهل الاسكندرية، حاكمهم ومحكومهم، وقضى متولي المدينة بنفيه عن البلاد،[٧] محاولة منه اخفاء صوته في أرض تسكنها الخلافة الفاطمية، ثم

(١) ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٧٢.
(٢) المراكش: العجب، ص: ٢٦٢.
(٣) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٥، ص:٤٦-٥٥.
(٤) المصدر نفسه والصفحة نسها.
(٥) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٠٤؛ ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٥، ص: ٤٦-٥٥.
(٦) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص: ١٢٥، تح، احمد العبادي، معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٣٩١م/ ١٩٧١م.
(٧) المراكشي: المعجب، ص:٢٦٣؛ ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٥، ص:٤٦.

غادرها إلى المغرب على ظهر سفينة في البحر، واتخذ من وجود الناس في المركب فرصة ذهبية للوعظ والارشاد.[1]

شرع في تغيير المنكر على أهل السفينة، ونهى عن شرب الخمر، وكسر دنانها، وألزمهم بإقامة الصلاة، وقراءة أحزاب من القرآن الكريم، وكأنه بهيبته ووقاره وجديته قد حقق بعض النجاح، فالتزم القوم بالصلاة والتلاوة، بعد خلافات حادة بين المسافرين. وتريد بعض الروايات التاريخية أن تصورها تصويرا خرافيا، تحيط ابن تومرت بهالة من التقديس والولاية في سني حياته المبكرة. فإذا هو عند المراكش وقد "القاه أهل السفينة في البحر، فأقام أكثر من نصف يوم يجري في ماء السفينة، لم يصبه شيء، فلما رأوا ذلك من أمره، أنزلوا اليه من أخذه من البحر، وعظم في صدورهم"[2]، وإذا عند غيره يلجأ اليه أهل السفينة متضرعين متوسلين، أن ينقذهم مما هم فيه من هول بحري كاد يغرقهم، وقد حل بهم غضب الله بعدما كانوا قد غدروا به، وألقوه في البحر، فيجيب الله طلبه، وينقذهم مما هم فيه.[3]

ثم تزفه الطريق الى المهدية، وقد بقي على عادته من امر بالمعروف ونهي عن المنكر، فلا يرى شيئاً من آلة الملاهي والغناء، وأواني الخمر الا نزل اليها وحطمها، وقد اجتمع اليه الناس، وكاد يفسد الأمر على الوالي العزيز بن الناصر الذي حاول القبض عليه، فهرب ونجا بجلده الى بجاية[4]، اذ لم يكن مصيره فيها بأفضل من سابقتها، وصحب نفسه هائما على وجهه، حتى اختفى في قرية قريبة يقال لها ملالة.[5]

---

(١) رجع ابن تومرت إلى بلاده، بحرا متفجراً من العلم، وشهابا واريا من الدين كما يقول: ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٢.
وكان حيثما حل يعظ الناس ويرشدهم ويدعوهم إلى نبذ المحرمات، والتحلي بخلق الاسلام، فكان ذلك يجلب عليه غضب السكان والحكام، فلا ينجو من اذاهم الا بالفرار او التظاهر بالجنون؛
ابن خلكان: الوفيات، ج٥، ص:٤٦.

(٢) المصدر نفسه؛ المراكشي: المعجب، ص:٢٦٤.

(٣) ابن القطان: نظم الجمان، ٣٩-٤٠.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٢؛ العزيز: هو ابن المنصور ابن الناصر بن علناس؛ أما مجهول: الحلل، ص:١٠٦، يدعي أن اسم الوالي كان: علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن حماد؛ في حين يذكر الراكشي: المعجب، ص:٢٦٤؛ أن ابن تومرت طرد من بجايه دون محاولة القبض عليه؛ أما ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص:٤٧، يذكر، أن والي بجابه استدعاه مع جماعة من الفقهاء، فلما سمع كلامه أكرمه وأجله، وبعدها لم يلبث بالمهدية الا أيا مايسيره، ثم انتقل إلى بجابه..

(٥) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٠٦؛
ابن ابي زرع الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٧٣.

أقام في القرية الأخيرة شهرا، ونزل في مسجد مغلق، ينظر إلى الناس ، يتفرس وجوههم، وتشاء الظروف ان يلتقي عبدالمؤمن بن علي الكومي في قرية الاختفاء، اذ كان الأخير يتوق إلى الهدف نفسه، رحلة إلى الشرق، وتلقى العلم، فتوطدت الصداقة بينهما؛ يأخذ عنه العلوم التي كان يمني نفسه بها، فتلقى في حداثته كل خامات رجولته، ومبادئ حياته عن ابن تومرت الذي كان يؤثره، ويزكيه، ويعلمه مذهبه ونهجه[1].

ومن ثم خرجا عنها الى ونشريس، التقيا فيها أبا عبدالله الونشريسي- ويسمى (عبدالواحد الشرقي)[2]، الذي قتل في معركة البحيرة، قرب مراكش، ومعه خيرة قادة الموحدين، وهو واحد من ألمع صحابة المهدي المقربين، في الحملة التي شنها الموحدون على المرابطين في عقر دارهم، بقيادة عبدالمؤمن بن علي سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م. ثم توجهوا جميعهم إلى أن وصلوا مراكش[3].

ان مرور ابن تومرت في هذه الأقاليم، لم يكن مرورا عابرا تحت مظلة العلم والتزهد، بقدر ما هو هاجس لتأسيس دولة حققها في ما بعد خليفته عبدالمؤمن ابن علي[4]، ولقد اكسبته رحلته إلى المشرق مفاهيم دينية، فضلا عن معارف سياسية، تكونت لديه كتعبير زمني عنها، وقد اتبع عمله التبشري منحى صاعداً.

أولاً: وضع نفسه مراقبا للاخلاق، آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر.

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦،، ص:٣٠٣؛
مجهول: الحلل، ص: ١٠٦؛
ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٥، ص: ٤٧، ٤٨؛
المراكشي: المعجب، ص:٢٦٦، تقديم ممدوح حقي، تح محمد سعيد العريان، ومحمد العربي، ط٧، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٠/١٣٦٩.

(٢) المراكشي: المعجب، ص:١٦٦، ينعته عبد الواحد الشرقي، اما ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٣، يذكره باسم البشير، في حين يقول عنه مجهول: صاحب الحلل، ص:١٠٧، هامش ٥٩، عبدالله بن محسن الونشريسي، وربما يعود الاختلاف في ذكر الأسماء إلى بربريتها، ثم تعريبها من قبل المهدي ابن تومرت؛ ويذكر البيدق: أخبار المهدي، ص:٧٣، أن من جملة الذين بايعوا المهدي، عبدالله بن محسن الونشريسمي، المكنى بالبشير، ثم بايعه عبدالواحد الشرقي، ويعني بذلك، أن عبدالواحد الشرقي رجل آخر غير الونشريسي.

(٣) المراكش: المعجب، ص:٢٧٠؛ مجهول: الحلل المشوية، ص:١٠٧؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٧٣؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٨٦.

(٤) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٣٧ وما بعدها؛
ابن خلكان: الوفيات، ج٥، ص:٤٨.

ثانياً: فرض نفسه عالما وفقيها؛ مجادلات مع فقهاء مراكش.

ثالثاً:اكد نفسه زعيم مدرسة في اغمات، وأخيرا زعيم حزب مرشح للسلطة في تينمـلّ في قلب الجبال.

وعمد ابن تومرت إلى تحقيق هذا الشمول، بمنهجين متوازيين ومتكاملين، منهج تربوي، ومنهج ثوري، إيمانا منه بأن التغيير الشامل لا يمكن أن يكون إلا بانتهاج هذين النهجين، وأن تطبيق احدهما لا يؤدي إلا إلى نتيجة سلبية لا تتلاءم مع الشمول الذي جعله أساسا لحركته؛ فالنهج التربوي الذي انتهجه في أثناء عودته من عقد حلقات للعلم في مساجد بناها بصفة مؤقتة، أو في مساجد مقامة، يؤكد بما لا يدع للشك مجالاً، أن ابن تومرت يعمد إلى تعميق القناعة العقدية في نفوس الناس، وتجذير المعنى الأصيل للتوحيد، الذي يؤدي إلى الالتزام السلوكي عملا لا قولا فقط، كتحطيمه لدنان الخمر، وتكسيره لأدوات الغناء واللهو، وتفريق الجموع المختلطة بالعصا، وسعف النخيل، مبينا أن التحول الذهني يجب أن يتبعه تحول في السلوك[١]،(**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**){ الرعد: ١١}، وقد ركز في منهجه التربوي على الارشاد النفسي وبخاصة على الجانب العملي السلوكي منه، فأخذ يلزم أتباعه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والتعامل بالأخوة والتراحم والتحاب في الله[٢]؛ فبلغ مبلغ الشطط احياناً، حيث اجتهد اجتهادات جنح بها الحرص المفرط إلى التزام السلوك الشرعي كما يدعي، إلى الوقوع في خطأ شرعي في بعض الاحيان. كالزامهم بحفظ الأعشار والاحزاب والسور في كتابه التوحيد وقراءتها بعد صلاة الصبح، ويبين لهم أن من لم يحفظ هذا التوحيد ليس بمؤمن وإنما هو كافر لا تجوز إمامته ولا تؤكل ذبيحته فصار كالقرآن أو أهم، وكان يبدو أن ليس بعد الأسلوب التومرتي في التربية أسلوب ي قرّ أو يعاج عليه[٣].

أما مبادئ منهجه الثوري فقـد تشـكلت في نفسـه منـذ عودتـه واتصـاله برؤسـاء المدن والدول التي مر بها، عندئذ بـدأ يـتفهم واقـع الحيـاة المغربيـة، ويـدرك مسـؤولية السلطة

---

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص:١١٠-١١٧؛ إبن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس.

(٢) المراكشي: العجيب، ص: ٢٨٥، ٢٨٦.

(٣) مجهول: الحلل الموشيه، ١٠٩، ١١٠؛ إبن أبي زرع: الانيس المطرب، ص:١٧٧، كان المـذهب يبـيح قتـل شـارب الخمر، وتارك الصلاة، واصبح خلفاء عبد المؤمن يقتلون العمال الجائرين الذين يشكو الشعب منهم.

الحاكمة في الفساد الذي كان سائداً[١]، وقد تطورت هذه المبادئ تطورا كبيرا لما حدث معه في مراكش، وازداد اطلاعا في هذه العاصمة على مدى التقصير الذي وقعت فيه السلطة الحاكمة، اذ وقف الخير عاجزا والصلاح حسيرا عن وضع حد للشر والفساد، وهي سادرة في غيها، قد أصمت أذنيها عن سماع كلمة الخير؛ فالخمرة تباع جهاراً نهاراً في مراكش، والخنازير تمشي بين المسلمين، ناهيك عن اختلاط الرجال بالنساء. وقد تولدت لديه القناعة التامة، بأن دعوته التي تحرص على الالتزام بمبادئ الشرع، وإقامة العدل، وتحقيق المساواة، وإشاعة الأمن، لم تجد أذنا صاغية لدى المسؤولين، بل على العكس، فقد لوحق من أجلها، وطورد للقبض عليه، وتقديمه للمحاكمة، وإيداعه السجن المؤبد.

عندها استقر في نفسه نهائياً هذا النهج الثوري الذي يهدف قبل كل شيء للاطاحة بالسلطة الحاكمة التي رآها جائرة، وإقامة حكم عادل محلها وتحرير المجتمع المغربي من وثنية الضمير، وضياع المصير كما يعتقد[٢].

٣- فكر ابن تومرت السياسي ومدى ملاءمته للواقع:

اختار ابن تومرت لاتباعه الاسم الوسطي بين الاشعريه والمعتزلة، (الموحدين)، وبما أنه يعمل في المجتمع المغربي قليل الثقافة نوعاً ما[٣]، لم يكن بعيداعن الافكار الشيعيه

---

(١) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٥، ص:٤٩؛ ابن خلدون: العبر، ج٥، ص:٣٠٣؛ المراكش: المعجب، ص:٢٧٢، ٢٧٣.

(٢) السلطة الحاكمة، يعنى بها: سلطة المرابطين أولاً، ومن ثم باقي حكوات المغرب والاندلس ثانياً؛ المراكشي المعجب، ص:٢٧٢-٢٧٤؛ ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٣، ص:٢٣٨؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٤، ٣٠٥، ويذكر ابن ابي زرع الحوار الذي دار بين ابن نومرت وأمير المرابطين علي بن يوسف، فقال له (أي علي): "ما هذا الذي بلغنا عنك؟ قال: وما بلغك أيها الأمير؟ إنما أنا رجل فقير طالب الآخرة، ولست بطالب دنيا، ولا حاجة لي بها، غير أني آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأنت أولى من يفعل ذلك، إنك المسؤول عنه، فقد وجب عليك إحياء السنة، وإماتة البدعة، وقد ظهرت بملكك المنكرات وفشت البدع، وقد أمرك الله بتغييرها.. إن لك القدرة على ذلك، وأنت المأخوذ به والمسؤول عنه.." إلى آخر هذه المواعظ المبرمجة.

ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٧٤؛ ويذكر المراكش: المعجب، ص:٢٧٢، ٢٧٣، حواراً آخر لابن تومرت مع الأمير علي بن يوسف، وكذلك البيدق: كتاب أخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٦٧، ٦٨، يذكر حواراً ثالثاً لابن تومرت مع علي بن يوسف.

ويذكر ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص:٩٤-٥٠، حواراً مماثلاً.

(٣) ابن ابي ذرع: الانيس المطرب يروض القرطاس، ص:١٨١.

التي وصلت الدعاية لها أوجها في ما بين القرنين الثامن والعاشر الميلاديين، وربما تأثر ابن تومرت نفسه بهذه المفاهيم،[1] وليس ببعيد أن تكون هذه المفاهيم نفسها قد اقنعته ان يألف فكرة المهدي، لذلك لم يتردد أن يدمج هذه الفكرة في مذهبه، ولم تكن تعوزه المقدرة عن ادراج إسمه بين ذريه فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد اصطنع لنفسه شجرة نسب تلحقه إلى علي بن أبي طالب عبر الاسرة الادريسية التي وصل شتاتها إلى بلاد السوس، جنوبا، ليكون ذلك متوافقاً مع فكرة المهدي، حتى يتمكن من قيادة مجتمع قبلي يعيشه في تينمال في الجنوب المغربي.[2]

ولقد اختار منه مجالسه الحكومية الاستشارية من بين أبناء القبائل نفسها، فسارعت لتأييده، وكانت الاستجابة عامة وصادقة. لذلك كان لهذه القبائل منزلة سامية لدى صاحب الدعوة، استخدمها لغايات تأسيس سلطة زمنية، وكان اختياره لها انتقاء خاصا ودقيقا من أجل مهمة إعلامية، وكفاح ايديولوجي، ولغاية أخرى اكثر اتساعا، كان مهمتها بشكل رئيسي ترتيب وإعداد مختلف الوحدات للعمل المشترك من أجل استلام السلطة، ونظم من ذلك كله حزبا مقاتلاً، يتكون من تجمعين: احدهما مغلق تماما وكان يمثل نخبة الحركة، وآخر اكثر شمولا، كان هدفه بصفة خاصة اعداد مختلف الوحدات للعمل المشترك لاستلام السلطة[3].

وكانت التشكيلة على هذا النحو "أهل الدار" الذين كانوا في صحبة المهدي، ويأتي بعدهم "أهل العشرة" صحابته الأوائل الذين تبعوه في رحلة العودة، اذ كان اخطرهم شأنا وأعظمهم أهمية عبد المؤمن بن علي "الخليفة في ما بعد"، وقد التقاه لدى خروجه من ملالة "في تاجرا" بينما كان يسلك طريقه إلى الشرق، وعبدالله الونشريسي المعروف باسم البشير، وهو من المغرب الاوسط، "الجزائر" قد لعب دورا مهما في تجذير الحركة السياسية، ولم يعش طويلاً، اذ وافته المنية في وقت مبكر جدا اثر معركة البحيرة سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م[4]، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني الذي كان زعيماً محليا من "تينملّ"،

---

(١) المراكش: المعجب، ص:٢٧٥؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٣٠٢.
(٢) المصدر نفسه، المعجب؛ عبدالله العروي: تاريخ المغرب، ص١٧٨، تر، ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٧م/١٣٩٧هـ؛ احمد شلبي الحضارة الاسلامية، ج٤، ص:١٨٤، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٩م/١٣٨٩هـ
(٣) مجهول: الحلل السندسية، ص:١٠٩.
(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٣؛ مجهول: الحلل الموشية، ص:١٠١-١٠٧، يقول البيدق ان اهل العشرة يمثلون رجال المكتب السياسي؛
البيدق: اخبار المهدي، ص: ٣٣؛
المراكشي: المعجب، ص:٢٦٦، ٢٦٧، ٢٨٤.

ومنهم عمر بن علي ازناج (أزناق)، وإسماعيل بن مخلوف، وأبو ابراهيم اسماعيل الهزرجي، واسماعيل بن موسى، وأبو يحيى ابو بكر بن تنجيت (بيجيت)، وأبو عبدالله بن سليمان، وعبدالله بن فلويات، ولقد ظل هؤلاء طيلة الفترة الاولى بأكملها من تاريخ الموحدين رؤساء الحركة الحقيقيين، والمنظرين أصحاب القضية، إذ لم يكن للشك عليهم، بعد ايمانهم بنهجه، أي سلطان[١].

الى جانب هذه الهيئة كان يوجد مجلس الرؤساء المحليين "أهل الخمسين" الذين كانوا يتولون مناقشة الخطط العسكرية والشؤون السياسية، ومجلس اوسع مفتوح لجميع الناس، "أهل السبعين"، ونستطيع أن ندرج هذا التنظيم بتعبير العصر هيئة مجلس الوزراء، واعضاء مجلس الشيوخ، ومجلس النواب على الترتيب. وهذا النظام هو الاساس الذي قامت عليه الدولة كما بينا سابقاً، وأكمل التنظيم بوضع نقيب لكل عشرة. كالطلبة والحفاظ وغيرهم[٢]، واهتم ابن تومرت شخصيا بتكوين الطلبة؛ الأيديولوجيين الحقيقيين للنظام في حالة الانكماش، والحفاظ الذين كانوا يتلقون في وقت واحد تربية مذهبية وتكوينا عسكريا، ولهذا كتب المهدي مؤلفات في العربية وفي البربرية؛ (القواعد)، و (الامامة). واخيرا أهل القبائل[٣].

ولنا من مؤشر كتاب المعجب ما يؤصل الحركة القبلية، فيقول: "وصنف اصحابه طبقات، فجعل منهم العشرة، وهم المهاجرون الأولون الذين أسرعوا إلى اجابته وهم المسمون بالجماعة، وجعل منهم الخمسين، وهم الطبقة الثانية... وقبائل الموحدين الذي يجمعهم هذا الاسم ويعمهم، وهم الجند والاعوان والانصار، ومن سواهم من سائر البربر، والمصامدة، رعية لهم، وتحت أمرهم سبع قبائل: أولهم قبيلة ابن تومرت.. هرغة وهي قليلة العدد بالنسبة إلى قبائل الموحدين، ثم قبيلة عبدالمؤمن تسمى كومية، وهي قبيلة كثيرة العدد جمة الشعوب، لم يكن لها في قديم الدهر ولا في حديثه، ذكر ولا رياسة، ولاحظ من نباهة، انما كانوا أصحاب فلاحة، ورعاة غنم، وأصحاب أسواق يبيعون فيها اللبن والحطب.. فأصبح القوم اليوم وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب، ولا تطاول ايديهم

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:٢٨٤؛
ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٩٧١؛
مجهول: الحلل الموشية، ص:١١٦.

(٢) مجهول: الحلل الموسيقية، ص:١٠٩؛ المراكشي المعجب، ص:٢٦٠-٢٦٧، ٢٨٠- ٢٨٥.
ابن ابي ذرع: الانيس المطرب، ص:١٧٦؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٩٥، ٩٦.

(٣) المصادر نفسها والصفحات نفسها.

يد يكون عبدالمؤمن منهم... ثم أهل تينمل، وهم قبائل شتى يجمعها اسم هذا الموضع، ثم هنتانة، وهي أيضاً قبيلة ضخمة جدا، وفي بعضها رياسة وشرف في الدهر القديم، ثم جنفيسه، وهي قبيلة عزيزة منيعة.. ثم جدميوة وليست كلها- بل بعضها- رعية، ثم بعض قبائل هسكورة.."، ثم يستطرد قائلاً: "فهذه جملة قبائل الموحدين المستحقين لهذا الاسم عندهم، والذين يأخذون العطاء، وتجمعهم الجيوش، وينفردون في البعوث، وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية لهم"[١].

ويظهر من هذا النص أن الشعب طبقتان: الاولى قبائل الموحدين، وهم اصحاب السلطان والسيادة، والثانية القبائل العربية التي تمثل جمهور الشعب الصامت-في كل زمان- وهم الجند من سائر اصناف الناس، كالعرب والغز والأندلسيين والروم وقبائل المرابطين وغيرهم، اذ قامت الفتوحات على سواعدهم، وبدمائهم.

أما صاحب الحلل الموشية جعل طبقات الموحدين ثلاث عشرة طبقة، ويقول "ولكل صنف من هذه الاصناف رتبة لا يتعداها إلى غيرها لا في سفر ولا في حضر، ولا ينزل كل صنف الا في موضعه، لا يتعداه"[٢]

هذا النظام الطبقي الذي قام عبدالمؤمن من بعد المهدي بتأصيله شكليا؛ إذ اختص أبناء هذه القبائل السبع بالوظائف الكبرى، وقصر التعليم على المبرزين من ابنائهم؛ فأنشأ لهم مدرسة للبحرية، وأخرى لتخريج الموظفين، ومن هنا استأثرت هذه القبائل بأكبر قسط من السلطان والنفوذ، واحتلت في بداية الدولة معظم المناصب الرئيسة.

فأصبحت بقصد أو بغيره- طبقة شعبية ممتازة، خلافا لشعب الأندلس والمغرب الذي كان حضوره محدودا في الادارة والجيش، وبخاصة في المناصب الخطيرة منها، بل كان صوتها- أي القبائل- في بعض المواقف يسكت صوت عبدالمؤمن نفسه، وقد رأينا ذلك في موقفين: اولهما: قتل أخ لعبد المؤمن على يد ابن احد صحابة المهدي (باحواز تلمسان)، وطالب الخليفة بالقصاص من القاتل، فأجبر رجال القبائل عبدالمؤمن على

(١) المراكشي: المعجب، ص:٤٨١، ٤٨٢.

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٠٩؛ ويذكر البيدق وهو لصيق ابن تومرت وخادمه "ذكر تمييز الموحدين اعزهم الله وذلك بدرجاتهم على حسب تواليهم قبلهم أو بعدهم... "فمن ذلك اهل الجماعة رضي الله عنهم وأهل خمسين اكرمهم الله.... المهاجرون.... القبائل سلمهم الله...
ويقول المهدي بصدد إحدى هذه الطبقات (بأن اهل الجماعة وصبيانهم عبيدهم كل من في الدنيا"؛ البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص٣٢-٤٥، ٩٣.

التنازل عن دم أخيه، لأن القاتل كان ابن احد المقربين السابقين إلى المهدي، وثانيهما، عند احتلال مراكش، وأسر السلطان الصغير ابراهيم بن تاشفين، فأظهر عبدالمؤمن شفقته عليه لصغر سنه الذي لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، وأراد استبدال الاعدام بالسجن، وأمر بذلك، فأبى عليه القائد الموحدي أبو الحسن بن واجاج هذه اللفته الملكية الكريمة، ونفذ حكم الاعدام بالسلطان الصبي متجاهلا أوامر رئيسه.[1]

على ضوء هذه المواقف، أدرك عبد المؤمن تماما تجاوز هذه القبائل حدود المعقول، لكنه الذهنية الأكثر تفتحاً، والأبلغ فعالية التي كان قد اتصف بها الأخير، وأن الأيام ستثبت أنه رجل يتمتع بمنهجية نادرة، وفكر تنظيمي متميز، جعلته بتحالف مع الوقت، ويتحصن بالصبر، وضبط النفس، اذ يعيش بين ذهنيه قبلية-وهو دون قبيلة- وعلى يديها قامت الدعوة، وشادت صروح الدولة، وأطفأت كل الثورات الداخلية التي اشعلت بلهيبها أنحاء المغرب ضد الحكم الموحدي الذي يناهض مذهب مالك، وظلت تلك الحروب سجالا حتى سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م، لذلك ورغم كل ما حدث لم يشأ هدم الجسور بينه وبين هؤلاء[2].

أخذ عبد المؤمن للأمر أهمية بالغة، وبدأ يتحرك ببطء وحذر شديدين؛ قلّص أولاً ذلك النظام للحد من تدخل زعماء القبائل، فأعاد تقسيمهم الى ثلاث فئات فقط؛ تضم الأولى منها جميع اصحاب ابي عبد الله الذين رأوه وناصروه، أوصلوا خلفه، أما الثانية فهم الموحدون الداخلون الى الدعوة اخلاطاً بعد وفاة صاحبها سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م، والثالثة، هم الذين انضموا الى الأقوى، ودخلوا في التوحيد، واستكانوا لعبد المؤمن بعد انتصاره على تاشفين في موقعة وهران سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٥م[3].

هذا هو التقويض الأولي لقوة التنظيم الطبقي الذي ابتدعه المهدي، وتمهيد منه ليحل برنامجه السياسي (النظام الملكي الوراثي) محله، فيكون بذلك قد حطم الثيوقراطية التي اعتمدها النظام التومرتي.

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٩-٣١٠.
مجهول: الحلل الموشية، ص:١٣٩؛ ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٨٩.
ابن عذاري : البيان المغرب، ق٣، ص:٢٤؛ وقيل ان السلطان المقتول هو اسحاق بن علي بن يوسف، البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص١٠٣.

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٩؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٧، ٣١٨.

(٣) المراكشي: العجب، ص: ٤٨١ - ٤٨٣.

غير أن ابن تومرت كان قد احتاط منذ البداية لما يمكن أن يحصل من تجاوزات أثناء ممارسات الحكم، فقال مخاطباً جماعته، مشيراً الى عبد المؤمن: "فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً ومطيعاً لربه، فإن بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره ففي الموحدين (أعزهم الله) بركة وخير كثير"[١].

لقد خلفت هذه الوصية حفراً بليغة في نفسية عبد المؤمن، بأن جعلت من هؤلاء الموحدين فئة معارضة، تسهر على تنفيذ القانون والنظام، وتسعى في الوقت نفسه الى مراقبة الخليفة. فعمد مرة أخرى الى كسر تلك الوصاية، وهو الذي خلف من تلك القوى الهزيلة التي تركها مرشد الثورة مهزومة بعد غزوة البحيرة، فئة جبارة استطاعت أن تسقط الدولة الرابطية، وأن تعيد نفوذ المغاربة الى الأندلس المشرذم، بين الثوار المحليين والنصارى الاسبان. ثم انشأ ربما اعظم امبراطورية مغربية في التاريخ؛ وطاوعته نفسه الى الطموح الأبعد أثراً؛ اذ تسمى بأمير المؤمنين، فيكون بذلك أول بربري يجرؤ على اتخاذ هذا اللقب المحتكر حتى ذلك الحين على فئة القرشيين[٢].

إن هذا اللقب يحمل في ذاته برنامجاً سياسياً؛ السيطرة على بلاد الاسلام كلها، وليس على ولاية محدودة، مع الادعاء في الوقت نفسه نظرياً بأمير المؤمنين، فيكون معناه(على أحسن الحالات)، أنه أحد الثوار الخوارج المفرق للجماعة. أما الدولة الموحدية ولئن كانت تأسست بالمغرب، ولم تتجاوز حدودها طرابلس، فأنها ترنو ببصرها الى ما وراء طرابلس من المشرق، وأرض مصر على الخصوص. تجاوباً في ذلك مع ما كان يصرح به المهدي من امتلاك أرض فارس والروم[٣].

وقد اصبح ذلك الحلم عزماً لما تولى الحكم أبو يوسف يعقوب المنصور، من سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م الى سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م، فبلغت الدولة قمة أوجها على عهده؛ اذ ذكر المراكشي في معجبه "أنه صرح للموحدين بالرحلة الى المشرق، وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع"، ويقول: "نحن إن شاء الله مطهروها"، ولم يزل هذا عزمه الي أن مات رحمه الله"[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ص: ٤٨٧.
(٢) ابن أبي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٨٥؛
المراكشي: المعجب، ص: ٢٨٧.
(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٢٧٦، ويعني بأرض فارس والروم، المشرق.
(٤) المصدر نفسه، ص: ٤٠٧.

وذكر ابن جبير في روايته أن الموحدين كان لهم ذكر واسع بمصر وأن أهل هذه البلاد كما رآهم، كانوا يتشوقون الى الدعوة الموحدية، ويترقبون دعاتها، اذ يقول في ذلك: "ومن عجيب ما شاهدناه من أمر الدعوة المؤمنية الموحدية انتشار كلمتها في هذه البلاد، واستشعار أهلها لملكها... فهم يستطلعون بها صبحاً جلياً ويقطعون بصحتها، ويرتقبونها ارتقاب الساعة التي لا يمترون في انجاز وعدها، شاهدناه ذلك بالاسكندرية ومصر وسواهما مشافهة وسماعاً أمرا غريباً يدل على أن ذلك الأمر العزيز أمر الله الحق ودعوته الصدق، ونمي الينا أن بعض فقهاء هذه البلاد المذكورة وزعمائها، قد حبر خطبا أعدها للقيام بها بين يدي سيدنا أمير المؤمنين أعلى الله أمره، وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة، وانتظار الفرج بالصبر الذي هو عبادة"[1].

ثم يذكر ابن جبير أن ذلك الحلم قد كان رمزاً قديماً وجد في نفوس أهل مصر "حلة" في هذا العهد، وتطابقت عندهم الاشارة مع العمل، فقد كانوا "يرمزون بذلك رمزاً خفياً حتى يؤدي ذلك بهم الى التصريح، وينسبون ذلك لآثار حد ثانية وقعت بأيدي بعضهم أنذرت بأشياء من الكوائن، فعاينوها صحيحة، فمن بعض الآثار المؤذنة بذلك عندهم، أن بين جامع ابن طولون والقاهرة برجين مقترنين عتيقي البناء، على احدهما تمثال ناظر الى جهة الغرب، وكان على الآخر تمثال ناظر الى المشرق، وكانوا يرون أن أحدهما اذا سقط أنذر بغلبة أهل الجهة التي كان ناظراً اليها على ديار مصر وسواها، وكان من الاتفاق العجيب أن وقع التمثال الناظر الى المشرق، فتلا وقوعه استيلاء الغز على الدولة العبيدية (أي صلاح الدين وجيشه)، وتملكهم ديار مصر وسائر البلاد، وهم الآن يتوقعون سقوط التمثال الغربي، وحدثان ما يؤملونه من ملكة أهله لهم إن شاء الله"[2].

ولا يخفى ما في قول ابن جبير هذا من مبالغة وتهويل، أملاها الحماس للموحدين، اذ يقول: "تلافاها الله عن قريب بتطهير يرفع البدع المجحفة عن المسلمين بسيوف الموحدين انصار الدين، وحزب الله أولى الحق والصدق... والجادين في اعلاء كلمته وإظهار دعوته ونصر ملته... "[3].

(١) ابن جبير: الرحلة، ص: ٧٠، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لا. ت. كانت رحلة ابن جبير الى المشرق من سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م الى سنة ١١٨٥هـ/ ١١٨٥م، أواخر حكم يوسف بن عبد المؤمن، وأوائل حكم ابنه يعقوب.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٧٠.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص: ٦٩.

ربما يصور هذا القول شعور أهل مصر بالضيق والمرارة من جراء حكم العبيـديين، فكـان شـوقهم الى الخـلاص مـنهم يـدفعهم الى اصـطناع مثـل هـذه التصـورات، وهـي تصورات تعكس الأثر السياسي لدعوة المهدي بالمشرق.

ولعل عبد المؤمن استند في نظريته للخلافة الى قول المهدي: "وجعلناه - مشيراً الى عبد المؤمن - أميراً عليكم"[1].

ثم عمد للقيام بعـدة أمـور قصـد منهـا السـيطرة عـلى القبائـل المغربيـة وضـبط نفوذها، اذ أمد الحماة بماء، اختياره اكبر ابنائه ليكـون وليـاً للعهـد الـذي لم يكـن في مـا يبدو مؤهلاً للحكم، واستبدله بأخيه يوسف، ثم عين أولاده ولاة للأقاليم، وهـذه خطـوة أخرى لنقض المباديء التومرتية التي قامت على الشورى[2].

نتيجة لهذه الاجراءات المخالفة "للديمقراطيـة" المعمـول بهـا حتـى ذلـك الوقـت، تململت قبيلة هرغة - قبيلة المهدي -واحتجـت عـلى هـذه الاجـراءات بشـخص رئيسـها يصلاتن بن المعز الهرغي؛ اذ تآمر على حيـاة عبـد المـؤمن، وحـاول الغدربـة، فاسـتدعاه متوشحاً غضبه، ووقف أمامه مهتاجاً، وتمت تصفيته من غير آثارة للزوابع[3]. إلا مـا كـان من أخوي المهدي، عبد العزيز وعيسىـ أن احتجـا عـلى هـذا العمـل غـير المـبرر، وأعلنـا التمرد، وأخذا طريقهما الى مراكش ما دام الخليفة بعيداً عن عاصمته بفـاس، لكـن عبـد المـؤمن اسـتطاع أن يخضـع التمـرد دون رحمـة، ويسـتعيد عاصـمته، ويفتـك بـأخوي المهدي[4].

اهتبلت بعض القبائل فرصة هذا الشقاق الـذي استشرـى بـين قبائـل الموحـدين، فقامت الثورة في الجنوب من بلاد السوس، مظهرة في باديء الأمر أنها ضد المباديء

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٢٨٧.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٣١، ٣٤، ٣٨، ٣٩، ٥٤، ٥٥؛
ابن ابي ابي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٤؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢٢١؛
رسائل موحدية: الرسالة ١٣، ص: ٥٧؛
المقّري: النفح، ج١، ص: ٤٢٧.
(٣) يصلاتن: يسميه آخرون يصلاسن، وهو من أهل الدار؛
رسائل موحدية: الرسالة الحادية عشرة، ص: ٤٧؛
ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٤.
(٤) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروخي القرطاس، ص: ١٩٤ - ١٩٥؛
المراكشي: المعجب، ص: ٣٤٠ - ٣٤١.

التومرتية، مثل قبيلة جزولة، ولمطة، ثم قبيلة "آيت بيغر" أو "آيت ومغار". اهتز عبد المؤمن لدى سماعه بهذه الانتفاضات التي لم يعدم اصحابها المسوّغ لقيامها، وكان على علم بالخلفيات التي كانت سبباً لإثارة هذه العواصف؛ فهي الاجراءات الادارية، والسياسية التي عارضت الديمقراطية الموحدية، وربما كانت هذه المعارضة ستاراً تخفي وراءها هموماً سياسية، استأثر بها عبد المؤمن، وهم لحمة المهدي وأهل بيته، اذ أصبح حضورهم محدوداً، وقطف الثمرة رجل غريب نهد اليهم من أنأى بلاد الجزائر من غير عصابة ولا أنصار، فعليهم أن يتحركوا قبل فوات الأوان، غير أن الخليفة قضى على الفتنة الأولى في مهدها[١]!

ثم كان محور المجابهة الثانية للحد من غطرسة القبائل الموحدية السبع. أنه بعد اطمئنانه الى كفاءة خريجي المدرسة العامة للموظفين، ولقد خصهم بالوظائف الهامة، وعزل بهم شيوخ القبائل المذكورة، قائلاً لهذه الطائفة "العلماء أولى منكم فسلموا لهم"، فتنازل كثير منهم عن مناصبهم للعلماء - عن رغبة أم رهبة - وكان هؤلاء العلماء قد أخذوا بقسط وافر من دراسة حكم الأقاليم، ومزاولة شؤون الدولة المختلفة، اذ قاموا بعملهم خير قيام، وبهذا تخلص الشعب وعبد المؤمن نفسه من طغيان حكام القبائل الذين لم يفهموا الحكم سوى أنه نوع من الغطرسة والاستعلاء[٢].

واتخذ عبد المؤمن خطوة وقائية أخرى لحماية نفسه، وتأمين مستقبل ذريته، بعد أن لمس من القبائل الموحدية انها تكيد له، وتنظر نحوه بعيون غادرة، مسوغة ذلك التشنج، ما أحدثه في الدولة. اذ استقبل قبائل العرب الهلاليين، وضمهم الى جيشه المعد لفتوحاته الواسعة، وطموحاته غير المحدودة، وهواجسه المتعثرة التي بيتها خلفاؤه نحو الشرق، واتخذ منهم بطانته وعدته للمستقبل[٣].

ثم رغب في سد الفراغ القبلي الذي ينقصه؛ فاستقدم قبيلته كومية"Gumiya" من الجزائر من تاجرا سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦١م[٤].

---

(١) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٠؛
مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٤٦.

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ١٥٠، ١٥١؛ المراكشي المعجب، ص: ٢٩٣.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ١٩، ٢٠؛ الناصري: الاستقصاء. ج٢، ص: ١٤٤.

(٤) اتصل عبد المؤمن سراً بزعماء قبيلته كومية، واتفق معهم على أن يقدموا عليه بمراكش، وأن يمتطي صهوة حصان كل من بلغ الحلم منهم، وأن يحسنوا من هيآتهم وعدتهم حتى يكونوا شامة في أعين الناس، وأمدهم بالأموال الطائلة والاردية الفاخرة. اجتمع منهم اربعون الفاً كلهم شاكي = =السلاح، ثم أقبلوا على عبد المؤمن بمراكش للخدمة بين يديه وشد أزره. ارتاع أهل المغرب لدخولهم المفاجيء، وقد تجاهل الخليفة

فاستقام له أمر المغرب حتى (ضرب الدين بجرانة)[1].

لقد تبين أن الجهاز الحكومي المتمثل بالسادة والشيوخ، والوزراء والقضاة، وجباة الضرائب والعسكريين، ثم طبقة المستفيدين، فضلاً عن الزعامات الارستقراطية وعلى رأسهم الخليفة، على خلاف مع الشعب المتأثر بالضرائب الباهضة، والتابع قسرا الى مذهب ابن تومرت الرسمي الذي لم يكن مرغوباً على ما يظهر عند جمهور الشعب المغربي؛ اذ ينزعون في أكثريتهم الى مذهب الخوارج والمالكية. هذا بالاضافة الى خصوصيات متوارثة وقديمة، كانت العقبة الكأداء في تجسير الوحدة بين المغرب والأندلس، ناهيك عن الخلافات الداخلية في جهاز الدولة الموحدية نفسه.

هكذا لم تنصهر الإحساسات القبلية، ولم تتلاشى الحساسيات والأعراف كذلك، والرغبات الجزئية الموقوتة في السيادة والاستعلاء، ليخضع فيه الجميع لسلطة واحدة ودستور واحد إلا بالقوة.

ويلوح أن الادارة كانت تتمحور حول ثلاثة أنواع من السلطة؛ القبلية منها، والدينية، ثم سطلة الدولة التي تتوق دائماً الى الاستقلال - الذي يحبط في كل مرة - عن كلا التجمعين. فاتضح تفوق سلطة الدولة على حساب القوى الدينية والقبلية، رغم استمرار سلطة الفقهاء مدة أطول؛ فقد وزعت المهام السياسية داخل الاسرة الموحدية التي تعثرت كثيراً في سياستها المتأرجحة بين تأصيل المفهوم المتطور للدولة، ومغازلة القوى الأخرى المتغلغلة بعيداً في جهاز الحكومة العسكري والمالي على الخصوص، فضلاً عن الاداري. فلم تجد تلك الفكرة من ملجأ من القبيلة إلا اليها[2].

بدوره، وأبدى دهشته لمجيئهم، وأخذ يستفسر عن سبب قدومهم، ثم أمر الشيخ أبا حفص عمر الهنتاني أن يخرج اليهم ليتعرف اخبارهم، وعند لقائه اياهم سألهم، أسلم أنتم أم حرب؟ فقالوا: بل نحن سلم، نحن قبيل أمير المؤمن بن علي الكومي، نحن كومية الزناتيون. فأمر الخليفة قبائل الموحدين أن تستقبلهم، وأن تحتفل بهم، اذ كان يوم دخولهم مراكش يوماً مشهوداً، ومن الاعياد القومية. ثم رتبهم في المرتبة الثانية بين القبائل الموحدية.

تاجرا: مسقط رأس عبد المؤمن من ناحية هنين من جهات تلمسان؛ ومن احوازقابس

ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص: ٥؛ الحميري: الروض المعطار، ص:١٢٥.

المراكشي: المعجب، ص: ٣٤٠ - ٣٤٣؛

ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٩ - ٢٠٢.

(١) هذه كناية عن ثبات أمره واستقراره.

(٢) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاوي، ص: ٢٠١.

هذه الظاهرة الازدواجية وما رافقها من تناقضات سياسية واجتماعية ودينية، مع استمرار تمزق الوضع الداخلي الذي تتجاذبه رياح الحروب الأهلية، وتفاقم غضب الفئات السحوقه بالضرائب الكيدية، وبصنوف الاضطهاد والقهر، بقيت بين مد وجزر تعيش مع الدولة ملتصقة بأحداثها حتى نهايتها في مدة لا تزيد كثيراً عد مائة وعشرين عاماً[1]!

وهكذا كان مفهوم معنى الشعب أو الرعية، يطلق على جل القبائل والطوائف والأفراد تحت ظل دولة الموحدين، الممتدة من حدود مصر الي بطاح الأندلس، باستثناء القبائل الموحدية السبع صاحبة النفوذ والسلطان، تلك التي الممنا بها سابقاً[2].

حرم هذا الشعب حقوقه عندما قصر عبد المؤمن وظائف الدولة والتعليم الموجه الموصل الى هذه المراكز على الذين آمنوا بايد يولوجية الموحدين المذهبية دون سواهم. وربما اتخذ سياسته التعليمية هذه ليدفع بالشعب المالكي الي اعتناق الدعوة التومرتية[3].

وقد كان الشعب في عمومه شعباً قبلياً لا يعتمد في حياته على الوظائف الحكومية، ولا يعيرها ادنى اهتمام بقدر ما يعتمد في معيشته بعيداً عن منح الدولة التي تحد من هذه الحرية.

وعلى الرغم من ذلك، فإن امكانية التعليم في متناول الجميع، وكان للمالكية مدارسهم ومناهجهم عبر الكتاتيب، والمساجد والزوايا والرباطات، اذ كفل الموحدون حرية الكلمة ونبذوا الارهاب الفكري[4].

لم تستطع مذهبية ابن تومرت أن تطغى على مباديء المالكية، فالشعب بأجمعه - مالكيون وموحدون - كان يحتكم الى فقه مالك في حياته العملية، في حين كان الخاصة فقط يدركون مباديء المهدي الكلامية، لأن سواد الشعب لا يهتم بالأمور العقلية والجدلية بقدر اهتمامه بالشؤون العاطفية والقلبية، وأن سواد الموحدين انفسهم بهرتهم فكرة المهدوية أكثر من تعلقهم بالسفسطات الكلامية غير الواضحة في أذهانهم.

---

(١) المصدر نفسه، ص: ٢٣٧- ٢٣٩.
(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٤٨٠ - ٤٨٢.
(٣) مجهول الحلل الموشية، ص: ١٥١.
(٤) كان ذلك يدل على حرية الرأي: ان عبد المؤمن كان يأمر العلماء والكتاب الذين امتازوا بقوة الحجة بكتابة الردود على المؤلفات التي تطعن في حكومة الموحدين وفي المباديء التي تقوم عليها، عندما أمر بالرد كتابة ضد الكاتب القرطبي ابي الحسن عبد الملك بن اياس؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٦١.

وبما أن المالكية-سنيين سلفين-لا يؤمنون بالمهدوية، وهي خرافة تداولها الناس، وليس لها سند من القرآن أو الحديث الصحيح[1].

كان مذهب الموحدين قد عجز بمفهوميه؛ التوحيدي والمهدوي، عن مجاراة مذهب مالك، واصبحت الدعوة الموحدية كمذهب في شبة ركود وتحجر، فتوقف عن النمو، بعد أن وصل الموحدون الى تحقيق الدولة السياسية المطلوبة[2]. هذا مما دعا عبد المؤمن أن يشعر بخطورة الموقف بنضوب القدرة الخلاقة التي تدفعها للأمام. فحاول أن يصب في عروقها دما جديداً - حركة نشيط - اذ قام بخطوة في سبيل اضعاف سيطرة المالكية على نفوس الناس، حيث أصدر قراراته "باصلاح المساجد وبنائها في جميع بلاده، وتغيير المنكر، وتحريق كتب الفروع - كتب مالك - ورد الناس الي قراءة الحديث، وكتب بذلك الي طلبة المغرب والعدوة".

في هذا النص الذي ذكره ابن ابي زرع، وأشار اليه المراكشي في معجبه، ونقله الناصري عنهما[3]. اشارات يمكن أن نتريث لها قليلاً؛ منها أن عبد المؤمن ابتدأ هذا القرار الأكثر خطورة حيث وضع نفسه مجتهداً في الفقه - باصلاح بعض المساجد وبناء أخرى، ثم بتغيير المنكر، ثم طرح الأمر الأكثر أهمية والهاجس الذي يؤرقه كثيراً، وهو تحريق كتب مالك، ورد الناس الى قراءة الحديث في نهاية المطاف، وأخرى حث الطلبة (العلماء) أن يتولوا كبر هذه المسؤولية متجاهلاً الولاة ورجال الجيش من مسؤولية هذه، ليسبر بذلك غور المالكية بطريق الاقناع، حتى يكون في منجاة من عواقب الثورات المسلحة، اذ ربما يثيرها المالكيون ضده في انحاء البلاد.

إن تأخير أمره بتحريق كتب الفروع الى ذيل الرسالة، ما يوحي بأنه فعلاً يخشى عاقبة التنفيذ، وبالتالي ايحاء الى العلماء بالكف عن التنفيذ، إن صادفوا تململاً تخشى عواقبه من المالكية. إن هؤلاء الطلبة الموحدين لم يستطيعوا القيام بتنفيذ رغبة عبد المؤمن،

(١) أن من اعظم المراجع التي عرضت للأحاديث المردودة في المهدي المنتظر؛ ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ١٩٩ - ٢٠٩.

(٢) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٥.

(٣) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٥.
المراكشي: المعجب، ص: ٤٠١؛
الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٢٦.

ولم تحرق كتب الفروع في عهد الأخير، ولا في عهد خلفه يوسف[1]. وانما الذي خرج من حيرته وقام بتنفيذ ما لم يستطع الأوائل تنفيذه الخليفة الثالث يعقوب المنصور، حفيد عبد المؤمن الذي كان يرمي الى محو مذهب مالك وازالته مرة واحدة من المغرب، اذ أنزل بكتب هذا الفقيه محنة كبرى، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث[2]، وانجلت هذه المعركة الفقهية أو بتعبير العصر- الثورة الثقافية، بتثبيت فقه اساسه القرآن والحديث، ظنا منهم تحجيم مذهب مالك، وازالته من المغرب، غير أن الفقه الجديد لم يكن سوى فقه الأخير، بعد حذف الاسانيد، وآراء الفقهاء، وأنه هيأ لتدعيم هذا المذهب، بعد أن اعلن قرارة التاريخي بعدم اعترافه بعصمة المهدي وإمامته، اذا أحدثت دويا هائلا في انحاء البلاد، وشعر المالكيون بالعافية في استعادة مكانتهم[3].

(١) لم يقم يوسف بن عبد المؤمن بأي عمل ضد كتب المالكية، ولكنه أبدى امتعاضه الشديد لكثرة الأقوال وتضاربها في المسألة الواحدة، لأن هذا من شأنه أن يشكك الناس في أمر عبادتهم علي حد تعبير المراكشي، اذ يقول: ان الحافظ أبا بكر بن الجد قال: "لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أول دخلة دخلتها عليه، ،وجدت بين يديه كتاب ابن يونس "في فقه مالك" فقال لي: يا أبا بكر، أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله. أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو أكثر من هذا، فأي هذه الاقوال هو الحق؟ وايها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت ابين له ما أشكل عليه من ذلك، فقال لي - وقطع كلامي - يا أبا بكر ليس الا هذا، وأشار الى المصحف، أو هذا، وأشار الى كتاب سنن ابي داود، وكان عن يمينه، أو السيف !!".
المراكشي: المعجب، ص: ٤٠١ - ٤٠٢.

(٢) يذكر المراكشي: "وفي أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء، وأمر باحراق كتب هذا المذهب "مذهب مالك"، بعد أن جرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقرآن... فأحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن ابي زيد، ومختصرة، وكتاب التهذيب للبرادعي، وواضحة ابن حبيب". ويقول عن مشاهداته لهذه المحنة.
"لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس، يؤتى منها بالاحمال فتوضع ويطلق فيها النار. وأمر المنصور بعدم الاشتغال بعلم الرأي وتوعد على ذلك تحت طائلة القانون. ثم أمر المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة، "الصحيحين والترمذي، والموطأ، وسنن ابي داود وسنن النسائي وسنن البزار، ومسند ابن ابي شيبة، وسنن الدارقطني، وسنن البيهقي، والاحاديث التي جمعها ابن تومرت في الطهارة". وجمعوا ما أمرهم بجمعه، فكان يمليه بنفسه على الناس، ويأخذهم بحفظه، وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب".
المراكشي: المعجب. ص: ٤٠٠ - ٤٠١؛
الناصري: الاستقصاء، ج٢،ص: ١٢٦.

(٣) يذكر المراكشي: المعجب، ص: ٤٠٠، ٤٠١ - ٤١٧، فيقول: "اخبرني الشيخ الصالح احمد بن ابراهيم بن مطرف المري؛ نحن بحجر الكعبة قال: قال لي امير المؤمنين أبو يوسف يعقوب المنصور: يا أبا العباس، اشهد لي بين يدي الله عز وجل، اني لا أقول بالعصمة (يعني عصمة ابن تومرت)، قال: وقال لي يوما وقد استأذنته في فعل شيء يفتقر إلى وجود الامام، قال: يا أبا العباس، اين الامام... ؟ ابن الامام... ؟ وهذا تعريض ضمني بامامة المهدي، وعدم الايمان بها.

وقد شد من ازر هذه المكانة قرارات الخليفة المأمون ابن المنصور، بعد تراخٍ من الزمن مدته ثلاثون عاماً. فصعد المذكور المنبر في مراكش وأعلن بصوت عال، الغاء اسطورة المهدوية، ومحو عبارات الاطراء بالمهدي المنتظر، في جميع الكتب الرسمية، ودواوين الدولة[١]. فقضى بذلك على الدعامة الاساسية للموحدين، وهي وحدتهم المذهبية والروحية، وخرج عليه بعض الاشياخ الموحدين مثل ابي زكريا الحفصي[٢].

لا شك في أن فعل المأمون هذا، قد ترك البلاد في فراغ فكري، بعد التدمير الذي حصل للمذهب الموحدي على هذا الشكل، فأخذ بعدها الموحدون يتعاركون على الملك، مما مهد الطريق للمالكية أن تدخل بسلام الى نفوس الناس مرة أخرى، وتسيطر على المجتمع المغربي، ليعيدوا النشاط الى فقههم وعقيدتهم[٣].

---

(١) يقول ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروخى القرطاس، ص: ٢٥١؛
"... ودخل المأمون ادريس بن يعقوب المنصور، الخليفة آنذاك مدينة مراكش، فبايعه الموحدون كافة، فصعد المنبر بجامع المنصور، وخطب الناس، ولعن المهدي، وقال: ايها الناس، لا تدعوه بالمهدي المعصوم، وادعوه بالغوي المذموم، فإنه لا معصوم الا الانبياء، ولا مهدي الا عيسى، وإنا قد نبذنا أمره النحس... وأمرنا باسقاط اسم المهدي من الخطبة، وازالته عن الدنانير والدرهم".
ويقول الحلل الموشيه، ص: ١٦٤ - ١٦٦؛ "وهو الذي - اي المأمون - أمر بزوال اسم المهدي من السكة وغيرها، ومن الخطبة، وازال اسمه - اي المهدي - من جميع رسوم الموحدين، وكتب في ذلك رسالة بخط يده، ومن انشائه، وبعث بها الى الاقطار... ولتعلموا اننا نبذنا الباطل، واظهرنا الحق، وأن لا مهدي الا عيسى بن مريم... وما سمي مهديا الا أنه تكلم في المهد، فتلك بدعة قد ازلناها... وقد كان سيدنا المنصور هم أن يصدع بما به الآن صدعنا، وأن يرفع عن الأمة الحزن الذي دفعنا، فلم يساعده لذلك أمله، ولا أجله... فقدم على ربه بنية صدق... واذا كانت العصمة لم تثبت للصحابة، فما الظن بمن لم يدر بأي يد يأخذ كتابه؛
ويقول ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص٢٦٧ - ٢٦٨ في نحو هذا الكلام.
لعل ما يقوله صاحب "القرطاس" لا يخلو من المبالغة والتهويل، اذ يصعب أن نتصور من سلطان مسلم في بدء حكم صعب ومهزوز وفي وسط قبائل الموحدين، أن يستعمل مثل هذه اللهجة الخشنة، والالفاظ النابية المنافية للمشاعر الدينية عند الجمهور. أما الذي لا شك فيه، وشهد عليه مؤرخو ذلك العصر أن الخليفة المأمون تحالف مع النصارى. وقام باصلاحاته السياسية الدينية، كما اطرح ايضاً الاصلاح الذي دعا اليه المهدي، وفرضه خلفاؤه.

(٢) ابو زكريا الحفصي هو حفيد ابي حفص. وهو من العشرة الأوائل الذي تبعوا المهدي، فقد خلع طاعة الموحدين سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م، وتلقب بالأمير، واتخذ تونس عاصمة له، وتمسك بمذهب المهدي، ثم بسط نفوذه على المغرب الأوسط الى الجزائر وتلمسان؛
زنيبر: تاريخ العصر الوسيط، ص: ٢٤٨.

(٣) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٧، ص: ٧١.

يتضح أن عبد المؤمن قد رسخ النظام المالكي الوراثي في ذريته، وأمنهم من كيد الكائدين، والغى منهج الشورى الذي ابدعه صاحب الدعوة.

وأراني اتساءل. هل كان نظام الشورى هذا خيراً للأمة، أم أن هذا النظام الملكي الوراثي، وما فيه من نزوع الى الفردية والاستبداد؟.

يظهر من الاحداث الجارية أن النظام الوراثي، كان أدعى الى استتباب الأمن، والى انهاء مسلسل الصراعات الأهلية الرهيبة التي تنشأ عادة بين القبائل طلباً للسيادة. ولعله يبدو أنه لوقدر لابن تومرت أن يعيش ويحكم المغربين وافريقية وبرقة والاندلس، على نحو ما قدر لعبد المؤمن، لعمد الى كسر النظام الطبقي، الهاجس الأكثر قلقاً للخليفة. وأن اوضح دليل على ذلك، حادثة التمييز، اذ سوغت للمهدي معاقبة القبائل التي تهتز ثقتها به، وتتجاوز حدودها، كما يقول الناصري: "ثم قال - أي ابو محمد البشير - للمهدي: اعرض اصحابك علي حتى اميز أهل الجنة من أهل النار، وعمل في ذلك حيلة، قتل بها كل من خالف ابن تومرت، وأبقى من أطاعه..."[(١)]! لهي مؤشر مهم على تخطي حرفيات القانون اذا اقتضت الضرورة، ولربما كان هذا اتفاقاً مسبقاً، أعد له، بينهما.

غير أن هذا النهج على تألقه وشموخه، قد عاد بالدولة القهقري، وبدا عودها يذبل، اذ أخذ الخلفاء الموحدون، بعد المنصور في اهماله، فضلاً عن السخرية بنظام المهدي نفسه ومحاربته. وكلفهم هذا جهداً كبيرا من قطيعة رحم، وقتل الاقارب، والاعمام والاخوة، وكان مدعاة الى هز النظام القائم من جذوره،واحداث فجوات فيه، اذ اصبح مجلسا الدولة (فئة الخمسين والسبعين) يقرران وراثة العرش، مما حدا بخليفة مثل المأمون ليعمل جاهداً لاسترداد سلطانه المطلق وسط ظروف مأساوية، طالت اعضاء المجلسين تصفية وتشريداً،وشكل آخرين غيرهما، حرم عليهما التدخل في شؤون الدولة. وبقيت الحالة ملتهبة بعد موته، ودون أن يكون ذلك خاتمة للأحزان[(٢)].

فكأن ابن تومرت قد تولى كبره منهم، اذ وضع أول حجر في قبر الدولة التي ابدعها على ذلك النحو، بدعة المهدية والعصمة.

---

(١) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ٨٨.
(٢) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٥١ - ٢٥٢.

٤- ثورة ابن تومرت:

سار ابن تومرت برفقة عبد المؤمن الى وجدة، ومن ثم الي فاس ومكناسة، ومنها الى سلا[١]. غير أن المراكشي يذكر في معجبه أن ابن تومرت توجه مع تلميذه عبد المؤمن الى تلمسان، ومنها الى فاس، ثم الى مراكش[٢] ويؤيده صاحب الحلل الموشية[٣]. وكان ينشر افكاره الجديدة، حتى وصلت اخباره مسامع امير المسلمين في مراكش، فأمر بإحضاره، فحضر مجلس الأمير عدة مرات في المسجد وخارجه، وفي مقر الامارة، وفي كل مرة يبين مساويء الدولة السياسية والاقتصادية والاخلاقية على مسمع من فقهاء المرابطين ورجال الحكم فيها[٤].

وبهذا حملت ثورته الفكرية صوت الشعب وضمير الفقراء،وتسلح فيها بما جاء في الآية الكريمة: (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ){الحج: ٤١}. وكان وهو يصعد حملته الانتقادية صد سياسة الاستغلال والترف والتخاذل، الصوت العلني الجريء المعبر عن مواقف مختلف الاتجاهات السياسية في البلاد من قرطبة حتى مراكش، وبخاصة عن احساس الفئات الأكثر تضرراً في سياسة الضعف التي تجسدت في عهد علي. وكون ابن تومرت ينتمي الى قبيلة هرغة المتواضعة، فقد كان يمثل هموم الشعب المغربي في مشاكله اليومية. لذلك كان رجال السلطة يرتابون في تحركاته، ورأوا أنها تجاوزت كونها أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر بطرقها السلمية (اطارها العفوي)، لتصبح دعوة تعبوية لتغيير النظام القائم التي تتزعمه الطبقة الارستقراطية.

كان مالك بن وهيب[٥]، أحد اكبر الفقهاء اللامعين الذين يضمهم بلاط الأمير، أول من اشار على علي بن يوسف بقتل ابن تومرت، أو تقييده بالحديد قبل أن يستفحل

---

(١) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٦٠ - ٦٦.
(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٢٧٠.
(٣) مجهول: صاحب الحلل الموشية، ص: ١٠٧.
(٤) المراكشي: المعجب، ص: ٢٧١ وما بعدها.
البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٦٨ وما بعدها.
ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٧٤.
(٥) كان هذا من علماء الاندلس، وقد شارك وابدع في جميع العلوم المعروفة في عصره، وله اطلاع واسع على وقائعها؛ نبغ في الفقه، والأدب، والفلسفة على الخصوص، فضلاً عن العلوم الأخرى؛ المراكشي- المعجب، ص: ٢٧١ - ٢٧٢..

خطره. وحينما لاحظ ابن وهيب، أن الخوف قد بدأ يدب في قلب ابن يوسف، اذ أدرك أنه تجمع في ابن تومرت صفات الزعيم، فضلاً عن العلم والارومة الطيبة التي ينحدر منها، فقال: "أيها الملك - ويعني امير المسلمين علي: إن عندي لنصيحة أن قبلتها حمدت عاقبتها، وإن تركتها لم تأمن غائلتها، فقال الملك: ما هي؟ قال: اني خائف عليك من هذا الرجل، وأرى انك تعتقله واصحابه، وتنفق عليهم كل يوم ديناراً لتكتفي شره، وإن لم تفعل ذلك لتنفقن عليه خزائنك كلها، ثم لا ينفعك ذلك"[1].

كان ابن تومرت في تعاليمه التي يبثها في الدولة المرابطية، يتقن مقولة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويناور بأوراق غير مكشوفة، يحتفظ بها لاستخدامها في الوقت المناسب[2].

فمنع اصحابه من استخدام القوة في باديء الأمر[3] ونراه لا يهمل المرونة والدهاء اللذين اتصف بهما ابن تومرت، ابرز صفات السياسي الناجح[4] فهو يدخل الى قلوب الشعب وبخاصة الى قلوب الفئات الشابة منهم، التي تستجيب بسرعة اكثر من غيرها لطروحات التعبير[5] فينعت المرابطين بأنهم كفرة ومجسمة[6]. يجب قتالهم. ومع ذلك فإن ابن تومرت كان استمرارا طبيعيا لمن سبقه، باعتماده على الارستقراطية القبلية[7].

هرب ابن تومرت من وجه الدولة، واختفى لعدة ايام عند صديق له، هو أحد ابرز قادة المرابطين، يبتان بن عمر الذي لم تعلم الدولة عن توحيده خَبراً، حتى انتهت

---

(١) ابن خلكان: الوفيات، ج٥، ص:٥٠؛ المراكشي: المعجب، هامش ١، ص: ٢٧٣؛
ويذكر ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٤، بخصوص ابن تومرت؛
"اجعل على رجليه كبلا لئلا يسمعك طبلا".

(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٢٧٤.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) ابنابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٧٣.

(٥) ابن خلكان: الفويات، ج٥، ص: ٥١.

(٦) المجسمة: ويعني بهم المرابطين، ومعنى التجسيم: جعل الله في جهة ومكان معينين، فإن الله موجود قبل الامكنة، من جسمه جعله مخلوقاً، ومن جعله مخلوقاً، فهو كعابد وثن، ومن مات على هذا فهو مخلد في النار؛
البيدق: اخبار المهدي ابنتومرت، ص: ٥٢٤.

(٧) المراكشي: المعجب، ص: ٢٧٥، ٢٧٦؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٤.

المطاردة وبعدئذ توجه الى بلاد السوس مستخفياً بالنهار، وسارباً بالليل الى أن وصل معقله في جبال تينملّ[1].

لقد منحت الاحداث الاخيرة ابن تومرت فرصة التألق والازدهار، وبخاصة بعد الغياب الحضوري لأمير المسلمين علي بن يوسف عن المسرح السياسي في مراكش، وتسليمه الأمور للطبقة الثرية، واصحاب الامتيازات والمستفيدين، ولذوي الهمم الساقطة، وتسلط النساء، وانكبابه على ممارسة الشعائر الدينية، واهماله الرعية حتى افلت الأمر من يديه، حيث كانت هذه من الثغرات الرئيسة التي حالت بينه وبين السلطة قوية متماسكة، اذ طوحت بكيان الدولة وانهائها[2].

لقد قدر لهذا السوسي أن يقهر الصعوبات التي واجهته، والانتصار على عدوه بعد الانتصار على ذاته[3]، واصبح الصراع العسكري ضروريا لتقرير مصير احدى الجبهتين، اما النصرللجبهة الناشئة، وإما اعادة الشباب لدولة الرابطين التي أخذت تهتز وتهرم؛ وقد بدأ من مقره في تينمل يقذف موجات متتابعة من البشر الى مراكش للتدريب والاختبار، وبخاصة تلك المعركة المسماه "البحيرة" في موضع بضواحي مراكش، وهي الغزوة التاسعة التي خسر بها الموحدون زهرة شبابهم ، وقدموا الثمن غالياً حيث سقط القائد البشير كما مر سابقا، وعدد من أصحابه صرعى في ميدان المعركة، ونجا عبد المؤمن بن علي منكفئا عائداً يحمل جروحه الى تينمل وحالما سمع ابن تومرت بالخبر، ونجاة الأخيرقال: لم يفقد أحد[4]. ورغم ذلك اهتز لهول الفاجعة، وامضّه، الهم والحزن عليهم ولزم داره، اذ كانت

(١) ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٧٦؛
المراكشي: المعجب، ص: ٢٧٤؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٣، ٣٠٤؛
البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٦٩؛
ويذكر ابن فلكان: الوفيات، ج٥، ص: ٥٠؛ أن ابن تومرت "لما خرج من عند الملك - يعين علي بن يوسف امير المرابطين - لم يزل وجهه تلقاء وجهه الى أن فارقه، فقيل له: نراك قد تأدبت مع الملك، اذ لم توله ظهرك، فقال: أردت أن لا يفارق وجهي الباطل حتي اغيره ما استطعت".

(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٢٦٠ - ٢٦١.

(٣) كان ابن تومرت حصورا لا يأتي النساء، فلم يتزوج قط ، متقشفا، يلبس الملابس المرقعة، ولم يذكر عنه فلتة في البدعة، اللهم إلا قوله بالإمامة والعصمة، وكان عالما، راويا للحديث، فقيها، مقداما على الأمور العظيمة، سفاكا للدماء، ذا سياسة، ودهاء، ومكر؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطربه بروض القرطاس،ص :١٨١؛ ابن خلدون :العبر، ح٦، ص: ٣٠٥.

(٤) المراكشي: المعجب، ٣٨٢؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ١١٦؛ ابن خلدون العبر، ج٦، ص٣٠٥؛ البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص : ٢٨٠، يقول: "فلما رأو منا ما لا يطيقون رجعوا الى مراكش، ونحن لتينمل". لذلك لم يعترف بالهزيمة المرحلية الا تلميحاً، وهذا المؤلف كان خادما للمهدي، يحمل زاده، وسائسا لرواحله، اما صاحب الحلل الموشيه فقد ذكر العبارة السابقه بوجه اخر: "فقال لهم- أي ابن تومرت للمنهزمين-أسلم عبد المؤمن؟ قالوا: نعم، قال: منذ عاش عبد المؤمن بقي الأمر"؛ وردد مثله ابن خلكان:الوفيات، ح٥، ص:٣ح.

هي الصدمة الموجعة التى هزت كيانه، واقعدته الفراش حتى لقى حتفة سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩، وخلفه صاحبه عبد المؤمن. ثم بقيت الحروب تضغط على دولة لمتونة الى أن سقطت عاصمتهم، وانتهت بذلك دولة الملثمين.[١]

٥- سقوط دولة المرابطين:

كانت الأحداث التي تنتظر عبد المؤمن، بعـد أن تـولى خلافـة الموحـدين غايـة في الصعوبة، وهو الذي تجرع مرارة الهزيمة في معركة البحيرة السالفة الـذكر[٢]؛ وكـان يـرى أن هذه مجرد كبوة سـيعمل عـلى النهـوض منهـا في الوقـت المناسـب، فعمـد إلى وضـع استراتيجية عسكرية، يقضيـ بموجبهـا عـلى دولـة المـرابطين، ويتطلـع إلى السـيطرة عـلى الأندلس؛ هاجسه القوي الذي لا يقل في اهميته عـن المغـرب، ومـن ثـم يضـم المغـربين الادنى والاوسط إلى دولته.

فتح البلاد فتحا منظما؛ فغزا الجبال ثم السهول والمدن. وكان لخطته اسباب عسكرية واقتصادية، إنّ تحصن الموحدين في جبال تادلا وغمارة في بداية دولتهم جعلتهم في مأمن من غارات الخيالة النصارى العاملين في جيش المرابطين، ومكنتهم أيضاً من الاستفادة من منعة الجبال وخيزاتها الغذائية الوفيرة، وكذلك السيطرة على أهم المناجم المغربية فيها،[٣] وبهذا يستطيعون مراقبة أهم الطرق التجارية المتوجهة من الصحراء نحو البحر، فيقوى بذلك مركزهم، ولم تكن هذه الخطة غائبة. عن عيون المرابطين، فقد انتهزوا غياب ابن تومرت عن مسرح الاحداث، وأرسلوا سنة ٥٢٥هـ/١١٣١م، جيشا بقيادة الأمير ابراهيم الشهير بابن تاغيشت، للقضاء على الموحدين قبل ان يستفحل خطرهم، فحلت الهزيمة بهذا الجيش، واستولى الموحدون على أمواله واسلحته. وكان من نتيجة هذه المعركة أن فرضت وبشكل مفاجئ قوة جديدة في المنطقة، استطاعت مقارعة المرابطين، كما أنها كانت مقدمة لصراع طويل، انتهى إلى تفوق الموحدين، وزوال دولة لمتونة. انتشر خبر هذا النصر في بلاد المصامدة، فأخذ الناس يتزاحمون على أبوابهم وينضمون إلى لوائهم، وبخاصة سكان الجبال المترددين منهم[٤]، وتوالت الحروب بين الموحدين، والسلطة المرابطية المتراجعة، فكان الظفر لعبد المؤمن الذي سار على رأس

---

(١) البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت،ص١٠٢.
(٢) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٥، ص:٥٣؛ إبن الاثير: الكامل، ج٨، ص:٢٩٨.
(٣) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٣١.
(٤) إبن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص:٥٨.

جيش سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م، بلغ عدده نحو ثلاثين ألف مقاتل، وكانت مراكش محور المهمة الصعبة التي ضرب عليها الحصار في ذلك الحين، ثم أرتد عنها نظراً لمناعة اسوارها، وتوجه إلى تادلا جنوبا، فاكتسحها، وتابع سيره إلى درعة، وسيطر على حصنها، وعلى الاماكن المحصنه في هزرجة وبلاد غمارة، ولم يعد ثمة ما يعيق تقدمه نحو الشمال، انفتحت امامه ابواب المدن، دخل سلا، وهاجم قلعة ناز جوزت وافتتحها(١)، وقتل قائدها المرابطي ابا بكر بن مازوا، فوقعت زوجته بنت ييتان بن عمر أسيرة بين يديه.

كان أثر تلك المعركة وبيلا على المرابطين، اذ انقلب سكان المغرب على الدولة، وأعلن موقفه العدائي منها(٢). وانكفأ عبدالمؤمن يحمل النصر إلى بلاد السوس. وهاجم في طريقه مدينة تارودانت، واستولى عليها، بعد أن هزم قائدها المرابطي "علي بن يوسف"، الذي فر هاربا أمامه إلى مدينة تيونوين، واخضع بلاد السوس جميعها ثم عاد إلى تينمل(٣).

قام عبدالمؤمن بعرض للقوى العسكرية بتينملّ، إذ عقد فيها مجلسا حربيا، تقرر في أثنائه استئناف الحروب، تصدى له الأمير ناشفين قائد جيش المرابطين، واشتبك معه في معارك وغزوات استمرت أكثر من شهر سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م، كان فيها الظفر للموحدين، وهزيمة المرابطين، ثم انسحابهم إلى بلدة "إيمي تانورت"(٤)، واستنجادهم بقبيلة جزولة، التي شنت هجوما عنيفا ويائسا على مؤخرة جيش الموحدين، فاستدار الاخيرون وفتكوا بمعظم رجالها، واستولوا على أسلحتها ووسائط ركوبها(٥).

عاد تاشفين إلى مراكش مهزوما(٦)، وبعد فترة راحة عاود المسير بجيشه في العام التالي لقتال الموحدين، اذ ظلت الحرب سجالاً بين الطرفين مدة شهرين، واستمرت إلى عام ٥٣٥هـ/١١٤٠هـ فانتهز تاشفين الفرصة، وسار بقوات كبيرة من المرابطين

---

(١) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٠٢، ١٠٣؛ تازجورت، يسميها إبن خلدون، تاسعون او تاسيغموت، ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٦؛ وكذلك، البيدق: أخبار المهدي بن كومرت، ص:١٢٨.

(٢) ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٨٧٧؛ ابن القطان: نظم الجمان، ص:١٩٥-١٩٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٦.

(٣) إبن عذاري: البيان المغرب، ج، ص:١٨٧؛ ابن القطان: نظم الجمان، ص:١٩٥-١٩٦؛ ابن خلدون : العبر، ج٦، ص:٣٠٦.

(٤) إينمي ثانورت: بلدة في جنوب المغرب.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٦.

والحشم،[١]، والنصارى ليصطدم بالموحدين عند جبل جـذميره[٢]. فتراجـع منهزمـا، وطـارده الموحـدون إلى سـفوح الجبـل المـذكور، وعـاد تاشـفين يحمـل همومـه، يرافقـه الربرتير[٣] جريحا إلى مراكش.

استمرت الحروب ناشبة بين الفريقين دون أن يترتب عليها أي نتائج حاسـمة، رأى عبدالمؤمن ان ينقل مسرح المعارك إلى قلب الدولة المرابطية؛ فأعلن التعبئة العامـة، ثـم حبذ كل من يقـدر عـلى حمـل السـلاح، وسـار بهـم سـنه ٥٣٥ هــ/١١٤٠م، وقيـل عـام ٥٣٤هـ/١١٣٩م، في غزوته الكبرى جهة الشرق والشمال، بعد أن عين على تينمـل مجلسـا رباعيا يحكم المدينة.[٤]

خرج من المدينة، متخذاً من الجبال بيوتا وحصونا، فإذا ما انتهـت المؤونـه أرسـل إلى القبائـل بعـض فـرق جيشـه، داعيـة الى مـذهب التوحيـد، فـإذا اسـتجابت اسـتعان الموحدون بأرزاقها ومحاربتها، وإن رفضت اغتصب الموحدون معاشها ومواشيها واقتادوا رجالها[٥]، كان المرابطون على علم بخطـة الموحـدين الجديـدة، تعقـبهم تاشـفين والتـزم السهل طريقاً، من بلدة الى أخرى، دون أن تحصل معارك ذات بـال، إنمـا كانـت القبائـل تدخل افواجا في مذهب التوحيد.[٦]

---

(١) الحشم: تسمية المهدي بن تومرت للمرابطين، لاستخدامهم اللثام كما تفعل النساء، مجهول: الحلـل الموشـية، هامش ٧٤ ص:١١١
الحشم: حشم الرجل، أي خاصته الذين يغضبون لغضبه ولما يصيبه من مكروه، من عبيد أو أهل او جيره، ج احسام.
احمد حسن الريان: المعجمالوسيط، ج١، دار احياء الـتراث العـربي، بـيروت، لا.ت؛ مجـد الـدين آبـادي: ج٤، ص:٩٨، دار الجيل الحشم: خاصة الامير من عبيد أو أهل أوجيره، الخدم، أو عياله وافراد بيته.
أبو الفضل جمال الدين: ابن منظور، ج١٢، ص:١٣٦، دار صادر، بيروت، لا.ت

(٢) جبل جذيره: في جنوب المغرب، قرب ثارودنت.
ابن عفراري: البيان والمغرب، ج٤، ص:٩٨.

(٣) الربرتير "Reverter" هو قائد الفرقة النصرانية في جيش المرابطين؛ ابن عذارى: والبيان المغـرب، ج٤، ص:٨؛٩ البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص:٩٠.

(٤) يتألف هذا المجلس من ابي يعقوب يوسف بن سليمان، وسناربن عبـدالله، وأبي عمـران مـوسى بـن الحسـن، ومحمد بن يومور.
البيدق: اخبار المهدي، بن تومرت، ص:٨٩-٩٠.

(٥) المصدر نفسه، ص:٨٨، وما بعدها.

(٦) الناصري: الاستقصاء، ج١، ص:١٠٣، ١٠٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص:٩٩.

استأتف الموحدون مسيرهم إلى شرق مدينة فاس، وعسكروا بقربها على جبل عفرا؛ استعدادا لغزو المدينة الأخيرة. حاول تاشفين اللحاق بعبد المؤمن، لكنه نكص، وتحصن في مدينة فاس ليقضي فيها شتاء عام ٥٣٦هـ/١١٤١م[١]. كان الموحدون- حسب الخطة الموضوعة- يمشون في الجبال المانعة، حيث الارزاق الواسعة، وأما تاشفين يحاذيه بعساكره على البسائط والسهول.[٢]

بدأت الامطار تهطل بغزارة على كليهما. بقي الموحدون في معسكرهم، بجبل عفرا، بينما رحل تاشفين بقواته من ظاهر فاس إلى ناحية نازا، فغرق في مياه الامطار والاوحال، وغرقت الدواب وكثرت الوفيات، وغلت الاسعار، وكانت هذه انكى عليه من الحروب[٣]، ولم يزل عبدالمؤمن يتنقل من مكان إلى آخر، وتاشفين في أثره يناوشه القتال يشد عضده الربرتير دون أن يحرزا نصراً يذكر[٤]. حتى دخل أمير المؤمنين المزمّه[٥]، فحاصرتهم الطبيعة ثمانية أيام؛ اذ عصفت بهم الريح الشديدة والأمطار الغزيرة؛ فأهلكت الكثير من الدواب والانعام؛ فنفقت المؤن، وبلغت الحاجة بهم شدتها[٦]، ثم أقلع منها إلى جبل تمس أمان[٧].

من هناك بدأ يشن الغارات على مختلف الاطراف والنواحي، ويعود منها محملاً بالسبي والغنائم، فيأمر بتوزيعها على الجند كما توزع غنائم الحروب[٨].

---

(١) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص:٩١؛
ابن عذارى: البيان المغرب، ج٤، ص:٩٩.

(٢) الموحدون جلهم من رجال القبائل الجبلية؛ لذلك كانوا أقدر من المرابطين في حرب الجبال وهي موطنهم، أما المرابطون فصحراويون ويجيدون حرب الأراضي السهلية، تتناسب مع مسكنهم الأصلي، البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٩١.

(٣) البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص:٩١،
مجهول: الحلل الموشية، ص:١٣٠؛
ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص:١٠٠، ق٣، ص:٢١.

(٤) البيدق: أخبار المهدي أبن تومرت، ص:٩١.

(٥) الحسيمة الحالية في شمال المغرب.

(٦) البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٩١.

(٧) تمسامان، جبل يقع قرب مدينة مليلية شمال المغرب، ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص:١٠٠.
أوتمي أمان كما يسميه البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص:٩٣.

(٨) المصدر نفسه، ص:٦٤.

ورحل عبد المؤمن بعد ذلك الى "ندورمة" من بلاد كومية في الجزائر، ومنها واصل سيره إلى تاجرا، مسقط رأسه والقى فيها عصا الترحال وهنا انضمت حشو كبيرة إلى صف عبد المؤمن[1].

أمّا أخبار الموحدين سرعان ماانتشرت بين قبائل الجزائر، ولا سيما بين بطون كومية[2] وزناته.

فوفد إبراهيم بن علي الكومي، والتقى أخاه الخليفة، الذي رحب به وأكرم وفادته، اذ اعتنق التوحيد، منخرطا في سلك الموحدين، متآخياً مع محمد بن أبي يجيت "ييكيت". وبعد فترة اشتد الخلاف بينهما، وكثر الشجار، وتعمقت القطيعة، وفي أحد المواقف خرج أبو بكر عن إتزانه، وضرب ابراهيم؛ فأرداه قتيلا، فتأثر الخليفة تأثرا بالغاً على الغدر بأخيه، وطالب بتطبيق القصاص العادل. لكن أبا حفص وأبا الحسن بن واجاج تقدما إليه وذكراه بقول المهدي: "إن أهل الجماعة وصبيانهم، عبيدهم كل من في الدنيا"[3] مع العلم أن القاتل ابن احد أهل الجماعة، عندها صمت الخليفة، كاظماً غيظه متنازلاً عن دم أخيه.

يذكرنا هذا الحادث بمدى قداسة أقوال المهدي ابن تومرت عند الموحدين؛ أنهم كانوا يسيرون وفق نظام طبقي وامتيازات خاصة لكل طبقة. ودل هذا على بعد نظر عبدالمؤمن وقدرته على كظم الغيظ، وضبط النفس، واحتواء الحوادث المفاجئة، وهي حقا صفات ضرورية للقائد الناجح.

ومن مستقره بتاجرا بعث ثلاث حملات: الاولى بقياة عبدالرحمن بن زجو "زكو" لغزو وهران، فاجتاح ضواحيها، وعاد بالغنائم والأسلاب. والثانية بقيادة الشيخ ابي ابراهيم اسماعيل ، فأخضع قبائل بني وانفرن وانون، والثالثة بزعامة يوسف بن وانودين، لاخضاع بلاد مديونه من ضواحي تلمسان، فالتقى جيشين من المرابطين، انتصر عليهما وقتل قائديهما[4]، وترادفت الفتوحات في كل مكان، ووفد على الموحدين عدد من

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٠٠.
(٢) كومية، قبيلة من الجزائر ينتمي اليها عبد المؤمن،
ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٥، ص:٤٧؛
ابن أبي ذرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٠١.
البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص:٥٥، ٦٥.
(٣) البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص:٩٣.
(٤) المصدر نفسه.

زعماء القبائل المجاورة، تعلن الطاعة وتدين بالتوحيد. رحل الموحدون بعد ذلك الى قرب تلمسان، في حين ارتد المرابطون بقيادة تاشفين والربرتير[1]. الى مدينة فاس، كمحاولة أخيرة لقطع طريق العودة على الموحدين، وانقاذ المغرب الاقصى ومن ثم يستكمل تطهير المغرب الأوسط منهم[2].

وساعدت الظروف أمير الموحدين، في تفوقه الظاهر على المرابطين علي مواصلة انتصاراته؛ اثر تعرض دولة لمتونة لبعض الاضطرابات والاهتزازات، منها، أن علي بن يوسف قد اهتزت ثقته بابنه تاشفين، لأنه لم يستطع التغلب على الموحدين، أو يوقف من تقدمهم، ويخفف من عنفوان انتصاراتهم. فعزم أبوه على خلعه من ولاية العهد، وتقليدها الى ابنه الأصغر اسحاق[3].

لكن الظروف كانت معاكسة لعزيمة الأب الذي عاجلته المنية، لدى سماعه انباء أورثته هماً وغماً، فأصيب بسكتة قلبية، ودفن مشروعه الى الأبد. كذلك لم يكن الوفاق، يجمع اسرة الأمير علي بن يوسف. فقد خشىـ هذا الأخير أن يثور ابنه أبو بكر بعد وفاته[4]. فلما شعر بدنو أجله أمر باخراج ابنه أبي بكر من مراكش وحمله الى الجزيرة الخضراء، فحمل الى هناك، وهو يقاسي مرارة المرض والحرمان، وأودع السجن، ولم تطل مدته في محبسه حتى مات[5].

---

(١) الربرتير Reverter وهو قائد فرقة النصارى الملحقة في جيش المرابطين، في زمن الأمير علي بن يوسف. وقد كان لهذا السلطان فرقة جمعها من مرتزقة النصارى، واطلق عليها مؤرخو العرب "فرقة الروم".
ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ٩:٨
ويقول بصدده البيدق: اخبار المهدي، وقد غزا عبد المؤمن غزوته الأولى وتقاتل مع تاشفين والشنيور (الربرتير). ويسميه كذلك الابرتير؛ وينعته ابن خلدون: في كتابه العبر، الزبرتير.

(٢) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٨٤، ٦٨، ٨٧، ٩٥.
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٧، ٣٠٨.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ٩٩.

(٤) كان أبو بكر هذا اكبر ابناء علي بن يوسف. وقد حول ابوه العهد عنه، اولا الى سير، فسخط لذلك وتذمر، ثم الى تاشفين، فاستاء ايضاً. ومن أجل هذا أوقع عليه ابوه العقاب بحبسه في الجزيرة الخضراء. وكان أبو بكر والياً علي اشبيلية من سنة ٥١٨هـ/ ٥٢٢/ ١١٢٤م/ ١١٢٨م؛
ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٠١.

(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

ثم ظهر التنافس بين قبيلتي مسوفة ولمتونة حين تولى الأمير تاشفين الحكم، فخرج عليه بعض زعماء مسوفة، وانضووا الى راية الموحدين؛ أمثال: يحيى بن تاكسفت، وبراز بن محمد، وحاكم تلمسان يحيى بن اسحاق المعروف بانكمار "انكار". كما تنكر له زعماء بني ومانو من قبيلة زناتة، واعلنوا توحيدهم وطاعتهم. فاستعملهم عبد المؤمن قادة لبعض السرايا لاخضاع ابناء عمومتهم من زناتة بني عبد الواد وبني يلومي[1].

ان هذه الحوادث اصابت - بدون شك - تاشفين بطعنة كبيرة، واضرت كثيراً بمشاريعه المغربية، وجعلته يرنو ببصره، على الأقل الى الاندلس، إذا وافقته الاقدار. بهذه النفسية المنقبضة خرج تاشفين، حاملاً فشله، لمحاربة الموحدين. وعلى الرغم من ذلك ما يزال يناور ببعض الاوراق، اخرج الربرتير على رأس جيش لمتونه للتصدي لعبد المؤمن، وصدمه بقوات المرابطين، التي احدثت هزة عنيفة بين صفوف الموحدين[2]. لكن براعة عبد المؤمن ومؤهلاته العسكرية، استطاعت اقتطاف كل الفرص التي ساعدته على تحقيق النصر، فضغط بقواته، وتوجه الى تلمسان، ثم الى سيرات، وشن حروباً خاطفة على القوات اللمتونية والزناتية[3]، أوقعت بينهم كثيراً من القتلى والأسرى، وانكفأ الموحدون راجعين يجرون أسراهم، ويحملون غنائمهم وأسلابهم[4]. غير أن الامير تاشفين صمم على اعتراضهم بجيش ضخم يقوده الربرتير، الذي استطاع بحنكته وخبرته العسكرية أن يستعيد منهم تلك الغنائم والاسلاب، ويعود مدلا بقوته، ودون تحوط منه، فيقع بغتة بين كمائن الموحدين التي خاضت معه حربا ضروسا، تمكنت أن تتجاوز الهزيمة التي منيت فيها أول الأمر وأن تحقق في نهايتها النصر وتبدد جيشه، ولم يسلم منه الا ستة نفر على حد قول البيدق وهو أحد شهود المعركة، فضلاً على سقوط القائد نفسه صريعاً في ارض المعمعة[5].

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٧.
(٢) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٩٢؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٧.
(٣) المصدر نفسه، ص: ٣٠٨.
(٤) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٦٩.
(٥) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٩٦؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٠٣؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٨.

هذه المعركة ادت الى نقص حاد في الجيش، مما دفع تاشفين أن يعلن التعبئة العامة في جميع انحاء الامارة. فإنهالت عليه الحشود من كل مكان، من سجلماسة، وبجاية، والاندلس بقيادة ابنه الامير ابي اسحاق ابراهيم بن تاشفين، بالاضافة الى اربعة آلاف جندي من نصارى اسبانية، احتفل بهم تاشفين وقام بعرض عسكري حاشد - بمثابة حرب نفسية - قرب تلمسان، وكانت آخر جيوش عرضها المرابطون[1].

ان هذه المظاهرة العسكرية لم تفعل فعلها في نفسية الموحدين، الذين طاردوا تاشفين، واوقعوا به وبجيشه عدة هزائم، فقد من جرائها خيرة قادته، منهم من قتل، وآخر هرب الى الصحراء بجماعته، وغيرهم عاد الى المغرب، ولم يبق مع تاشفين سوى شراذم عسكرية ضاق بهم ذرعا، في سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م[2]. وقد قرر التوجه الى وهران، وأمر ابنه وولي عهده ابراهيم مع مستشاريه وكتابه، وعلى رأسهم ابن عطية التوجه الى مراكش، وغذ السير هو الى مأواه الأخير، بعد أن طلب من قائد اساطيله محمد بن ميمون من مرساه في المرية، أن ينحدر الى وهران كما مر سابقاً[3].

تتبع عبد المؤمن اثر تاشفين الى وهران، وأخضع في طريقه جميع القبائل التي بقيت حتى هذا التاريخ على ولائها للمرابطين. في حين اعتصم تاشفين في القلعة على ربوة عالية بالقرب من شاطيء البحر ليكون على مقربة من الاسطول[4]. لم يكن هذا الأمر غائباً عن عيون عبد المؤمن، الذي اسرع، وحاصر الحصن، واشعل فيه النيران. وكانت هذه هي المجابهة الأخيرة، المرابطية - الموحدية، وانتهت الحشرجة بخروج تاشفين ليلا، يريد النجاة أو الهجوم، فانقلب به جواده من حافة بعيدة المهوى فسقط قتيلاً في ٧٢ رمضان ٥٣٩هـ/ موافق ٤/ تموز/ ١١٤٤م[5].

يعد البيدق الاشخاص الستة الذين سلموا: ثلاثة من النصارى؛ شوين وغشتون، وبطريات؛ وثلاثة من المرابطين، علي بن الخنوس، ويخلف الاشنطير، ويخلف المكرطر.

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣١.

(٢) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ٩٧؛
ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٠٤؛
مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٢؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٨.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٨؛
مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٣.

(٤) الاسطول: معناها سفينة، ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٨.

(٥) المصدر نفسه؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٣؛
ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٠٤.
خير الدين الزركلي: الاعلام، ص: ٨٣، ج٢، ط٢، دار العلم للملايين بيروت، ١٩٨٩م.

اقتحم عبد المؤمن وهران في أول يوم من عيد الفطر من العام نفسه، واستأصل المرابطين قتلا وسبيا[1]. ويذكر البيدق في كتابه، اخبار المهدي ابن تومرت، أن اللمتونيين في وهران قتلوا عن آخرهم، ولم يبق منهم خلا واحد هو، سيد الملوك بن يزدعسنيت السدراتي، الذي بادلوه بفندة بنت علي وابنتها اسيرتين لهم عند الصحراوي حاكم فاس[2].

كان أول ما سجلته معركة وهران من نتائج، هو تنامي القوة الموحدية رغم التحديات الجسام، حتى وصلت الى مكانة تحسد عليها، ومعها طاقاتها الجديدة، لتحقق النوعية الخطرة، من مرحلة التأسيس المضطربة الى مرحلة استقرار الدولة، وانتشارها المذهل، وبخاصة نحو الشمال والشرق.

وقد تمكن الموحدون آنذاك من بناء دولتهم التي تجاوزت في سياستها الحدود الإقليمية والقومية، صوب العالم المحيط، حيث تقبع الدول النصرانية في اسبانيا، وحلفاؤهم من الأندلسيين المتخاذلين، وهم في معظمهم محسوبون على المعسكر الاسباني، منتمون إليه جداً وإخلاصاً، أو هزلاً واكتساباً، والأمر سواء، لذلك كان الامتداد الجغرافي للدولة الموحدية آنذاك قد بلغ الحد الذي تستفز به الدول الاسبانية والأندلسية المشرذمة من ورائها، رغم بقاء مراكش المهزوزة خارج دائرة النفوذ الموحدي، إذ لم يرَ عبد المؤمن خطراً من تركها إلى بعض الوقت، ورأى التعجيل بإرسال جيش إلى الأندلس بعد افتتاح تلمسان[3]

تحرك عبد المؤمن جهة تلمسان واقتحمها عنوة سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، وعين عليها واليا من قبله هو سليمان بن محمد[4]، ثم غادرها متوجهاً الى فاس، وضرب عليها الحصار، والح في حصاره، فاستعصت عليه مدة، بفضل حماس اميرها ابي بكر يحيى بن

---

(١) المصادر نفسها ، الصفحات نفسها.

(٢) البدق: اخبار المهدي ابن كومرت، ص: ٩٨؛
ابن عذاري: البيان المعرب، ج٤، ص: ١٢٦.

(٣) ابن خلكان: وفيات الإعيان، ج٣، ص٢٣٩.

(٤) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٨٨؛
مجهول: الحلل الموشية، ص: ٥٣١؛ ابن خلكان: الوفيات، ج٣، ص: ٢٣٩؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٩؛ وفي رواية أخرى لابن أبي زرع، أن تلمسان فتحت سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م بعد فتح وهران، حيث أبقى عب المؤمن جيشاً محاصراً تلمسان لما توجه إلى وهران متعقبا اثر تاشفين من العام نفسه.

الصحراوي المرابطي الذي احسن الدفاع عن المدينة؛ إذ كان يخرج منها بسراياه بين الحين والأخر، يقوم بهجوم خاطف على الموحدين، ويعود ليتحصن فيها. رأى عبد المؤمن، توفيرا للجهد والوقت، أن يترك بعض قواته على حصارها، ويسير هو مع قوة أخرى، لكي لا يعطي فرصة للمرابطين لالتقاط الانفاس، والتفكير في ثورة مضادة، للإستيلاء على باقي المدن المغربية، وفي طريقه حاصر مكناسة، حيث دام مدة طويلة الى سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨[١]. وفي أثناء ذلك، وردته انباء مفادها أن فاسا استسلمت بعد حصار مدته تسعة شهور[٢]، ودخلها الموحدون بعد أن ضمنوا مشرف المدينة خيار بن الجياني الى صفهم، إثر خلاف حاد حصل بينه وبين الحاكم المرابطي ابن الصحراوي الذي طالبه بمال كثير لم يكن في وسعه تأمينه له، فاتصل سراً بالقائد الموحدي ابي بكر بن الجير أن يستعد لاستلام مفاتيح المدينة[٣]. ويذكر صاحب الحلة السيراء، أن ابن الجياني شغل الوالي يحيى بن الصحراوي في ليلة عرسه بكثرة ما أهدى اليه، ليشغله عما يجري، واتصل بالموحدين سراً وادخلهم المدينة[٤]. وفي الصباح ذهل ابن الصحراوي عندما رأى الموحدين يسيطرون على سور المدينة وعلى ابوابها، فطلب من أحد اعوانه أن يحطم قفل أحد الأبواب (باب الفتوح)، اذ فر ناجياً بجلده مع ثلة من اصحابه الذين تركهم يلوذون باحدى المدن يتحصنون بها، وتمادى هو في هروبه يقطع الفيافي والدروب، حتي وصل طنجة التي كما يبدو لم تكن له دار قرار، حيث عبر البحر منها الى الأندلس لائذا بابن غانية سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م[٥].

اتجه بعد ذلك عبد المؤمن الى مدينة سلا التي لم يجد فيها مقاومة ذات بال، واستولى في طريقه على قصبة الرباط، وعين عليها الوالي عبد الواحد الشرقي[٦].

---

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٩.

(٢) ابن خلكان: الوفيات، ج٣، ص١٣٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٣، ص: ٢٣٩؛ يذكر ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٩، ان الحصار دام سبعة شهور.

(٣) البيدق: اخبار المهدي بن تومرت، ص: ١٠١؛
في حين يذكر، ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٩، أن القائد الذي بقي على فاس عند غياب عبد المؤمن، الشيخ ابو حفص ومعه ابو ابراهيم، وبقية صحابة المهد ي العشرة.

(٤) ابن الابار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٣٦؛ ان عذاري: البيان المغرب، ق٤، ص: ٩١-٢٠.

(٥) البيدق: اخبار المهدي بن تومرت، ص: ١٠١، ١٠٢؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٩.

(٦) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٣، ص: ٢٣٩؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٧.

يظهر أن اخبار مراكش القلقة هي التي ساعدته على سرعة هذه الانتصارات وسهولتها[1]. وقبل أن يستكمل الأمير الموحدي المنتصر مهمته في ترسيخ أقدامه في الأماكن التي كان يحتلها، عليه أن يتم فصلا آخر منها ينتظره في مراكش، اذ لم يكن الوصول اليها نزهة عسكرية بقدر ما هي حواجز بشرية مقاتلة، يتحتم ان يتخطاها دون أبطاء. علما أنه يسير وفق خطة موضوعة؛ يفاجىء قوى الاعداء، ويعتمد على السرية التامة قبل ان تتنبه. لذلك غذ السير الى مراكش مسرعاً، وقبل الوصول اليها وصلته طاعة أهل سبتة، ودخول الموحدين الى طنجة[2] واكتسح بطريقه جموح لمطة وبرغواطة العنيدتين، وقام بجمع الضرائب من القبائل الاخري التي دانت له بالتوحيد، وقد مت له الطاعة[3]. ومن ثم انتهى الى العاصمة أول شهر محرم ٥٤١هـ/ ١٣ حزيران ١١٤٦م؛ وعسكر في جبل ايجليز (جليز) الواقع غرب المدينة[4]، ونصب عبد المؤمن قبته الحمراء، وبدأ بانشاء مدينة، وأمر ببناء مسجد وصومعة، ثم أخذ يشرف بنفسه على الحصار وعلى المعارك الحربية الدائرة[5]. تولى مهمة الدفاع عن المدينة بعض قادة المرابطين؛ منهم: اسحاق بن يينان، وسير ابن الحاج، ومحمد بن حواء، ومحمد بن بانكالا[6].

واستمرات الحرب اربعة ايام سجالا بين الطرفين، وفي اليوم الخامس، رتب عبد المؤمن الكمائن التي اوقعت الهزائم بالمرابطين، وطاردتهم حتى ابواب سور المدينة[7].

(١) نشب خلاف بين المرابطين انفسهم علي اثر وفاة تاشفين، فتولى ابنه ابراهيم الامارة من بعده، فثار عليه عمه اسحاق بن علي، واحتدم الصراع بينهما، وتشرذمت قوات المرابطين بين مؤيد وناكث. لذلك كان فقدان التلاحم البشري في مجتمع مراكش، هو الذي اسهم الى حد كبر بانهيار الشخصية المركزية للحكم الرابطي، على الرغم من أن موت تاشفين، كان وحده مؤشرا على نهاية الدولة؛ ابن عذار: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٠٥.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص ٣٠٩؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٨٩؛ وقد بعث عبدالمؤمن يوسف بن مخلوف التينملي واليا على ثغر سبتة وتوابعها، مثل المرية وغيرها؛ وكان فتح مدينة مالقة من السنة نفهسا، ٥٤٠هـ/١١٤٥م؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٢٠.

(٣) البيدق: اخبار المهدي، ص: ١٠٢.

(٤) يطل هذا الجبل الآن علي مراكش من الجهة الشمالية، وبه سميت احياء المدينة العصرية.

(٥) مجهول: الحلل، ص: ١٣٧؛ البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١٠٢؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٠٩.

(٦) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٢٦؛ البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١٠٣، ويذكر الاخير، أن هؤلاء هم السلاطين الظاهرين لصغر سن السلطان الشرعي، اسحاق بن علي.

(٧) المجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٧.

لقد عانى المرابطون ألم الحصار الذي دام تسعة شهور[1]، وذكر آخرون أن مدة الحصار كانت أحد عشر شهراً[2]، انقطعت خلالها المواد الغذائية، وتساقط الناس صرعى، وتفشت فيهم المجاعة، وانتشرت بينهم الأوبئة، ونفقت الدواب فضعفت المقاومة[3].

انتهز عبد المؤمن هذه الظروف الصعبة التي تمر بها مراكش، وربما كانت من تخطيطه، فأمر بالهجوم العام، واقتحام المدينة بواسطة السلالم، وعين لكل قبيلة جهة تقتحم مراكش منها؛ الموحدون وهنتانة وأهل تينمل من باب دكالة، وصنهاجة وعبيد الحكومة من باب الدباغين، وهسكورة مع القبائل المتبقية من باب بيتان (ينتان). فسقطت العاصمة في ١٨ شوال سنة ٥٤١هـ/ ٢٤ آذار ١١٤٦م بيد الموحدين [4]. ولم ينتصف نهار ذلك اليوم حتى استولوا عليها، والقوا القبض على الأمير اسحاق بن علي، وعلى كبار دولته، واستاقوهم الى جبل ايجليز، وتم اعدامهم عن آخرهم، وعبد المؤمن ينظر اليهم مشفقا على من لم يبلغ الحلم منهم، وحاول الخليفة التدخل لمصلحة الأمير اسحاق لصغر سنه، فاستنكر اشياخ الموحدين هذه اللفتة الملكية، بزعامة ابي الحسن بن واكاك، وقالوا: "ارتد علينا عبد المؤمن، يريد أن يربي علينا فراج السبوعة، فقام الخليفة غضبان وتبعه الموحدون الا أبا الحسن والشيخ أبا حفص"[5].

لقد اختلفت المصادر التي بين ايدينا حول الطريقة التي فتحت بموجبها مراكش، وكذلك على اسم الأمير القائم آنذاك وينفرد صاحب الحلل الموشية من بين جميع المصادر، ويدعي أن الأمير المنصب كان "أبو اسحاق ابراهيم بن تاشفين"[6].

---

(١) المصدر نفسه، ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٠؛ ابن عذاري: البيان، ق٣، ص: ٢٢.

(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٢٩٧؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٢٦.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٠؛ ابن عذاري: البيان، ج٤، ص: ١٢٦؛ ق٣، ص: ٢٢.

(٤) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١٠٢؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٠؛ ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٨٩؛ غير أن المراكشي- وابن خلكان انفردا من المصادر أن مراكش فتحت بتاريخ ٥٤٢هـ/ ١١٤٧؛ وانها حوصرت مدة أحد عشر شهراً؛ وقال بحصارها مثله، ابن عذاري، القسم الثالث الخاص بالموحدين، وابن خلكان، ج٣، ص: ٢٢٩.

(٥) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١٠٤؛
مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٩؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٢٦؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٠.

(٦) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٩.

غير أن كلا من، كتاب المعجب[1]، والأنيس المطرب بروض القرطاس[2]، والبيان المغرب[3]، والعبر[4]، واخبار المهدي ابن تومرت[5]، تذكر أن أمير مراكش المقتول، كان، اسحاق بن علي ابن يوسف.

فلربما كان مرد هذا الخلاف بين المصادر حول منصب الامارة في مراكش، ويعود الي ايام تاشفين، اثناء توجهه الى وهران، وكان قد قلد ابنه ابا اسحاق ابراهيم ولاية العهد، وأمره بالعودة الى مراكش، وبعد وفاة تاشفين نقض اسحاق بيعة ابن أخيه، وألب رجال الدولة عليه، فالتفوا حوله، وانتزع الامارة منه[6].

أما التعجيل في فتح مراكش، فلعل سببه كان راجعاً الى تواجد جيش من مرتزقة النصارى الاسبان في العاصمة، اذ كانت له اليد الطولى في التآمر مع الموحدين، وفتح الطريق لهم من جهته، مما سهل لهم مهمة دخول المدينة من (باب أغمات) الذي كان موكلاً بحراسته، بعد أن اشترطوا على عبد المؤمن أن يعطيهم الأمان،فوافق على شروطهم، ودخلها عندئذ[7].

يلوح ان هذا الرأي على جانب من الحقيقة، لأن المؤرخ البيدق المرافق للحملة، لم يذكر في كتابه، اخبار المهدي ابن تومرت، أن الموحدين اقتحموا باب أغمات بحد السيف مع باقي الأبواب، بل تغافل عن ذكر اسمه تماماً[8].

٦- دخول الموحدين إلى الأندلس:

إذا كان اقتحام وهران واحتلال عاصمة المرابطين قد فتحا أبواب الأمل أمام عبدالمؤن ليتربع على عرش مراكش، فإن الطريق إلى ذلك كان طويلاً وشاقاً بالغ

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٢٩٧.
(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٨٩.
(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤.
(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٠، ٢٥٢؛ يذكر هذا: أن المرابطين امروا عليهم ابراهم بن تاشفين، بعد مقتل والده تاشفين في وهران، لكن اشياخ لمتونة وجدوه عاجزاً ضعيفاً، فخلعوه، واستبدلوه بعمه اسحاق ابن علي بن يوسف.
(٥) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١٠٣- ١٠٤.
(٦) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ١٠٥.
(٧) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٣٨.
(٨) البيدق: اخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١٠٣.

الوعورة، وخاصة في الجبهة الافريقية. أما الأندلس فلم يقدم الموحدون جهداً كبيراً في فتحها، ما عدا مناطق البر الشرقي والجزائر الشرقية، لذلك لم يجد صعوبة تذكر في السيطرة على هذه الجهات؛ فقد تم ضم معظم الأندلس بسهولة إلى حد ما وبسرعة مذهلة في بعض الأحيان، إذ لم يحصل صدام يذكر وتصدٍ طويل يلفت الإنتباه[1].

والسؤال الآن يطرح نفسه: لماذا شدت الأندلس اهتمامات الموحدين؟ ربما لأنهم اعتبروا السيطرة على الأندلس خطوة أولى نحو تحقيق هدفهم الخاص بإقامة خلافة اسلامية تحت رايتهم؛ فبلاد الأندلس تعتبر المجال الأرحب لتوسيع دولتهم شمالاً، ولنشر مذهب التوحيد ثانية، إذ كفروا كل من لم يعتنق مذهبهم ويحمل رايتهم. واعتقد الموحدون أن احتلال الأندلس يهدف إلى حمايته من السقوط بأيدي الدول النصرانية؛ مما يثير فيهم روح الحماس للجهاد، ليبقى المسلمون في أمن وسلام، ويبدد مخاوفهم من احتمال عبور جيوش لمتونية من الأندلس إلى المغرب، فيثيرون المتاعب في وجوههم، ثم لينفرد الموحدون في قيادة الأندلس وحدهم[2].

أخذ بنو عبد المؤمن يدفعون بجيوشهم عبر المضيق قبل احتلال مراكش وتثبيت انتصاراتهم في المغرب، وكانت الأندلس المضطربة احدى الخيارات التي دفعت بهم إلى العبور، بالإضافة إلى أن بعض الثوار قد اعلنوا طاعتهم وولاءهم لهم قبل أن تعبر جيوشهم إلى هناك؛ إذ قامت ثورة في مارتله Mertola من غرب الأندلس أعلن ثوارها الدعوة للموحدين سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م[3].

فانطلقت أولى الجيوش بأمر من عبد المؤمن بقيادة موسى بن سعيد، الذي عبر المضيق وعسكر في الجزيرة الخضراء، فتلقاهم حاكم شريش أبو الغمر القائد المرابطي السابق على رأس ثلاثة ألاف فارس، وبايع لعبد المؤمن، وقدم ولاءه وخضوعه، واعتنق مذهب التوحيد وسلمهم مدينة شريش. فكانت تلك أول مدينة فتحوها من الأندلس

---

(١) ابن عذاري: البيان، ق ٣، ص ٢٢؛ ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص ٢٩٩-٣٠٠.

(٢) المراكشي: المعجب، ص ٢٨٥؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ٢٧٧.

(٣) يلاحظ أن الجيش الموحدي دخل الأندلس بعد فتح تلمسان سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م، وهناك روايتان لابن أبي زرع بهذا الخصوص تبدوان متضادتين، فواحدة تقول: بعد الفتح والأخرى تدعي أن جيش الموحدين دخل الأندلس اثناء حصار تلمسان، والواضح أن كلا الخبرين صحيح. فمدينة تلمسان تتألف من ضاحيتين، تاكرارت واكدير، بينهما مسافة (شوط فرس). كان عبور الجيش إلى الأندلس بعد فتح الأولي وأثناء حصار الثانية؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٨٨؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٤٥؛ ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص ٢٩٩-٣٠٠.

صلحاً في ١ ذي الحجة سنة ٥٣٩ هـ/ من يوم الجمعة ٢٥ أيار ١١٤٥م. وكانت من المدن التي تتميز بمكانة خاصة لدى امراء الموحدين؛ فهم السابقون الذين يتقدمون قبل غيرهم للسلام على الخليفة، وقد حفظ لهم عبد المؤمن هذه السابقة؛ إذ أعفاهم من دفع الضرائب ومن المغارم المفروضة عليهم. ومن ثم نزل الموحدون بجزيرة طريف ودخلوها صلحاً، وفي يوم النحر من العام نفسه رحب أهل الجزيرة الخضراء بالجيش الفاتح وطردوا عنها المرابطين[١].

ولنا من مؤشر ابن عذاري في بيانه ما يفيد: أن ابا الغمر بن عزون الثائر على المرابطين في مدينة شريش، عبر البحر إلى المغرب وقابل عبد المؤمن وهو على حصار مراكش، وقدم له الطاعة والولاء، ثم عاد إلى بلاده سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م[٢]. وهذا قائد سلاح البحرية اللمتوني وحاكم قادس علي بن عيسى بن ميمون يقطع تردده ويعبر البحر ويتصل بعبد المؤمن وهو على حصار فاس، ويؤدي رسوم الطاعة والولاء ثم يعود إلى بلده، ويقيم أول خطبة في الأندلس باسم الخليفة على منبر مسجد قادس سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م[٣].

ولم يعد من مجال للاستهانة بقوة الموحدين؛ فهذا أحمد بن قسي أحد أخطر ثوار الأندلس يفد على عبد المؤمن وهو لا يزال متعلقاً بأمل الثورة والاستقلال، على رأس وفد من أعيان البلاد، يحملون كتاباً يتضمن بيعة شعبهم للخليفة، فقبلهم وطمأنهم وطلب منهم التعاون والتناصر ضد العدو النصراني[٤]. وبعث في أثرهم ثلاثة جيوش؛ الأول بقيادة براز بن محمد المسوفي، والثاني أمره موسى بن سعيد، والثالث يقوده عمر بن صالح الصنهاجي؛ فاجتاز ثلاثتهم المضيق على طريق شريش، وتوجهوا إلى لبلة التي تم خضوعها دون عناء.[٥]

---

(١) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٨٨؛ مجهول: الحلل الموشية، ص ١٣٥؛ ابن خلكان: الوفيات، ج٣، ص٢٣٩ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٣٠٩ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص١١٦.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب في اختصار ملوك الأندلس والمغرب، ق ٣، ص ٢٢، من تاريخ الموحدين، نشر امبروس هويس مراندة، دار كريماديس للطباعة، تطوان، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٣١٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل، مج ٩، ص ١٤.

(٥) تقع اشبيلية على نهر الوادي الكبير Guadal Quivir ، شأن قرطبة وتوصف بأنها مدينة عريقة، وأنها أمنع وأكبر مدن الأندلس؛ المراكشي : المعجب، ص ٥٢٢-٥٢٣؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص ١٩٥.

فأخذت العساكر قسطها من الراحة في مدينة مارتلة المجاورة والقريبة من القواعد الثائرة، وبدأت عملية الانتشار السريع إلى كل من شلب وباجة وبطليوس، فاعلنت جميعها خضوعها التام واعترفت بالموحدين. ثم توجهت هذه العساكر إلى اشبيلية Sevilla الهدف الرئيسي في الخطة[1]. والتقت جميعها وسارت مع حلفائها الأندلسيين صوب هدفها؛ وشقت طريقها عبر طلياطة وحصن القصر من ضواحي اشبيلية، وضربت عليها الحصار البري والنهري؛ فقاومت بقيادة عيسى بن ميمون القوات الموحدية وتصدت ببسالة لكل الهجمات الخاطفة التي كانت تدور، ولم تستلم إلا بعد أن فر القادة المرابطون شرقاً إلى قرمونة Carmona القاعدة العسكرية المنيعة، وذلك في شهر شعبان سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م، وجال السيف في من تبقى من لمتونة[2]. واظهاراً لحسن النية غادر وفد من اشبيلية برياسة القاضي أبي بكر بن العربي المعافري، ومعه القادة والزعماء إلى مراكش، وحظي بمقابلة الخليفة وقدم أعضاء الوفد بيعة أهل اشبيلية، فتقبلها عبد المومن وأنصت مسروراً للخطب التي القيت بين يديه، وقدم لهم شكره وشملهم بعطفه ورعايته وأجزل لهم العطاء والجوائز[3].

---

(١) ابن الأثير: الكامل،، ج٩، ص ١٤؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٣١٣؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص ١١٧؛ بن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ١٨٠؛ ويذكر هذا أن فتح اشبيلية كان سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م وينفرد هو بذلك؛ ابن الابار: الحلة السيراء، ج٢، ص ٣٢٩؛

J. F. O'Calaghan, A history of medival, Spain, p. 229; S. P. Scott, Moorish Empire, V, 11, p. 287.

(٢) الحلل الموشية، ص ١٤٧-١٤٨؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق ٣، ص ٢؛ ابن خلدون العبر، ج٦، ص ٣١٣.

(٣) ابن عذاري: البيان، ق ٣، ص ٢٢؛ ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص ٢٩٩-٣٠٠.



الفصل الثاني

التحديات التي واجهت الموحديـن

١- الانتقاضات الاولى ضد الموحدين:

دانت المغرب لعبد المؤمن مع بعض مقاطعات أندلسية بعد فتح مراكش، وعندها أخذ يعد العدة لفتح افريقية وبقية المناطق الأندلسية، وفجأة اندلعت الثورات، واشتد وطيسها في كل مكان، واضطربت عليه فتن وبيلة هزت سائر الأنحاء، وجابه تحديات أوجعته ولم تربكه، فخرجت جميع الأقطار التي أخضعها عن طاعته ما عدا مراكش وفاس[١]؛ وهذا يعني أن كل الانجازات العظيمة التي حققها عبد المؤمن منذ عشرين سنة، أصبحت كالريشة تذروها الرياح، فالخطر يأتي من مأمنه.

فهذا محمد بن هود الماسي رفيق السلاح، وأحد الذين دخلوا مراكش مع الخليفة، يعلن عليه الثورة في جنوب البلاد، وهو أحد أخطر من تحدى السلطة عسكرياً وفكرياً، فتسمى بالهادي، واستنفذ بعض طاقات عبد المؤمن، اذ تحرك لمجابهته، أعز قادته وأنشطهم، الشيخ أبو حفص الهنتاني، في أعظم جيش وأخطره، صفوة الموحدين، وفرقة الرماة، وطائفة مختارة من النصارى وغيرهم[٢].

هذا الى جانب تململ سبته بزعامة القاضي عياض[٣] الذي وضع يده بيد برغواطة، وشجعها على الثورة سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م[٤]، بعد ان بايع عبد المؤمن، وكان من اتباعه. وعلى ما يبدو كانت الشدة طابع شخصية هذا الرجل القوية، فهو اذا اقتنع بأمر نهض

(١) مجهول: الحلل، ١٤٦، ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٠.

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٤٦، ابن خلدون: العبر، ج٦: ٣١١.

(٣) القاضي عياض بن موسى اليحصبي أصله من مدينة بسطة، انتقل أجداده منها الى مدينة فاس ثم الى اشبيلية، ثم الى سبته وبها ولد سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م، تولى القضاء بغرناطة، وفي بلده بايع عبد المؤمن، ثم انتقض عليه، وحرض أهل بلده على الثورة بفتوى وقال لهم: "بايعتم مكرهين وليس على مكره بيعة" ووضع يده بيد برغواطة (كان مسكنهم من جهات سلا الى ريف البحر شمالا)، وتعاهدوا عل الثورة ضد الموحدين، وأخيراً هزمهم عد المؤمن، وحمل القاضي عياض منفياً الى مراكش ومات هناك سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م؛
أبو الحسن النباهي الأندلسي: تاريخ قضاة الأندلس، ص١٠١، المكتبة التجارية، بيروت، لا. ت؛ ابن قنفذ: الوفيات، ص٢٨٠، رقم ٥٤٤؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٢٧٦، ٣١٠.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ١٩١؛ البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١٠٦.

لاعلانه في صراحة لا تعرف المداراة والمسايرة، وهذه الشدة، أو قل هذا التطرف هو الذي دفع الزعيم السبتي الى مواقف كانت عليه أكثر مما كانت له، وانتشرت الثورة الى جبال درن، وأهل نفيس[١]، وهيلانه[٢]، وأعلنت كل من هسكورة وسجلماسة عصيانها[٣].

وقد استعد عبد المؤمن لاحتواء جميع هذه التيارات، وهو الرجل الذي لم ينحن لعاصفة، ولا زال يحتفظ بكامل طاقاته وحيويته، فلم يعطِ فرصة لأي من هذه الثورات كي تقوى، بل سير اليها جيوشاً، تارة بقياديته، وأخرى بزعامة رجاله البارزين، وسحق هذا التمرد دون رحمة، وبدد ثواره واستأصل شأفتهم، وأتوه طائعين، يعلنون الولاء والتوبة سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م[٤].

أما في الاندلس فقد أدرك الموحدون، بعد استيلائهم على اشبيلية، أن يستكملوا عملياتهم الحربية، لغرض السيطرة، على بقية المناطق التي لم تكن قد أدركتها جيوشهم بعد، وكانوا قد تركوا في اشبيلية حامية عسكرية تحت زعامة عيسى وعبد العزيز أخوي المهدي ابن تومرت، وعينوا يوسف بن أحمد البطروجي، أحد زعماء الثورة في غرب الأندلس، وحاكم لبلة Nievla سابقاً، مستشاراً لهما، وكان قد انضم الى الموحدين في البداية. ولقد أساء أخوا المهدي معاملة أهل اشبيلية؛ فأخذا الرشوة، ومارسا الفساد، وصبّا عليهم سوط العذاب[٥]، وذهبت نصائح البطروجي عبثاً، واستمر الاصرار على التعسف، وتجاوز المعقول، وهرب البطروجي عندما اكتشف مؤامرة، دبرها أخوا المهدي تستهدف شخصه، وأضمر في نفسه الشر، والتجأ الى لبلة، وأعلن فيها الثورة، ولم يجد

---

(١) أهل نفيس: من سكان جبال دَرَن، وهم بطن من قبائل المصاعدة؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٢٩٩.

(٢) هيلانة: هم بطن من بطون الصامدة من سكان جبال درن كذلك؛ المصدر نفسه.

(٣) البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١٠٦؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ١٩٠؛ هسكورة: من أكبر قبائل المصامدة عددا ونجدة، وهم بدو يمتنعون بجبل درن الى جنوب بلاد السوس؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٥٤ وما بعدها، سجلماسة: مدينة في صحراء المغرب، تقع على نهر زيز، تزرع الدخن والذرة والنخيل، يسكنها قوم من مسّوفة؛ الحميري: الروض، ص" ٣٠٥-٣٠٧.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص:١٩٠، ١٩١؛ مجهول: الحلل، ص: ١٤٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٠، ٣١١؛ البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١٠٦-١٠٨.

(٥) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٤٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٣.

صعوبة في انجاح مهمته، فاتصل بالمرابطين بالاندلس، وعقد معهم حلفاً، لإنزال ضربه جديدة بالموحدين[1].

كان يحيى بن غانية من أول الملبين للدعوة للثورة، فاستولى على الجزيرة الخضراء ي بادىء الامر كي يمنع وصول الامدادات الى الموحدين[2].

وكان لهذه الحوادث صداها المؤلم في الاندلس، فقد الهبت المشاعر، وأججب الأحقاد في نفوس الناس، وبخاصة في غرب البلاد، ومن أكثر الناس انفعالا للثورة، كان أحمد بن قسي الذي خلع طاعة بني عبد المؤمن في مدينة شلبSilves، ليكون له دوره التاريخي الذي يطمح اليه. ثم أعلن علي بن ميمون التمرد، ودعا لنفسه بثغر قادس Cadiz، وقلده محمد بن حجام بمدينة بطليوسBadajoz ، بينما بقي الغمر بن عزون حاكم شريش، على طاعته وولائه للموحدين[3].

لم يستطع عيسى- وعبد العزيز كلاهما البقاء في اشبيلية؛ فقد هاجمها أهل طلياطة[4]، وحصن القصر، من ضواحي المدينة، تضامنا مع ثورة الغرب، فهربا واعتصما في الجبال، والتقيا بابن عمهما يصليتن، واتفقوا جميعاً مع الغمر، وانحدروا جنوباً، وحاصروا الجزيرة الخضراءAlegecirase ، واستولوا عليها[5].

وفي هذا الوقت بالذات، كانت الظروف ملائمة لعبد المؤمن؛ فانتفاضات المغرب قد اخمدت، وتم خضوع جميع الثائرين. لذا جاء وقت التصدي لثورات الاندلس، فجهز جيشاً لجبا بعثه الى الاندلس، لإعادة الامن والهدوء الى ربوع تلك البلاد، واسند رياسته الى قائد من ألمع قادة الموحدين، هو يوسف بن سليمان، مستشاره العسكري الذي عبر البحر، وتوجه الى اشبيلية الهدف الرئيس في خطته، وتم اخضاعها، وتابع طريقه متوجها الى شلب، مكمن الخطر المتراكم، ومعقل أحد أكبر الثوار المتقلبين في ولائهم، ابن قسي- الذي بقي يتحين الفرص ليقوم بدوره المتراجع كما سنرى[6].

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٣-٣١٧.
(٢) المصدر نفسها والصفحات نفسها.
(٣) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٤٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٣.
(٤) طلياطة: ناحية بالاندلس قريبة من قرطبة، وكذلك حصن القصر، ياقوت: المعجم، ج٤، ص: ٣٩.
(٥) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٣.
(٦) المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٩؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٧.

وتراجع البطروجي عن عناده مرة ثانية وأعلن التوبة، وقدمت لبله طاعتها، وأخذ يوسف يخضع النواحي المتبقية؛ فاحتل طلياطة، واخضع طبيرة[١] Tavira ، واتجه بعد ذلك ناحية قادز Cadiz، وشنتمرية الغربSanta Maria Algarve ، فبادر حاكمها علي بن عيسى باعلان ولائه، واستسلم حاكم بطليوسBadajos ، محمد بن علي بن الحاج، للقوات الموحدية، وبعث مع كتاب الاستسلام بعض الهدايا دلالة على حسن توحيده[٢].

بعد هذه الانتصارات الرائعة التي أحرزها يوسف بن سليمان، انكفأ عائداً الى اشبيلية، ليأخذ قسطا من الراحة، ويرقب حالة المعاناة التي تعيشها قرطبة، وما تثار حولها من زوابع على يدملك قشتالة، الحليف المرحلي- الذي لا يؤمن جانبه- ليحيى بن غانية حاكم المدينة، وانتهز هذا الملك الظروف الراهنة، ونقض عهداً بينه وبين ابن غانية، وأن من أهم بنوده[٣]؛

أن يتخلى ملك قشتالة عن مطالبته بقرطبة، ويأخذ مقابلها اشبونه[٤] Lisboa ، وطرطوشة[٥] Tortosa ، والمرية[٦] Almeria ، وماردة[٧] Merida ، وافراغه[٨] Fraga ،

(١) طبيرة، تقع على شاطىء البحر المتوسط، الى الجنوب الشرقي من شلب وهي غير طلبيرة (Talavera) التي تقع في الشمال الغربي لطليطلة وكانت طبيرة مأوى للقراصنة حتى طهرها منهم الموحدون سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٦٧.
ويذكر ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٥، أن حاكمها يدعى عامل بن مهيب، قدم ولاءه لعبد المؤمن مع بقية الثوار سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م.

(٢) ابن الابار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٥٣؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٤؛ ابن الاثير؛ الكامل، ج٩، ص: ٢٣؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١١٨.

(٣) ابن الابار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٥٣؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٤؛ ابن الاثير؛ الكامل، ج٩، ص: ٢٣؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١١٨.

(٤) الاشبونه: هي عاصمة البرتغال اليوم، وكانت تسمى قبل الاسلامUlissipo ، افتتحها المسلمون سنة ٩٣هـ/٧١١م، وبقي نفوذهم بها الى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م.
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤.

(٥) طرطوشة، مدينة على شاطىء البحر المتوسط، كانت مركزاً تجارياً هاماً أيام العرب، ومدينة علم وأدب، احتلها الاسبان سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م. وهي الى الجنوب من برشلونة؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤.

(٦) المرية: ثغر تقع على البحر المتوسط، جنوب شرق الاندلس، بناها عبد الرحمن الناصر الاموي سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٧؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٦، ص: ١١٩؛ الحميري: الروض المعطار، ص: ١٨٣.

(٧) ماردة، مقاطعة واسعة شمال الاندلس؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص: ٣٨، ٣٩.

(٨) أفراغة، مدينة بالاندلس، قرب ماردة، احتلها الاسبان سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ٢٢٧، المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٤.

وشنترين[١] Santarem، وشنتمرية[٢] Santa Maria، او شنتري Santaverورندة[٣] Randaبالاضافة الى اغتصابه بياسة[٤] Baeza ، وابدة[٥] Ubeda ، وغيرها من حصون الاندلس التي انتزعها من المسلمين.

رأى ابن غانية الجد من ملك قشتالة الذي ألح عليه بالمزيد من الحصون، والقلاع، أو التخلي عن قرطبة Cordoba نفسها. عندها غادر سرا الى مدينة استجّه (أسيجه)Ecija[٦] ، والتقى براز بن محمد قائد الموحدين، وأبرم معه اتفاقاً، تنازل بموجبه عن قرطبة وقرمونة، كما مر سابقاً واستعاض عنهما بمدينة جيان الحاجز بينهم وبين القشتاليينCastilla ، اذ حصل على أمان الخليفة وعفوه[٧].

عاد ابن غانية اثر الاجتماع الى مدينة قرطبة، وألقى القبض على رسل ملك قشتالة، واعتقلهم في قلعة بني سعيد قرب قرطبة، دلالة على نقض الاتفاق[٨]، فذهل الملك النصراني لهول النبأ، والمفاجأة غير المتوقعة من أمير مسلم يحترم العهود والمواثيق أولاً، ويخضع للملك ثانياً، وعلى الفور تحرك الأخير وهاجم جيان مفتاح الطريق الى قرطبة، وطلب الافراج عن الرسل؛ وقد وصلته التهديدات بقتلهم ان لم يفك الحصار عن جيان؛ فغادرها الى عاصمة بني غانية، وضرب عليها سوراً من الجند وألح في هجومه، وقاومت المدينة المنيعة هجمات القشتاليين، وتصدت لهم ببسالة، منتظرة وصول النجدات المغربية، التي عبرت المضيق متوجهة اليها[٩].

---

(١) شنترين، تقع على جبل كثير العلو، الى الشمال الغربي من باجة على نهر التاجة؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٨؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص: ٣٦٧؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٧٢.

(٢) شنتمرية: حصن تابع الى شنترين، يقع في غرب الأندلس، ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص: ٣٦٧.

(٣) رندة، معقل حصين بالاندلس، تقع على نهر قادس، بين اشبيلية ومالقة؛ ياقوت: معجم البلدان، ح٣، ص: ٧٣.

(٤) بياسة، اسمها اللاتينيvivabla ، وكان لها شأن أيام العرب فخربها الاسبان بعد احتلالها سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، تقع شرق قرطبة؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤.

(٥) ابدة، مدينة بالاندلس، من مقاطعة جيان، شيدها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ٦٤.

(٦) استجه: واسمها الروماني القديم: Astiggi وهي تتبع الآن ولاية اشبيلية؛ ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص: ٣٠٢، هامش ٧؛ مأخوذ عن:Ency; of Islam art نشر وتعليق د. أحمد مختار العبادي. Istiggaby sybold.

(٧) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤.

(٨) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٩) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض الفرطاس، ص: ١٩١.

عندما سمع ملك قشتالة الأنباء المزعجة تهب عليه من الجنوب (وهو ما كان متوقعاً) والغرب؛ جيوش المغرب، وقوات اشبيلية التي سارعت لانقاذ عاصمة بني أمية. لذا فك الملك الحصار المضروب عليها الذي دام ثلاثة أشهر، وانقلب بقواته الى بلاده[1].

ثم وصلت الجيوش المغربية باجنحتها الثلاثة؛ الأول بقيادة أبي الغمر بن عزون، والثاني برياسة يوسف البطروجي، والثالث على رأسه يحيى بن يغمور؛ ودخل الحلفاء قرطبة سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م[2]، وانتهى المسلسل قبل الأخير من سلسلة الاحداث في الأندلس.

شاء الموحدون أن يعززوا قبضتهم على ما في أيديهم من بلاد الأندلس قبل الشروع في ضم بعض المدن، والجيوب المتبقية. فعين عبد المؤمن ولاة موحدين يثق بهم، فأسند ولاية اشبيلية الى ابنه أبي يعقوب يوسف، وعين ابنه أبا سعيد عثمان واليا على الجزيرة الخضراء مضافاً اليها سبتة وطنجة[3].

كان عبد المؤمن قليل الثقة بزعماء الثورات في غرب الاندلس، رغم طاعتهم، وايمانهم بمذهب التوحيد؛ لكنه كان يشك في ولائهم، اذ تحرك من مراكش الى سلا، وقام باستدعائهم لمقابلته سنة٥٤٦هـ/١١٥١م، فساروا اليه على شكل وفود، يتقدمهم وفد باجة[4] Baja ، ويابرة[5] vora بزعامة سدراي بن وزير، ثم وفد شريش[6] Jerez ، ورندة Rondaبقيادة أبي الغمر بن عزون. ووفد لبلة[7] Niebla على رأسه يوسف البطروجي،

---

(١) ابن الاثير: الكامل، ج٩، ص: ٢٨؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤، ٣١٥.

(٢) المصادر نفسها والصفحات نفسها.

(٣) ابن أبي زرع: الانيس بروض القرطاس، ص: ١٩٨؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١١٨؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٢٧، ص: ١٣٨.

(٤) باجة، موقعها غرب الاندلس؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ٣١٢-٣١٦.

(٥) يابرة، تقع الى بالشمال من باجة؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص: ٤٢٤.

(٦) شريش، مدينة تاريخية، مهمة بقربها وقعت المعركة الحاسمة بين طارق بن زياد وآخر ملوك القوط سنة ٩٣هـ/٧١١م، وبعدها تم فتح المسلمين للاندلس؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٣؛ ياقوت: معجم البلدان.

(٧) لبلة، كان اسمها القديمLlipla ، تقع في غرب اشبيلية على بعد ٦٥ كم، احتلها الفونس العاشر سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، وهي موطن العائلة الفاسية، ومنها نزحوا الى مالقة ثم الى اشبيلية، ثم الى فاس، وكانوا يحملون بالاندلس اسم بني الجد؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٥.

ووفد بطليوس[1] Badejoz برياسة محمد بن الحجاج، ثـم وفـد طبـيرة Tavira يقوده ابن وهيب، ولم يتخلف سـوى وفـد شـلب[2] Sileves وصـاحبها أحمـد بـن قسي- الذي كـان قـد أضـمر العـداوة للموحـدين، وادعـى الهدايـة، وانتحـل الحيـل، وتعـاطى الشعبذة (الشعوذة)[3]؛ فساءت سيرته بـين رعيتـه وتحصـن بحصـن ميرتلـة[4] (مارتلـة) mertola، فحاصره الموحدون وأدخلوا إليه أحد المقربين منه واحتال عليه، وأخرجه مـن مخبئه، وقبض عليه دون اراقة دماء، ونفي للمغرب؛ إذ ألقى نفسه بين يدي عبد المؤمن في مراكش، بعد أن أضناه طول اللّغوب، "فقال له: بلغني أنك ادعيت الهداية، فكان من جوابه أن قال: "أليس الفجر فجرين: كاذباً وصادقاً؟ فأنا كنـت الفجـر الكـاذب، فضـحك عبد المؤمن وعفا عنه"[5]. وبقي في مراكش حتى قتل بيد أحد المقربين منه[6].

وهناك رأى آخر ذكره المؤرخون حول نهاية ابن قسي، مفاده، أن حكومـة مـراكش لما رأت ان تضع حداً لمغامرات ابن قسي أدرك هذا الأخير سوء العاقبة، وأنـه لـن يفلـت هذه المرة من العقاب، فوجد ملجأ له لـدى ملـك البرتغـال ابـن الريـق[7] (ابـن الرتـك) Enriquez الذي كان على استعداد لتبنـي هـذه الحركـة الانفصـالية في غـرب الأنـدلس؛ فهي قريبة من ممتلكاته، وفي وسط بلاده مستقبلاً، فأمده بالمساعدة العاجلة، وبعث له هدية لطمأنته، وتشتمل على فرس وترس ورمح[8]، وربما يـدل هـذا الفعـل عـلى أن ابـن قسي كان متورطاً في حرب استنزاف يخطط لها من الخارج، وإلا كيـف يمكـن باسـتطاعة إمارة

---

(١) بطليوس، وهي مدينة على الحدود البرتغالية، وبالقرب منها كانت موقعة الزلاقة. ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٤؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ٤٤٧.

(٢) شلب، وتقع على مقربة من شاطىء المحيط الاطلسي جنوب غرب باجة؛ الحميري: الروض، ص: ١٠٦. ياقوت: المعجم، ج٣، ص: ٣٥٨.

(٣) أحمد حسن الزيات: المعجم الوسيط، ج١، ص: ٤٨٦.

(٤) ميرتلة: أحمى حصون الأندلس وأمنعها، وتقع على نهر آنا في شرق شلب؛ يـاقوت: معجـم البلـدان، ج٥، ص: ٢٤٢؛ الحميري: الروض، ص: ٥٢١.

(٥) المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٩، انظر التعليق ص: ٣٢، هامش، ٣.

(٦) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٧) هو الفونسو هنركيـز ALFonos Enriquez ، وقـد تسـميه بعـض المصـادر ابـن الريـق، أو صـاحب قلمريـة عاصمة البرتغال آنذاك؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٧٢؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٥٢ هامش ١.

(٨) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٠٧-٢٢٠؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص: ٢٥١.

صغيرة مثل شلب أن تقف في وجه دولة عظمى كدولة الموحدين؟ ما فتئت أن امتدت حدودها الى برقة غرب مصر؛ لذلك لم يغفر له أتباعه هذا التواطؤ، واتصاله بالعدو، واحتماءه وراء حصون من صنعه، فتآمروا على الخلاص منه مع محمد بن عمر بن المنذر أحد مساعديه، واقتحموا عليه قصر الشراجب فجأة، ووقع في قبضتهم، واقتادوه مقيداً الى مصرعه، وعلقوا رأسه على سنان الرمح الذي جاءه هدية؛ ليعتبر من يعتبر، وتولى ابن المنذر امارة المنطقة، وأعلن ولاءه وطاعته للموحدين سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م[١].

أما بخصوص الزعماء والوفود الاندلسية الآنفة الذكر، فقد أكرم عبد المؤمن هؤلاء الزعماء والوفود المرافقة لها، وفتح لهم ذراعيه، وأراد أن يهيء لهم جواً من الإخلاص والمحبة، فسمح لهم بالعودة الى بلادهم، واتخذ طريقه الى مراكش، ومعه القادة ليكونوا بالقرب منه مدة لتطويعهم، ونيل ثقتهم إن أمكنه ذلك[٢].

رأى الموحدون ان يستكملوا سيطرتهم على بقية بلاد الاندلس، فجهزوا لذلك جيشاً واسندوا قيادته الى فارس الموحدين وصاحب أعنة الخيل فيها، أبي جعفر بن يحيى الهنتاني، اذ مشى للاستيلاء على وادي آش[٣] Guadix ، وبسطة[٤] Baza ، فالتقى خلال الطريق حاكمها أحمد بن ملحان، وكان هارباً من مطاردة ابن مردنيش أمير شرق الاندلس، فأعلن أحمد الولاء والطاعة للموحدين، وتنازل له عن البلاد التي اكره على اخلائها لصالح ابن مردنيش واصل قائد الموحدين زحفه على طريق طويل آمن سيقطعه البطل دون عناء، وجعل على مقدمة جيشه عيوناً تأتيه بالاخبار خوفاً من المفاجأة؛ فوصلته الانباء أن نجدات نصرانية تتقدم نحو الجنوب الغربي، على شكل تعزيزات لقوات محمد بن سعد، فلم يشأ ان يتصدى لها، ويستعجل الامور، وهو القائد الذي لم يهزم في معركة كما عرفناه؛ فالارض يجهلها، والوقت ليس في صالحه، وليس من طبعه أن يفرض عليه زمان ومكان المعركة، فتنحى عن الطرق المألوفة، واتخذ سبيله في البر سربا يوصله الى اشبيلية سالماً سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م[٥].

---

(١) ابن الآبار: الحلة السيراء، ج٦، ص: ٢٠٠-٢٤٦؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص: ٣١.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٥؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٢٠.

(٣) آش، مدينة الاشات بالاندلش قرب البيرة تعرف بوادي آش، وتقع بين غرناطة وبجانة، تنحدر اليها أنهار من جبال الثلج؛ ياقوت: المعجم، ج٥، ص: ٤٣.

(٤) مدينة اندلسية قرب جيان؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ٤٢٢.

(٥) ابن الاثير: الكامل، ج٩، ص: ٣٠.

أما مالقةMalaga ، فقد ثارت بتأييد من الموحدين ضد صاحبها الحسين بن الحسين بن حسون الذي انتحر قبل ان يقبض عليه الثوار ويسلموه الى السلطة فوجدوه يجود بنفسه الأخير، فصلبت جثته، وحمل رأسه على رمح الى مراكش كما المعنا آنفاً[١].

ولما ضم بنو عبد المؤمن معظم بلاد الأندلس الى بلادهم، رأى عبد المؤمن أن يستكمل الفصل قبل الأخير في ضم ما تبقى من البلاد، لذلك كان افتتاح غرناطة ضرورة حتمية فرضتها سياسة التوسع التي كانت طابع دولة الموحدين، وبخاصة في زمن الخليفة الأول. إذ اصبحت غرناطة محاطة بالموحدين من الشمال والغرب والجنوب، وبما أن المرية وميرتله شارفتا على السقوط[٢]. كل ذلك أعطى ثماره في تسهيل عملية الفتح، التي اختمرت آنذاك لدى قائد الموحدين عبد المؤمن وبخاصة بعد السيطرة على المغرب والاستقرار في مراكش، ولا ريب أن والي غرناطة ميمون بن بدر (يدر) كان حريصاً على انقاذ رأسه، بعد أن اصبح الموحدون اسياد المنطقة، فأراد التودد إليهم واكتساب ثقتهم بدل استعدائهم[٣].

هكذا جرى الاتصال، بين الملثمين بزعامة ميمون، وعبد المؤمن بمراكش راغبين في الصلح والعفو، فرحب القائد الطموح والعسكري المحترف بالفكرة، وراسل عبدالله بن سليمان قائد أساطيله بسبتة، وابنه أبا سعيد حاكمها في ذلك الحين بخصوص غرناطة، فعبر عبدالله البحر وتسلم المدينة، وصحب الملثمين الى حاضرة الدولة. وجعلها عبد المؤمن -أي غرناطة- تابعة الى ولاية أبي سعيد في سبتة سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م[٤]

٢- ثورات شرق الاندلس:

لما اختلت أحوال الاندلس، اثرتخاذل المرابطين أوآخر دولتهم، وظهور حركة الموحدين، وعندما بدأت طلائع النصارى بالزحف واكتساح الارض، وأخذت قواعد الأندلس تسقط تباعاً بايديهم[٥] جاءت صدمة أهل البلاد فنبهتهم من رقدتهم، وأرتهم

---

(١) ابن الآبار: الحلة السيراد، ج٢، ص: ٢٤٢.
(٢) لقد طرد تاشفين اللمتوني عن مرتله وضمت للموحدين سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٣١٧.
(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص٢٨-٣٠.
(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص٣٢-٣٣.
(٥) احتل برنجه الرابع ملك آراجون، طرطوشة سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م وسيطر علي جميع قلاعها، وعلى حصون لاردة وأفراغه، وكانت سرقطة قد خضعت للاسبان سنة ٥١٢هـ/١١١٨ في عهد الفونسو الأول ملك آراجون؛ المراكشي: المعجب، ص:٣٠٤-٣٠٥؛ الكامل: ابن الأثير، مج٩، ص:٢٣

عاقبة بقائهم هكذا دون دولة قوية، فصرخت الشعوب الأندلسية تنبه إلى الخطر، وتدعو إلى أخراج من كان عندهم من ولاة المرابطين، وعلى هذا الوجه تمت ارادة أهل شرق الأندلس، العضو الأكثر مرضاً، في جسم دولة المرابطين، ثم في سلطة الموحدين من بعدهم، وإليهم انتشرت الافكار الثورية من الغرب الاندلسي، وعلى أرضه نمت خلايا العنف، والثورة تتوسل لها أي فرص للتحرك، وقد افتقرت إلى التأييد الكافي فلقيت الفشل السريع ثمناً غالياً من القتلى على أيدي الموحدين[١].

واتخذت ثورة الشرق بعدا اقليميا، أكثر منه الدفاع عن الحرمات والحريات العامة؛ إذ كانت أخطر حركة تشهدها الأندلس في ذلك الحين، فثوارها وضعوا خطواتهم الأولى في الدرب صوب الانفصال، ورأى هؤلاء أن يتحركوا بوجه السرعة لتوجيه ضربة قاصمة للدولة المرابطية، رغم جهادها ونكايتها بالعدو الاسباني، ونادوا للتخلص من حكم الغرباء عموماً، حتى ولو كانوا الموحدين أنفسهم، وقبل أن يشتد عودهم؛ فانتفضت بلنسية ومرسية؛ مركز الثقل الأكثر خطورة، ومحط أطماع النصارى الاراجونيين منهم بخاصة، وطرد أهل بلنسية المرابطين، ونصبوا القاضي أبا عبدالملك مروان بن عبدالله بن مروان بن عبدالعزيز قائدا للثورة، فقبلها رغم تردده سنة ٥٣٩هـ/١١٤٥م لكنهم خلعوه لثلاثة أشهر من ملكه[٢].

وكان الشعب كثير الاضطراب، حتى أنه ما يكاد يرفع إلى الحكم أحداً تاق إلى امارته، حتى يسأمه ويبغضه، ويرى فيه خلالا لا تطاق، وهرب ابن عبدالعزيز على وجهه معتسفا طريقا يجهلها ودون دليل، إلى أن وقع في حبائل ابن غانية في المرية، الذي وجهه مقيداً إلى والده في ميورقه[٣].

ثم استلم عبدالله بن سعد بن مردنيش الامارة في اجواء غاية في الخطورة والتشنج الذي طوق بلاد الاندلس في ذلك الوقت، لكنه قتل في موقعة مع النصارى سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٦م[٤].

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٢٥٩-٢٦١؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٩٦؛ البيدق: أخبار المهدي، ص: ١٢٥-١٢٦.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص: ٢١٢، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص ٣٠٠.

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص:٢٢١، ٢٢٢، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص: ٣٠١.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص: ٢١٣؛ ابن الأبار الحلة السيرا، ج٢، ص: ٢٢٩-٢٣٠.

وقام أهل مرسية بمغامرتهم؛ إذ نصبوا أبا محمد بن الحاج اللورقي، تابعاً إلى ابـن حمدين سنة ٥٣٩هـ/١١٤٥م، لم يلبث أن طرده الشعب لضعفه وتخاذله أمام ابن هـود، وقدموا عليهم القاضي محمد بن عبدالله بن ابي جعفر الخشني، فقبلها مكرها، وشـاطته رماح القوم قرب غرناطة[١].

وعندها أجمع ثوار مرسية على تأمير أبي عبدالرحمن بـن طـاهر باسـم ابـن هـود مدة خمسين يوما، واكره على التنازل واختفى عن الأنظار. وقـد اصـطلح شـعب مرسـية وبلنسية سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م، بعد فجيعتهم برؤسائهم أو فجيعـة رؤسـائهم بهـم، عـلى رجل عظيم يقودهم، ويخصص نفسـه لـدفع العـدو المغـير عـلى الأرض والحرمـات، ولم شتات الأمة، فكان عبدالرحمن بن عياض أحد القادة العسكريين الناجحين، بالاضـافة إلى مزاياه الاخرى في القيادة، وكان هذا الرجل حريصا على توجيه قوته وتوحيـد جهـوده في الذب عن البلاد، وقد قادته عبقريته ومعرفته بفنون القتال إلى أن عـدّه النصـارى بمائـة فارس، وهو رجل تلك المرحلة (مرحلة الفراغ السياسي والعسكري فترة سـقوط المـرابطين ودخول الموحدين إلى الأندلس)، شجاعة ومصداقية، وهو مناضل من النخبة الأولى، قادر على اتباع خط متوازن يرضي الاطراف المختلفـة ولا يثـير الخصـوم ومـا أكـثرهم في فـترة، اهتز بها حكم المرابطين في العدوتين وكان الناس في دور الانتظـار لمـا تسـفر عنـه نتـائج الحروب بين المرابطين والموحدين[٢] وبقي يذود عن شرق الاندلس إلى أن توفي من جراح أصابته سنة ١١٤٦/٥٤١م[٣].

وكان قد أشار قبل موته إثـر الحـاح اعيـان الـبلاد وقـادتهم أن يسـند القيـادة إلى رجل كفـء يسد الفراغ؛ إلى تعيين مساعده وصهره محمد بن سعد بن مردنيش، إذ كـان تابعاً إليه يحمل له السلاح ويتصرف بين يديه في حوائجه[٤].

---

(١) المصادر نفسها والصفحات نفسها.

(٢) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص:٣٠١؛ المراكشي: المعجب، ص:٣٠٥.

(٣) المراكشي: المعجب، ص:٣٠٥ هامش ٢.

(٤) المقري: نفح الطيب، ج١، ص:٤٢٤؛ ابن خلدون؛ العبر، ج٤، ص:٢١٣؛ ابن الابار:الحلـة السـيراء، ج٢، ص:٢٣٢، حاشية رقم ١؛ الضبي: بغية الملتمس، ص:٤٤؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص:٣٠١ ك؛ المراكشي- المعجب، ص:٣٠٦؛ وذكر المراكشي، أن اعيان البلاد أشاروا على ابن عياض أن يـولي ابنـه علـيهم، فقـال انـه لا يصلح لاني سمعت أنه يشرب الخمر، ويغفل عن الصلاة، فان كان ولا بد فقدموا عليكم هذا وأشـار إلى ابـن سعد، وقال: اني اظن به خيرا لعل الله ان ينفع به المسلمين.

وكان أحد الثائرين الذين تسلموا قيادة شرق الأندلس اثناء تواجد الموحدين في غربها سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م، وهو ممن لم يتردد في طلب العون من النصارى ضد المغاربة الموحدين، إذ تسميه المراجع النصرانية "بالملك لوبو اي الذئب"ELReyLobo ، وقد منحه البابا لقب صاحب الذكر الحميد، توفي سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م[١]، بينما تجعله الرواية العربية ينتمي الى جذام من قبائل اليمن[٢]، ويغلب على الباحثين أن يوصلوا نسبه إلى أصل اسباني، وأن جده كان مولى لبعض الجذاميين، فانتسب اليه، وهذا ما تسوغه رواية ابن الابار[٣].

يتبين أن مردنيش أو مردانش محرف عن مرتينيس Martinez أي ابن مارتين، ويقال ان والد جدّه "أحمد بن مردنيش" هو أول من أسلم، لذلك إن أصله لا يحمل اسما عربياً مما يقطع بأن نسبته الجذامية ليست صحيحة، والواقع أن أصله من شبه الجزيرة، وقد يكون جده الأعلى هذا قد دخل في ولاء بعض الجذاميين، وانتسب إليهم، وهو فرض مقبول، لأن دار بطون جذام بن عدي ابن الحارث بن مرة بالأندلس كانت شذونه والجزيرة وتدمير واشبيلية[٤].

شغلت دولته المساحة الواسعة في شرق الأندلس من بلنسية شمالا حتى المرية جنوباً، وتحيط بها مملكة أراجون في الشمال، ومملكة قشتالة في الشمال الغربي، ونصارى المرية في الجنوب[٥]. ان هذه الدولة ورثها عن صهره عبد الرحمن بن عياض، السالف الذكر[٦].

ان ما تسوغه الرواية العربية ربما يقوي من انتماء الملك"لوبو"الى المولدين، ويتجلى ذلك في سماته وسلوكه، وكأنه كان شغوفاً بالتشبه بالنصارى، في الهيئة والملابس، والروح

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١١٥، حاشية رقم ١؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢١١؛ ابن خلكان: الوفيات ج٧، ص١٣١؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٣٢٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٩٥ وفي نفح الطيب لابن عذاري ان وفاته كانت سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠ م، جـ٦، ص:١٦٠.
(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٦، حاشية رقم ١.
(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٣٢، حاشية رقم ١.
(٤) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٣٢، حاشية رقم ١.
(٥) المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٦.
(٦) المصدر نفسه، الضبي: بغية الملتمس، ص: ٤٤؛ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص: ٣٠١؛ ويذكر هذا أن ابن عياض كان ملك مرسية.

وحمل السلاح، كغيره من الثوار الأندلسيين الذين "كثيراً ما يتنزيّا سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم"[1]. ولعله كان مولعاً بالتحدث باللغة القشتالية، قراءة وكتابة، مما زاد صلته بملوك النصارى؛ إذ كان يعتمد عليهم في تعزيز قواته المسلحة؛ يمنحهم المعسكرات والضياع، ويغدق عليهم الهدايا والاقطاعات. كما حصل أن اهداهم مقاطعة شنتمرية ابن رزين وما حواليها من الحصون والقلاع[2].

وكان لصاحب الذكر الحميد، كما يحلو للبابوية أن تنعته، صديق مرحلي، جمعه به اتصاله بالأمير ابن عياض، هو، ابراهيم بن محمد ابن مفرّج بن همشك[3]، إذ كان قوي الشكيمة، خبيراً بأرض المنطقة، فارساً نجداً، سيفاً مصلتاً أمامه، وصوليا مرحليا في سلوكه؛ يحارب في صف المسلمين تارة- فاحتل حصن شقورة Segura وقلاعها من القشتاليين[4]- وفي صف النصارى تارة أخرى، متعاوناً مع صهره ابن مردنيش، حينما احتل الجميع غرناطة[5]، وأخرجهم منها المسلمون، اثر معارك طاحنة جرت بين الفريقين[6].

خصّص ابن مردنيش في بداية أمره وقتاً للشؤون الداخلية؛ فنظم المؤسسات المالية والعسكرية لدولته الناشئة، ذاباً عنها أي اعتداء خارجي، مانعاً أي ثورة داخلية محتملة.

وعندما كان يغذ السير مسرعاً الى مدينة بلنسية كي يتسلم مقاليد الحكم فيها، طرق مسامعه أن النصارى اخترقوا أراضيه، وهاجموا حصن "حلال"[7]، وسقط في أيديهم، فانقلب كاراً لاسترداد الحصن، واسترجع بالسرعة التي سقط بها ثم أخذ في تشديد قبضته على المناطق المجاورة؛ اذ بعث صهره ابن همشتك للاستيلاء على الاراضي الواقعة تحت

---

(١) المقّري: نفح الطيب، ج١، ص: ٢١٠.

(٢) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٧، ص: ١٢٤.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٨٦-١٩٦؛ ويسميه المراكشي- المعجب، ص: ٣٠٨، عبداللة بن هم شْك.

(٤) المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٨، هامش ٢؛ حصن شقورة: مدينة أندلسية شمالي مرسيه، وبها كانت دار إمارة هَم شك؛ ياقوت: المعجم، ج٣، ص: ٣٥٥.

(٥) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٦؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٩٥- ١٩٩؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٩.

(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٩٨.

(٧) حصن حلال، لم نعثر على حصن بهذا الاسم في المعاجم، وإنما ذكر حصن محسّن، يقع في الجزيرة الخضراء، من المحتمل أنه نفس الحصن؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص: ٢٦٥.

سيطرة ابن سوار[1]، فنجح في مهمته ليكون حقيقاً به أن يصبح حاكماً على مرسيه، وفي الوقت نفسه عين ابن مردنيش أخاه أبا الحجاج يوسف والياً على بلنسية[2].

هكذا قدر لابن مردنيش أن يتسلم القيادة، وهو في عنفوان شبابه[3]، متسلقاً مع طموحه الكبير درجات السلطة، "ثم ارتقى الملك الراسخ والسلطان الشامخ، بباهر شجاعته وشهامته، فسما قدره، وعظم أمره، وفشى في كل امة ذكره"[4]، وكانت أمامه الحواجز والعقبات قبل أن يرتقي أعلاها، ويخلد فوقها آمناً مطمئناً؛ وقد لاحقته المؤامرات أكثر من سبعه وعشرين عاماً، وهو يحتدم في معارك التحدي التي تصدى لها، سواء من حلفائه النصارى أو من أعدائه الموحدين، دون أن تنال من ارادته الفولاذية شيئاً[5].

لذا فلن نبالغ اذا قلنا أن ابن مردنيش- على الرغم من تضحيته ربما بكامل قيمه الاندلسية- لم يغنه هذا شيئاً أمام حلفائه المرحليين من النصارى الذين تخلوا عنه وقت الشدة، بل وقاتلوه ليحتفظوا بالروح القتالية قوية متنامية لدى قواتهم المسلحة[6].

بدأ ابن مردنيش فور تثبيت أسس دولته الجديدة في مرسية وجميع شرق الاندلس، صراعا مرحليا ضد حلفائه النصارى بزعامة قشتالة وليون، وقبل أن يتحول إلى هدف الملاحقة، بادر إلى التحالف العسكري مع جمهورية بيزا وجنوا البحريتين، سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م. وضمن حيادهما، بعدم التعرض لرعاياه في المدن الساحلية، مقابل امتيازات حصل عليها كل منهما؛ منها جزية سنوية تقدر بعشرات الآلاف من الدنانير لمدة سنتين، فضلا عن امتلاك العقارات والاراضي، لتكون نقطة ارتكاز لهم وقت الحاجة. وقد وصلت الهدايا التي كان يغدقها الملك لوبو، الأمير نصف المسلم (كما قيل) الى ملوك وحكام اوروبا، ليدفع خطرهم وأذاهم[7].

---

(١) ابن سوار من اهل مرسية؛ ابن الابار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٣٠.

(٢) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٧، ص: ١٢١؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٥.

(٣) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٧، ص: ١٢٢؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٥٢، ٣٥٣، وكان سن ابن مردنيش آنذاك لا يتجاوز عشرين عاماً.

(٤) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٧، ص: ١٢٢.

(٥) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٥٠.

(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٠٣.

(٧) ابن الابار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٣٢، ٢٣٣؛ ويذكر هذا أن هدايا ابن سعد ورسائله وصلت مك انجلترا، ويذكر المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٦، خبراً بهذا المعنى.

وعلى أثر هذه التحالفات، نشأ محور قوي بين ملك قشتالة، وملك أراجون سنة ٥٤٥هـ/١١٥١م، لاقتسام أراضي ابن مردنيش بينهما، فخصصت مرسيه وبلنسية للاراجونيين، وغرناطة من نصيب ملك قشتالة، ليجرب حظه فيها في الحاضر وفي المستقبل[١].

وعندما سمع ابن سعد بخطة الاتفاق من حليفين سابقين، بادر لدفع خطرهما بالمال، تحت اسم معاهدات مع قشتالة واراجون، وفرض أنواعاً من الضرائب على شعبه، "فعظمت في بلاده المغارم، وثقلت... وجعل على الاغنام والبقر مؤناً غريبة، وأما رسوم الاعراس والملاهي، فكانت قبالاتها غريبة"[٢].

ان تراجع القيم عند ابن مردنيش، والحياة المبتذلة التي عاشها، وابرامه الاتفاقات والمعاهدات التي عقدها مع النصارى، وخضوعه الى حد التذلل لهم، وعدم التفاته الى بلاده يحميها من التفكك والاضمحلال، كان سبباً في ضياع بعض المدن الساحلية التي سقطت تباعاً بأيدي ملوك أراجون، اذ استولى العدو في مدته على مدينة طرطوشة سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، وعلى حصن اقليج، وحصن شرانية، ثم ظهور حركة تمردية يقودها القضاة والأعيان في كل من بلنسية ولورقة، ضده، وهؤلاء عموماً يمثلون اتجاهاً عريضاً بين الشعب[٣].

غير أن ابن سعد ذا الشخصية التي تنزع دائماً الى الغارة والانتهازية، لم يهمل رجال الانتفاضة يجنون ثمرة جهودهم، بل كر عليهم بسرعة فائقة، وحطم هذا التململ في مهده قبل أن يستفحل خطره سنة ٥٤٦هـ/١١٥٢م[٤]، ويشير صاحب الحلة السيراء بما يثبت تدخل الموحدين غير المباشر، في الرسالة الغاضبة التي بعثها عبد المؤمن الى ابن مردنيش عقب فشل الانتفاضة، تتضمن التهديد والترغيب، حيث يقول فيها: "فقد كان منكم في أمر أهل بلنسية حين اعلانهم بكلمة التوحيد، وتعلقهم بهذا الامر السعيد ما كان. ثم ما كان منكم في عقب ما اعتمدتموه في أهل لورقة-وفقهم الله-حين ظهر اختصاصهم، وبان اخلاصهم، وليس لذلك وأمثاله عاقبة تحمد، فالخير خير ما يقصد والنجاة في ما ي نزح

---

(١) J. F. Ocallaghan: AHso. of, Medieval, Spain, p. 232; ابن صاحب الصلة: المن بالامامة، ص: ٤٠٣-٤٠٥؛ المراكش: المعجب، ص: ٣٠٤.

(٢) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٧، ص: ١٢٣، ١٢٤.

(٣) ابن الخطيب: لاحاطة، ج٧، ص: ١٢٣-١٢٦؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٤.

(٤) ابن الابار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢٣٢-٢٣٣.

عن الشر ويبعد، وإنا لنرجو أن يكفكم عن ذلك وأشباهه ان شاء الله تعالى، نظر موفق ومتاع محقق، ويجذبكم الى موالاة هذه الطائفة المباركة جاذب يسعد، وسائق يرشد، والله يمن عليكم بما ينجيكم ويمكن لكم في طاعته أسباب تأميلكم بمنّه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"[1].

قد يكون ما زعمه الموحدون على جانب من الحقيقة، فلربما كانت لهم صلات ببعض الثوار في شرق الأندلس، فهذا أبو عبدالرحمن ابن طاهر هو أحد سليل أمراء مرسية في عهد ملوك الطوائف (جدّه أحمد أبو عبدالرحمن)، كان ميالاً الى صف الموحدين، وأميرا على مرسية، غير أنه لم يكن مؤهلا للمضي الى زمن أبعد لممارسة الحكم فيها وفي الشرق كله، حتى لو قدر له ذلك في وسط هذا المناخ الذي تسوده المجابهات العسكرية، وكثرة الدسائس التي اجتاحته[2].

لذلك استجاب أبو عبدالرحمن لرغبة ثوار بلده، وتنازل عن الحكم لخلفه ابن عياض، اثر انقلاب أبيض، ودون اراقة دماء، اذ كان هذا أمهر من سابقه يلعبه الحكم وسط الزعازع والأنواء، واستطاع مجابهة تلك الخدع بالمرونة الدبلوماسية؛ فلعب بورقة ابن هود واستطل بظله وحكم باسمه[3].

أما ابن طاهر السابق فقد غاب عن المسرح السياسي، وعاش في الظل، يتطلع الى الموحدين، ويؤيد دعوتهم سرا طوال بعدهم الجغرافي، ويعيش في خوف وقلق دائمين على مصيره، اذ كان مرتهناً بيد ابن مردنيش حتى نهاية الأخير، ومن ثم اعتنق مذهب التوحيد، وارتحل الى مراكش، وتوفي فيها سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م[4].

ورغم ذلك كان ابن سعد يشدد من قبضته على الشرق الأندلسيء الاقليم الأكثر تشنجاً، ويتحرك وفق خطة مدروسة، بناء على تعليمات تلقاها من استخباراته الراصدة لتحركات الموحدين في افريقية، إذ كان عبدالمؤمن ومعه صفوة قواته؛ سبعون الف فارس، وخمسمائة الف من المشاة يتحركون بعيداً عن مراكش نحو المهدية لاسترجاعها من الصليبيين[5].

---

(١) في قول آخر: "في ما ينزع"؛ المصدر نفسه، كتاب الدولة الموحدية: رسائل موحدية، الرسالة العاشرة، ص: ٣٧ ان نص الرسالة يوحي باعتقاد الموحدين بابن مردنيس خيراً، ولعل بعد نظرة يفيء به الى جماعة التوحيد، ويبتعد به عن التمرد والعمالة للأجنبي.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ١٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص: ١٢٠، وما بعدها، ص: ٢٣٢؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٥.

(٤) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ١٢٠، ٢٣٢، ٢٣٣.

(٥) مجهول: الحلل الموشية: ص: ١٥٢؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٥؛ ابن الاثير: الكامل، ج٩، ص: ٦٣.

مشى ابن سعد من قاعدته مرسية سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م، برفقة قواته ومعه تشكيل من النصارى صوب جيان[١]، ودخلها دون مقاومة، وكان الوالي الموحدي قد تواطأ معه (محمد بن علي الكومي). "إذ صادف عنده من النكوث بالبيعة ما كان مقبولا لديه"[٢]. وانسحب الكومي متسللا، وتركها طعمة سهلة للغازي اثر قرار ارتجالي، مدللا بذلك على ضعف انتمائه الوطني والحضاري، وتردده وعجزه عن ملء الفراغ، الذي ينتظر الموحدين، مما أطمع رجلا مغامراً مثل ابن سعد، في فجر دولة الموحدين، أن يسير مغامراً في عرض للقوة، إلى منطقة أخرى يحاول احتلالها، وكانت مدينة قرطبة- احدى أخطر المواقع وأكثرها شهرة واستراتيجية-موضع اختياره الثاني، فضرب عليها الحصار، وألح في اقتحامها دون جدوى، وقد تحطمت آماله خارج أسوارها، غير أنه استطاع تدمير اقتصادها وإضعاف نقاطها الدفاعية؛ إذ خرّب حصونها وقلاعها حتى لاصق أسوارها[٣] وبدا هذا واضحاً لأميرها أبي زيد عبد الرحمن بن تيجيت، فاجتمع مع مستشاره القاضي أخيل بن ادريس[٤]، وباقي اركان القيادة لوضع الخطط لحماية المدينة وفك الحصار عنها، واتصلوا سرا بالسيد رأي بن وزير، وهو أحد دهاة الاندلس، ومن الرواة الذين اعتمد عليهم ابن صاحب الصلاة في تاريخه، وأصبحت له حظوة سامية لدى السلطة الموحدية، وهو من سكان اشبيلية، وكان ممن كتم توحيده. بعث الوالي رسالة على لسانه إلى ابن مردنيش المحاصر لقرطبة، كي يفك الحصار عنها، ويطمعه في احتلال اشبيلية، وهي الأقل مدافعة وتحوطا من الأولى، ويكون عونا له على ذلك، كما يعرف عنه من صبر على القتال وعناد في المساومة، فانطلت الحيلة على ابن سعد، وفك الحصار، وانكفأ منحدراً غرباً إلى اشبيلية، ولجسامة الموقف أخطر الوالي أبا يعقوب يوسف[٥]، المتحصن باشبيلية، بكل تفاصيل الخطة، فاستعد للحصار والمقاومة، تحرك ابن مردنيش عجلا حتى وصل الى

---

(١) جيان Jaen مدينة تقع شرقي قرطبة على بعد ١٠٨ كم منها ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١١٦ هامش رقم ١.

(٢) المصدر نفسه، ص: ١١٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٨؛
ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩١، وتردد المصادر على أن محمد بن علي الكومي كان واليا على جيان، ولكنها لم تشر إلى تاريخ توليته هذا المنصب، ويذكر ابن أبي زرع، أن عبد المؤمن ملك جيان سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١١٥-١١٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٨.

(٤) عين كاتبا للموحدين ومن قيلهم للمرابطين، ولمع اسمه في زمن بني عبد المؤمن.
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١١٧.

(٥) أبو يعقوب هو السيد ابن عبد المؤمن والخليفة من بعده.

باب قرمونة[1] تمهيداً لاحكام الحصار، وفي الجانب الآخر قابله الأمير باستنفار عام في داخل المدينة "وضبطها السيد الاعلى أبو يعقوب"، ودافعت بشراسة لصد الهجوم المردنيشي، لكنه أرهقها في الحصار مدة ثلاثة أيام[2]، ثم جاءت الصدمة التي قلبت حساباته بكاملها، إذ تبين له أن الكتاب خدعة، لذا لم ير إلا المقاومة العنيدة من الداخل. فلوى عنانه راجعاً عنها إلى سنة قادمة، محيلا أمر احتلال المدينتين إلى أحد أبرز قادته، هو ابراهيم بن هَم شْك[3].

بادر ابن همشك بناء على أوامر سيده نحو قرطبة، ودمر نقاطها الدفاعية، وبنى الكمائن خارجها، فخرج حاكمها ينظر الخراب الذي أصابها، ودون تحوط منه، فأجأته الكمائن المحيطة قرب أطابة Ataba القريبة منها، وأحاطت به ولم يستطع الصمود حتى ولا الافلات، ولحقت به الهزيمة وسقط طريعاً، أما باقي الجيش فقد لاذ بالفرار، وتحصن داخل المدينة[4].

وقنع ابن همشك بهذا النصر الجزئي ثم عاد إلى قرمونة، حصن اشبيلية القريب، وفتحه، واستولى عليه بمساعدة أحد أعيانها عبدالله بن شراحيل سنة ٥٥٥هـ/١٦٦٠م[5].

ثم انفلت صنيع ابن مردنيش، محاولا مرة أخرى الاستيلاء على اشبيلية، فضيق على أهلها، حتى كاد يوردهم الهلاك، بعد أن عفى على مقوماتها الاقتصادية والعسكرية، وأوشكت على الاستسلام، فاضطر الوالي ابو يعقوب يوسف أن يكتب إلى أبيه الخليفة يستنجده، ويستحثه على القدوم، ويقول: "العدو ي لج بالفتنة والضرر، ويستعين باخوانه النصارى، وبالمنافقين أصحابه الاحز، واشبيلية في مثل الحلقة من الفتن، قد نهل بالغصص ساكنها، وذهل خوفاً من القنص متحركها وساكنها"[6].

---

(١) يذكر كتاب المن بالامامة أن باب قرمونة تقع في الجنوب الشرقي من اشبيلية تجاه قرمونة، في حين تقع قرمونة في الجهة الشمالية الشرقية من اشبيلية.
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١١٨ هامش رقم ٢.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) هو ابراهيم بن محمد بن مفرح، نصراني اسلم على يد بني هود بسرقطة، وقد اتصل بالأمير ابن عياض، وغلظ امره حتى ساوى ابن مردنيش، وزوجه ابنته، ثم فسد ما بينهما فتعاديا؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٨ هامش رقم ٢.

(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٢٦-١٢٧.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٨-٣١٩؛
ابن الخطيب: اعلام الاعلام، ص: ٢٦١.

(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٢٩.

بعث الخليفة يجوا بين على كتاب ابنه، يبشره في الأول بانتصاره على أعراب بني سليم في افريقية، وإذعانهم للطاعة، والمح فيه نيته على العبور الى الأندلس للقضاء على زعماء الفتنة قائلاً:

"فاستبشروا-وفقكم الله-لما تستقبلونه من المواهب الجسيمة والفتوح العمميمة"[1] أما الرسالة الثانية، وقد بعث بها عبد المؤمن طالباً من أبنائه وولاته بالأندلس بناء مدينة حصينة لتكون قاعدة حربية بجبل طارق، وأرضية صلبة يستند عليها لانزال الجيوش في المستقبل[2].

اجتاز الخليفة المضيق ونزل على جبل طارق سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م وسط حشود ضخمة من المستقبلين، يتوسطهم السادة والأشياخ والأعيان والقضاة، والطلبة والحفاظ والقادة العسكريون والشعراء، وأقام مدة شهرين يستطلع أحوال الأندلس العسكرية والاجتماعية منها والجغرافية عن قرب[3] وخلال هذه المدة برزت سرية استطلاع للعدو، فاعترضها الموحدون، وانقضوا عليها كالصواعق، وألحوا في مطاردتها حتى أتوا عليهم قتلا وسبياً[4].

وعلى وهج هذه الظروف من الحروب والغارات نظم هناك الادارة، وحثهم على الحذر واليقظة، ومواصلة قتال ابن مردنيش، حتى يعود السلام والأمن الى شرق الأندلس وتصفية الثائر واستسلامه. وعاد الخليفة الى مراكش سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م[5].

بعد رحلة العودة التي اتخذها عاهل المغرب الى مراكش، أخذت السرايا تتجه الى قرمونة بقيادة أبي محمد عبدالله بن أبي حفص بن علي، أحد أبرز القادة الموحدين، اذ نزل بقلعة جابر على بعد أميال منها، محاولاً ارهاقها واجبارها على التسليم. لكن أهل المدينة المحاصرة حاولوا الاتصال بابن همشك القابع بجيان، لانجادهم، لكنه تلقى الخبر بكثير من التأثر وكثير من الصمت ازاء ما يجري هناك. وربما قد خالجه الخوف، أمام

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٣٤، ١٣٥.
(٢) المصدر نفسه، ص: ١٣٦-١٣٩.
(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٣١٠؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٥.
(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٠٠؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٤١.
(٥) المراكشي: المعجب، ص: ٣٢٧، ٣١٠.
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٧٢.

الاصرار لاسترداد قرمونـة، فلـم يجـرؤ عـلى انجادهـا، وتركهـا لمصـيرها تعـاني مـرارة الحصـار والسقوط[١]، فاجتمع أعيان المدينة دون علم الحاكم القائد الشرقي ابن أبي جعفر، وبعثوا وفدا مـن قبلهم يسهل مهمة تسليم المدينة للموحدين ضمن شروط مسبقة[٢]، وافق الموحدون على الشروط، وهيأوا فرسانهم لدخول قرمونة من برج "قرن المعزة"[٣]، المكان نفسه الذي دخل منه ابـن همشـك سابقاً عندما احتلها، وفتحت المدينة أبوابها، ودخلها الموحدون، ووفوا الأهلها بوعـدهم وذلـك سـنة ٥٥٧هـ/١١٦١م[٤].

لقد كان الموحدون يعتقدون بأن جميع خصومهم من المجسمة الكافرين. لذا قام الشيخ أبو محمد بن أبي حفص بن علي ونظف جامعها بالماء، ويقول ابن صاحب الصلاة "ولقـد مشـيت اليـه- يعني الشيخ- وهنيته على الفتح، وهو في الجامع يغسله، وهو جـالس مسـتنداً الى الحـائط الشرقي من جامع قرمونة، والرجال يغسلون الجامع بمرأى منه، وأقام بها حتى أصـلحها، وأمنهـا... وأعلـم في خبر فتحها الخليفة...."[٥].

وبعدا الانتهاء من ضم قرمونه، عزز الموحدون جبهتهم في كل من قرطبة واشبيلية بالجنود، على اثر غارات ابن همشك، التي كادت تطيح بالاولى، وترهق الثانية.[٦] فتحسن بذلك مركزهم في هاتين المدينتين، وكان يبدو من العسير الاستيلاء عليهما في الوقت الحاضر على الأقل، وقرر ابن همشك -الذي كان يعيش حالة من التشنج والغليان تحت هاجس الانتقام من قبل الموحدين في أعقاب احتلالهم قرمونة -أن يسير إلى غرناطة للاستيلاء عليها، واتصل سراً مع يهود المدينة- وهم الذين أعلنوا اسلامهم ظاهراً وطغت فيها مصالحهم المتجذرة على سطحية التجربة في الاسلام - ومع حليفهم

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٨٣.
(٢) ومن هذه الشروط: طلب الأمام لاعيان المدينة وجميع سكانها، وإكرامهم، المصدر نفسه، ص: ١٨٤.
(٣) قرن المعزة: برج بقرمونة، المصدر نفسه.
(٤) البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، ص: ١٢٥.
(٥) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٨٥.
ولأول مرة يظهر ابن صاحب الصلاة بالأندلس بقرمونة، ولعله كان في ركب المجاهدين.
(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٨٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٤، ص:٢١٣.

ابن دهري.[١] ولقد تم البحث معهم حول الطريقة التي يتم بها الاستيلاء على غرناطة؛ وفتحوا له باب ربض المدينة، فاقتحمها ابن همشك ليلا، وفوجئ الموحدون بداخلها بالاقتحام، وهرعوا إلى القصبة يتحصنون بها، وعدوهم يشدد الحصار عليهم، ويلح عليها، ولكنها استعصت عليه، فبعث يستنجد بابن مردنيش يستعجله، ويطمعه في اكمال فتح المدينة.[٢]

قام ابن همشك في خلال هذه الفترة بـاحتلال القصـبة الحمـراء الواقعـة في جبـل السبيكة الموازية لقصبة غرناطـة.[٣] وبـدأ مـن موقعـه يشـدد الحصـار عـلى الموحـدين، ويقذفهم بالقذائف الحجرية، ويعـذب الأسرى عـلى مـرأى مـنهم، وربمـا قـذف بعضـهم بالمنجنيق[٤]، واستطاع الأخيرون من جانبهم الصمود والمنـاورة، ريـثما تصـلهم النجـدات التي طلبوها؛ وقاموا بهدم الجسر الذي يربط بين القصبتين، وكانـت قـد ارسـلت معونـة عسكرية فوريه من اشبيلية تحت قيادة ابي محمـد عبـدالله بـن أبي حفـص، واحـداً مـن أشهر القادة العسكريين التي تفتخر بهم الدولة، وعنـدما حملـت الأخبـار النبـأ إلى أمـير المؤمنين

(١) كان ابن دهري صهراً لابن زيد مشرف غرناطة (ربما كـان بمثابـة رئـيس ديـوان المحاسـبة)، وقـد اسـتطاع ان يجمع حوله طائفة من اليهود المتظاهرين بالاسلام، والنصارى المعاهدين وعليه اعتمد ابن همشك في التآمر على غرناطة؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة،ص:٥٠؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣١٩. ولما تـيقن الملمثـون في غرناطة اسـتقرار الموحـدين في اشـبيلية وقرطبـة، وبـاقي الغـرب الاندلسيـ جفـل عـنهم النـاس فشـعروا بوحدتهم وانعزالهم، وأنه لاطاقة لهم بالتصدي للموحـدين عنـدها اتصـل زعـيمهم ميمـون بـن يـذر الـوالي المرابطي بعبد المؤن في مراكش وطلب منه الصلح، والعفو، ودخلوا جميعاً في دعوة التوحيد، فضمها الخليفة من يومئذ إلى سبتة، وجعل عليهما ابنه ابا سعيد واليا سنة (٥٥١هـ/١١٥٦م)؛ ابـن عـذاري: البيـان المغـرب، ق٣، ص:٢٢، ٢٣؛ ابن أبي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص١٩٦؛ غير أن اهل غرناطة نكثوا البيعة اثر غياب ابي سعيد بعيداً إلى مراكش وغدروا بالموحدين؛ إذ اتصل ابن دهري وصهرة ابن زيد مشرف غرناطـة، واستطاع الاثنان ان يجمعا حولهما طائفـة مـن اليهـود المتظـاهرين بالاسـلام والنصـارى المعاهـدين وبعـض المتمردين من اهل المدينة وعليهم اعتمد ابـن همشـك في التـآمر عـلى غرناطـة سـنة ٥٥٦هــ/١١٦٠م؛ ابـن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٨٦-١٨٨؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٤٩-٥٠؛ الكامل: ابن الاثـير، مج٩، ص٧٨، ٧٩.

(٢) المصادر نفسها والصفحات نفسها.

(٣) قصبة غرناطة يعني بها القصبة القديمة التي احتلها الموحدون واعتصموا بها ، وتقع في العدوة الغربيـة مـن غرناطة؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٨٩.

(٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

بمراكش، اهتز لفداحة الخطب، وعلى عجل كلف ابنه أبا سعيد على رأس جيش لانجاد غرناطة، لتعزيز المعونة السابقة، وعبر البحر، واجتمع اثر وصوله مالقة بجيوش اشبيلية، حيث سارت مجتمعة نحو غرناطة، حتى وصلوا إلى مكان يعرف بمرج الرقاد.[١] وكانت تعسكر في الجانب المقابل قوات ابن مردنيش وابن همشك، وحلفاؤهم من النصارى بقيادة الأقرع (الفار رودريكيت)Al var Rodriguez ، ويرافقانه ايرمانكوا السابع !!Ermengaud V ويسمى القمط، وأخوه كوسيران دوصال Cucerand de sales.[٢]

اقتربت الجيوش الموحدية من غرناطة، ودون تحوط اصطدمت بقوات ابن مردنيش وحلفائه؛ فانهزم المسلمون، وسقط القائد الشيخ أبو محمد عبدالله بن ابي حفصة قتيلا على أرض المعركة، وهرب أبو سعيد ناجيا بجلده إلى مالقة، بعد أن فر زهرة جنده غرقا وقتلا وأسرا، والموحدون في القصبة ممتنعون ينظرون إلى بني جلدتهم،ولم يثبط ذلك من عزائمهم، بل كان شاحذا لهم على الصبر والصمود.[٣]

وقع هذا الخبر على مسامع عبدالمؤمن وهو يتسقط الانباء بمدينة سلا)، وقع الصاعقة، ولكن لم يخرجه عن حد التماسك إلى حيز الجزع، لذا لم يلتفت كثيرا بحزن إلى عمق المأساة، بل بقي رابط الجأش، وبرّر ذلك شهرته كفاتح لا يغلب. فحجم المصيبة، وجند جيشاً على جناح السرعة، يضم كثيراً من عرب بني سليم، ونخبة ممتازة من كل قبيلة، يقوده ولده أبو يعقوب يوسف، وبصحبته القائد أبو يعقوب يوسف بن سليمان داهية الحروب في عصره، ومستشار الخليفة العسكري. فاجتازوا المضيق الى الجزيرة الخضراء، واجتمعوا بالسيد ابي سعيد بمالقه وسار الجميع نحو غرناطة بحذر ويقظه تامتين حتى انتهيا إلى مكان يفصل بين الجيشين المتعاديين (وادي حدارّه)[٤]Darro .

---

(١) مرح الرقاد: مكان قرب غرناطة على بعد ستة كيلومترات من قريه الطرف (Atarfa) في سفح جبل البيرة. (Sierra de Elvird)على مقربة من نهر شنيل، ومقابلها الحديث هو (Majorrocal أوMerrojal)
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٩٢،
ابن عذاري: البيان المغرب ق٣، ص:٣٣

(٢) المصدر نفسه؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣١٩.

(٣) ابن الاثير: الكامل، مج٩، ص:٧٨.

(٤) هو اسم النهر الذي يخترق غرناطة، او جدول يتفرع من النهر شنيل، وكان في القديم يحمل اسم بحر القلزم؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص:١٩٥.

ثم تقدم الموحدون إلى نهر شنيل قريبا من غرناطة، وابن مردنيش وحلفاؤه يرقبون تحركاتهم غير آبهين بهم، وقد ملكهم الغرور، فلم يأخذوا للموقف اهبته، فباغتهم المسلمون في فجر يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر رجب سنة ٥٥٧هـ/ الثاني عشر من تموز ١١٦١م، وانقض المغاربة بهجوم عام جريء على معسكر ابن سعد وحلفائه قبل وضح النهار؛ فساد الارتباك والخور قوات ابن مردنيش، ولم تستطع الصمود والمقاومة، وانكفأوا يهربون بغير نظام ودون وعي، وحاولوا عبثا الاتصال بسيدهم الذي كان على الجانب الآخر للوادي (كقوة احتياطية)، فتردى أغلبهم إلى حافة الوادي ولقي مصرعه، على مرأى من ابن سعد، وهو ينظر إليهم وهم يقتلون، دون أدنى حركة لانجادهم، مسوّغا ذلك بوجود منحدر سحيق بينه وبينهم، وكانت المعركة حاسمة خسر فيها الحلفاء كثيرا من قادتهم؛ فسقط الأقرع النصراني[١] Alvar Rodriguezصريعا في ميدان المعركة ومعه ابن عبيد صهر ابن مردنيش[٢].

ودخل الموحدون غرناطة في وسط النهار من اليوم نفسه، واستولوا عليها، واجتمعوا بالمحصورين بالقصبة، وتراجع ابن مردنيش فارا بجلده تاركاً وراءه كل شيء يقع اسلاباً وغنيمة بيد الموحدين، فأذعنت المناطق المحيطة بغرناطة وقدمت الطاعة[٣].

وبعد تصفية الجيوب الثائرة في غرناطة وما حولها. استأنف الموحدون زحفهم جهة مرسية معقل الثائر الاخير، وهو الأكثر تحصنا والأقدر على الصمود، فحشد ابن سعد أكثر ما يستطيع من الجنود والمرتزقة النصارى، واعترض طريق الموحدين في سيرهم نحوه، لكن الموحدين انحرفوا في مسيرهم إلى الجهة الشرقية من لورقهLorca ، ثم نزلوا الفحص

---

(١) كان القادة النصارى الذين اسهموا في هذه المعركة ثلاثة، الأول: الفارروذْ ريكيث الذي عرف في المصادر الاسلامية تحت لقب الأقرع، والثاني ايرمانكو السابع Ermengaud V11 وسماه ابن صاحب الصلاة القمط أرجالUrgel ، والثالث هو أخ ايرمانكو السابع المسمى كوسيران دوصال Caucernad de sales ولم تسعفنا الروايات الا بمصرع الأقرع في هذه المعركة، أما هذان الاخوان فقد توفيا معاً في سنة ٥٧٩هـ/١٠٨٣م.
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٨٨، ويذكر البيدق: كتاب المهدي ابن تومرت، ص: ١٢٦، أنه قتل في هذه المعركة سبعة من شيوخ العرب وزعمائهم.

(٢) المصدر نفسه، ص:١٩٨-١٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ص:٢٠١؛ ابن الاثير: الكامل، مج٩، ص:٧٩؛ المقّري: نفح الطيب، ج٦، ص:٢٥٤؛ ابن عذاري البيان المغرب، ق٣، ص:٥٣؛ غير ان ابن ابي زرع: يجعل استرجاعها سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م، ولعله يعني استرجاع المرية، ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٩٦؛ لكني أميل إلى الرأي المثبت في المتن.

المسمى بالفندوق[1] Alfundun ، متجنبين الصدام معه. فارتد ابن مردنيش بقواته نحو مرسية لظنه ان الموحدين يقصدونها، وأستأنف الاخيرون السير حتى مشارف مرسية، وكان ابن سعد بقواته في انتظارهم على بعد عشرة أميال منها، ظهر يوم الجمعة، ٧ ذي الحجة سنة ٥٦٠هـ١٥ اكتوبر ١١٦٤م[2].

نظم الموحدون صفوفهم من القبائل المغربية، والعرب من بني هلال ورياح، وكان العدد التقريبي للجيشين متساويا؛ ويقدر جيش المغاربة باثنى عشر ألفاً، بينما جيش ابن سعد بثلاثة عشر الف مقاتل، ونشبت موقعة بين الطرفين، فتمزق فيها جيش مرسية وجنحت فلوله إلى داخل المدينة، وتابعت قوات الموحدين سيرها نحوها، وضربت حولها الحصار حتى نهاية عيد الاضحى، والحوا عما حولها عيثاً وتخريبا لاجبارها على التسليم دون جدوى.[3]

إن ابن مردنيش لا يزال غير مأخوذ بحجم الخطر الذي بدأ يقتحم جذور سلطته الممتدة لعشرين سنة خلت، ولم يشأ أن يتخلى عن ثقته بنفسه، إذ اصبحت مظهرا من المكابرة كلما شعر بالظروف لم تعد كما في الماضي. فقد بدأت تتخلى عنه احلافه من النصارى ومن أعز اقربائه، "وظهر التقصير به وعدم المعونة لمذهبه... وهو مكبود مفؤود، قد أسلمه القريب والبعيد، وتحقق الانحراف، والميل إلى الموحدين والانعطاف"[4] وهكذا هبت عليه رياح الخطر المقلقه من الداخل ومن الخارج.

لم يهدأ ابن سعد على الرغم من الهزائم والملاحقة التي ألمت به، فأرسل بعض قواته من النصارى للإغارة على مدينة رندة[5] Randa ، حيث اكتسحت ضواحيها اسرا وسبيا، ولما علم والي غرناطة بذلك، وجه جيشي الأندلسيين والموحدين، وطاردوا النصارى الى الأوعار، وقد تسنموا احد الجبال في وادي آشى هروبا من الموحدين، وتسلق الآخيرون الجبل في أثرهم، ودارت هناك رحى معركة حاسمة، انتصر فيها الموحدون، وهربت فلول

---

(١) الفندوق: يقع جنوب قرطاجنة شرقي مدينة لورقة؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٢٧٤:٢٦٩-٢٨٦.

(٢) المصدر نفسه، ص:٢٧٣؛ ابن ابي ذرع: الانيس المطرب، ص:٢١٠.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٢١-٣٢٢؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٢٧٤، ٤٠٦- ٤٠٧.

(٤) المصدر نفسه، ابن صاحب الصلاة، ص:٤٠٦.

(٥) رندة: تقع بين اشبيلية ومالقة؛ ياقوت: المعجم، ج٣، ص:٧٣؛ وكانت القوات النصرانية بقيادة جراندة (Giraldo).

ابن مردنيش، وتردت من الحافات الشاهقة "وتكسّرت أعضاؤهم"، واصبحت مزقا مبعثرة، وأتى على الباقي القتل والأسر والسبي، واستاقوا منهم ثلاثة وخمسين أسيرا، ضربت اعناقهم في مدينة غرناطة سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م[١]. لذلك ساءت علاقة ابن سعد بكبار رجال دولته، وأعوانه، فصب عليهم جام غضبه، وعذبهم مما اضطرهم إلى الثورة عليه.[٢] واستعمل مع اولئك الذين اتهمهم بالتمرد أنواعا بشعه وغريبة من القتل؛ منهم من بنى عليه حائطاً وتركه حتى مات جوعا وعطشا، كما حصل لا بني الجذع وزيريه[٣]. وآخرين اقتلع عيونهم[٤]، وقتله لابن صاحب الصلاة الغرناطي بصورة بشعة[٥]، وأخرج كثيرا من أهل مرسيه، وأسكن النصارى دورهم وجلب جموعا منهم اتخذهم بطانة له وأنصارا.[٦] وفي ذلك يقول ابن الخطيب: "فقد ابتنى ابن مردنيش لجيشه من النصارى منازل معلومات، وحانات للخمور، وأجحف برعيته..."[٧].

كانت دولة ابن مردنيش تمر آنذاك في مرحلة انعطاف حتمي، لم يكن من السـهل التصدي لها أو التنبؤ بمستقبلها، مهما اتصف ابن سعد بالمقدرة والكفاءة؛ اذ كان عظـيم القوة في نفسه شديد الأسر[٨]، في تركيب بنيته، أصيل الشـهامة والفروسـية، ينـادم كبـار الأبطال، ومشاهير الفرسان، ومساعير الحـروب، فيعـاقرهم الخمـر ويعـاطهم الكـأس "... وكان ظاهر النجدة كثير الغناء..."[٩].

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٠٦-٣٥٧.
(٢) المصدر نفسه، ص:٢٨٨-٢٩٠.
(٣) لم تهتد بعد الاطلاع على المصادر المعـاصرة للاحـداث، لاسـم هـذين الـوزيرين اللـذين تعرضـا لهـذا المصـير الرهيب، وكل ما عرفناه ان ابن مردنيش خرج عن طوره، فأخرج اهل بلنسية منها، وأسـكنهم بظاهرهـا، ثـم عمرها بالنصارى، واتباعهم واعتـزم ان يقـوم بـنفس العمـل في غـير بلنسـية؛ ابـن الأبـار: الحلـة الـيراء، ج٢، ص:٢٦٨؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٢١؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٨٨.
(٤) ابن الخطيب: أعمال الاعلام، ج٢، ص:١٢٤.
(٥) الغرناطي: هو أبو عبدالله، من العلماء المبرزين، ومن شيوخ ابـن الأبـار؛ المـن بالامامـة، ص:٣٨٨؛ ابـن الأبـار: الحلة السيراء، ج٢، ص:٢٦٨؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٢١.
(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٨٨؛
المراكش: المعجب، ص:٢٦٢.
(٧) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٢، ص:١٢٤.
(٨) الأسر: شدة الخلق؛ المعجم الوسيط، ج١، ص:١٧، المكتبة العلمية، طهران، لا.ت.
(٩) المراكشي: المعجب، ص:٣٠٦.

فهذا ابن همشك احد أبرز قادته، وذراعه الأمني، وبعد أن ازدادت سخونة الجو حوله، يتخلى عنه وقت المحنة ويعلن الحرب عليه.[1]

الا أن السبب الأوضح والأشد خطورة على ابن سعد، هو الارتجاج العسكري، وخلافه مع صهره ابن همشك الذي خافه، وانقطع عن زيارته، وزاده خوفا منه وفزعا تصفيته السابقه لأتباعه، وكانت بمرأى منه، وطلاقه ابنته، وبدا يشن عليه الغارات المتواصلة[2].

وتأكد ابن مردنيش من غدر صهره، وانحيازه إلى الموحدين واستعدائهم عليه، وكان هذا بمثابة الانكفاء الأخير اليه، فأعلن التعبئة العامة في طول البلاد وعرضها، وكان يعول في حروبه بصورة اساسية على النصارى الذين نالوا الحظوة عنده، فاستنجد بهم، لكنهم هذه المرة تقاعسوا عن نجدته، اذ رأوا موقفه في ضمور، والنقمة المتعاظمة عليه من اتباعه تشتد يوما فيوما، بيد أنهم أمدوه بنحو أربعمائه فارس، وقد وجههم تحت قيادة واحد من اخلص رجاله؛ أبي عثمان بن عيسى- إلى مدينة لورقة Loca لحمايتها وضبطها.[3]

ثم رأى ابن سعد من تقاعس حلفائه النصارى ما أقلقه وأهمه، فوهبهم حصنين مهمين كي يواصلوا منهما غزوبلاد ابن همشك، وهما حصنا بلج والكرس، حيث يقعان شمالي غرب مرسية.[4]

وتصدى ابن همشك بعناد وبصعوبة بالغتين للهجمة الهائلة التي ارسلها ضده صهره وحليفه الأول، وعلى أثرها طلب النجدة من الموحدين، وتوالت استغاثاته والحاحاته.[5]

لكن الموحدين لم ينجدوه في الحال، بل تريثوا بعض الوقت، ربما لشكهم في اخلاصه، واختبار مدى صبره وصدق توحيده. ولما ثبت لديهم صدق نيته "كتب الشيخ المرحوم أبو حفص من قرطبة إلى حضرة الخلافة معينا لابن همشك بكتابه، ومصدقا له في ما استغاث به من عدوه"[6].

---

(١) المقري: نفح الطيب، ج٤، ص:٣٧٨.
(٢) يحكي أن ابنة همشك وزوج ابن سعد، انها سئلت عند طلاقها عن ولدها، وإمكان صبرها عنه فقالت: "جرو كلب ابن كلب لاحاجة لي به"؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، هامش ١ ص:٣٨٩.
(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٠٤.
(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص ٤٨٩، ٤٩٠.
(٥) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٢١.
(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٩٩.

استجاب عاهل المغرب للصراخ محاولاً التخفيف ما أمكنه عن حليفه الجديد، فأرسل صفوة المقاتلين المغاربة، وعلى رأسهم أخواه أبو حفص، وأبو سعيد، ومن الأندلسيين المحترفين الشجعان القاطنين بمراكش، بقيادة الفارس الذائع الصيت ابي محمد سيد راي بن وزير، وأخيه أبي الحسن علي، وعبر الجميع البحر إلى الاندلس، ووصلوا اشبيلية سنة٥٦٦هـ/١١٧٠م.(١)

نهض ابن همشك في ثلة من أصحابه المخلصين، والتقى الشيخ ابا حفص، واجتمع معه في اشبيلية لبحث خطة الحرب واختيار الزمان والمكان.(٢)

وقرر الجميع الزحف نحو مرسية، مقر الثائر ابن سعد، وضربوا عليها الحصار، وفي اثناء ذلك اعلنت كثير من المواقع والمدن والحصون ولاءها للموحدين(٣) فثار أهل لورقة، وثارت مدينة المرية بزعامة أبي عبدالله محمد بن مردنيش المعروف بابن صاحب البسيط وهو ابن عم محمد بن سعد حاكم شرق الأندلس، وزوج اخته، إذ أعلن طاعته للموحدين، وانضم اليه ابو ايوب محمد بن هلال الشرقي حاكم جزيرة شقر، وألقيا القبض على القائد العسكري ابن مقدام، وتمت تصفيته بأمر من أبي حفص نزولاً عند رغبتهما، وقد أمدهما بجيش مغربي اكمل احتلال المرية.(٤)

ولما علم ابن سعد بانحراف احد أهم المقربين اليه ابن عمه السالف الذكر، أصابه الذهول والتشنج، وفقد توازنه والسيطرة على أعصابه، وتصرف بانفعال بعيد عن الكياسة والتعقل، وجمع أخته واولادها "فأخذهم ابن الراعي الموكل بالعذاب منه بالناس، وحملهم إلى البحيرة بمرسيه المتصلة بالبحر بالقرب من بلنسية، وأدخلهم قاربا.. فلما توسط بهم البحيرة المذكورة، أغرقهم في البحر على أبشع حال، واشنع مقال، واختل ذهن ابن مردنيس في أثر ذلك... وعاد صبحه كالليل الحالك، وفزع من إذايته أهله وقرابته وشيعته، واختلت جبايته وحالته".(٥)

---

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٢١.
(٢) المصدر نفسه: ابن صاحب الصلاة، ص:٤٠٣.
(٣) من هذه المواقع حصن الج، يقع إلى الغرب من مرسية، ومدينة بسطة: تقع إلى الجنوب من الورقة، وجزيرة شقر، تقع إلى الجنوب من بلنسيه، وأقر على الأخيره أبو أيوب حاكمها السابق، من قبل الموحدين؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٤٩، ابن الأبار: الحلة السراء، ح٢، ص:٢٦٨.
(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٠٧.
(٥) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ص:٢٥١؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٠٧.
البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص:١٢٦.

استغل ملك أراجون الحالة النفسية التي عليها ابن مردنيش، وامتلاك الموحدين أكثر بلاده، فخرج بجيش واحتل عدة مواقع متاخمة، وألح في أراضي بلنسبة براوبحرا، وكان رد "ابن مردنينش على ذلك عنيفا، حيث سير حملة برية واخرى بحرية، بقيادة أخيه الرئيس أبي الحجاج، وابن القاسم قائد الاسطول، هاجما طرطوشه وطرّ كونة، وهزما النصارى، وأجلوهم عن مواقعهم في بلنسية وخارجها، لكن رياح النصر هذه هبت ريحا صرصرا عاتية، اذ سقطت بلنسية، بيد الموحدين، واستولوا على الجزء الاكبر من اراضي ابن مردنيش، وحاصروا مرسيه، المرحلة الأخيرة في مشوارهم،[١]

وقرر الامير أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن تعزيز مركز جيشه في الاندلس بقيادة السيد أبي حفص، فأعلن التعبئة العامة، واستجاب لدعوته جموع العرب من افريقية،[٢] ، وكل قادر على حمل السلاح من الموحدين ، فساروا جميعاً مائة الف او يزيدون وعبر بهم البحر إلى الاندلس بـ ٢٧ رمضان سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠، ووصل اشبيلية ١٢ شوال من العام نفسه، وكان باستقباله اخوه أبو حفص، كما سأذكره لاحقاً، وقد عاد من الحصار لملاقاته بجموع الاندلسيين، وفي مقدمتهم الاعيان والقادة من شرق الاندلس، إذ أعلنوا الطاعة والولاء "فأنعم عليهم أمير المؤمنين.. ببركة عظيمة العدد وكسوة كاملة للرأس والجسد... وأحسن الأمر لكل من وصل معه من الأجناد الأندلسيين... وسلموا وبايعوا"[٣].

وانتهز ابن مردنيش فرصة غياب القائد الموحدي، اذ خرج من محتجزه مرسية، وتوجه بقواته قاصداً جزيرة شقر لاستردادها من القائد الشرقي ابن هلال، واستنصر اخاه يوسف لمساعدته، غير ان الأخير اظهر تقاعسه، وعدم اكتراثه بطلب أخيه، فتيقن ابن مردنيش من انحراف اخيه عنه وميله نحو الموحدين.[٤]

لم يعد ابن سعد ذلك القائد الذي تستهويه المغامرة، وركوب المخاطر، على الرغم من الحياة السياسية التي عاشها في أجواء الحرب؛ لزومه لابن عياض، وتقريبه لابن همشك، وتقديره للنصارى، لذلك رسم لأولاده وخلفائه من بعده، خطة العيش مرحليا مع الموحدين، طالما اصبحوا هم القوة الوحيدة في شبه الجزيرة والمغرب.[٥]

---

(١) ابن الابار: الحلة السيراء، ج٢، ص:٢٦٦-٢٦٧
(٢) ابن صاحب الصلامة: المن بالامامة، ص: ١١٤- ٤١٧.
(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٠٧-٤٠٩؛ اب خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٢٢.
(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٠٦.
(٥) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٧، ص:١٢٧؛ المقّري: النفح، ج٦، ص:١٦٠.

وبعدها انكفأ مكلوم القلب يجتر مغايظه وهمومه إلى مرسيه راضيا بالحصار مستسلما للأقدار، واستمرت الحالة في هذه المدينة المنكودة، مضطربة مشوشة عدة شهور، الى أن اشتدت عليه علته، وحضرته منيته، فتوفي في العاشر من رجب الفرد سنة ٥٦٧هـ ١١٧١م، وله من العمر ثمانية وأربعون سنة.[١]

أما السلاوي الناصري فينقل لنا خبر موته فيقول: "ولما نزل أمير المؤمنين يوسف باشبيليه خافه محمد بن مردنيش، وحمل على قلبه، فمرض ومات، وقيل ان امه سقته السم لأنه قد أساء الى خواصه وكبرائه، فنصحته فتهددها، وخافت بطشه فسمته.[٢]

يتضح مما سبق ان ابن مردنيش عانى في تلك الفترة العصبية من أخريات أيامه كثيراً من المحن والكوارث؛ اذ انصرف عنه أكثر قادته وأعوانه، وخرجت معظم أراضيه من قبضته، ودخلت سياسة الوفاق قلوب الناس من رعيته، وقد أدمتها مسلسلات الحروب الطويلة، فأصيب بالذهول وأصبح عاجزاً عن اتخاذ القرارات السليمة، وافتقد السيطرة على أعصابه، وربما مات غما وأسى وهو يعاني مرارة الحصار، بعد سنوات نافت على الخمس والعشرين، قضاها ابن مردينش في صراع مع أعدائه من المغاربة الموحدين ومعهم الأندلسيون، بالاضافة الى النصارى حلفائه المرحليين. وقد ادركته الشيخوخة قبل أن يصل اليها ويحين الأوان؛ فلم يكن قد تجاوز الثامنة والأربعين من العمر عندما غاب عن المسرح السياسي لابنه أبي القمر هلال، اذ وقف الاخير عاجزاً أمام خط المواجهة الذي سار فيه والده متعثراً، والتصدي لدولة لا زالت في عنفوان شبابها، لذلك استجاب لنصائح أبيه ومستشاريه[٣].

تفاوض أبو القمر مع الموحدين، ودخل في طاعتهم، فرحب بنو عبد المؤمن بالعرض؛ اذ كانت ظروفهم العسكرية مواتية آنذاك، وخف الشيخ أبو حفص بعسكر ضخم، وتسلم بلاد شرق الأندلس، وأصدر بناء على أوامر الخليفة عفواً عاما للمدنيين والعسكريين على السواء، وعاد ومعه أبو القمر هلال وأهل بيته ورجال دولته الى اشبيلية. وسير الخليفة الذي كان ينتظر هناك، أخوية أبا زكريا يحيى، وأبا ابراهيم

---

(١) المقّري: النفح، ج٦، ص:١٦٠، ٢٦٩؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص:٢٦٨؛ اما المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٦، يذكر وفاة ابن سعد سنة، ٥٦٨هـ/١٢٦٢م.

(٢) السلاوي الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٥٠؛ ويتفق معه على ذلك، ابن خلكان: الوفيات، ج٧، ص:١٣١.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ١١٤.

اسماعيل، على رأس وفد يليق بمقامهم، لاستقبال أبي القمر وحاشيته خارج المدينة، وقد وصلوها مساء.[١]

وقد تقدم أبو القمر للتسليم على الخليفة ومبايعته بحضور كبار رجال الدولة، أولهم أبو عثمان سعيد بن عيسى قائد السلطة العسكرية وزعيم الثغر. ثم نزل ابن مردنيش بقصر دار الضيافة، قصر ابن عباد[٢]، وأنزل "اصحابه في الدور المتصلة به، وقد أعدت لهم الفرش والبسط والمطاعم والمكارم والمشارب... ورحبت بهم المملكة الخلافية والدولة الامامية..."[٣].

لقد نال بنو مردنيش من الحظوة والاعتزاز عند الخليفة أبي يعقوب وخليفته، ما لم ينلها ثائر أو مخالف لملك قبله أو بعده؛ فعين الأمير أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش، والياً على يلنسيه وجهاتها، وقدم غانم بن محمد بن سعد، قائداً لاساطيل المغرب ومقره سبتة، وجعل هلالا مستشاره الأول والأثير عنده، وهو الذي يقول فيه، "هذا المحب الصادق"، وقد تزوج الخليفة صفية بنت محمد بن سعد، وتغلبت على قلبه، حتى كانوا يضربون المثل بحب الخليفة للزرقاء المردنيشية، وتزوج الأخرى ابنه أبو يوسف يعقوب.[٤]

ويتضح أن ابن مردنيش ذلك الثائر الذي قضى خمسة وعشرين عاماً في عداوة موصولة للمغاربة عموماً، كان يحلم بتأسيس دولة مستقلة على غرار الدولة المروانية السابقة. ولكن الدولة التي تبنى شهرتها على غرار اسماء قادتها، وعلى الدس والوقيعة بين رجالاتها، وتبتعد عن مفهوم الحكم الديمقراطي في شكل المؤسسة الدائمة المنفصلة

---

(١) المصدر نفسه؛ المراكش: المعجب، ص: ٣٦٢، ٣٦٣؛ المقّري: النفح، ج٦، ص ١٦٠.

(٢) أنشأ المعتمد بن عباد في اشبيلية عدة قصور رفيعة منها؛ القصر المبارك، والقصر المكرم، وقصر الثريا، والقصر الزاهي، وقصر الزاهر، وقصر سعد السعود، ولعل القصر الذي استقبل فيه أبو القمر هلال هو: قصر المكرم؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٦٤ - ٤٦٥؛ المراكشي: المعجب، ص: ١٩٠؛ ابن بسام: الذخيرة: ج٣، ص: ٧٥، ٤٣٠؛ ج٦، ص: ٧٥٩، المقّري: نفح الطيب، ج٦، ص: ٤٨، ٥٤، ٥٥، ٥٦.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٧٢؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٢٢.

(٤) المراكشي: المعجب، ص: ٣٦٢، ٣٦٣؛
ابن الخطيب: اعلام الاعلام، ج٢ الى : ٢٧١؛
ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢١٢؛
المقّري: نصح الطيب، ج١، ص: ٣٣٢.

كلية عن الاشخاص الذين يطبعون مجتمعهم بطابعهم، تعاني من سلبياتهم وتضعف بضعفهم، ثم تغيب مع غيابهم. ويلوح أن ابن مردنيش خير مثل على هذا النوع من الحكام، رغم أن الشعب التف حواليه مدة طويلة؛ ربما لتجذر الكراهية الموغلة في القدم بين الشعبين بعضهم بعضاً[1]، ورفضه مذهب الموحدين القائل بعصمة ابن تومرت، وبتأويل الآيات القرآنية، ومحاربة فقه مالك، ولعل هذا السبب الأخير هو نفسه الذي جعل ابن غانية يجد التفاقا وتفانيا من أهل افريقية في محاربة الموحدين طوال خمسين عاماً متواصلة.

٣- صراع الموحدين مع نصارى اسبانية:

كانت مدينة المرية إحدى اخطر التجمعات البحرية المسلحة والمناوئة للنصارى، اذ يؤلف سكانها امارة مستقلة بأسم رواد الجهاد البحري. لذا لم يخف الجنويون قلقهم من نشاط سكان هذا الثغر؛ حيث كان يخرج منها المحاربون ويقومون بسلسلة من الهجمات المدمرة ضد النصارى في عدة مناطق؛ جليقية، واشتويريش، وبرشلونة، والبرتغال، وشواطيء فرنسا، وايطاليا الجنوبية، وتتسرب غاراتهم احياناً في عمق الأرض الكبيرة الى شواطيء بيزنطة[2]. وقد توغلت غزواتهم داخل هذه المناطق، حيث حققت قدراً كبيراً من النجاح؛ بفرض السيادة العربية على جزء منها، والزامهم بدفع الضرائب المفروضة[3].

لم يكن النشاط الاسباني، والنصراني على العموم قد توصل بعد الى حد التصدي للقوى البحرية الاسلامية المتمثلة بأساطيل المريةAlmeria [4]. إذ كانت هناك بدايات تتعثر، ثم تعيد المرة تلو الأخرى دون كلل أو نصب، رغم الدور الناجح الذي قام به المرابطون ثم الموحدون من بعدهم، غير أنهم استطاعوا رسم طريق التحرر، وحمل ناقوس الاسترداد كلما خبت جذوة في بلدة عربية عبر تلك السنين الطويلة[5].

---

(١) المقّري: نفح الطيب، ج١، ص: ٢٣٣،
ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٥، ص: ٣٢٤، "فلا تجد اندلسياً الا مبغضاً بربريا ولا بربرياً الا مبغضاً اندلسيا...".

(٢) الأرض الكبيرة: هي فرنسا؛ المراكشي" المعجب، ص: ١٣ هامش ١؛ ابن خلدون: العبر، ج، ص: ٢٥٣-٢٥٥.

(٣) المصادر نفسها والصفحات نفسها.

(٤) المرية: مدينة بحرية تقع في شرق الأندلس؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص: ١١٩.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٢٥٣ - ٢٥٥.

قام أهل المرية بانتقاضتهم، وخلعوا طاعة عبد المؤمن، وقتلوا نائبه يوسف بن مخلوف، وأقرو عليهم أبا يحيى بن الرميمي[١]، سنة ٥٤١/ ١١٤٦ منتهزين ثورة المغرب ضد الموحدين بقيادة محمد بن هود الماسي بناحية السوس، وذلك لاستراجاع استقلال الامارة[٢].

فانتهزت قشتالة بصفتها زعيمة حرب الاسترداد انتفاضة المرية، وتحالفت مع الجنويين والأراجونيين والبرتغال، واتجهت كل هذه الحشود جهة المرية سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، وحاصرتها مدة ثلاثة شهور، ومنعت عنها كل مساعدة برية كانت أم بحرية، فلم تقوَ المدنية على الصمود رغم استبسالها، إذ فقدت كل مساعدة، وبخاصة من سيد شرقي الاندلس ابن مردنيش الذي كان يصارع بيأس قوات الموحدين المتقدمة؛ فاستسلمت المرية في العام نفسه سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، ودخلها النصارى؛ فقتلوا رجالها، وسبوا نساءها، ونهبوا أموالها، واقتسمها الغزاة في ما بينهم[٣].

هذا النجاح المرحلي الذي حالف النصارى في الاستيلاء على أعظم ثغور بلاد المسلمين في الجزء الجنوبي الشرقي من اسبانية، أغرى الحلف الصليبي كي يتوجه لمساعدة ريمند Raimundo حاكم برشلونة Barcelona في حصاره لطرطوشة Tortosa المدينة الثغرية العنيدة الأخرى، اذ بقيت مستعصية فترة طويلة ترد هجمات الاعداء ببسالة، وقد كانت شوكة في حلوق نصارى برشلونة وأراجون وشواطيء فرنسا على الخصوص. فسقطت سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، وقام ريمند باحتلال بقية القواعد؛ فاستولى في العام

(١) اصل بني الرميمي من بني أمية ملوك الأندلس، ونسبوا الى رميمة؛ وهي قرية من مقاطعة قرطبة؛ ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص: ١٩٨؛ ويذكر ابن خلدون أن بيعة أهل سبتة وصلت عبد المؤمن وهو راحل من فاس فولى عليهم يوسف بن مخلوف هذا، ومن هناك تولى أمر المرية سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٠٩؛ غير أن ابن أبي زرع يذكر ان عبد المؤمن صدر عن فاس سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، ويوافقه صاحب الحلل وابن عذاري؛
ابن ابي زرع: الأنيس المطرب، ص: ١٨٩؛ مجهول: الحلل، ص: ١٤٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١٩.

(٢) كانت المرية تابعة الي سبتة؛ ابن عذاري: البيان، ق٣، ص: ٢١؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١١؛ وقيل ان سبب قتل الوالي، هو تربصه بقاضي سبتة عياض لمالأته لابن غانية عدو الموحدين، فاشيع ان ابن مخلوف عازم على قتل القاضي، فقام أهل سبتة بتصفية الوالي؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١١.

(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٧، ٣٠٨؛ ويذكر أن عدد من سبي من إبكار المرية أربع عشرة الف امرأة؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ١٧؛ المقري: نفح الطيب، ج٦، ص:٢٥٢.

التـالي، عـلى مكناسـة (مكنسـة)[1]Meguineza، ولاردة[2]Lerida ، وأفراغـه[3] Fraga، وإقليش[4] Ucles وغيرها. وبذلك سيطر على جميع مدن وأراضي نهر ايـرو مـن منابعه الى مصبه[5].

أثارت هذه الانتصارات الظاهرة الأمل في نفوس النصـارى لتفريـغ الأنـدلس كليـة من المسلمين، وترتب عليها أن اتفقـوا عـلى احيـاء المعاهـدات السـابقة بخصـوص غـزو الأندلس واقتسام اراضيها.

وحـين رأى النصـارى أن القـوة الثالثـة للمسـلمين قـد دخلـت الأنـدلس، وأصـبح مصيرهم في خطر أمام صـلابة الموحـدين؛ ونتيجـة لصـدمتهم بـابن مـردنيش وتحالفاتـه الالتفافية؛ دعا الامبراطور الفونسو السـابع ملـك قشـتالة الى الاجـتماع بملـك أراجـون في مدينة تطيلة[6] Tudela سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م لعقد اتفاقية تفاهم وحسن جوار بيـنهما كما مر سابقاً[7].

كانت هذه المعاهدة باكورة التكتلات السياسية بين النصـارى مـع بعضـهم بعضـاً عند ظهور الموحدين، وتغطيـة للصراعات الداخليـة داخـل قشـتالة وغيرهـا - اذ كانـت الأسر القوية في قشتالة وليون تضطرم بالحسد والـبغض - ومحاولـة لتطويـق طموحـات الممالك النصرانية الأخرى[8].

استنجد نصارى المرية بملـك قشـتالة، فانـدفع جـاداً الى نصرتهم، وانضـم اليـه في طريقه شريكه ابن مردنيش، الحليف المرحلي، وكان ذلك في سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م. لقد

---

(١) مكناسة الاسبانية: تقع على التقاء نهر سيجري بنهـر ايـرو، وهـي قاعـدة حصـينة، ولكـن الـدفاع عنهـا غـير ميسور، لوقوعها بسهل مكشوف؛ ابن الخطيب: الاحاطة، ج٤، ص: ١٢١؛ ويقول ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص: ١٨١، انها حصن بالأندلس قرب لاردة.

(٢) لاردة، مدينة مشهورة بالأنـدلس في الجهـة المشـالية الشرقية، قـرب طركونـةTarragona ؛ يـاقوت" معجـم البلدان، ج٢، ص: ٠٣.

(٣) افراغه، مدينة بالأندلس قرب لاردة، ياقوت: المعجم، ج١، ص: ٢٢٧.

(٤) اقليس (اقليج)، مدينة قرب طليطلة وشنت برية؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ٢٣٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ٢٣.

(٦) طليطة: مدينة بالأندلس تقع في شرقي قرطبة، بناها الحكم بن هشـام بـن عبـد الـرحمن الـداخل؛ يـاقوت: معجم البلدان، ج٢، ص: ٣٣.

(٧) J. F. Ocallaghan, Ahistory of medievel Spain, P, 232 - 233.

(٨) المقّري: نفح الطيب، ج٦، ص: ٢٠٧؛
Baker & Clark, the eutopean in heritance, 3 vels, Exford,1950, p, 399.

عجزت قوات الحلفاء، البالغة ثمانية عشر ـ الف مقاتل عن التصدي لقوى الموحدين الذين صمموا على فتح المدينة(١). هكذا فشل الفونسو في تحقيق دعم معنوي لنصارى المرية، وانكفأ يحمل همومه الى بلاده، ولم يقوَ على تحمل الهزيمة، فمات غما في طريقه الي بياسةBaeza ، على حدود الأندلس مع طليطلة(٢)Toledo ، وقسمت بلاده حسب وصيته بين بنيه، على أن يحكم الأكبر سانشو الثالث مملكة قشتالة، أما الولد الأصغر فرديناد الثاني، فمنح ليون وجليقية واشتويرش. واقتفى سانشو أثر أبيه؛ اذ قام بتجديد معاهدة تطيلة سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م(٣).

ونتيجة لاعتداءات نصارى اسبانيا المتلاحقة، وبخاصة أهل قشتالة على أرض المسلمين ونشوء التكتلات السياسية ضد الموحدين، وتمرد العصابات الدينية المنفلتة من كل الضوابط العسكرية والاخلاقية، وبعد ان انتهى عبدالمؤمن من تطويع افريقيا، صمم على فتح باقي الاندلس؛ البلاد التي تنبه فيها النصارى الى نبذ الخلاف في ما بينهم، واتحادهم أمام خطر الموحدين الداهم. فأمر الخليفة ولديه، وولاته على الأندلس ببناء مدينة عسكرية بحرية في سفع جبل طارق، فيها من القصور والدور والمنازل، فضلاً عن الجوامع لإقامة الصلاة كما سنشير لاحقاً. وتم البناء في بضعة شهور، وسميت مدينة الفتح لتكون قاعدة عسكرية كبرى لتجمعات جيوشه القادمة من المغرب(٤).

عبر الخليفة المضيق الى الجبل في ذي الحجة سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، وأقام في هذه المدينة نحو شهرين. استقبل خلالهما وفود أهل الأندلس، واختبر قوة النصارى بسرايا استطلاعية سريعة وخفيفة الحركة، ثم درس جغرافية الأرض مع مستشاريه العسكريين، فلربما تكون مسرحا لعملياته الحربية الموسعة في الوقت القريب. وعاد الى مراكش في أول عام ٥٥٦هـ/ ١١٦١(٥).

(١) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٦؛ المقّري: نفح الطيب، ج٦، ص٢٥٤.

(٢) Baker & Clark, the european, in heritance, 3 vels, p, 399

بياسة: مدينة اندلسية قرب جيان، وقريبة من ابّدة، ياقوت: المعجم، ج١، ص: ٥١٨؛ طليطلة: تقع جنوب مجريط، علي نهر تاجه سقطت بيد النصارى سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص: ٣٩ - ٤٠.

(٣) J. F. O'Callaghan: Ahistory of medieval Spain, p, 235.

(٤) راشيل أري: تاريخ اسبانية الاسلامية، ص: ٣٣ - ٣٤.

مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٥؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٣٧.

(٥) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٣٨، ١٤٧ - ١٧٢؛

ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٩٩.

ثم أخذ عبد المؤمن بعد عودته الى عاصمته يستعد لغزوة كبرى، وبدأ يحشد قوى الدولة وطاقاتها الجهادية للانتقال صوب الخطوة التالية في التحرك إلى عدو الشمال؛ فأمر بإنشاء الأساطيل، وتوزيعها على جميع السواحل المغربية، فرابطت بها أربعمائة قطعة بحرية، منتظرة إشارة الانطلاق، هذا بالاضافة الى إهبات عسكرية برية ضخمة من مختلف القبائل المغربية والعربية والمتطوعة، مع كامل تجهيزاتهم من التموين والاسلحة المتنوعة، واحتشدت له جموع عظيمة في سلا ما يقارب نصف مليون جندي[١]. وكانت معظم قواته وطاقاته لاسترجاع ما احتل من الأندلس[٢].

عقد الخليفة، قبل أن يستأنف مسيره الى الأندلس مجلساً حربياً مع كبار قادته ومستشاريه العسكريين، فوضعت خطة حربية لمقاتلة النصارى، ووزعت أدوارها، اذ أشار عليه القائد الأندلسي محمد سيد رأي بن وزير القيسيـ بتقسيم الجيش الى اربع فرق؛ أولاها تكون وجهتها الى غرب الأندلس لمواجهة ابن الرنك أو ابن الريق، وهو الفونسو[٣] Alfonso Enriquez، وتتحرك الأخرى الى السبطاط[٤] (ليون) Ciudad Rodrigo de Leon لمقابلة الببوج[٥] El Baboso هو نفسه Fernand II de Leon، وفرقة الى طليطلة Toledo لمقابلة الفونسو الصغير[٦]... Alfonso VIII de Castilla، والأخيرة نحو برشلونة[٧] Barcelona ، فاستحسن الخليفة هذه الخطة، وصادق عليها مع أركان حربه[٨].

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٤٣؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ٢١٥- ٢٢٠ ؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٠١ - ٢٠٢؛
الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٤٣ - ١٤٤؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣١٩.

(٢) راشيل أري: تاريخ اسبانية الاسلامية، ص: ٣٥.

(٣) تسمية الرواية: الفونسو هنركيز صاحب قلمرية؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٢١؛
المراكشي: المعجب، ص: ٣٧٢؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢١٩.

(٤) المصدر نفسه، ابن صاحب الصلاة، ص: ٢١٧؛ تقع السبطاط شرق قلمرية وغربي ابله.

(٥) الببوج: من الذين حضروا معركة الأرك، وربما كان من الأسرى الذين اطلقهم المنصور، وممن غدر بالخليفة الناصر في معركة العقاب، ابن خلدون: العبر، ج٤، ص: ٢٣٣؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢٢٠.

(٦) المصدر نفسه؛ وهذا الفونسو الذي رأس معركة الأرك مع الببوج، وابن الرنك، وهزموا ثلاثتهم، وثأروا لهزيمتهم في موقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م؛ ابن خلدون: العبر، ج٤، ص: ٢٣٣؛
ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٢٨.

(٧) برشلونة: تقع على شاطيء البحر المتوسط في شرقي الأندلس؛ الحميري: الروض، ص: ٨٦، ٨٧.

(٨) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢٢٠.

يتبين أن عبد المؤمن ما كان يرى من حقه أن ينفرد بالأمر، بل يفضل الاستماع الى آراء قادته، والانتفاع بتجاربهم، وبخاصة القادة أصحاب الخبرات العسكرية. وقد قيل، "قتلت أرض" جاهلها، وقتل أرضاً خابرها".

لم تتم هذه الغزوة، إذ بنيما كان الخليفة يتوقل الرابعة والستين من عمره، دعي الى رحلة الأبد، فلبى النداء، وتوفي في العاشر من جمادي الأخرة سنة ٥٥٨هـ/ الخامس عشر من أيار ١١٦٣م، وحمل جثمانه الى تبنمل، ودفن بجوار قبر المهدي[١]. ومن ثم اعطى خليفته أبو يعقوب يوسف أوامره الى الجيش بالانصراف، وتأجيل الغزوة، فلم يتمكن ابو يعقوب من الاستمرار للتأهب للغزو لاختلاف الموحدين في أمر بيعته، اذ توقف عن بيعته نفر من اشياخ الموحدين وبعض اخوته؛ السيد عبد الله صاحب بجاية، والسيد محمد صاحب قرطبة، وخوفا من اتساع الفتنة سرح الجيش الى أن تسوى الأمور السياسية[٢].

كانت وفاة عبد المؤمن فرصة ذهبية لاسبانية النصرانية المتشظية وكانت يومذاك خمس ممالك؛ قشتالة وليون وقلمرية ونا ار وأراجون، وقد مزقتها الحروب الداخلية، فانقذت مرة أخرى من هلاك محقق بسيف طالما جلا به صاحبه الكرب عن المسلمين في افريقية والأندلس[٣].

وفي ظل الفراغ العسكري الذي أحدثه موت عبد المؤمن، ارسل الفونسو السابع، حفيده "نونه" على رأس قوة عسكرية اكتسحت في طريقها رندة، والحت في غاراتها على الجزيرة الخضراء، حتى أطلت على المضيق، دون أن تجد مقاومة تذكر. وانكفأ عائداً الى بلاده، وقد ملأ يديه بالغنائم والاسلاب، فضلاً عما أحدثه من قتل وإرهاب وتخريب[٤].

عندها أدرك الموحدون خطورة الموقف، فبعث الخليفة يوسف جيشاً يتألف من عشرين ألف مقاتل، غالبيتهم من المتطوعة، بقيادة أخيه ابي حفص عمر الى الأندلس، قام بالإغارة على طليطلة، وما جاورها، مقدمة لما يتبعها من نشاطات حربية بقيادة الخليفة

---

(١) المصدر نفسه، ص: ٢٢١، ٢٢٢؛ ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٠٢، ويذكر صاحب الأنيس المطرب، أن عمره ثلاث وستون، بينما المراكشي: المعجب، ٢٨٨، يذكر أن عبد المؤمن مات عن عمر سبعين عاما؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٥٥.

(٢) ابن عذاري: البيان، ق٣، ص: ٥٨، ٥٩؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٠٨، ٢٠٩.

(٣) R. Altamira, A history of, Spain, p, 163;
J. F. Callaghan, A history of Medieval of Spain, p, 235 - 236.

(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٩٧.

نفسه، كون المغرب خط الدفاع الأول لمسلمي الأندلس وهو المستهدف للهجمات النصرانية جميعاً، سواء الاسبانية منها والغربية على الخصوص عبر البحر المتوسط[1].

وكان للجيش الموحدي أصل مزدوج. الجند النظاميون، تقدمهم القبائل المغربية الى الخدمة العسكرية، حسب ترتيب يبين مدى التطور الذي طرأ على الجيش، وهم الجند الموحدون، والهلاليون، وزناته، والمرتزقة والمتطوعون القبليون، اذ يتقدمون المعارك ضد النصاري الاسبان وغيرهم، والحرس الرقيق، والوافدون من مسلمين وأتراك في أغلب الأحيان، وكذلك من اوروبيين نصارى يشكلون جزءاً مهماً من الحرس الخاص للأمراء وعلية القوم، والشرطة[2].

أما القادة فيعينون في أغلب الحالات من خارج التنظيم القبلي، من أعضاء السلالة المالكة، بينما رؤساء الفرق اللامعون كانوا من الجلباء النصارى الذين اعتنقوا الاسلام في الغالب، ما عدا قادة الاساطيل البحرية، التي يتولاها عادة المحترفون المختصون بالبحار[3].

إن البقاء على هذا التنظيم القبلي أكد التخصص الحربي لبعض القبائل، كالهلاليين، اذ اتيح للسلطة بأن تهيء منهم الجند في حالة استنفار قصوى، دون أن تذيبهم في فرقها العسكرية، كونهم ينزعون دائماً الى استقلالهم داخل هذه المؤسسة.

كما كان تنظيم الجند في اثناء المعارك عملا بديعا. يشكل مربعاً عظيماً. ففي الصفوف الأولى يتقدم أشجع العسكريين من حملة الرماح الطوال، ومن ورائهم يقف رماة السهام، وفي الوسط تتهيأ قوة من الفرسان التي اتيحت لها حرية الحركة الى جميع الاتجاهات. ويبدأ الهجوم أولئك المتطوعون الذين نذروا أنفسهم للموت في الجهاد، تحت ظلال قوات خفيفة وخاطفة (الكماندوز)، فإذا اخترق الخصم هذه الحشود صوب الوحدات النظامية المحيطة بالخليفة وهي شارعة اسلحتها متوثبة للقتال، عليه أن يواجه أولاً: حربا بالسلاح الأبيض، ويتقي سيولا منهمرة من السهام تتساقط بكثافة، بالاضافة الى فتك مدفعية الميدان التي تحطم مؤخرة المهاجمين، وتقطع خطوط مواصلاتهم، وثانياً: سرايا من الفرسان مستعدة لكل احتمال تشاغله بمقاومة طويلة النفس. وأخيراً تتقدم

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢١١؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٤٩.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص: ١٣٢.
(٣) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٢٥٥؛ مجهول: الحلل، ص: ١٥٤؛ جغلول: تاريخ المغرب العربي، ص: ٧٥ - ٧٦.

الفرق الاحتياطية وهي صفوة الجيش بقيادة أمير المؤمنين نفسه، ومعه حرسه الخاص، اذ كثيراً ما تتوقف نتائج المعركة عليهم[١].

واستعمل الموحدون آلات حربية متطورة وعنيفة لحصار المدن وتحطيم جدرانها، قلما استعصت على نارهم مدينة أو حصن في أصعب المنحدرات والمفاوز الجبلية[٢]. وأهتم عبد المؤمن، وهو الاستاذ المهندس في الفن الحربي[٣]، بوسائل الدفاع البحري للتصدي للنصارى، أثناء محاولة نزولهم المياه الاقليمية المغربية، ولضرورة الحركة الدائمة بين افريقية والأندلس، ولنقل مئات الآلاف من المحاربين الى شبه الجزيرة، كل هذا حتم عليه الاحتفاظ بأساطيل نقل قوية فضلاً عن الحربية، افتتحوا بها المهدية، والجزائر الشرقية، وكثيرا من الثغور المطلة على البحار، وبلغت الترسانة البحرية قوة ضاربة في مياه المتوسط خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي[٤]. مما دفع بصلاح الدين الايوبي أن يستنجد بها (كما سيأتي ذكره)، طالما عجز عن مواصلة القتال البحري؛ لتفوق المراكب الصليبية، بعد أن هزم جحافلهم البرية، وبقيت سفنهم، وبخاصة أساطيل جنوة وبيزة والبندقية ومرسيليا، تمارس ضغطها على السواحل العربية بغاراتها وقرصنتها الى ما بعد وفاة صلاح الدين[٥]. وثمة أذكر الحاح ملوك اسبانية النصرانية للحصول على مساعدات بحرية مغربية، فضلاً عن الاقتصادية[٦].

الى جانب هذه المصانع المادية التي تنتج السفن الحربية وما يلزمها من آلات ومعدات، أهتم عبد المؤن برجال البحرية؛ إذ تولى تربية جيل مهيأ للحرب والجهاد، وقيادة الفرق العسكرية، البرية منها والبحرية. فأنشئت المدارس الحربية (الأكاديميات) ابتداء، لكي تحفظ الروح العسكرية بين الموحدين نامية متطورة، وتعين على تزويد القادة الأكفاء بالمحاربين الأشداء. وكان يحشد الطلبة بالألوف، وعلى الخصوص من قبيلة المصامدة، يراعي بينهم وحدة السن، على أحدث الطرق وأقومها، ليكمل التناسق

(١) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٢٣٨؛ المجهول: الحلل، ص: ١٥٢.
(٢) مجهول: الحلل، ص: ١٥٢.
(٣) إن عبد المؤمن ركب سفينة حربية وطاف بالمهدية، تفقد حصانتها بنفسه، وقام كذلك وتفقد مدينة الفتح بجبل طارق؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ٦٤.
(٤) ابن خلدون: ج١،ص: ١٦٦؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٢١٧.
(٥) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٨٢؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٣١؛ ابو شامة: الروضتين، ج٢، ص: ١٧ - ١٧٤، دار الجيل، بيروت، لا. ت.
(٦) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

والتجانس بين أصناف الجند. يدرسون سنن المهدي وتعاليمه (الايديولوجية الموحدية)، ويحفظونها عن ظهر قلب[1].

ثم يتدربون على جميع أصناف الأسلحة وفنون القيادة والسباحة، ويدرسون كل ما يتعلق بأسلحة الحصار البرية والآلة البحرية الهجومية منها والدفاعية والأعتدة الفردية بطرقه النظرية والعملية، فأنشأ بحيرة في مراكش تعلوها سفن للتدريب، وكان يعرض هؤلاء الفتيان براعتهم وتفوقهم أمام أمير المؤمنين من وقت لآخر ويخص أولئك الذين برزوا منهم بالبراعة والجرأة، وصفاء بالذهن، بجوائز يخصصها اليهم، فضلاً عن الهدايا الرمزية (الأوسمة)، وعبارات الثناء والمديح المشجعة، يذكي بها هممهم، للحظوة برضى الأمر وعطفه. وكانت مجانية التعليم ميزة اتصف بها نظام الموحدين، وبالأخص في المدارس الحربية التي كانت على نفقة حكومية[2].

وكان أبو عبد الله بن ميمون أحد القادة الناجحين مدة بني عبد المؤمن، أمير البحرية الأندلسية والمغربية[3]، واستمرت هذه القوة المتنامية في تفوقها زمن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٥٨-٥٨٠هـ/ ١١٦٣-١١٨٤م، الذي اهتم بتقوية الأساطيل البحرية، ولنامن مؤشر ابن خلدون، اذ يقول "ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة، وملكوا العدوتين، أقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ما عرف، وأعظم ما عهد، وكان قائد اسطولهم أحمد الصقلي"[4]. وكان ملك صقلية قد طلب و د أمير المؤمنين، واستعد أن يقدم إليه جزية سنوية دلالة على خضوعه "بعد أن خافه خوفاً شديداً"، ووصله بهدايا جزيلة؛ منها حجر ياقوت لا يقدر بثمن رصع به المصحف العثماني[5]. ويلاحظ أن مهمة هذا الاسطول، منذ عصر عبد المؤمن لم تقتصر على جهاد

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٧٧.
(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٠.
(٣) المصدر نفسه، ص: ١٥٤.
(٤) أحمد الصقلي: أصله من (صدغيان الموطنين). بجزيرة سرويكش. أسره النصارى من سواحلها وربي عندهم، واصطفاه أمير صقلية، وجعله مستشاره. وعندما توفى الأمير وولى ابنه من بعده، تغير على مستشار أبيه، فخافه الأخير على نفسه، وهرب الى تونس، فتلقاه الوالي الموحدي، وأرسله الى العاصمة، فاستقبله الأمير يوسف بالتكريم والترحاب، وولاه قيادة الأساطيل البحرية، فوجه جهاده جهة النصارى، ودوخهم، ووصل الاسطول في زمنه الى أعلى درجات القوة كثرة وتدريبا؛ ابن خلدون، ج١، ص: ٢٥٥.
(٥) المراكشي: المعجب، ص: ٣٦٥ - ٣٦٦.

الأعداء فقط، بل التفت الى قمع حركات التمرد والقرصنة التي كانت منتشرة في عرض البحار، سواء كانوا مسلمين أم نصارى، لضمان احترام التجارة الدولية، وإشاعة الأمن والطمأنينة عبر البحار[١].

ولهذا أدرك ملك أراجون المشغول بالتطورات الداخلية المفاجئة صعوبة تنفيذ خطة الاتفاقات السابقة لاقتسام أرض المسلمين في الوقت الراهن على الأقل، لانشغاله بالصراعات مع بعض الأمراء المحليين في ما وراء البرتات Pyreneec وبرفانس Prevence وقرقشونة وبيزة[٢].

إذ كان يحرضهم امبراطور المانيا لإحداث البلبلة في الامارة. غير أن موت الكونت ريمند المفاجيء سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م، وما أعقبه من تنازل زوجته عن حقوقها السياسية لابنها الفونسو الثانيAlfonso II ، قد جذر اتحاد برشلونة، وأراجون رغم الاختلاف الحضاري بينهما، وهذا شجع الملك الجديد في استهلال حكمه بمحاصرة بلنسيه[٣] Valencia، فأصيب بنكسة أمام أسوارها، حطمت آماله، وهزمت جيشه البري، وأفشلت حملته البحرية سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م، على يد قوات ابن مردنيش الذي استولى الموحدون على بلاده أواخر العام نفسه[٤]. وبذلك أصبح الأخيرون وجها لوجه مع أراجون، فاستولوا على بعض القلاع والحصون الاسبانية، وعادوا أدراجهم محملين بالغنائم والسبي الى اشبيلية. وكانت كل هذه الجهات الساخنة وما تبعهامن معارك مقدمة لصراع طويل بينهما.[٥]

لم يحاول الموحدون والحالة هذه استثمار الخلافات، وانتهاز الحرب الأهلية، وبالأخص في قشتالة، تلك الدولة التي تجردت لحرب المسلمين بشخص رئيسها الامبراطور الفونسو السابع، ومن قبله الفونسو السادس هزيم الزلاقة، اذ كان ابن مردنيش يستحوذ جل اهتمامهم ويبدد كامل جهودهم[٦].

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٦٧ - ٣٦٨؛ ابن الآبار، الحلة السيراء، ج٢، ص: ٢١٨.

(٢) بيزة: جيل من الفرنج. وهي بلادهم يعرفون بها في ايطاليا؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ٢٥٩. قرقشونة: حصن بالأندلس فيه كنيسة شنت. ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص: ٣٢٨.

(٣) بلنسية: مدينة مشهورة بالأندلس تقع شرقي تدمير، وهي برية وبحرية، بينها وبين البحر ثلاثة أميال؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ٤٩٠.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب القرطاس، ص: ٢١٢ وما بعدها.

(٥) المصدر نفسه؛ عنان: دولة الاسلام، ج٣، ق٣، ص: ٥١ - ٥٢.

(٦) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٦٨، ٣٦٩ - ٣٧٢.

ثم أخذ الموحدون من جانبهم يتقدمون في غزواتهم داخل قشتالة، وكان هدفهم قلعة رباح. اذ استولى عليها السليطين[1]، خلال اضطرابات الأندلس على المرابطين أواخر دولتهم، وكانت قد سلمت الى فرسان الداوية للدفاع عنها[2]. لكنهم شعروا بالعجز والخور، ازاء تفوق الموحدين العسكري. ولما أيقنوا بالهزيمة غادروها، وسلموها بدورهم الى سانشو الثالث، ليتولى هو بنفسه حالة الدفاع، فأظهر الآخر جزعه وعجزه، لما يتوقعه وشيكاً من سقوط القلعة بيد المسلمين. فتقدم الراهب ريموند رئيس دير فنتيرة، ورفيق له في السلاح يدعى دياجو فلاسكيز بمشروع، ينطوي على الجدية والتصميم الى الملك، وانضم اليهما مطران طليطلة، وعرض الجميع أن يتولوا مهمة الدفاع عن القلعة، وسرعان ما استجاب الملك، وأبدى موافقته على الخطة، وأنضم اليهم عشرون ألف مقاتل بكامل اسلحتهم، وتجهيزاتهم العسكرية؛ ممن دفعتهم الحماسة الدينية والمصالح الشخصية، ومضوا يعمرون القلعة، وينافحون عنها، بأسم فرسان قلعة رباح Calatrava التي نالت مصادقة البابا اسكندر الثالث على قيامها سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م[3].

ولعبت هذه الجماعات العسكرية التابعة للقواعد الدينية دوراً هاماً في تاريخ الأندلس، إذ كانوا يعيشون فيها من أجل الحرب والدعوة الى سيادة الصليب، أكثر مما يعيشون للعزلة والعبادة. فقد كانت تحارب المسلمين بنشاط متواصل، وبحماس شديد، فتشجع جيوش اسبانية على مواصلة القتال، إذ أن معظم هؤلاء ينحدرون من طبقة الفرسان غير المنضبطين الذين يفتشون عن مغنم وربح. ففي سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م نشأت جنود "فرسان القنطرة"؛ فقد اتفق فارسان يدعى أحدهما "سويرو" والآخر "جومز"،

---

(١) السليطين (تصغير كلمة سلطان Emperador)، هو ابن أراكه Urraca بنت الفونسو السادس هزيم الزلاقة، فهو إذن الفونسو السابع، وكان قد مات من أثر جراح أصابته في اشتباكه مع الموحدين سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ٨٦؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٦٩.

(٢) فرسان الداوية (فرسان المعبد)، انشئت هذه الجماعة سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م، في بيت المقدس عقب سقوطه بين الصليبين، وعندما عادت القدس بيد المسلمين، هربت هذه الفئة الى اسبانية لتمارس الدور نفسه في حربها ضد المسلمين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م؛ ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ١٨٤.

(٣) Barker & G. Clark, opcit, p, 411.
قلعة رباح: تقع الى الشمالي الشرقي من قرطبة، غربي طليطلة؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص: ٢٣.

نذرا حياتهما لقتال الأعداء، ثم تعاونا مع ناسك من أهل شلمنقه يدعى "سانت أماندوس" على البحث عن مكان يصلح لاقامة حصن يلجأ إليه الفرسان الذين وهبوا أنفسهم لقتال المسلمين[١]، فكان حول "ديرسنت جوليانوس" بتأييد من اسقف الدير المذكور أولا، ولما انتشر خبر هؤلاء، انضم اليهم كثير من رجال الدين والفرسان والزهاد المتعصبين، برئاسة الفارس سويرو المذكور، ودعم البابا اسكندر الثالث ثانيا، اذ أيد هذا النشاط، وباركه سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٦م، بعد أن أثبت جدارته، ورسخت أنظمته على نهج جماعة "السسترسيان"[٢] التي تتصف بالخشونة، وتفضيل العمل الشاق في الأراضي واستصلاح الجبال، وإنشاء الحقول على الاغراق في الصلاة والعبادة[٣].

أما الفرقة الأخرى فهي جماعة القديس يعقوب "S. Jacob"، اذ اسسها عدة فرسان من قطاع الطرق، كانوا يعيشون حياة همجية مبتذلة، مع ما يوافقها من الآثام والجرائم، من قتل للمارة واخافة للدروب، الي أن نظمهم جماعة من رجال الدين، قاموا بتوجيه نشاطهم التخريبي، وشحن عواطفهم، وتوتيرهم ضد المسلمين لحماية طريق الحجاج الى قبر القديس يعقوب في "كومبوتسل" وعرفوا "بجماعة القديس يعقوب"، بزعامة الفارس "بيدرو فرنانديز"، وقد عين رئيساً بأمر من الملك فرديناند الليوني الذي كان يرعاهم ويمدهم بما يحتاجون اليه سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦١م[٤].

وتأسست فرق أخرى كثيرة في انحاء اسبانية مثل جماعة[٥] "ترجالة" فرسان "الداوية"، و"القديس يوحنا"، وجماعة "أفيس" وغيرها[٦].

---

(١) Prestage. E: Chivarly, p, 124.
سعيد عاشور: اوروبا العصور الوسطى: ج٢، ص: ٥٤٨، ٥٤٩.

(٢) J. F. O'Callaghan: A history of Medieval, Spain, p, 238 - 239.
السسترسيان: هي احدى فرق البندكتيين، اسست على يد راهب بندكتي هو سان روبير بالقرب من مدينة ديجون بفرنسا.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) J. F. O'Callaghan: A history of Medieval, Spain, p, 95 - 96.

(٥) كنت قد أوردت كلمة عصابة بدل كلمة جماعة هنا. وقد اعتمدت بذلك على مجامع اللغة العربية. ومعني عصابة: جماعة من الناس أو الخيل أو الطير؛ المعجم الوسيط، ج٢، ص: ٦١٠، اشرف على طبعه عبد السلام هرون، المكتبة العلمية، طهران، أخرجه أحمد حسن الزيات.
عصابة: جماعة من الرجال والخيل والطير ما بين العشرة الى الأربعين، محي الدين بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج١، ص: ١٠٩، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، لا. ت.

(٦) Prestage. E: Chivarly, p, 126.

إن هذه التنظيمات لها قوانينها الدينية الخاصة بها، ولا تخضع للضوابط، والأوامر العسكرية للدول التي تقبع قواعدهم في اراضيها، يتلقون تعليماتهم مباشرة من البابا، أو من ممثليه المنتشرين في اسبانية، لذا كان عملهم ارضاء لشهواتهم في الغزو والسلب والتخريب في أوقات السلم والحرب[١]. وفي الوقت نفسه كان المسلمون يستأصلون جذور القرصنة البرية والبحرية من جميع اراضيهم بغض النظر عن ديانتهم أو جنسياتهم[٢].

وبعد أن اطمأن الخليفة أبو يعقوب إلى قوة جيش الموحدين، الذي تمهدت به الأمور واستقرت قواعد ملكه بالمغرب[٣]، ووفد اليه اهل الاندلس يهنئوونه ويقدمون اليه الطاعة والولاء، ويطلبون منه وضع حد لاعتداءات نصارى اسبانيا، فلم يجد بداً للتهيؤ للقتال. فشرع في استرجاع بلاد الاندلس.[٤]

وعلى ضوء ذلك التجأ كثيرمن الأمراء النصارى الى الموحدين معلنين اذعانهم وتأييدهم للدولة الموحدية، فهذا فرنانده رايس النصرانيFernando Rodriquez صاحب ترجالة[٥]Tragillo. ، صهر الامبراطور الفونسو السابع ملك قشتالة - الذي اشرنا اليه- يصل الى مراكش ومعه اخوته، محاولة منه كسب ود أمير المؤمنين ووضع سيفه في خدمة السلطة المغربية، والذب معهم عن حياض الدولة، فاستقبلهم الخليفة بالترحاب والعطاء الجزيل (حتى كاد أن يسلم) سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م[٦] ولحق به أيضاً

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٦٧، ٣٦٨.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٣٦٠.

(٣) ابن خلكان: الوفيات، ج٧، ص:١٣١.

(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٥٦-٣٧٤؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢١٠؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٧٨؛ وكانت الامة المغربية قد اجتمعت على طاعة أبي يعقوب، وتسمى بأمير المؤمنين سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م.

(٥) ترجالة: مدينة بالأندلس غرب طليطلة في المشال الشرقي من بطليوس، عادت للمسلمين، واحتلها النصارى سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م؛ الحميري: الروض، ص: ١٣٣؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٦٨.

(٦) المصدر نفسه، ابن صاحب الصلاة، ص: ٣٦٨-٣٧٢، وقد كان وصول فرنانده الى مراكش عن طريق اشبيلية، ربما كان يخفي هموما سياسية، سببه الصراع الدامي بين الأمراء النصارى؛ اثر موت الفونسو السابع، للسيطرة على قشتالة من ملكها الطفل. لذلك وفد عدد من أمراء النصارى الطامعين منهم في عرش قشتالة، الى ديار الموحدين يستنجدون بهم؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٧٨.

البيوج بن اذفونش صاحب السبطاط، ورغب هو الآخر في عقد معاهدة صداقة وتعاون مع الموحدين[1].

وأخذ أبو يعقوب يستعد لغزو اسبانية، ووضع حد لاعتداءات جليقية وليون المتكررة منذ سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م[2] فبعث جيشاً بقيادة أخيه عمر إلى شبه الجزيرة عبر طريف فوصلت ضواحي طليطلة[3].

ثم استنجد بعرب افريقية والجزائر والقيروان، وأمتدحهم بقصيدة حماسية من نظم ابن طفيل[4]. وكانت الاستجابة عامة وسريعة، واتخذوا طريقهم الى مراكش، بأهلهم وخيلهم، حيث كانت استقبالاتهم حافلة على طول الدروب التي سلكوها حتى حطوا بالحاضرة. اذ أحسن أمير المؤمنين وفادتهم في احتفال مراسيمي مهيب، لا يكون الا لرؤساء الدول وقادتهم، وقد عين مديراً للمراسم، مبالغة في التكريم، الوزير أبا العلاء ادريس بن جامع، ومن ثم وزع عليهم وعلى الجند الموحدين الخلع الملوكية والسلاح[5]. غير أن المرض قد عاقه عن السير فوراً الى الأندلس، إذ تأخر عبوره حتي شهر رمضان سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م[6].

وحالما سمع أهل الأندلس بمخرج الخليفة أبي يعقوب من المغرب متخطية قصر مصموده في أول شهر رمضان من السنة نفسها، تلقاه أشياخ اشبيلية وأهل الأندلس بجزيرة طريف بعد أيام الانتظار القلقة التي سبقت وصوله، حيث جرى له استقبال حافل من قبل اولئك الذين توكفوا قدوم خليفتهم طويلاً، وانتهى إلى مدينة اشبيلية إذ خرج أهلها جميعاً لاستقباله بأسلحتهم ينضمون إلى اخوانهم المغاربة في خطوات حاسمة وسريعة في طريق النصر، لكنه في الوقت نفسه، بدأ حركة حاسمة أخرى من أجل تعزيز قوة الدولة وبقائها؛ إذ شرع في التنظيمات الإدارية الجديدة فعزل ابن المعلم مشرف

(١) المصادر نفسها والصفحات نفسها.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٥٦-٣٧٤.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢١١.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٢٢؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤١١؛ وكانت قصيدة طويلة مطلعها:

اقيموا صدور الخيل نحو المغارب ... لغزوا الأعادي واقتناء الرغائب

(٥) ابن صاحب الصلاة، ص: ٤٣٠ - ٤٣٢.

(٦) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢١١؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٠٨ - ٤٨٧.

الاشغال باشبيلية لاتهامات وجهت إليه، وأمر بمحاسبته من مصادرة لأمواله وإيداعه السجن ثم اعدامه، وعين ابن جلداسن مكانه.[١]

وعقد للسيد أخيه ابي سعيد على غرناطة، واسندت ولاية قرطبة لأخيه الحسن، وعلى اشبيلية لأخيه علي، وعين ابن اخيه إبي حفص أبا محمد على مالقة[٢].

وبقي مدة عام كامل يتنقل بالجيش بين عاصمته الأندلسية ومدينة قرطبة، وقام خلال ذلك بالاشراف على أعمال البناء في اشبيلية، وتلقى ولاء أهل شرق الأندلس من القادة والأعيان، إذ أشاروا عليه بغزو مدينة وبذة، وبدون أن يطلع على آراء مستشاريه العسكريين، أخذ برأيهم.[٣]

وهكذا سار الجيش الموحدي في شهر شوال سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، بجناحيه العربي والمغربي، فضلاً عن الأندلسي لفتح تلك المدينة، دون أن تغيب الحساسيات بين الجند، حتى في أقسى الظروف، فأصبح معها متعثراً فاقد التنظيم، رغم كثافة عدده. واستولى الجيش في طريقه على حصن بلج، إذ سمح لسكانه النصارى بالعودة الى بلادهم ثم عين أحد قادته عليه (أبا اسحاق بن همشك)، واستأنف مسيره شمالاً، واقتحم في طريقه حصن الكرسAlcaraz ، واستسلم أهله دون قتال، وأخلوه، فعين عليه من يصلحه ويضبطه، ثم واصل زحفه نحو الشمال الشرقي[٤]. وساق الخليفة أمامه قوة استطلاع من جيشه تتألف من اثني عشر الف فارس من الموحدين والعرب بقيادة أخيه أبي سعيد، وبعض القادة الأندلسيين الذين استولوا في طريقهم علي حصن يقع على مشارف المدينة، وتم أسر جميع سكانه، ثم هدمه، حتى اضحى قفرا يبابا، واقترب في اليوم التالي من المدينة، اذ حصل صدام مسلح بينه وبين حاميتها التي خرجت لصده، غير أنها اضطرت الى التقهقر للتحصن داخل المدينة، على الرغم من ظهور تعثر في صفوف المسلمين أثناء القتال من بعض الكتائب العربية، عندها نزل السيد بقواته على الجبل المطل فوق المدينة، ينتظر وصول بقية الجيش بقيادة أمير المؤمنين، وعلى ساقته أخيه أبي حفص[٥].

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ٢٠٧، ٤٥٣.
(٢) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٢٢؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٠١؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص:٤٢٧.
(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٩٥-٩٨.
(٤) المصدر نفسه: المن بالامامة، ص: ٤٧٣ - ٤٩٠؛
ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٩٦.
(٥) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٩٢.

وصل الخليفة على رأس الجيش في اليوم الذي يليه، فاستعرضه وقسمه الى فرق جعل كلاً منها تحت امره قائد، ثم رتب القبائل، لتقوم كل منها بحصار جهة من المدينة. وفي فجر اليوم الثاني، ارتأى أن الظروف مواتية للهجوم، فأمر بضرب الطبول ايذانا بذلك. عندها خرج النصارى من داخل الأسوار لاعاقة تقدم الموحدين الذين استولوا على ضواحي المدينة[1]. لكنهم عندما لم يتمكنوا من الاستيلاء على الأسوار، قاموا بقطع المياه عنها، وانتشروا على مساحات كبيرة من الأرض والمزارع خارجها، مشددين من الحصار الاقتصادي، حيث راح نفر من الجيش بحصد الزرع وخزنه، ثم بناء السلالم والأبراج استعداداً لاقامة طويلة، تحت نظر أهل وبذة الذين كانوا يراقبون تلك التطورات بقلوب واجفة، حيث أسقط في أيديهم، وظنوا أنهم أحيط بهم، فأرسلوا سفيراً من قبلهم ليومين متتاليين يعرض تسليم المدينة صلحاً على الموحدين، لكنه لم يلق في الزيارتين كلتيهما إلا الاعراض والرفض، ظناً أنهم سيستسلمون دون قيد أو شرط، من شدة الجوع والعطش، وطال أمد الحصار مدة اسبوعين، من غير أن تظهر أية بادرة للاستسلام[2].

تم هبت رياح عاصفة تحمل البرد والأمطار الغزيرة، تزأر وتصطخب كأنما تريد أن تقتلع الجبال الراسيات من مكانها، وألحقت خسائر باهظة بمعسكر الموحدين؛ إذ لم تطمئن لهم قدر، ولم تقم لهم نار، ولم يستمسك لهم بناء، في حين استفاد منها النصاري داخل مدينتهم، فشربوا وارتووا، وصمموا على الصمود والمرواغة، وصدموا كتيبة هسكورة؛ إحدى الكتائب التي كانت تحاصر ناحية منها، وهزموها، مما أظهر الخلل في صفوف الجيش الذي لم يحقق أية نتائج رغم اختراقه خطوط دفاعاتهم إلى داخل الأسوار إلى القصبة التي عجزوا عن اقتحامها، وقد هدموا كنائسهم، ونهبوا نواقيسهم[3].

لعل هذا هو السبب الذي جعل الموحدين يبعثون رسولا من قبلهم، هو عبد الرحمن بن أبي مروان بن سعيد الغرناطي الى أمير المدينة العلج ولد مريق "التابع إلى الفونسو الصغير (El REY Chico) هو الفونسو الثامنAL) (Fonson VIII وهذا هو ملك قشتالة (Al Fonso VIII de Castilla)وإليه تتبع وبذة"، الذي كان له صديقاً،

(١) المصدر نفسه، ص: ٤٩٦، ٤٩٧؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٥٠.
(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٣٦٣، ٣٦٤.
(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٩٦ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٩٨؛ ابن خلكان: الوفيات، ج٧، ص:١٣٥.

وتكررت السفارة بينهما. لكن اللقاء لم يكن في كلتا المقابلتين وديا، كما توقعه ابن سعيد نفسه، بل كان جافا الى أبعد الحدود، وكان جوابه فيه السخرية والشماته "ليس عندي ثياب تصلح للباس فألقي بها ملككم"، وإني غير مخول بالتفاض معكم، وأن الأمير الفونسو الصغير نفسه قادم لمقابلتكم، هذا رغم الوعد والوعيد الذي مارسه السفير المسلم على امير المدينة، "انما جئتك لصحبة كانت بيني وبين أبيك، فأنا الذي أخرجته من سجن يحيى بن غائبة، وأريد الآن أن أخرجك مما أنت فيه"[١].

عقد الخليفة على الأثر مجلساً للتشاور، حضره السادة والاشياخ من الموحدين والعرب وزعماء الاندلس. فتقرر من غرفة العمليات رفع الحصار عن المدينة، والعودة الى اشبيلية، وأحرقت آلات الحصار في مساء اليوم نفسه، وليس عند أحد من الناس خبر، وبات الناس يدوكون ليلتهم "أي يتساءلون ويختلفون". وبدأ الرحيل بالعودة في صباح اليوم التالي بدون نظام، كان مؤداه انتشار الهرج والخلل بين صفوف الجند، اذ شجع أهل المدينة على الخروج من مخبئهم ومهاجمة ساقة العسكر أثناء الانسحاب. فأسند أبو يعقوب مسؤولية حماية مؤخرة جيشه الى فيلق بقيادة أخيه أبي حفص وبعض العرب ونفر من القادة الأندلسيين، مما أدى الي إنجاز عملية الانسحاب بسلام عن طريق مدينة قونقة Cuenca منقلبين الى اشبيلية[٢].

يظهر أن قرار فك الحصار عن المدينة لم يكن يرضى عنه الخليفة، ربما يؤكد أن انشقاقاً حاداً حصل في الاجتماع بين القادة العسكريين المغاربة والاندلسيين. وإلا لماذا لم يعلم أحد من الناس بما حدث، من تدمير لآلات الحصار وحرق لمنصات القتال بأمر من الخليفة؟. وتأكد هذا الخلاف في أثناء الحصار؛ فظهر اضطراب في الجيش وانعدام في التعاون؛ اذ أن محمد بن تيفوت قائد إحدى أهم الفرق الموحدية، فرقة الرماة، "يمنعهم من رمي النصارى بالسهام، فلم تقع الآلات ولا الرماح ولا الدروع السابغات ولا البيضات"[٣]. وثمة قائد اندلسي آخر، كان موكلاً بقصف حصن المدينة المتخندقين فيه، وقد أشرف هذا الحصن على الاستسلام والسقوط، وقال: "وأشرفت على الفتح والغلبة، ولم أر أحدا من أهل الاجناد والأنجاد، ولا من الشيوخ والقواد من يعينني، فمشيت بنفسي الى أمير المؤمنين، وهو جالس مع أخيه أبي حفص، ومع طلبة الحضر، يتكلم

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٥١٢ - ٥٠٢.
(٢) المصدر نفسه، ص: 205 -405 ؛ قونقة، مدينة اندلسية تقع الى الشمال الغربي من بلنيه.
(٣) المصدر نفسه، ص: ٤٩٧.

معهم في المسائل، فقلت يا سيدنا أميرالمؤمنين، عسى عون، فقد أشرفت على الفتح.. فلم يجاوبني هو ولا غيره"(١).

هكذا قدر لغزوة وبذة أن تفشل، ولم تحقق ما خطط لها، رغم كثافة الجيش الغازي، فهو يربو على مائة الف مقاتل(٢).

ربما يعود هذا الاخفاق الى افتقار القيادة الموحدية لخطة محكمة، ورغبتها في اتخاذ القرارات الارتجالية، فضلاً عن أن الغزوة تمت بناء على اقتراح اعيان وقادة شرق الاندلس وحدهم، ودون دراسة من القيادة المشتركة، وكذلك اضاعة الخليفة وقتاً وجهداً في استيلائه على حصني بلج(٣) Velez Rubio ، والكرس(٤) Alcaraz المنيعين في طريقه الى وبذة(٥) Opta .

وهناك سؤال يفرض نفسه، ويبعث على الحيرة والقلق، وهورفض أبي يعقوب عروض أهل وبذة، مبادلة الارض بالسلام، رغم كونه مشغولاً بمناقشة مسائل فكرية، ومطارحات فلسفية مع الطلبة الفقهاء(٦)،وتعرض الجيش اثناء الحصار الى نقص حاد في التموين والجهد. بالاضافة الى نجدات قشتالية بقيادة الفونسو الثامن الطفل مع الوصي على عرش قشتالة "نونو"(٧)، إذ كانت متوجهة لنجدة المدينة المحاصرة، وكان الموحدون قد

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٥٠٣ - ٥٠٦.

(٣) بلج، يذكردوزي في كتابه، تاريخ المسلمين في اسبانيا، أن هذا الحصن، يقع بين بسطة ولورقة، ولكن ميلتشور، يعتقد أنه الحصن الذي يحمل اليوم اسمVilches ، من أعمال جيان، فهو الذي كان ينسب الى بلج القشيري أحد القادة الشاميين الذي دخل الأندلس، وأصبح والياً عليها سنة ١٢٤هـ/ ٧٤٢م؛ نقلا عن ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٨٨.

(٤) الكرس، حصن اندلسي يقع الي الجنوب الغربي من البسيطAlbaceke ، نقلا من المصدر نفسه، ص: ٤٨٨.

(٥) وبذة، حصن قديم يوجد في مقاطعة قونقة، وقد استولى عليه النصارى سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٨٠م، على عهد الفونو السادس، إذ فتحه قهرا؛ أما اسمه الحاليHuete ، المصدر نفسه، هامش، ٢، ص: ٤٨٧.

(٦) من الطلبة الفقهاء الذين كانوا حاضرين المعركة: الفقيه ابو محمد المالفي، والقاضي أبو موسى عيسى- بن عمران، والقاضي ابو محمد بن الصفار، والقاضي أبو الوليد بن رشد الحفيد الطبيب الفقيه الفيلسوف Averroes'
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٩٥.

(٧) المصدر نفسه، ص:٥٠٦.

قرروا أن لا يقتربوا منها جبهياً، وقد اشتبكت مع مؤخرتهم المنحسبين بانتظام[1] فلربما لوجود الخلافات المستحكمة والمشادات الكلامية الحاصلة بين الخليفة وقادته، وبين القادة أنفسهم من جهة ثانية، وعجز استخباراته عن التوصل الى الحالة التي كان عليها المحاصرون؛ لعله راجع لشدة تيقظ قادة وبذة، وإخفائهم الحقائق عن مخابرات العدو، كل هذه جعلت الخليفة يصر على تسليم المدينة دون قيد أو شرط[2]. وسنرى في المستقبل أن الأمير نفسه سيقوم وحده بتسديد الثمن لمثل هذه المجادلات الكلامية والآراء الأنفرادية.

لم يلبث أبو يعقوب بعد انصرافه من غزوة وبذة الخاسرة، أن قام بمناورة عسكرية ناجحة، استهدفت أهدافاً عدة منها؛ اقناع العدو انهم لم يخسروا الحرب بل خسروا المعركة؛ واشعارهم كذلك ان الموحدين لا زالوا على قوتهم ومقدرتهم القتالية، وان هزيمة وبذة لم توهنهم عن مواصلة جهادهم، ومنها رفع معنويات الجيش وازالة الآثار النفسية المؤلمة التي خلفتها هذه الغزوة، والتي كان بامكانها أن تحفر في نفوسهم خنادق لا تمحوها الأيام، وأن تعمق الاقليمية بين الشعبين المغربي والأندلسي؛ فدفع بأربعة آلاف فارس بقيادة يوسف بن تيجيت، وعبدالله ابن جامع، حملة تأديبية، إلى أعماق قشتالة، فوصلت طلبيرةTalvera ، وهي بوابة قشتالة الرئيسة، ولم تبتعد عن عاصمتها أكثر من سبعين ميلاً[3]. ودمرت ضواحيها، وأتلفت زروعها، وعادت تأخذ بنواصي أسراها، وتحمل اسلابها الى اشبيلية. وألح جيش آخر في أراضي طليطلة قتلا وسبيا[4].

من الواضح أن مملكة قشتالة قد ضاقت بهذه الغزوات المدمرة، ومن الغزوات المحتملة مستقبلا؛ فبعث كل من ملك قشتالة، وملك البرتغال "ابن الرنك" سفراءه الى اشبيلية لمقابلة الخليفة، وعرض معاهدة عدم اعتداء معه. وانتظر السفراء مدة شهرين في العاصمة الاندلسية ريثما استجاب أبو يعقوب الى الحاحهم في طلب السلم والأمان،

---

(١) ابن صاحب الصلاة، المن بالامامه، ص:٥٠٨.

(٢) يقول صاحب المعجب في ذالك "إن أهل هذه المدينة - وبذة - لما برح بهم العطش، أرسلوا الى أمير المؤمنين يطلبون الامان على أنفسهم، على أن يخرجوا له عن المدينة، فأبى عليهم وأطمعه فيهم ما نقل اليه من شدة عطشهم، وكثرة من يموت منهم".
المراكشي: المعجب، ص: ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٣) طليرة، تقع إلى الشمال الغربي لطليطلة، على نهر تاجه؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٥١٦؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٢٤؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص: ٣٧؛ الحميري؛ الروض المعطاء، ص:٣٩٥.

(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٥١٦، ٥٢٥، ٥٢٦؛ المقري: النفح، ج٦، صك١٦٠.

وكان الصلح يقضي بعقد هدنة أمدها سبع سنوات[١] رغبة منه في التفرغ لاصلاح الثغور. وتعمير الأماكن الخالية، وشحنها بالمقاتلين سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م[٢].

بقي ابو يعقوب في الأندلس زهاء خمس سنوات، سطعت فيها اشبيلية عاصمة للموحدين بالأندلس، لكثرة المنشآت والمرافق التي أقامها بها. ثم غادرها مستهل شعبان سنة ٥٧١هـ/ شباط ١١٧٦م. وعبر البحر بقواته مطمئناً عائداً الى مراكش، بعد أن رتب الإدارة في كل من قرطبة واشبيلية[٣].

أن التشنج والغليان السائد في مملكتي قشتالة وأراجون، قد فرض عليهما عقد معاهدة صلح مع نا ار. اذ كانت بلادهما متورطة في حرب دموية مع هذه الامارة، وبخاصة على مناطق الحدود التي كانت مذبذبة في انتماءاتها، حتى توسط ملك انجلترا بين الطرفين سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٦م، فقبل الطرفان المتحاربان الوساطة على كره منهما، واستجابا لعقد معاهدة صلح مرحلية بينهما فرضتها الظروف[٤].

حرص ملك قشتالة على أن يستفيد قدر المستطاع من عقد هذه المعاهدة، منتهزا عودة الخليفة أبي يعقوب بالجيش الى مراكش، فنقض الصلح، ورفض السلم، وأسرع بقواته يحملها للاستيلاء على مدينة قونقة؛ ذات الموقع العسكري المهم، كان قد تركها الخليفة الى مصيرها في طريق عودته أثناء اخفاقه في معركة وبذة؛ اذ شن عليها هجوماً صاعقاً ومروعاً، وضرب عليها الحصار مدة تسعة أشهر[٥].

حاول الموحدون انقاذ المدينة، بأن وجهوا حملاتهم نحو قشتالة لارغام المحاصرين على التقهقر وفك الحصار عنها، غير أن القشتاليين، وحلفاءهم، من اراجون وغيرهم ألحوا في تضييق الخناق عليها، رغم كثرة الخسائر التي لحقت بأراضيهم جراء غارات

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:٣٦٤.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢٢٦ - ٢٢٧؛ يذكر اشباخ: تاريخ الأندلس، ج٢، ص: ٣٩، أن المسلمين هزموا اثر حملتهم السابقة على طليطلة. ولو كان ما يدعيه اشباخ صحيحاً، لماذا بعث ملك فشتالة (القمط نونية بيريز دولارا)Nuno Perez delara ، رسله لعقد معاهدة صلح مع الخليفة بعد هذه المعركة مباشرة، ثم بعث في اثره، الفونسو هزكيز، ملك البرتقال، أوابن الريقAlfonso Enriquez ، رسالة مماثلة للخليفة يرجوه المهادنة والصلح سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ١٥٢، ٣٧٠، ٥٢٦؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:١٠٥.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٢٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:١٠٥.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣. ص:١١٠٠؛ اشباخ : تاريخ الأندلس، ج٢، ص: ٣٩.

(٥) اشباخ: تاريخ الأندلس، ج٢، ص: ٣٩.

الجيوش الموحدية، على طلبيرة من جهة، وعلى طليطلة من جهة ثانية، وأحدثت هذه الغارات كوارث جسيمة بتلك النواحي، وعادت محملة بالأسلاب والأسرى الذين حشروا بالآلاف الى اشبيلية. وثمة جيشاً ثالثاً أرسله الموحدون نحو الشرق لانجاد قونقة. غير أن كمائن العدو المنثورة على طول الطريق الي المدينة، حالت دون وصول هذه النجدات، وفضلت الانسحاب والعودة، وتركت المدينة المنكوبة الى رحمة دعوات الضعفاء والعجزة، واضطرت أخيراً تحت ضغط الجوع والعطش والمرض الى التسليم. فدخلها النصارى ظافرين، وحولوا مسجدها الجامع الى اسقفية سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٧م[١].

على وهج هذه المواقف انساحت حدود قشتالة الى الشرق، وانفتح الجنوب الاندلسي أمام الغارات الأراجونية، وظهرت بوادر اتفاقات جديدة بين دولتي قشتالة وأراجون على تقسيم النفوذ بينهما[٢].

إن الغليان الملتهب في الممالك النصرانية الثلاث؛ قشتالة، وليون، والبرتغال، جعل ملك ليون يدعي السيادة على الأخيرة، مع حق وراثة عرش طليطلة من ابن أخيه الطفل التي تتحكم بمصيره عائلات ارستقراطية (آل لارا وآل كاسترو)[٣]. لذلك كان متلهفا ليفتح ملفاً من التعاون والصداقة مع الخليفة أبي يعقوب يوسف، يتمكن خلالها من توسيع حدود مملكته جنوباً (الى البرتغال)، وهذه هي احدى الأولويات التي تتصدر مشاريع الخليفة للقضاء على دولة البرتغال الناشئة، لذلك أمده بجيش من الموحدين تحت قيادة ثلاثية؛ أبي العلاء بن عزون، والحافظ أبي علي بن تمصيلت، ثم الحافظ ابي عمران موسى بن حمو. واصل الجيش تحركه داخل ليون ليخضع أعداءها في قشتالة والمتمردين في الداخل، ومن ثم انقلب منحدراً الى بلاده بعد أن امضى هنالك خمسة اشهر[٤].

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٥٢٦ - ٥٢٧؛
ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١١٠ - ١١١.

(٢) اتفقت مملكة قشتالة وأراجون بموجب معاهدة كازولا في شهو شوال سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٩م، على أن تكون الأراضي بين بلنسيه شمالا وابدة جنوباً، خاضعة لنفوذ آراجون العسكري. أما البلاد الواقعة وراء هذه غربا فتقع في منطقة الفتح الخاصة بقشتالة؛
R. Altamira: ahistory of spain, P, 167.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٧٠ - ٣٧١.

(٤) المصدر نفسه والصفحات نفسها؛ كان يهدف الخليفة من مساعدة ملك ليون، اضعاف مملكة قشتالة، اكبر الممالك النصرانية، وأكثرها عداء للمسلمين، وإرهاب مملكة البرتغال. لذلك انتهز عداء ملك ليون لهما، فأمده بهذه الجيوش، لتأخذ خبرة في أرض النصاري وطريقة حربهم، ومن ثم يتصدر لهزيمة ملك ليون وتبديد أطماعه، وهذه سياسة الموحدين اللولبية التي درجوا عليها منذ قيام دولتهم؛ المصدر نفسه، ص: ٣٧٠ - ٣٧٢.

يظهر أن مرافقة الجيش لقادة ثلاثة، كان معناه أن يطلعوا بأنفسهم على مدى صدق الحليف الجديد الذي يوصف بكثرة تقلبه وغدره. فعادوا يحملون مواثيق ملك ليون، أنه يسالم من يسالمهم ويحارب من يعاديهم، ولقد أوفى الأخير بوعده، ففي سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م، حينما استولى البرتغال على بطليوس ما عدا قلعتها، خف بقواته مسرعاً مقتحماً المدينة يصارع البرتغاليين، حتى تمكن من أسر ملكهم الجريح، أثناء محاولته الهرب، وقام بتسليمها الى قائد الموحدين، معتذرا لدخولها بأدب ظاهر جم، لأن أمير المؤمنين لم يأمره بذلك[١]. وتم هذا وسط عملية درامية بارعة؛ اذ اطلق سراح الملك البرتغالي، بعد أن قدم له العلاج اللازم دون فداء وقد أظهر بعد هذه المعركة أنه يحطب في حبل الموحدين[٢].

إن هذا الوفاء بالعهد، وصنع الجميل للطرفين كليهما، لم يكن هو الدافع الحقيقي أو الوحيد وراء المساعدة الليونية، على استخلاص بطليوس، ربما كان يرى أن هذه المدينة الأخيرة من نصيبه وحده، فهي واقعة في منطقة نفوذه، عند تقسيم المملكة بينه وبين أخيه. لذلك كان يحول دائماً استيلاء البرتغال عليها، منتظراً الظروف الأكثر ملاءمة، ومظهرا تجميد طموحاته في الوقت الراهن على الأقل.

هذه المناورات المكشوفة لم تكن غائبة عن أعين الموحدين، ففي سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، عزم السيد أبو سعيد على إصلاح مدينة بطليوس وتحصينها. فنهد اليها بقوات من اشبيلية، ونازل بها إحدى القلاع الحدودية في الطريق اليها، واكتشف فجأه قوات ليونية بقيادة فرديناند هدفها مدينة بطليوس. فبعث السيد بعض قادته مستوضحاً الملك عن سبب مجيئه دون استدعاء أو ضرورة. فأخفى الملك نيته، وأظهر أنما جاء مشواره الثاني لحماية المدينة من البرتغاليين، وإمعاناً منه بالتمويه والمخادعة، قابل السيد أبا سعيد، وأكد التزامه بالصلح، ولوى عنانه عائداً يجتر خيبة أمله بصحبة قواته الى بلاده[٣]. ومن هنا كان النصر العظيم حليف فرديناند مرة أخرى في النجاة بجنده.

وعندما يئس ملك ليون من الاستيلاء على المدينة المذكورة، بعث الى الموحدين يسألهم المال الذي انفقه في حمايتها من الأعداء. وكان رد الخليفة أبي يعقوب ايجابياً، إذ أمده بهدايا ثمينة من الجواهر المنظومة لاقت اعجابه واستحسانه، طاويا مشروع الأندلس الى ظروف مستقبلية[٤].

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٨٠ - ٨١.
(٢) المصدر نفسه والصفحات نفسها.
(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٠٠، ٤٠١.
(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١٠٣، ١٠٤.

وبدا يتضح لابن الرنك صاحب البرتغال؛ المصدر الاساسي للخطر الذي تشكله الدولة الموحدية بزعامة الخليفة يوسف بن عبدالمؤمن، ومما زاد الأمر توترا فتور العلاقة بينهم وبين حليفهم الببوج، وليس ببعيد أن يكون ذلك الخلاف، وهذا التوتر من تدبير ملك البرتغال نفسه الذي أعطى أوامره إلى قائد جيوشه جرانده بالاغارة على مدن المسلمين ومنها باجه، حيث تسلل قائد العدو وصحبه إلى داخلها من أحد الأبواب غير المحروسة، والمسلمون في داخلها سادرون في خلافاتهم مع واليهم عمر بن سحنون، إذ فر منها هارباً على قدميه إلى مرتله القديمة، وسقطت المدينة بيد العدو في ١ محرم سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢، وقد عجز عن حمايتها لاتساعها، فاخلاها وأحرقها وهدم أسوارها، وأسر معظم أهلها، وتفرق الباقون في مدن المغرب، ثم عادووعمروها مرة أخرى[١]؛

وفي خلال سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣، قام زعيم عصابة مدينة أبله Avila (في الجهة الشمالية من طليطلة)، "مينوس" بشن الغارات المخربة على الأندلس، (وربما كان من تدبير الملك اليائس)، متجاهلاً معاهدات الصلح بين ليون والموحدين، ومخترقا الحواجز البشرية عبر قرطبة واشبيلية، غير مبال بالعواقب، الي أن وصل طريف والجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس. ومن ثم حاول العودة الى بلاده في الطريق نفسه عبر الوادي الكبير مدلا بقوته، وهو ينوء بالأسلاب والأسرى[٢].

كان على الموحدين أن يبذلوا جهوداً مضنية لايقاف مثل هذه الهجومات الشرسة على الناس العزل، وعدم تكرارها، وفي الحال خرج جيش من المسلمين بقيادة أخوي الخليفة؛ أبي زكريا يحيى، وأبي ابراهيم اسماعيل، لاعتراض الجيش النصراني بقيادة مينوس. فطاردا هذا الجيش الى ما وراء قلعة رباحCalatrava ، واشتبكا معاً في معركة موفقة، استطاعا أن ينزلا به هزيمة ساحقة، سقط على أثرها مينوس صريعاً، وعادا ورأس الأخير على رمح يتقدم الأسرى والغنائم المستردة الى اشبيلية[٣].

إن فشل هذه الغزوة جعلت ملك ليون يقطع تردده، ولا يطيل انتظاره؛ فنقض الصلح مع المسلمين، لأن معاهدات السلام مع الاسبان، لم تكتسب عادة صبغة التنفيذ، فهي أوهن من بيوت العنكبوت، وقرر المجاهرة بموقفه هذه المرة دون إبطاء، وتقدم لغزو

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ص:١٠٣-١٠٥؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٧٣، ويذهب هذا أن يجعل احتلالها سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م، وهذا فرض غير مقبول.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٥١٨، ٥١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٥٢١ - ٥٢٢.

الأندلس بنفسه سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م. عندئذ رأى الخليفة، الذي لم يكن يثيره مثل هذا العمل المشين وكان متوقعاً، أن يجهز جيشا، ويسند قيادته الى أخيه أبي حفص عمر، فتحرك الجيش سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م. من اشبيلية ميمما مدينة السبطاط[١] (المدينة الملوكية) Cuidad Real شمالاً، وضرب عليها الحصار الشديد، والتضييق الاقتصادي، وحرمها من وسائل العيش حتى أرهقها دون أن يتمكن من اقتحامها. لذلك تركها توفيراً للجهد والوقت والمال، وشن سلسلة من الغارات الناجحة، اذ استرد باحداها حصن ناضوش[٢] Toponimo desconocido وقنطرة السيف[٣] Alcantra ، ثم عاد ليحتفل بالنصر في عاصمة الاندلس، وأذن لمن حضر من المهنئين بالدخول علي مراتبهم من الادباء والشعراء[٤].

ولّد سقوط قاعدة النصرانية القنطرة بعد ثماني سنوات من الاحتلال رد فعل عنيفاً لدى الامم النصرانية في اسبانية واوروبا باجمعها وعلى رأسها ليون؛ فرأت ان تتحرك لتوجيه ضربة قاصمة للقوات الاسلامية قبل ان يستفحل الخطر، وثارت عواطف البابا اسكندر الثالث لهذا الانتصار، وبلغ منه التشنج مداه، فاستحث يهيج النصاري الاسبان على مواصلة القتال، وعدم التسليم بالأمر الواقع، ووعد كل من يستجيب أن يحيطه بالبركة والغفران ويمنحه الامتيازات البابوية[٥].

ولقد استغل ملك ليون هذا القلق والتحريض، وهو الذي تاق للعظمة كثيراً، لتحقيق الهيمنة على اسبانية، فكان من أول الملبين، إذ سار على رأس قواته سنة ٥٧٢هـ/

---

(١) السبطاط: مدينة تقع جنوب طليطلة؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص٥٢٠.

(٢) حصن ناضوش: لم نعثر له على أثر في معاجم البلدان، ولم تهتد لموقع هذا الحصن.

(٣) قنطرة السيف: مدينة مهمة بالاندلس تقع الي الغرب من طليطلة؛
ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص: ٤٠٦.

(٤) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٥١؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١٠٤؛ ومن الشعراء الذين حضروا بباب أبي حفص وقالوا شعراً واطنبوا في هذه المناسبة، الشاعر أبو العباس الجراوي قال من قصيدة طويلة أولها:

عن أمركم يتصرف الثقلان	وبنصركم يتعاقب الملوان (الليل والنهار)
وبما يسوء عدوكم ويسركم	تتحرك الافلات في الدوران
جاهدتم في الله حق جهاده	ونهضتم بحماية الايمان
من يعرف الرحمن حقا يعترف	بحقوق لخليفة الرحمن

ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١٠٤.

(٥) Altamira: Ahistory of medieval spain, p, 167.

١١٧٧م، شاناً سلسلة من الغارات الخاطفة حتى بلغ أعماق الأندلس، الى ضواحي اركش Arcos وشريسJerez ، ثـم انقلـب يجمـح ملتجئـاً الى بـلاده، خوفـاً مـن تعقـب الموحدين له[(١)].

فخرج جيش من الموحدين حاول اللحـاق بالملـك دون جـدوى، فالتفـت الى أرض النصارى تخريباً وعيثا، وفتك بقوات طلبيرة Talvera انتقامـاً منهـا، وقـد كانـت تمـارس الغزو في ارض المسلمين، واسترد ما كان معهـا مـن الغنـائم والأسرى، ورجـع يحمـل معـه عدداً من جنود الاعداء ليحتفل بضرب اعناقهم في اشبيلية[(٢)].

ونشبت عدة مواقع بحرية بين الموحدين والقطلانيين في الشمال الشرقي الاسـباني، وأظهر الاسطول الموحدي كثيراً مـن ضروب البراعـة والتفـوق، غـير أن معظـم العمليـات الحربية، قد تركزت في غرب الـبلاد ومملكـة البرتغـال عـلى الخصـوص، واسـتغرقت فـترة طويلة، اضطر الخليفة خلالهما أن يعمـل عـلى تحصـين المنـاطق الغربيـة الأندلسـية، إذ كانت عرضة لغارات الأعداء برا وبحرا، وأقرب وأشد الممالك وطأة على المسلمين، واهـتم بمدينة اشبيلية على الخصوص، اذ زودها بالفرق العسكرية البرية منهـا والبحريـة تحـت قيادة أمراء بحريين ناجحين؛ فهذا أمير البحر غانم بن مـردنيش، اسـتطاع الانتصـار عـلى البرتغاليين في معركة بحرية قرب لشبونة، وأسر بعض قطع الاسطول، وعـاد بهـا الى ثغـر سبتة سنة ١١٧٩/٥٧٥م واسـتمرت سـجالات الحـرب بـين المتصـارعين الرئيسـيين في شـبة جزيرة ايبرية، الموحدين والبرتغاليين، الى أن أسر أمـير البحـر غـانم وأخـوه أبـو العـلاء في احداها. ومكثا في الأسر مدة غير قليلة، حتى أفرج عن الأخوين الأميرين لقاء مبلـغ كبـير مـن المـال. ورأى الخليفـة أن يثـأر لهـذه الانتكاسـات البحريـة، فأعـد لـذلك الأسـاطيل الضخمة؛ إذ خرج اسطول سبتة بقيادة عبد الله بن جامع، وأنـدفع أبـو العبـاس الصـقلي قائد أساطيل اشبيلية جنوباً، والتقيا في ثغر قادس، واتجها كلاهما الى ناحية شلب، حيث دارت معركة بحرية أبلى فيها القائد الصقلي والبحارة المغاربة صنوفاً من البراعة ورباطة الجأش، حتى انتزعا النصر في المكان الذي أسر فيه القائد غانم، وارتد الجيش يجـر وراءه أعدادا ضخمة من الأسرى "الف وثمانمائة أسير" والغنائم، بعد أن خلـف كثـيرا مـن قـتلى العدو في أرض المعركة سنة ١١٨١/٥٧٧م.[(٣)]

---

(١) J. F. O'callaghan, ahistory of nedieral spain, P, 239.
اركش وشريش: مدينتان شمالي شذونه في وسط الاندلس الجنوبي؛
ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص: ٣٤.

(٢) ابن الاثير: الكامل، ج٩، ص: ١٢٠.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، (الخاص بالموحدين)، ق٣، ص: ١١٣، ١١٧، ١١٨.

وثمة مثلاً آخر أسوقه على تفوق البحرية الموحدية في ذلك الوقت، وهو الكتاب الذي بعثه ملك قشتالة الفونسو الثامن، الى الخليفة المنصور، يطالبه (على طريقة التحدي) فيه بأرسال أساطيل من المراكب والشواني والطرائد والمسطحات، كي يعبر بها البحر إليه بجيوشه ويقاتله في بلده[1].

وآخر يومىء الى قوة الأساطيل المغربية وطول ذراعها في مدة أبي يوسف يعقوب المنصور. فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن المنصور أمد صلاح الدين الأيوبي بمائة وثمانين سفينة حربية، وسد مضيق جبل طارق في وجه الموجات الصليبية، ومنعهم من الوصول الى سواحل بلاد الشام. وهذا يدل على تفوق ملوك المغرب يومئذ بالأساطيل الحربية[2].

وقد واصل ملك ليون غزواته التخريبية للاندلس. عند ذلك صمم الخليفة أبو يعقوب، وفي نيته التصدي لكل المشاكل، واستئصالها من الجذور. فعبر البحر بنفسه سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤ لوضع حد لهذه الموجات الاستنزافية، وتوجه نحوالمراكز الأكثر إثارة، الى مملكة البرتغال، إحدى اخطر اعدائه في تلك الجهات؛ منها تنطلق اشد الجيوش عداوة للمسلمين، وعزف في طريقه عن المدن الثانوية، وتوجه الى مدينة شنترين Santaremمركز النزاع بين ملوك النصارى المجاورين، وخاصة ملك ليون الذي كان ينتهز الفرص لاحتلالها[3].

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٢١؛
المسطحات: من أكبر السفن الاسلامية الحربية، وربما سميت كذلك لأن لها سطحاً واسعاً.

(٢) السلاوي الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٨٣؛ وقد أورد بعض المؤرخين غير ذلك؛ وإنني اذ أميل الى هذا الرأي الأخير لكثرة مضايقة المصريين، في عهد صلاح الدين الأيوبي بخاصة، للحجاج والمسافرين المغاربة الذين يأمون الشرق عبر الديار المصرية؛
ابن جبير: الرحلة، ص: ٥٩ - ٦٠؛
المقري: النفح، ج١، ص: ٤٢٦ - ٤٢٧، ج٣، ص: ١١٠ - ١١١.

(٣) المصدر نفسه، ص: ١٦٥؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٢٥؛
مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٨؛ ابن ابي زرع: الانيس المطرب، ص: ٢١٤.
المراكشي: المعجب، ص: ٣٧٢؛ ويذكر المعجب: أن شنترين مدينة كبيرة بالاندلس، على الشاطىء الأيمن من نهر تاجو، وهي مفتاح الوادي تقع الى الشمالي الشرقي من اشبونهLisboa . وقد ظلت هذه المدينة بيد العرب منذ الفتح الى أن احتلها الفونسو هنركيز ملك البرتغالسنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، ويسميه المعجب خطأ الفونسو السادس ملك قشتالة، وهذا الأخير هزيم الزلاقة الذي مات أثر معركة اقليج سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م، ثم كانت هذه المحاولة لاستردادها. وقد قام بعبء الدفاع عنها في هذه الغزوة الدون شانجو AL Donsancho.

ولما سمع الملك بالخبر، وكان يمارس ضغطه على أحد الحصون الاسلامية، ترك جيشه للهزيمة، وأطلق رجليه للريح بعيداً في المواقع الخلفية يشاهد الصراع، ويخطط على ضوء نتائجه المتوقعة، حتى إذا ما وجد ثغرة تسلل منها لاشباع طموحة[1]. وسقطت المدينة بين المسلمين ما عدا قلعتها التي قاومت الحصار طويلاً، عندها قرر القادة، وبخاصة الأندلسيين منهم فك الحصار عنها الى فرصة أخرى، والعودة الى اشبيلية. غير أن الخليفة أبا يعقوب اختلف مع أركان حربه، رافضا أنهاء القتال، متولياً القيادة بنفسه، فحصل انشقاق في الجيش ترأسه ابن الخليفة أبو اسحاق ، إذ مضى بعيداً عن أرض المعركة، يرافقه الأندلسيون الى ما وراء نهر التاجة، بحجة تطويق اشبونة من الجهة الأخرى لتفادي النجدات المفاجئة[2].

لم يكن غائباً عن أعين المحاصرين ما كان يجري في معسكر المسلمين، وعزموا على الخروج دون ابطاء، تعززهم قوات اتتهم للتو، فانقضوا بها على معسكر الخليفة الذي اصبح في مأزق، من غير حماية، وتشتت المسلمون تحت وقع المباغتة الداهمة التي فاجأهم بها جيش الاعداء، فوقع الأمير ضحية قراراته الارتجالية التي اتصفت بالفوضى والانقسامات، ثم تقهقهر الى الوراء صوب المغرب عبر اشبيلية، يحمل جراحات خطيرة، بقيت تنزف غير ممهلة، حتى اسلم الروح اثناء الطريق في الجزيرة الخضراء - على اصح الأقوال - دون أن تحقق هذه الغزوة ما كان مخططاً لها، سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م[3].

عندها استدار الملك الهارب، يشارك في نتيجة المعركة، ليحقق ما يجول بخاطره من سمو نحو الهيمنة والعظمة[4].

ويتبين أن نتيجة معركة شنترين نصر تعبوي للنصاري على الموحدين، ولكنه فشل سوقي لهم، ولا يعد النصر التعبوي شيئاً ذا بال الى جانب الفشل السوقي[5].

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٣٧٣.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١٣٤.
(٣) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢١٤ - ٢١٥؛
في حين يذكر ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ١٦٥، أن الخليفة مات من مرض اصابه؛
المقّري: النقح، ج٦ ص: ١٦٠.
(٤) J.E. Ocallaghan, Ahistory of Medievd, spain, P, 167.
(٥) السوق: هو الاستفادة من المعارك للحصول على الغرض من الحرب. ومن ذلك يتضح أن السوق يعني نتائج الحرب، بينما تعني التعبئة نتائج معركة محلية واحدة.

تجدد الصراع بعد موت يوسف بن عبدالمؤمن، بين المسلمين والبرتغاليين؛ إذ تحرك ابن الريق (الرنك) ملك البرتغال، صوب مدينة شلب، وضرب عليها الحصار البري والبحري، واخذ بمخنقها حتى استسلمت، وغادرها السكان مخلفين وراءهم كل شيء ثمناً لأرواحهم، ودخلها العدو سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م، وبلغت الانباء مسامع ابي يوسف يعقوب المنصور، فانطلق في أعقاب ذلك نحو الأندلس، وركب البحر، ووصل قرطبة عبر طريف، ميمماً اشبيلية، ثم تلوم بها وقصد حصن طرّش غرب الاندلس وافتتحه وسمح لسكانه بالرحيل مخفورين إلى بلادهم وأناخ على قصر أبي دانس، فاحتله، ونفى أهله إلى مراكش، ثم توجه إلى حصن بلماله (Palmella) واحاط به حتى اجلى أهله إلى بلادهم وهدمه، ثم قصد حصن المعدن، فسيطر عليه، وهدمه، ومنه نهد إلى شلب الهدف الأول للصدام، وحاصرها، ونصب حولها المجانيق، وآلات الحرب، فاستسلم أهلها، وطلبوا منه الأمان على أنفسهم مقابل الأرض، فحقن دماءهم، وغادروا المدينة إلى بلادهم سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م. وبعد سنة ونصف قضاها المنصور وقواته في الأندلس، قفل عائداً إلى حاضرته، بعد أن حقق بحركته الصعبة تلك انتصارا على الجبهة النصرانية الاسبانية، لا يقل خطرا عن انتصاراته الحاسمة على الجبهات الأخرى، وعقد هدنة مع ملك طليطلة أمدها خمس سنوات.[١]

٤- موقعة الأرك:

بعد معركة شنترين لم تمدنا المصادر بأي تحرك حربي نشب بين الموحدين ومملكة قشتالة، خلال السنوات الخمس التالية. فالموحدون بقيادة يعقوب المنصور مشغولون بجبهة افريقية، وهذه الجهة لم تكن محسومة لمصلحتهم تجاه ابن غانية[٢].

بينما أخذ ملك قشتالة يمارس سلطانه على مملكتي ليون والبرتغال، اذ حملت الأنباء وفاة ملك الأخيرة الفونسو هزكيز Alfonso Enriquez ، وخلفه ابنه الشاب سانشو الأول. وقد مات فرنانـد الثاني (الببوج)[٣] Fernando lldeleon ملك ليون، وخلفه على عرش بلاده ولي عهده الحدث الفونسو التاسع Alfonso 1X ، سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م.

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٤٠٢؛ الحلل الموشية، ص: ١٥٩؛ بن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص١٧٥-١٨٦؛ المقّري: نفح اطيب، ج٦، ص:١٦٠-١٦١؛ الحميري: الروض المعطار، ص: ٣٤٣.

(٢) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٦٠، ١٦١، ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ٢٣٣، ٢٣٤.

(٣) البيوج: كثير اللعاب، أي الأحمق؛ المراكشي: المعجب، ص: ٤٥٥.

أدرك عاهل طليطلة أنه أصبح أعظم ملوك النصرانية، وأن الطريق أصبحت امامه ممهـدة، لفـرض سـلطانه علـيهم، دون أن يأخـذ في الحسـبان مقاومـة الملكـين الشـابين أطماعه بالقوة المسلحة[(١)].

لهذا نقض ملك طليطلـة بنـود الهدنـة التـي عقـدها مـع المنصـور قبـل انتهائهـا، وعادت بلاد الأندلس إلى غليانها العسكري ترتمـي في خضـم هجـمات التحـدي؛ أذ شـق الفونسو بلاد المسلمين؛ ووطئ أرض الجزيرة الخضراء، وتطاول ببصره إلى أمـير المـؤمنين إلى بر العدوة يطلبه للنزال متحديا، وكتب كتابا له بذلك، وأرسل رسله حطت عـلى أرض العـدوة إلى حـاضرة المنصـور، بكيفيـة تـدعو إلى الاسـتغراب والاسـتهجان يطلـب مـن المسلمين تجديد معاهدة كان هو ورفاقـه قـد قتلوهـا، ويضـع شروطـاً قاسـية لابرامهـا، فرفضها أبو يوسف بإباء سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م. وكانت هذه الارهاصـات تسـوق المنصـور إلى الاسراع بتوجيه ضربة حاسمة للقشتاليين انتقاماً لما لحق المسلمين من عيث الفونسو الثامن، وتهديده وخيلائه؛ إذ اتخذ موقفاً حاسماً من رسله وأجابهم اجابة مقتضـبة عـلى رسالتهم "الجواب ما تراه لا ما تسمع"، واستعد من فوره لمقابلتـه عـلى طريقتـه نفسـها (التحدي يقابله التحدي)[(٢)].

وجهز جيشاً كبيراً -نسبياً- لكنه لم يصـل إلى جـيش الفونسـو البـالغ ثلاثمئـة ألـف محارب ما بين فارس وراجل[(٣)].

وفي الوقت نفسه ساءت العلاقة بين قشتالة وآراجون أولاً، وبينها وبين نا ار ثانيـاً. غير أن تفوق قشتالة الحربي داخل نا ار نفسها، جعل ملك أراجون يبحث مع الأخـيرة في عقد معاهـدة مفتوحـة ضـد القشـتاليين. فانضـمت الى هـذه المعاهـدة كـل مـن ليـون والبرتغال في العام التالي.[(٤)]

---

(١) J. F. Ocallaghan: Ahistory of, Medieval, spain, P. 241 - 243.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١٩١-١٩٥؛
ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٢٠-٢٢١؛
المقّري: نفح الطيب، ج٦، ص: ١٦٢.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ص: ٢٤٣.

هكذا يبدو، على رأي كلاهان، أن ملك قشتالة بقي في الميدان وحيداً يواجه تفوق المسلمين، يخوض معهم في جنون معركة اليأس والضياع، وربما تلقى وحده هزيمة الأرك القاسية سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م.[(١)]

حيث خاض الموحدون المعركة الكبري ضد الفونسو الثامن (النبيل) قرب حصن الأرك، اذ مني الأخير بهزيمة مذلة، وقتل من رجاله عشرات الألوف، وأسر الآلاف من أعز قادته. وتلك موقعة تناهت في الضراوة والعنف والمخاطرة، ومن أشد معارك التاريخ فدائية وعنفا، وكانت أخت الزلاقة في خضد شوكة الاسبان، والتمكين للمسلمين في أرضهم الى أمد بعيد[(٢)].

وارتد ملك قشتالة يلعق دماءه النازفة، ويمضغ أحقاده في مرارة قاتلة، بعد هذه الغزوة، وقيل أنه أعلن حداداً مفتوحاً، فحلق لحيته ورأسه، ونكس صليبه، وأقسم ألا يركب فواره الدواب حتى تنتصر النصرانية، وحشد جميع قواه العسكرية المتبقية، واصطدم مع المسلمين سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٥م، ولكنه مني بهزيمة أخرى ساحقة، وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والسلاح والدواب وغيرها، وعادت فلول قشتالة الى طليطلة تتعثر في هزيمتها وخيبتها، ثم بالغ المنصور في غزواته الى بلاد النصارى، إذ عبر الحدود يخرب ويدمر سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٦[(٣)].

فأقبل ساعتئذ سفراء ملك قشتالة يعرضون على مسامعه عقد معاهدة صلح وسلام، لكن الخليفة رفض مقابلة السفراء، وأنه لا سلم بينهم إلا الحرب والطعان، وواصل زحفه في بلاد العدو، ينتسف الزروع ويبيد الضياع[(٤)].

(١) المصدر نفسه؛ بينما يذكر ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٢٩، أن البرتغاليين وليون اشتركتا في القتال، وكذلك ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ٢٣٣، يقول: أن الفرنج جميعهم اشتركوا في القتال؛ ووافقهما المقّري: نفح الطيب، ج٦، ص: ١٦٢، على ذلك ولعل هذا الرأي الأخير كان هو الأرجح،
راشيل أري: تاريخ اسبانية الاسلامية، ص: ٣٤.
Rechel Arie: Espana Musulmana (Siglos VIII - XV)
ابن الخطيب: رقمالحلل، ص:٥٢؛ مخطوط، رقم ٨/١٦٦، مكتبة المسجد النبوي المدينة المنورة، ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م.

(٢) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٢٠ - ٢٣١؛
المراكشي: المعجب، ص: ٣٧٣ - ٣٧٥؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٩؛
الضبي: بغية الملتمس، ص: ٤٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص: ١٣٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ٢٢٣؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٧١ - ١٧٢.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٢٠٢ - ٢٠٣؛
المقري: نفح الطيب، ج١، ص: ٤٢٥ - ٤٢٦.

ساعدت هذه الظروف وما أعقبها من هزائم للأمراء النصارى أن أقاموا علاقات صداقة في ما بينهم، أثر المتغيرات الجديدة بعد موقعة الأرك على الأخص، فراحت جيوش النصارى تعد عدتها، وتحشد بأسها ويأسها، لتثأر لنفسها ولشرفها ولقتلاها؛ اذ انضم سيد أراجون بقواته ولحق بفلول قشتالة المنهزمة للقيام بهجوم آخر مضاد ضد الموحدين، واحتشد الجميع في قلعة مجريط Madrid[1] ، فسار المنصور بجيشه نحوهما، ولما علما بذلك هربا يحملان فشلهما الى طليطلة، لعلهما يجدان مدخلا خلف اسوارها، ومن وراء الأسوار قاوما الحملة بشراسة اليائس، جعلت الخليفة يفك عنها الحصار، ويلتفت الى باقي المدن الأخرى، يحرق نواحيها، ويهدم اسوارها، ويتلف اقتصادها، فيجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، ثم يقتل رجالها ويسبي نساءها، ويجمع الأسرى منها الي حاضرة الاندلس سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م[٢].

استجاب الخليفة المنصور بعد غزوته الثالثة هذه لملك قشتالة وحلفائه، فعقد معهم معاهدة سلم مدتها خمس سنوات[٣].

يتبين أن الطرفين كليهما قد قدم للآخر فرصة ذهبية ثمينة، اذ كانت الاخطار آنذاك تحيط بملك قشتالة، خطر ملك ليون من جانب، ومضايقة ملك نبرة من ناحية أخرى[٤]. وأن الأخبار قد حملت انباء تمرد علي بن اسحاق بن غانية في افريقية[٥].

---

(١) مدريد: عاصمة اسبانية الحالية؛ ياقوت: المعجم، ج٥، ص: ٥٨؛
R. Altamira, Ahistory of spain, P. 155.

(٢) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٢٩؛
المراكشي: المعجب، ص: ١٤٧؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١٩٩، ٢٠٤؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٣٠؛ المقّري: نفح الطيب، ج٦، ص: ١٦٣. وقيل ان المنصور قد شدد الحصار على طليطلة وأرهقها، وضربها بالمجانيق حتى أشرفت على السقوط والاستسلام، فخرجت اليه والدة الفونسو، وبناته ونساؤه، وبكين بين يديه - لعلها دموع التماسيح - وسألنه أن يبقي عليهن وعلى مدينتهن، فرق لهن، ومن عليهن بها، وردهن مكرمات، وعاد الى حاضرته بالأندلس؛ المقّري: نفح الطيب، ج١، ص: ٤٢٥ - ٤٢٦.
أراني اشك بصحة الرواية التي ساقها المقّري، لأن المنصور الذي قتل بعض اخوته، واعمامه، وهم لحمة بيته، في سبيل المحافظة على الدولة قوية متماسكة. فهل من المقبول أن يضحي بمستقبل أمة أمام قطرات من دموع نساء اعدائه، بعد أن أوشكت عاصمة بني ذي النون المغتصبة على الرجوع الى حضيرة المسلمين؟.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٣٠؛ ابن عذاري: البيان، ق٣، ص: ٢٠٤؛ المقّري: النفح، ج٦، ص: ١٦٣.

(٤) J.F. Ocallaghan, Ahistory of medieval, Spain, P. 244.

(٥) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص: ٢٢٣؛
المقّري: النفح، ج٦، ص: ١٦٣.

ولربما كان يعتبر الموحدون أن افريقية أكثر هموما وجراحات من الأندلس، وأن ابن غانية، لعله كان أبلغ ضرراً بهم من نصاري اسبانية.

ولما انتهت مدة معاهدة الصلح المعقودة بين ملك قشتالة والموحدين، رأى الملك أنه لا زال بحاجة الي بعض الوقت لتصفية حساباته مع أمير نبرة، فبعث سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م في زمن الخليفة الناصر، وزيره الخاص ابراهيم بن الفخار اليهودي الى مراكش يحمل "رسالة في ربوط المهادنة والمصالحة" مدتها خمس سنوات أخرى"[١].

بعد هذه المعاهدة رأى الناصر أن يتخذ موقفاً صلباً إزاء بني غانية حكام جزيرة ميورقة، ويستأصل جذورهم، بعد المواقف الاستنزافية التي وقفوها حيال الموحدين طوال اربعين عاما مضت سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م، ونظراً لاحتمال مجابهة قوية جهز الاساطيل، واعد الجيوش، وشحنها بالرجال، ووضع على قيادة القوى البحرية عمه أبا العلاء ادريس بن يوسف، وعلى الجيش البري أبا سعيد عثمان بن أبي حفص أحد أشياخ الموحدين، وأمرهما بالانطلاق نحو الجزائر الشرقية، لاعادتها إلى حضيرة الدولة، فقصدا الجزيرة وفتحاها عنوة وقتلا اميرها عبدالله بن اسحاق، وسقطت الجزائر المذكورة بيد الموحدين[٢]

وبعد انقضاء مدة الصلح الأخيرة، لم يسع صاحب طليطلة ثانية لتجديدها عند انتهاء أجلها، ووجدت قشتالة فرصتها للانتقام من الموحدين بخاصة ومن المسلمين بعامة في أعقاب هزيمتها في الأرك، وراحت توجه إليهم الضربات الغادرة كلما تمكنت منها، متجاوزة في ذلك أعراف الجوار وقيم المعاهدات التي درجت عليها[٣]. فنهض ملك قشتالة بقواته وبفرسان قلعة رباح لغزوا الاندلس، فدمر الحقول، ونهب القرى، وضرب الضياع، وأهلك جموعاً كثيرة من المسلمين، وعاد بأعداد أخرى من السبي يحملهم الى بلاده، واستمرت هذه الغزوات الارهابية، بالتعاون مع ملكي نبرة (البرشلوني) وليون، وفرق العصابات الدينية، الى سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م[٤].

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٢١٨.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص: ٥٦٧؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٣٢؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٢١٦.

(٣) J. F. Ocallagghan, Ahistory of Medieval, spain, P, 245

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٢٣٥ - ٢٧٦.

٥- موقعة العقاب:

حملت الأنباء الى مسامع الناصر أخبار الاجتياحات التخريبية التي مارسها القشتاليون في أرض الأندلس، أثر موت يعقوب المنصور، فاهتز لفداحة الخطب، وصمم على الانتقام. ومن فوره بدأ بدعوة الجنود الاحتياطيين والمتطوعة، وطلب من جميع القبائل المغربية الانخراط في معركة اسبانية المرتقبة، وعبر البحر بجيش ضخم، واتخذ طريقه عبر طريف الى اشبيلية سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١١م(١).

ولما استقر في العاصمة الأندلسية راسله اكثر أمراء اسبانية النصرانية يطلبون وده وعفوه، وممن جاءه بنفسه مستجيراً ملك ببونة "ينبلونة" يقدم قومه مستسلماً خاضعاً مستصغراً يطلب صلحة، ويسأل منه عفوه وصفحه(٢).

لم يشأ الناصر انتظار خصومه، فغادر اشبيلية فوراً لاقتحام حصن "شلبطرة" المنيع(٣) Selvatierra ، في عملية تطويق مضنية قاربت العام تقريبا، نقصت فيها المؤن، واشتد البرد، وضعفت معنويات الجند، بعد أن أخذ منها اليأس كل مأخذ.(٤)

نشأ عن سقوط شلبطرّة رد فعل عنيف، لدى الامم النصرانية في الشمال، وعلى رأسها قشتالة، ورأت أن تتحرك لتوجيه ضربة ثأرية للقوات الاسلامية قبل أن يستفحل الخطر، وتجد هذه نفسها محاطة من كل مكان، اذ أن السكوت ازاء ما يحققه المسلمون من انتصارات، يعني فتح الطريق أمامهم لتغطية شبه الجزيرة كلها بدينهم، واكتساح مواقع الاسبان واحدة واحدة، سيما وأن بعض أمرائهم القوا السالح يجمحون اليهم مستجيرين لدى سماعهم بمغادرة الناصر المغرب، على رأس قواته صوب اسبانية، وكأني بزعماء النصرانية يقولون: "قد فرغ الناصر لنا، فلا نهاية له دوننا"(٥)

عند ذلك أرسل ملك قشتالة استنفاره لكل قوى النصرانية داخل شبه الجزيرة وخارجها، ووصل صدى صوته الى البابا أنوسان الثالث الذي لبى النداء ودعا جميع

---

(١) ابن ابي زرع: الانيس المطرب برضو القرطاس، ص: ٢٣٤، ٢٣٥؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ٢٢٠ - ٢٣٥.

(٢) المصادر نفسها؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٣٥.

(٣) شلبطرة: قلعة عظيمة في غاية المناعة، ومعناها الأرض البيضاء، تقع بالقرب من قلعة رباح، وعلى مقربة منها جرت معركة الأرك؛ المراكشي: المعجب، ص:٤٥٣.

(٤) ابن أبي ذرغ: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٣٧، المقّري: النفح، ق٣، ص:٢٣٨.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب، ق٣، ص:٢٤٠؛ الحميري: الروض، ص:٤١٦.

رعاياه من كافة البلدان الاوروبيه، بين جبال البرانيس، وشواطئ البحر الأسود لهذا الصريخ، وبخاصة أرسل صيحة إلى اولئك الذين فشلوا في حروبهم الصليبية في الشرق، وإلى الجموع التي كانت مولية وجهها جهة المشرق كذلك، ولم يكتف صاحب قشتالة بذلك، فأرسل مطران طليطلة عدداً كبيرا من رجال الدين إلى فرنسا وألمانيا "حتى بلغ نفيره إلى القسطنطينية" يبثون دعاية لحرب صليبية جديدة في اسبانية، مسوغا تجميع هذه الحشود من الامم الاوروبية لما راعه تقدم الموحدين صوب بلاده، فخشي ان تنال الاسبانيين هزيمة على يد الناصر محمد، مثل هزيمة الأرك منذ بضع عشرة سنة على يد أبيه المنصور يعقوب.(١)

فانتالوا على اسبانيه من كل حدب وصوب، حتى من بريطانيا وبلاد السام (الألمان)، تحدوهم عوامل التعصب والثأر، بالاضافة إلى جذب خيرات الأندلس وأموالها، فلهما اكبر الأثر في ذلك التجمع الضخم، وقد غصت بهم قشتالة، فكان اجتماعهم تمهيدا لوقعة العقاب، فتحركت هذه الجموع نحو قلعة رباح المنيعة Calarava بفرسانها السبعين.(٢)

وقد حرمت هذه من المساعدة، رغم صيحات جنودها المتكررة إلى أمير المؤمنين، فسلمها قائدها الشجاع أبو الحجاج بن قادس، مضحيا بالخسائر المادية لتوفير القوى البشرية الموجودة فيها إلى مهمة اكبر تنتظرهم، ويظهر لنا بجلاء مدى الواقعية التي يتمتع بها ابن قادس والحرص على الطاقة الانسانية الا تتبدد في غير مواضعها، وكان عند ظن اصحابه التمعت عبقريته القتالية في لحظة الامتحان الخطر هذه، فجعل هدفه أن ينسحب بالفئة القليلة من المسلمين وأن يجنبهم عملية إبادة شاملة هي الآن قاب قوسين أو أدنى منهم. فوجدناه يتحرك صوب الخروج من القلعة الى مكان جديد، الى مقر قيادة الخليفة وتجمع الجيوش الاسلامية لصياغة الطاقات قي اطار امكانات اعظم من امكانات سبعين فرداً تنتابهم المخاوف في الداخل، وتضغط عليهم قوى النصرانية المستجاشه من الخارج، ويستنزف طاقاتهم البناءة احكام الطوق عليهم بدلاً من ان تمضى هذه الطاقات في

---

(١) المصدر نفسه؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٢٢٠؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٦؛ المراكشي: المعجب، ص:٤٥٤، وهامش رقم ١.

(٢) قلعة رباح: حصن منيع احدثه الأمويون وسط الطريق بين قرطبة وطليطلة جنوبا؛ مجهول: الحلل الموشية، ص:١٦١؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٥؛ المراكشي: المعجب، ص:٤٥٤؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص:٢٣.

طريقها الصحيح، ومد الرجال السبعون، ابصارهم بوم خروجهم من الحصن، إلى جيوش النصرانية وكثافتها، فعرفوا آنذاك ان مقاومتهم وخروجهم سالمين قد أتت ثمارها، وأنهم قد صمدوا لأخطر محنة جابهوها طيلة حياة الكدح والمطاردة والحرب والكفاح، وليس هذا فحسب بل ان الفونس نفسه تعهد بحمايتهم حتى يصلوا إلى اخوانهم، ويتبين ان هؤلاء كانوا ممن تلقوا تدريبات خاصة. فلعب القائد الاندلسي- بهذه الورقه الرابحة، وهو العارف اكثر من غيره بنفوس الصليبيين، ليفرق جموعهم، وبالفعل حصل ما كان متوقعاً، حيث غادر كثير منهم الميدان، لما رأوا المسلمين يخرجون من القلعة آمنين تحت حماية ملك قشتالة، وقالوا لألفونسو:

"إنما جئت بنا لتفتح بنا البلاد، وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين، مالنا في صحبتك من حاجة"،[١] ولعل الفونسو، كان يرمي من وراء عمله الوقيعة بين المسلمين، توجه ابن قادس لمقابلة الخليفة لشرح الحال التي كما يبدو كان يخفيها عنه باستمرار مستشاره العسكري ابو سعيد بن جامع، حيث احتل هذا عند الناصر ثقلا سياسيا آنذاك، فإذا به كان نقطة الضعف في جيش الموحدين.[٢]

التقى الجيش الاسلامي جموع الصليبيين قرب حصن العقاب في سهل تولوزا Las Navas de Tolosaقرب أبّده[٣]، وكانت نهاية المعركة مأساوية، انتصاراً حاسماً لجيوش النصرانية على المسلمين، وهروب الناصر من أرض المعركة، يحمل تأوهاته وهمومه إلى

---

(١) المراكش: المعجب، ص:٤٥٦.

(٢) يذكر ابن أي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٣٨، أنه لما وصل ابن قادس وصحبه إلى معسكر الناصر، فرحب به الأندلسيون أجمل ترحيب، وفسروا عمله نصرا للأمة بانسحابه الوقائي، واعتبروه متحيزاً إلى فئة، وليس توليا، بينما الوزير ابن جامع عده خيانة للمسلمين، فقبض على ابن قادس وجماعته وقيدوهم بالحديد، وزين للناصر سوء فعلهم، ومنعهم من مقابلة الخليفة، وحكم عليهم بالاعدام قتلا على مرأى من الناس "فجمد الناس عند قتلهم، وحقدوا على محمد الناصر"، وهكذا تمرد جيش الاندلس، ولم يستل سيفا ولا رمحا في المعركة، وأسلم الناصر والمغاربة عموما إلى جلاديهم، وكانوا قد طردوا من ساحة المعركة على يد الناصر قبل بدئها؛ وذكر مثل ذلك، المقّري: النفح، ج٦، ص:١٦٤؛ ابن الخطيب: رقم الحلل، ص:٥٢.

(٣) العقاب: موضع بين جيان وقلعة رباح، وهو ليس علما على بلدة أو مدينة، وإنما هو اسم لهذه المعركة، نظرا لأنهاوقعت فعلا في عقاب (ج. عقبة)، وأوعار بجبال الشارات؛ الحميري: الروض المعطار، ص:٤١٦؛ مجهول: الحلل الموشية، ص:١٦١؛ المراكشي: المعجب، ص:٤٥٦، ٤٥٧؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٦؛ ابن عذاريك البيان المغرب، ق٣، ص:٢٤٠؛ ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٣٨-٢٤١.

مراكش، ليخترمه الأجل المحتوم، ويلاقـي مصـيره في مـؤامره دبرهـا لاغتيالـه كبـار رجال دولته سنة ٦١٠ـ/١٢١٢م.[١].

كانت هذه المعركة مؤشر النهاية للمغرب السياسي والعسكري والاقتصـادي، وقـد فرغ أوكاد أن يفرغ من القوى البشرية الشبابية المنتجة في كل المجـالات، ولعمـق هـذه المأساة وبعد أثرها، حقيق بنا أن نتساءل، لماذا هزم المسلمون؟ مع أن الناصر كان يتمتع بخلال تدل على عزم، وتصميم أبيه، كيف لا وهو من ولد في النعمة، وغذي بهـا، وشـب تحت خمائلها، وقد جاءته ملوك اسبانيه طائعة ذليلة، وأن الناصر كان واثقاً من النصر؛ يملك جيشاً يتفوق عددا وعدة، ويزيـد عـلى خمسـمائة الـف مقاتـل، حتـى ضـاق بهـم المتسع والنجد والغور[٢]. واستطاع أن يجند كل هـذه الحشـود عـلى الـرغم مـن همـوم افريقيه، اذ استغرقت منه وقتا طويلا، وربما كان فشل المواجهة راجعـاً لقـرارات النـاصر المزاجية المرتجلة غير القادرة على اختيار قادة ووزراء أكفاء، كالوزير أبي سعيد الذي كان يتعالى على أشراف الموحدين والأندلسيين، ويهين كبراءهم وقاداتهم، ويقرب أناسا ليسـوا من ذوي الكفاية والخبرة، فهذا رجل يدعى ابن منشا (منسـا)، كـان مغمـوراً وغـير ثقـة، استحوذ على مجلس الناصر[٣] واستبعد منه المخلصـين، وذوي السـمعة الطيبـة، فالقائـد أبو الحجاج ابن قادس، قد نالته التصفية في ظروف غامضة مما أغضب جميـع الجيـوش الأندلسية، كما ذكر سابقا.

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص:٢٠٧.
يذكر ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٤١، أن النـاصر مـات مسـموما، بـأمر مـن وزرائـه، دسوا اليه من سمه من جواريه في كأس من خمرة فمات من حينه، الحادي عشر من شـعبان سـنة ٦١٠هــ/ الثاني والعشرون من كانون الاول ١٢١٢م؛ ومثله قال ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٢٤٣، أما المعجب، ص:٤٥٩، يذكر أنه مات بسرطان الدماغ، (أصابته سكتة من ورم الدماغ)؛ بينما الحلل الموشية، ص:١٦١، يذكر أنه مات غما بمراكش؛ ويروي ابن خلكان عـن بعـض المغاربـة، أن النـاصر أوصى عبيـده المشـتغلين بحراسـة بستانه بمراكش، أن كل من ظهر لهم بالليل فهو مباح الدم لهـم، ثـم أراد أن يختـبر قـدر أمـره لهـم، فتنكـر وجعل يمشي في البستان ليلا، فعندما رأوه جعلوه غرضا لرماحهم، فجعل يقول: أنا الخليفة، أنا الخليفة، فـما تحققوه حتى هلك؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٧، ص:١٥، ويذكر الحمـيري: الـروض، ص:٤١٦؛ أن النـاصر مات بعضة كلب، أي اصابه داء الكلب ومات؛ ورغم كل الخلافات في سبب موت الناصر، فلربما كانـت عـلى الأرجح مؤامرة دبرت لاغتياله.

(٢) المقّري: نفح الطيب، ج١، ص:٤٢٧ذكر أن جيش الناصر بلغ ستمائة ألف في هذه الموقعة.

(٣) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٦٠-١٦١، ابن عذاري: البيان، ق٣، ص:٢٤٠، ٢٤١.

خاض أبو عبدالله مثل هذه المعركة، ولم يرضَ عنها كبار مستشاريه العسكريين؛ وكتب "إلى الشيخ ابي محمد بن أبي حفص يستثيره في الغزو فأبى عليه فخالفه"[١]، بالاضافة إلى حصار حصن شلبتره الشاهق، وقد استنفذ كثيراً من الجهد والوقت، وكان المنصور قد حاصر هذا الحصن قبله، فاستعصى عليه، ثم تركه شفقة على الجند، وخوفا عليهم من الهلاك.[٢]

كذلك لم يستطع الناصر استثمار انشقاق الجيش النصراني، اثر سقوط قلعة رباح، حيث انسحب حوالي خمسين الفا من خيرة الجند النصارى الوافدين، عائدين إلى بلادهم، بسبب حقدهم على الفونسو، لظنهم أنه حرمهم من غنائم القلعة، ومنعهم من البطش بالحامية الاسلامية التي غادرتها وقد بينا كيف اغضب الناصر الأندلسيين في الوقت الحرج، فجعلوا ينظرون إلى فرقة المتطوعة، وهي من أضخم الفرق العسكرية التي حضرت المعركة، مائة وستون الفا، دون أدنى حركة لمساعدتهم، مما يؤكد على مؤشر مهم، أن المسلمين دخلوا المعركة بنفوس منقبضة، ودون تحوط منهم، وعلى غير أهبة، وكانت تنقصهم الوحدة والتنظيم، فضلا عن افتقارهم للثقة بين مختلف قطاعات الجيش، وبعثرة اهدافه، ناهيك عن القرارات الاقتصادية التي انتهجها المستشار ابن جامع، وحرم منها الجند، ومنع عنهم الرواتب أكثر من أربعة أشهر على غير العادة، فغلت الاسعار، وقلت الأقوات.[٣] في الوقت نفسه كانت تسود الجانب النصراني الوحدة في القيادة، والتنظيم وحب الانتماء، وحسن الإدارة؛ وقد اختار ملك قشتالة زمان ومكان المعركة في أرض العدو[٤]

ولا يغيب عن البال أن اطلاق العدد الضخم من أسرى الأرك أربعة وعشرين الف فارس من زعماء اسبانية النصرانية على يد المنصور، وقد ندم على اطلاقهم، ولكن بعد فوات الاوان، ربما كان له أثر سلبي على حياة الناصر العسكرية[٥]، بالاضافة إلى أن انهزام الصليبيين في الشرق، كان كما يبدو على حساب الجبهة الأندلسية.

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٥؛ الناصري: الاستقصاء ج٢، ص:٢٢٠؛ المراكشي: المعجب، ص:٤٤٣.

(٢) المراكشي: المعجب، ص:٤٥٣؛ ابن عذاري: البيان المغرب الخاص بالموحدين، ص: ٢٣٩-٢٤٠.

(٣) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٣٧-٢٣٩؛ الحميري: الروض المعطار، ص:٤١٦.

(٤) J.f. O Call aghan, Ahistory of medieval, spain, p, 245-24

(٥) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٨٨؛ المقّري: انفح، ج١، ص: ٤٢٥، وقيل أن عدد الاسرى بلغ ثلاثون الفاً.

ولقد أظهرت المواقف أن الناصر ليس محاوراً سياسياً ضليعاً كما ويفتقر إلى صياغة التكييف الدبلوماسي الناجح، اذ عقد مع ملكي ليون ونا ار معاهدة حسن جوار، وتعاون عسكري، رغم أن العلاقات العسكرية الاسبانية طاغية آنذاك على ماسواها من مظاهر الود والتعاون، اذ (كان ابن اذفونش قد ناطر ابن عمه الببوج صاحب ليون في أن يوالي الناصر ويجر الهزيمة على المسلمين ففعل ذلك)[1]، وكان في المعركة ملك نا ار يقود الجناح الأيمن، بينما جنود ليون يؤلفون معظم القوى الاحتياطية المعدة في ساعة العسرة.[2]

يتبين ان الناصر لم يستفد من أخطاء جده وحنكة أبيه وتجاربه، إذ أرسل عدداً من جنده الأخيار باعمال حربية هامشية، وكان مستشاره ابن جامع سببا في اختلال التنظيم العسكري، واضطراب التنظيم في الجيش، وعدم تنظيم القياة العسكرية، مع عدم توزيع المسؤوليات. ورغم هذا وذاك، لم يشارك الناصر في المعركة ولم يشجع، بل ركن في قبته، ينظر إلى المعركة نظر المذهول، ثم لم يحاول تدارك الموقف، بل فر تجاه بياسة واشبيلية على فرس لأحد ضباطه العرب، يتجرع الهزيمة عائداً إلى عاصمة ملكه[3]

لهذا كان على الأندلس والحالة هذه ان تغرق في الدفاع عن نفسها بصبر وجلد ومعاناة، وسط هذه التيارات التي تحيط بها من كل جانب، وتبين أن موقعة العقاب اضحت منعطفا تاريخيا على قدر كبير من الأهمية، قد جنبت اسبانية النصرانية صولة الاسلام إلى امد غير منظور، على يد الحلفاء النصارى، والجموع الصليبية من اوروبا كافة، وحقيق عليها أن تضع الخيار الأندلسي موضوع الاختيار.

لم ينس المسلمون أن شبح الفناء عاد يلوح للأندلس قويا منذرا، وسرى هذا التوجس إلى كتاب العصر وشعرائه؛ واسطة الاعلام الوحيدة في ذلك الزمن. وما أبلغ ما قاله ابو اسحاق ابراهيم بن الدباغ الاشبيلي في موقعة العقاب، من الشعر، تعبيرا عن هذا التخوف.

ولا بد أن أذكر تأثر العدوتين بالآثار العسكرية والاقتصادية السابقة، وقد هزت البلاد، وابتليت بنقص من الأموال، والأنفس والثمرات، فروعته والقته في مضطرب من

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٣٦
(٢) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ٢٢١.
(٣) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القراطس، ص: ٢٣٨-٢٤٠.

الفوضى والارتباك؛ اذ انهارت الزراعة، وتعطلت التجارة، وفشت المجاعات، وتصحرت الأراضي وبارت، وخلت البلاد أو كادت من الايدي العاملة الفنية[1].

وهكذ كأنّ الارادة القوية شاءت أن يكبو المسلمون هذه الكبوة بعد سلسلة من الانتصارات التي حققوها قبل الأرك وبعدها لأن الانتصار الدائم يعرض الجماعة لنوع من اليقين الاعمى والاتكالية السالبة، ويحشر في صفوفهم الكثير الكثير من ضعاف الانتماء وطالبي المغانم، وهذا ما كان، فلا بد من هزة عنيفة تنخل المنتمين، وتسقط عنهم اولئك الذين لا يقدرون على الصمود ومجابهة الخطر وجها لوجه، وممارسة الموت بشرف، ولكن الهزة كانت عنيفة لم يحتملها الموحدون ولم تقو على مجابهتها مفاهيم التومرتية وحسهم في الانتماء والوجود.

٦. ثورات الشعب الاندلس في نهاية الدولة:

ليس من طبع المنهزمين عامة ونصارى اسبانيا على وجه الخصوص، أن يسكتوا على هزائمهم السابقة، وبخاصة هزيمة الأرك، وهم لا بد أن يسعوا معتمدين أي اسلوب لاسترداد مواقعهم ومصالحهم التي جردوا منها، ولهذا حدثت موقعة العقاب، فاشرأبت النصرانية كلها في اسبانية وخارجها، واصبح المسلمون (كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية)، لفقد زهرة شبابهم في تلك الهزيمة. ويقول كلاهان، وبعد الموقعة مباشرة اجتمع ملك ليون وملك قشتالة، وملك البرتغال، سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م، واتفق الملوك الثلاثة، وتعاهدوا على التعاون ضد المسلمين والاستيلاء على بلاد الأندلس جميعا أن أمكنهم ذلك. فبادر ملك ليون إلى احتلال مدينة القنطرة ذات الموقع الاستراتيجي الهام والمهيمن على أراضي وادي التاجة، وسلمها إلى فرقة فرسان القنطرة، التي ابلت بلاء حاسما، في وقيعة العقاب، حيث اتخذوها مركزا لجمعيتهم.[2]

وانطلق الفونسو الثامن ملك قشتالة على رأس عدد من أصحابه المنتصرين مستهدفاً الحصون القريبة؛ فرال، وبلج، وبانيوس، وتولوسا، وعمد الى بياسة وابده القريبتين من ميدان المعركة، فقتل رجالهما، وهدم البيوت، واشعل فيهما النيران[3]. ثم

(١) سعيد عاشور: التارخ السياسي، ج١، ص:٥٥١؛ الحميري: الروض المعطار، ص:٤١٦.

(٢) J.F. O'callaghan: Ahistory of medienval spain, P. 249.

(٣) R. Al tamira: Ahistory of spain, p., 165-166;
S.P. Scott: A history of the moorish empire, , 11, p, 339-340;
ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٤٠.

استولى النصارى على مدينتي بسطة (Baza) وباغو (Viseu) وما جاورهما من القرى والحصون، وسبوا النساء والاطفال، وقتلوا كل من بلغ الحلم من الرجال.[1].

وبعد موت الناصر تولى الخلافة ابنه يوسف المستنصر- أبو يعقوب، ولم يتجاوز عشرة اعوام، وقيل ستة عشرة عاماً، كان قليل الخبرة والتجربة، ومعرفة الامور، ولم يمتثل لأمره أحد، حتى كان كل والٍ يدير أمره بنفسه، منعزلاً عن غيره، ودون أخذ رأي السلطة المركزية في أي من الأمور، وانشغل أبو يعقوب عن تدبير الامر والجهاد بما يقتضيه الشباب، وقام أعمامه ومشيخة الموحدين بادارة الدولة نيابة عنه. فكانت أيامه كلها دعة وتواكل وهدنة، إذ رأت ملكة قشتالة أن تعقد معاهدة صلح وعدم اعتداء مع الموحدين سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م، فارسلت من قبلها ابراهيم بن الفخار الاسلامي (اليهودي الاصل) إلى مراكش، فاستقبله المستنصر، وعقد معه اتفاقية سلم وموادعة على جميع بلاد الموحدين بالاندلس على الشروط التي عدوها والعهود التي عقدوها، ثم وجه كتابين أحدهما إلى السيد أبي الربيع صاحب جيان والثاني للشيخ أبي العباس بن أبي حفص والي قرطبة، أمرهما بالتزام شروط الهدنة مع ملكة قشتالة فهدأت البلاد الاندلسية في هذه السنة من جهة المهادنة.[2]

وفي سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م، تجددت هدنة السلم والموادعة بين ولاة الأندلس من السادة الموحدين بأمر من أمير المؤمنين يوسف، وبين نصارى قشتالة، وكتب بذلك كتابا إلى ملكتهم يخبرها بالسلم الذي انعقد بينه وبين رسولهم، وطلب منهم المحافظة على الشروط المتفق عليها والوفاء بها، وأن يقفوا في وجه كل من يحاول نقض الهدنة، باختراق حدود المسلمين والتعرض بالأذى لأي من أفراد الرعية[3].

ومن الهزائم الكبار التي تقرب من هزيمة العقاب التي لحقت بالمسلمين في زمن يوسف المستنصر، كانت معركة قصر أبي دانس بغربي الأندلس سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م ، حيث خرج جيش نصراني على رأسه الفونسو الثاني ملك البرتغال وحاصر الحصن المذكور، ونقب الأرض من تحت الحصن، ودخل منه الجند، والناس في غفلة، وعلى غير اهبة. فنهد المسلمون بجيش اشبيلية وكتائب قرطبة وفرقة جيان، وبجنود من غرب الاندلس، بأمر من الخليفة لنجدة الحصن، غير أن محنة العقاب فوق هذا كله ليست بعيدة

---

(١) الحميري: الروض المعطار، ص:٤١٦.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص ٢٤٤؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٧.
(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٢٤٦.

عن الأذهان، وبدون تحوط منهم انهزمت الجيوش الاندلسية، ووقع فيهم القتل والاسر، واستولى البرتغاليون على الحصن، وجالت التصفية على كل من به من المسلمين.[1]

ومات المستنصر سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م، وخلفه عم أبيه عبدالواحد بن يوسف لمدة وجيزة؛ ثمانية اشهر، وبويع بعده عبدالله بن المنصور الملقب بالعادل في مدينة مرسية بالاندلس سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م، ولما تمت بيعته توجه منها إلى اشبيلية، وكان أخوه أبو العلاء المأمون، والياً على قرطبة، وعبدالله البياسي حاكماً لاشيلية، فبايعاه، واجتمع ثلاثتهم فيها، يتقبل طاعة أهل الاندلس؛ إذ بايعه أخوه أبو الحسن حاكم غرناطة، وأبو موسى والي مالقة، وامتنع عن بيعته حاكم بلنسية، ودانية وشاطبة السيد عبدالرحمن بن ادريس بن يوسف (أبو زيد البياسي)، وحاكم جزيرة شقر (Segura) أخي أبي دبوس[2].

وما ان علم السيد عبدالله البياسي حاكم قرطبة آنذاك، توقف أخيه السيد عبدالرحمن عن بيعة العادل، قام هو بانتفاضته ضد الخليفة سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م ببياسة وقرطبة وجيان وقيجاطة وحصون الثغر الاوسط، وتسمى بالبياسي لقيامه ببياسة. فبعث العادل أخاه ادريس ابا العلاء بجند كثيف حاصر بها بلنسية، فاذعن البياسي مرحلياً وبايع العادل، ثم انتقض بعد عودة ابي العلاء، واستنجد بالقشتاليين فأمدوه بعشرة آلاف فارس مقابل أن يتنازل لهم عن بياسة وقيجاطة، فدخل بهم عبدالله حصن باجه ولوشه وغيرهما من الحصون، واختلت الاحوال بالأندلس وعظم أمر البياسي، وكثرت غارات النصارى على مرسية واشبيلية والعادل مقيم بها، فغادرها إلى مراكش وولى أخاه أبا العلاء الاندلس مقيما في اشبيلية، وقام البياسي وحلفاؤه النصارى بالهجوم عليها، لكنهم خسروا المعركة أمام أبي العلاء وكتب إلى أخيه بذلك[3].

---

(١) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٤٢-٢٤٣؛ الحميري: الروض المعطار، ص:٤٧٥.

(٢) ابن عذاري: البين المغرب، ق٣، ص:٢٤٨-٢٤٩؛
ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٤٦؛ المقّري: نفح الطيب، ج٦، ص:١٦٥.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٢٤٩-٢٥٠؛ ويذهب ابن خلدون إلى ما ذهب اليه ابن عذاري؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٩؛ ٣٤٠؛ غير أن ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٤٦؛ يذكر أن الغلبة كانت للبياسي وحلفائه؛ إلا أني أميل إلى الرأي الأول، إذ لو كانت الغلبة للبياسي وحلفائه لدخلوا اشبيلية واحتلوها، لكن هذا لم يحصل في ذلك التاريخ.

غير أن الشعب الذي عانى كثيراً في قرطبة انقلبوا على البياسي وقتلوه وبعثوا برأسه إلى اشبيلية، ومن ثم بعثه بو العلاء إلى مراكش، سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م، وعادت بعض الحصون إلى حظيرة المسلمين[١]، لكنهم رغم ذلك ما استطاعوا التخلص من محنة العقاب، إذ بقيت عالقة في الاذهان، وجدار الخوف لم ينكسر، وبقيت النفوس على ضعفها وخذلانها تنتظر من يقدم لها الشفاء.

ولما تيقن أبو العلاء المأمون، باختلال أحوال أخيه العادل، ووقوعه في مأزق حرج، وأن الموحدين انقلبوا ضده؛ دعا لنفسه في اشبيلية وخلع طاعة أخيه، فبايعه الناس في جميع بلاد الاندلس وسبتة وطنجة من بلاد العدوة في الثاني من شوال سنة ٦٢٤هـ/٢٢٧م، وما ان رأى الموحدون تهافت أبناء عبدالمؤمن على الامارة، دخلوا القصر على العادل في ٢٢ شوال في السنة نفسها وطلبوا منه التنازل لأخيه المأمون فرفض، فجعلوا عمامته في عنقه، وخنقوه، ورأسه في وعاء ماء، وبايعوا المأمون، ثم نكثوا عهدهم، واعلنوا امارة يحيى ابن أخيه الناصر لصغر سنه خوفا من بطش الأول الذي استنجد بنصارى قشتالة ضد الموحدين، وأطمعهم بتنازلاته المهينة؛ إذ ولي الخلافة والبلاد تضطرم نارا قد نالها الخراب والفتن والقحط والغلاء الشديد، وانعدام الأمن، وقد سيطر العدو على أكثر بلاد المسلمين، فتحرك حاكم برشلونه إلى ميورقة، اثر مصيبة المسلمين في معركة العقاب، فنزل بساحتها باسطوله في شوال سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، وضرب عليها الحصار، وانزل بأهلها أنواع المصائب والمحن، وعانوا من شدة الحصار وسوء الحال ما لم ير مثله، ودخلها عنوة بحد السيف عام ٦٢٧هـ/٢٢٩م[٢].

ونتيجة لهذه المعاناة التي يعانيها المغرب، استبد بنو حفص بافريقية، ودخل بنو مرين المغرب، واستحوذوا على جميع بواديه[٣]، فقام اهل الاندلس بانتفاضاتهم؛ إذ توضح هذه تحدياً عنيفاً أخيراً لحكومة الموحدين المركزية، وكان ضعفها مدعاة لتنازع رجال السلطة فيها، وانهياراً للإدارة وتفككها، واختلالا للجيش، والغاء دوره كسلطة عسكرية ناجحة في حماية البلاد، وكذلك فقدان الاسطول حيويته، واهمال قواعده البحرية، بالاضافة إلى الجو المتشنج الذي خيم على الأندلسيين نتيجة الاضطهاد والتنكيل الذي حل بهم منذ ايام الناصر، قد عمق الهوه بين القطرين[٤]

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٢٥٢.
(٢) الحميري: الروض المعطار، ص:٦٦٨؛ المقري: نفح الطيب، ج٦، ص:٢٦١.
(٣) ابن ابي زرع: الأنيس لمطرب بروض القرطاس، ص:٢٥٠.
(٤) ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٣٨؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٢٢٢، ٢٢٣.

وعلاوة على ذلك أنهم حكموها -الأندلس- بنواب لهم، ولم يتخذوها مركزاً لسلطانهم، وجعلوها خارج دائرة الاستقطاب والتأثير في الأحداث المصيرية، تلك التي اخذت في الابتعاد نحو الجنوب، حيث انتقل الثقل السياسي والاقتصادي والعلمي، وربما كان من العسير أن تحكم الأندلس بهذه الكيفية. ثم الصراع القائم بين بني عبدالمؤمن، وقد أخذ اسلوبا دموياً منذ وفاة المستنصر مما شجع استعانة بعضهم بعدوهم التقليدي، النصارى، وهروب البعض الآخر والالتحاق بهم سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م[١]

اهتبل نصارى اسبانية حالة الضعف هذه، وضغطوا على الأراضي الاسلامية في وقت واحد؛ فأراجون من الشرق، والبرتغال من الغرب، وقشتالة تحيط بهم من الشمال، تعززهم حملة صليبية متقدمة من فرنساوانجلترا؛ اذ كان الموحدون قد عجزوا اثرمعركة العقاب من التصدي لهجمات تلك القوى المتحدة، ازاء هذه الاوضاع المتردية، جمع الاندلسيون كامل قواهم الذاتية، وقاموا بانتفاضة شعبية شاملة، ونادوا بتقرير مصيرهم بأنفسهم، وأعلنوا الثورة على الموحدين والاسبان في كل مكان وفي آن واحد، وسلموا زعامتهم إلى رجال من أبنائهم، كان أولهم ابن هود الذي تزعم الثورة سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧[٢]. وثانيهما أبو جميل زيان سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م[٣]، وآخرهم الثائر ابن نصر سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١[٤]. وتبين أن هؤلاء لم يكونوا على ما يبدو أهلا للقيادة والزعامة في تلك الظروف الحرجة، فثارت مدينة ابده بزعامة أبي جميل زيان عميد آل مردنيش في ذلك الوقت، على أبي زيد والي بلنسبه، وكان أبو جميل يومئذ وزيرا له، اذ احتل المدينة الأخيرة، ودعا للعباسيين لكي يكون حقيقا بالامارة وحاول أبو زيد محمد بن

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٩-٣٤١، ج٤، ص:٢١٦.

(٢) هو محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن أحمد بن سليمان بن المستعين بن محمد بن هود ثار بالصخيرات قرب قرطبه؛ ابن خلدون: العبر، ج٤، ص:٢١٥.

(٣) أبو جميل زيان بن أبي الحملات مدافع ابن الرئيس بن يوسف بن سعد بن مردنيش، فجده يوسف ابن سعد، أخومحمد بن سعد، أمير شرق الاندلس، أواخر عهد المرابطين، وأوائل حكم الموحدين الذين أسندوا إلى آل مردنيش امارة الولايات وقيادة الاساطيل؛ ابن صاحب الصلاة: المن، ص:٤٩٩.

(٤) ابن نصر: كان عميد اسرة بني نصر، محمد بن يوسف بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الانصاري، وعلى رأسها محمد الشيخ وأخوه اسماعيل، وينتهي نسبه إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج؛ ياقوت: المعجم، ج١، ص:١٥٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٢٧٩؛ ابن الخطيب: الاحاطة، ج٢، ص:٩٤راشيل أري تاريخ اسبانية الاسلامية، ص:٣٧.

أبي حفص بن عبدالمؤمن عبثاً استعادة مركزه فلم يفلح، فلجأ بعزم إلى ملك برشلونه طالباً مساعدته. وبالمناسبة يقول ابن خلدون: "فخرج أبو زيد من بلنسية ولحق بطاغية برشلونة ودخل في دين النصرانية"[١]

لقد انكر الدكتور حسين مؤنس على ابن خلدون هذا الرأي واستبعده بحجة أن مفارقة الدين في سن متأخرة لمثل هذا أمر غير يسير، وبخاصة من أمير موحدي مهما كان طبعه وسلوكه[٢].

ليس بعيداً أن يتنصر أمير مسلم، طالما رضي باللجوء إلى النصارى اعدائه التقليديين، والاستعانة بقواتهم، والوقوع تحت رحمتهم وطوع أمرهم، والحماس الديني يومئذ يمتلك مشاعرهم، ولطالما دفع الجزية، وسلم الحصون الاستراتيجية الحصينة ثمناً للمساعدة العسكرية العارضة[٣]، فأين هي الحمية الاسلامية التي يتحلى بهامثل هؤلاء؟ وبخاصة لم يكن تغيير المذاهب مقصورا على المسلمين وحدهم، بل كان متعارفا عليه بين الامم في تلك العصور.[٤]

وبعد أن ترك الموحدون الأندلس سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م. وقد وهى سلطانهم فيها وانحزم نظامهم وقد نشزت عليهم قبائل الأندلس، فواصل الشعب تمرده في الشرق بقيادة أبي جميل، فسيطر على دانية[٥] Denia ، وجنجالة[٦] Chinchilla وغيرها من حصون الشرق، لكنه تمهل قليلاً يحصن مواقعه، ويجهز قواته انتظاراً لما سيجلبه عليه ارتداد أبي

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص:٢١٦.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج١؛ ص: ٣٠٠- ٣٠١، تح حسين مؤنس.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(٤) قيل: أن ملك نا ار صاحب الامارة الصغيرة، قد اعتنق الاسلام، ليحصل على مساعدة عسكرية واقتصادية من الموحدين، لمحاربة ملك قشتالة وأراجون، ولم يحفل ببواعث الدين والشرف، أو يعبأ بوعيد البابا أنوسان الثالث؛
اشباخ: تاريخ الاندلس، ج٢، ص: ٩٨ ويذكر أن فرنانده Frnado Rodringues صهر الفونسو السابع VII Alfonsoوفد الى مراكش وطلب المساعدة من أمير المؤمنين وكاد أن يسلم سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٣٦٩.

(٥) دانية: مدينة أندلسية قرب بلنيه على شاطيء البحر شرقاً؛ ياقوت: المعجم: ج٢، ص: ٤٣٤؛ راشيل أرى: تاريخ اسبانية الاسلامية، ص: ٣٦.

(٦) جنجالة: مدينة بالأندلس بني شاطبة والبسيط؛ ياقوت: المعجم، ج٢، ص: ١٦٨.

زيد حاكم بلنسيه السابق، وكان هذا قد ترأس حملة صليبية معززة بعطف البابا، وبفرق الفرسان، وأعداد من الجند قد انهمرت على شبه الجزيرة من مختلف بلاد اوروبا، فاستنجد زيان بأبي زكريا الحفصي في تونس الذي أمده باسطول محمل بالمؤن والعتاد، لكنه لم يتمكن من النزول الى البر، وإيصال حمولته الى المسلمين، لأن القوات المعادية أحكمت الحصار البحري، واخيرا لم تستطع بلنسيه مواصلة القتال، فانهارت مستسلمة سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م.[١]

خرج أبو جميل من بلنسيه ومعه خمسون الفا من سكانها، نزلوا على جزيرة شقر[٢] ملجأهم المرحلي، حطوا فيها رحالهم في اقامتهم المؤقتة، وجدد زيان بيعته للحفصيين سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م،[٣] ومنها انكفأ راجعاً الى دانية، ومن هناك شن هجوماً عنيفاً على مرسية واقتحمها، وسيطر على شرق الأندلس باسم خلفاء تونس.[٤]

لم يهنأ طويلاً بهذا اللقب الأميري، وقد نازعه عليه ابن هود، وهو ثائر آخر اعترف بالحفصيين على منابر بلاده[٥]. ثم تابع زعيم شرق الأندلس رحلته القهقري الى القنت[٦] Alicante سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م، غير أنها سقطت بيد النصارى، فهجرها متوجها الى تونس، تاركاً الأمر لغريمه ابن هود[٧] الذي ثار باسم العباسيين، وتمكن خلالها من استعادة مناطق كثيرة من بينها مرسية التي لم تهنأ بالحرية أكثر من سنتين. غير أن هذا الزعيم عجز عن حماية وسط وغرب البلاد، وانهزم أمام النصارى، فخسر جميع ما أخذه من مدن وحصون، ولم يتردد عن تقديم الجزية لهم من قوت شعبه[٨].

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٨٨؛ ابن الآبار: الحلة السيراء، ج٢، ص: ٣٠٥، ٣٠٦.
(٢) شقر: جزيرة في شرق الأندلس؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص: ٣٥٤.
(٣) الحميري: الروض المعطار، ص: ٣٢، ٣٣؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٨٨.
(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٨٨.
(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٦) القنت: مدينة اندلسية تقع شرق الأندلس على ساحل البحر؛ ياقوت: المعجم، ج٥، ص:٢١.
R. Altamira, ahistory of, spain, p, 173.
(٧) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٨٩؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص: ٣٠٣، تح، د. شوقي ضيف، ط٢، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م؛
المقري: نفح الطيب، ج١، ص: ٢٠٣.
(٨) راشيل أرى: تاريخ اسبانية الاسلامية، ص: ٣٧؛
ابن خلدون: العبر، ج٤، ص: ٢١٥ - ٢١٨؛ ج٧، ص: ٢٥٢؛
ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٧٤.

كانت الأندلس في هذا الوقت ناراً تلظى ولهيباً تضطرم؛ فثورات الأندلسيين في كل مكان، وثوارها يتسلقون في جميع الجهات، وكل يدعي الامارة والزعامة، وحصونها تتهاوى تباعاً بيد الاسبان، وحاميات الموحدين المتبقية ضعيفة وعاجزة، لم تقوَ على التصدي، سواء للثوار أم للنصارى[١]. لذا بلغ الاضطراب عند الاندلسيين حدا جعلهم على مفترق عدة خيارات:

أما التنصر، هذا ما تأباه نفوسهم، وتستثقله كرامتهم، واما الخضوع للتعصب الصليبي فترة من الوقت، وهذا أكثر قساوة من الأولى، أذ سؤدي بالنتيجة عاجلاً أم آجلاً الى الخيار الأول، وإما الرحيل الي ما وراء البحار، حيث لا مأوى ولا قربى، وهذا على مرارته يظهر هو الخيار الأكثر قبولاً لشعب يبلغ تعداده الملايين[٢]. ومع انعدام الأمن ومعرفة المصير المجهول، وفشل المراهنة على ابن هود، لم يجد الشعب سبيلاً للخلاص مما هو فيه من المحن، سوى اعطاء القيادة لثأئر أخير، هو ابن نصر الذي تصدى للنصارى، وأعلن الثورة عليهم من حصنه أراجونةArjona [٣] مستعيناً بأقربائه، وبأصهاره من بني أشقيولة[٤]. فأعلنت بعض المدن ولاءها له، ودخلت في طاعته، مثل وادي آش، وبسطه، وشريش، وجيان، وقرطبة، وقرمونة، وتسمى بأمير المسلمين، وقدم ولاءه للحفصيين أولاً، ثم ارتد عنهم ودعا الى اسياد بغداد ثانياً، واستظل تحت رايتهم السوداء[٥].

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص: ٢١٥ - ٢١٩، ج٦، ص: ٣٩٢.

(٢) المصدر نفسه والصفحات نفسها؛
عادل بشتاوي: الاندلسيون المواركة، ص: ٨٥.

(٣) حصن منيع بالأندلس قريب من شنتمرية، وشمالي غرب جيان؛
ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ١٥٤، ١٤٤؛ المقّري: النفح، ج١، ص: ٢٠٤.

(٤) بنو أشقيولة، من رؤساء الاندلس وفرسانها، وهم أهل رياسة علي غرار بني الأحمر، ولهم ماض مجيد في مقارعة النصارى؛ منهم أبو محمد عبد الله حاكم مالقه، وزوج ابنة ابن الأحمر، وأبو اسحاق ابراهيم ابن أبي الحسن بن اشقيولة حاكم وادي آش وزوج أخت ابن الأحمر. كان هؤلاء وصوليين ؛ فكلما آنسوا ضعفا من ابن الأحمر تمردوا عليه، وانحازوا الى جانب بني مرين تارة، والى جانب اعدائهم تارة أخرى. وعلى ما يبدو أن أصلهم من مدينة اشقالية من اقليم بطليوس في غرب الأندلس، وتسمو بأسمها؛
ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص: ١٩٩، ج١، ص: ١٩٩؛ المقّري: نفح الطيب، ج١، ص: ٤٤٨؛
ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٢٥٩؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٧٥.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص: ٢١٨، ج٧، ص: ٢٥١؛
ابن ابي زرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٧٥.

أدرك ابن هود مدى الخطورة التي يشكلها عليه قيام ابن نصر وسيطرته على كثير من القواعد الاندلسية، واعتبره خارجاً عنه من ناحية، ومزاحما له حكم باقي الأندلس المشرذم من ناحية أخري.

غير أن ميزان القوى لم يبق مائلاً الى جانب ابن هود، فقد أوقع به عبد الله بن نصر ثلاث هزائم شهيرة، كان آخرها سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م[١]. ولما مات ابن هود سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م، اتسعت دولة ابن نصر، واحتل غرناطةGranada ، ودخلها دخول الفاتحين، بين أهازيج الشعب وترحيبهم، وطرد باقي الهوديين منها واتخذها عاصمة لدولته الفتية[٢].

فأخذ يضم المدن المتبقية؛ واستولى على المرية، وطرد محمد ابن الرميمي حاكمها الشرعي. وفي العام التالي أعلنت مالقة تبعيتها له[٣].

ثم رأى ابن نصر أن يقطع صلاته بالعباسيين، ويتجه نحو الرشيد خليفة الموحدين، ليحكم باسمه، ويكون تابعاً له سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م[٤]. ولما توفي الرشيد غرقاً سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م، قطع ابن نصر صلاته بالموحدين، بعد أن عجزوا عن مواصلة حروبهم في الاندلس، واتجه هذه المرة صوب الحفصيين في افريقية، لعله في تقلبه هذا بين المشرق والمغرب، يحصل على مساعدة مالية لمواجهة النصارى، فقدم ولاءه برسالة حملها ابو بكر بن عياش المالقي، وأبو جعفر التيزولي، الى الأمير أبي زكريا الحفصي، فتقبلها الأمير، وشكره، وأمد الاندلس بالأموال والمؤن اللازمة لمواصلة حروبهم ضد أعدائهم، واستمرت الامدادات الى حين وفاة أبي زكريا سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، عندها قطع ابن الأحمر صلاته بهم، وأنهى دور التبعية وأعلن الاستقلال، وتسمى بأمير المسلمين[٥].

ولما علم ابن نصر خضوع الحلفاء المسلمين بشرق الأندلس الى ملك قشتالة، إثر معاهدة إذلال، يؤدون بموجبها الجزية، ويقبلون مرابطة قوات نصرانية بأراضيهم، لضبط

(١) ابن الخطيب: اعمال الاعلام، ج٢، ص: ٢٧٩؛ المقّري: النفح، ج٦، ص: ٢٥٥.
(٢) ابن خلدون: العبر، ج٤، ص: ٢١٩، ج٧، ص: ٢٥١، ٢٥٢؛
ابن الخطيب: الاحاطة، ج٢، ص: ٩٨ - ٩٩؛ المقّري: النفح، ج٦، ص: ٢٥٥.
(٣) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٢، ص: ٤١٩؛ المقّري: نفح الطيب، ج١، ص: ٢٠٤.
راشيل أرى: تاريخ اسبانية الاسلامية، ص: ٣٧؛
(٤) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ٢٤٥.
(٥) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٩٥، ٣٩٦.

حركاتهم ومراقبتهم، وقع عليه هذا النبأ وقع الصاعقة، وشعر بنفسه وحيداً وسط قوى لا طاقة له بها، غير أنه حاول مسابقة الزمن، فحصن حدوده، وأعلن حالة التأهب القصوى في بلاده، لكن القشتاليين، كانوا من الحذر واليقظة، ففوتوا عليه كل استعداداته للتصدي لهم، فخارت قواه ولم يتجلد، وقدم بنفسه على رأس قواته لتهنئة ملك قشتالة في انتصاراته الساحقة على المسلمين[1]. ووقع معه معاهدة اذلال مماثلة، قدم بموجبها خضوعه التام له، واعتبر نفسه تابعاً له ومن عبيده المخلصين، فضلاً عن اداء جزية سنوية، مقدارها خمسون الف مثقال من الذهب، وتنازل له عن قلعة جيان ذلك الحصن المنيع الذي عجز القشتاليون عن احتلاله سابقاً بعد أن حاصروه مدة عشرة أشهر[2].

لقد تعرفنا على هذا الملك، وكان قد أثار معارك مع جيرانه، وإخوانه في العقيدة، وغدر بابن هود، وسيطر على مدن جيان وقرطبة واشبيلية وغرب الاندلس كله. ونصب نفسه وريثاً لحكام الاندلس السابقين، وهو الذي وضع يده بيد ابي زكريا الحفصي- أمير افريقية، واصبح من اتباعه[3].

ولعل الذهول ينتابنا عندما نرى هذه الدبلوماسية الفاشلة والملفتة للنظر تختبيء وراء هذا الرجل الانتهازي الذي رأيناه يتقلب في ولائه بين الشرق والغرب، وأخيراً يرتمي بين احضان ملك قشتالة فرديناند، ويلتمس مه أن يقبله تابعاً من اتباعه في مجلس الكورتيس القشتالي اسوة بغيره من حكام الجزيرة سنة ٦٤٣هـ/ ١١٤٥م[4].

---

(١) الحلفاء المسلمون هم: حكام لقنت، واريولة، والحامة، ولييط، وعقيقة، وجنجالة، ما عدا حاكم لورقة عزيز بن عبد الملك بن خطاب أبي أن يدخل في هذه المعاهدة المهينة.
اشباخ: تاريخ الاندلس في عهد المرابطين الموحدين، ج٢، ص: ١٨٧ - ١٩٣.

(٢) ابن خلدون: ج٤، ص: ٢١٩؛
المصدر نفسه، ج٦، ص: ٣٨٥، ٣٩٤؛ المقّري: النفح، ج١، ص: ٤٢٩.

(٣) بن خلدون: ج٤، ص: ٢١٩؛
المصدر نفسه، ج٦، ص: ٣٨٥، ٣٩٤؛ المقّري: النفح، ج١، ص: ٤٢٩.

(٤) R. Altamira, ahistory of, spain, p. 173'
ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ٣٦٧.



الفصل الثالث

الحيـاة الاقتصاديـة

تمهيـد:

شهد المغرب في عهد عاهل المرابطين "يوسف بن تاشفين" وصدر من أيام ابنه السلطان علي، خير أيامه رخاء وطمأنينة وعدلا[1]

ولما اندلعت الحرب الاهلية بين لمتونة والموحدين في فترة علي بن يوسف، انقسم الشعب ازاءها فرقا متعادية، تفشت بينه البطاله، وحل الحزن والأسى محل البهجة والصفاء، وعم الخوف والفزع، وانتشر اللصوص، وقطاع الطرق، فكثر النهب والسلب في سائر الجهات[2]

ثم انتهى الصراع باستيلاء عبدالمؤمن على مراكش سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م، وغياب لمتونة عن المسرح السياسي طويلا حتى ظهرت ثانية متجسمة في ثورة ابن غانية، التي كلفت الدولة كثيرا من الجهد والايلام.

فلم يكن سقوط مراكش نهاية الأحزان، وانقطاع الاضطرابات، بل لم يخلد الشعب الى السكينة والهدوء، وبدا دوره عنيفا قويا، وعرف عبدالمؤمن ان الطريق الى قطف ثمار النصر مازال طويلا وشاقا ومملوءا بالالغام، ومزروعا بالاشواك، فهبت رياح الثورة عليه من كل مكان، حتى لم يبق تحت سلطنه سوى مراكش، وفاس تلك الثائرة.[3]

فاستعد عبدالمؤمن للنطاع، وهو رجل الدولة الجدي والمسؤول، ومعه الإرادة القوية لبناء دولة جديدة ومتطورة، وهو الواثق من حسم الأمور بالشكل الايجابي، من خلال جهازه العسكري القوي، وقائد جيوشه الشيخ أبي حفص الهنتاني، وقد اتخذ قراره، اذ زحفت جنوده الى مكمن الخطر الحقيقي في الجنوب، وتصدى لها الهنتاني يعزم، واستطاع السيطرة على الموقف سنة ٥٤٢هـ/١١٤٨م، وتفرغ لجيوب الثورات المتبقية التي نتجت عنها، وأخمد لهيبها الذي بقي يشتد إلى سنة ٥٤٩هـ/١١٥٥م كما مر سابقاً.

فيكون الشعب المغربي قد عاش حياة قلقة نحو أربعة وثلاثين عاما منذ بداية حركة المهدي سنة ٥١٥هـ/١١٢١م، اذ لم ينعم خلالها بالأمن والرخاء[4]، ومن ثم اخذت حياة الشعب في الاستقرار، وأمنه في الاستتباب، وبدأ الاقتصاد في الانتعاش، وأحوال الناس

---

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص:٨٢، ٨٣.

(٢) المراكشي: المعجب: ، ص:٢٦١، ٢٧٣، ٢٨٣.

(٣) ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٩٠.

(٤) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٢٣.

في تحسن باطراد، ولم تتعدّ موارد البلاد المالية في بادئ الامر منهج ابن تومرت الذي اقره في جباية الاموال الضرورية. وتجنب ارهاق الأهلين؛ فقد قنع بجمع الزكاة، وتحصيل الأعشار، وأخماس الغنائم المحققة من الحرب، ومن التوسعات جهة افريقية، وما تحت الصحراء، ونحو البلاد النصرانية. ثم اتجهت الدولة كما اريد لها الى الاتساع والتضخم، لتشمل المغرب الاقصى والاوسط، علاوة على المغرب الأدنى. ثم بدأت تحتك بالأندلس، وتقف على أطول خط للنار، لتبدأ مرحلة الجهاد على جناحي الدولة[١].

لمست السلطة في مهدية بني عبيد والشمال الاسباني تصميما نصرانيا قويا، ذا ابعاد سياسة خطيرة تعود إلى ما قبل الفتح الاسلامي للمغرب العربي، فاهتز عبدالمؤمن لهذه النوايا التوسعية المتشبثة بعناد تابعيهم محمد بن سعد بن مردنيش، وصهره بن همشك[٢].

ثم ادرك أنه لا محيد عن القوة العسكرية القاهرة لايقاف الحرب النصرانية عند حدها، وأن ليس من سبيل إلى القوة المنشودة بغير المال الوفير والمستمر الذي يستند على نظام مالي يوفر انتاجاً مطردا. وإلا كيف تتمكن الحكومة من الشروع ببناء المنشآت الحربية؛ من قلاع وحصون، وتزويد الجيوش الجرارة بمختلف أنواع الأسلحة، وإمداد المقاتلين بالاقوات والنفقات؟ أصحيح أن مالية أساسها الزكوات والاعشار وأخماس الغنائم، وهذه الأخيرة لا يكون لجمعها سوى نتائج احتمالية، تفي بهذا كله؟

لذا لم تكن جدية المصادر المعاصرة في بحثها للحياة الاقتصادية في المغرب والأندلس، بالقدر الذي عالجت به الحوادث السياسية، وما تخللها من حروب، مع العناية إلى حد ما، أثر ذلك على الحياة نفسها، ورغم هذا ان جناحي الدولة المؤمنية، الأندلس والمغرب قد تبادلا المنتجات الزراعية والصناعية وكان تردد القوافل والمراكب التجارية بينهما لم يفتر طوال الوقت عن طريق التجارة الصامتة أحياناً[٣] وهذه المعلومات تتصف

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣- الخاص بالموحدين، ص:٤٠.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) يقول ياقوت: "يسافر التجار من سجلماسه إلى مدينة من حدود السودان يقال لها غانة، وجهازهم الملح وعقد خشب الصنوبر، وخرز الزجاج الأزرق، وأسورة نحاس أحمر، وحلق وخواتم نحاس لا غير ويحملون منها الجمال الوافرة القوية اوقارها... فإذا وصلوا ضربوا طبولا معهم عظيمة تسمع من الافق الذي يسامت هذا النصف من السودان.. فاذا علم التجار انهم قد سمعوا الطبل أخرجوا ما صحبهم من البضائع المذكورة، فوضع كل تاجر ما يخصه من ذلك، كل صنف على جهة ويذهبون عن الموضع مرحلة، فيأتي السودان ومعهم التبر فيضعون الى جانب كل صنف منها مقدارا من التبر، وينصرفون ثم يأتي التجار بعدهم فيأخذ كل واحد ما وجد بجنب بضاعته من التبر، ويتركون البضائع وينصرفون بعد ان يضربوا طبولهم".
ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص:١٢، ١٣؛ ج٤، ص:١٤٨.

بالشمولية، وعدم التركيز في معظم الأحيان، اذ أن أثر المصادر التي بحثت في هذه الأمور، إما سابقة على عصر الموحدين كالبكري والادريسي مثلا، وإما لاحقة كابن الخطيب والحميري وابن عذاري.

رغم ذلك فالحكم الموحدي قد تميز بسعي عبد المؤمن وخلفائه من بعده بمركزية الجهاز الحكومي في المغرب والأندلس، لا تموله موارد التجارة الكبرى والزكاة والأعشار وأخماس الغنائم فحسب، بل فرضت ضرائب منتظمة أساسها الإنتاج الزراعي.

ظهرت اهمية التجديدات التي جاء بها الموحدون بصفة خاصة على صعيد الضرائب؛ فقد فرض عبدالمؤمن ضريبة الخراج على أراضي المغرب والأندلس؛ اذ أصدر أوامره الى عماله في جميع المناطق، مستندا إلى فتوى شرعية أقرها الفقهاء، وهي أنه قد فتح البلاد بالسيف، أن يمسحوا الاراضي الواقعة بين حدود مصر شرقا إلى بلاد نول من السوس الأقصى غربا، ومن حدود الصحراء جنوبا الى بلاد الشارات في اسبانية شمالاً، ويفرضوا عليها الخراج، ويلزموا كل قبيلة بقسطها من الزرع والمال، بالاضافة إلى أعداد وافرة من الجند بأنواعها، ما عدا أراضي القبائل التي ساهمت في تأسيس الدولة، وأراضي العرب الهلالية، اذ انيطت بها جباية هذه الضرائب، بعد أن استثنى ثلثها مقابل الجبال والفيافي والانهار والسباخ والطرقات والغابات، وشمل هذا النظام الضرائبي مباني المدن أيضا ووجوهاً أخرى كثيرة تحصل الدولة بموجبها على الاموال.(١)

---

(١) استند عبد المؤمن في فرض الخراج الى فتوى دينية تسمح له التوسع بجمع المال؛ فأفتى علماء المغرب الموحدون، بأن عبدالمؤمن قد فتح المغرب الكبير بالسيف، ومن هنا جاز له أن يفرض الخراج على مملكته تيمنا بأرض السواد بالعراق زمن الخليفة عمر بن الخطاب، على الرغم من الفارق بين الفتحين، علما أن علماء المغرب الموحدين لم يأخذوا بالتقليد، وقالوا نأخذ بكتاب الله وسنة رسوله، ونجتهد رأينا. فلذلك وطبقا للمصالح المرسلة على المذهب المالكي جاز لعبد المؤمن ذلك.

فالمصالح التي لم يقم دليل من الشارع على اعتبارها أو الغائها، هي المصالح المرسلة، هي التي لم يشرع الشارع أحكاما لتحقيقها، ولم يقم دليل معين على اعتبارها أو الغائها، وهنا نسأل: هل يجوز تشريع الحكم لتحقيق مثل هذا النوع من المصالح؟ قال جمهورالعلماء بالايجاب، فكل واقعة ليس فيها نص ولا اجماع ولا قياس ولا استحسان، وفيها مصلحة للناس يجوز للمجتهد ايجاد الحكم المناسب لتحقيق هذه المصلحة. وهذا المصدر يتسع للاحداث المستجدة والوقائع المتطورة، ويجعل الفقه مرنا ناميا لا يقف عند حدود، ولا يتحجر أو يضيق، أمام مصلحة حقيقية لم يأت الشارع بحكم لها. وكانت حجة الموحدين في هذا، أنه يجمع الأموال للجهاد في سبيل الله.

د. عبدالكريم زيدان: المدخل لدراسة الشريعة الاسلامية، بحث المصالح المرسلة، ص:٢٠٢-٢٠٣، مكتبة القدس، مؤسسة الرسالة، ط١، بغداد، العراق، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م الا أن الناصري يتحفظ إزاء هذه الفتوى، ويقول:

فهو -أي عبدالمؤمن- أول من أحدث ذلك بالمغرب (عفا الله عنه) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٣٩.

وهكذا وللمرة الأولى سجلت الأراضي في ديوان الخراج[1] اذ زودت خزينة الدولة بجزء كبير من الفائض المالي، وتمكنت الحكومة من تحقيق مشروعاتها الداخلية والخارجية، من بناء مصانع وتمهيد طريق وتمويل جيش وتوسيع دائرة الحرب.[2]

ثم أخذ عبد المؤمن في تطبيق نهج الموحدين؛ من مصادرة لأموال اليهود والنصارى الذين رفضوا الاسلام دينا، مجانبين قراره الذي اصدره بخصوص ذلك. ولقد ابقى الموحدون اولاً الضرائب المفروضه على أهل الاندلس. كما كانت قبلا، منها الضرائب القانونية، واتاوات غير عادية، ويمكن ان تتغير كميات الأخيرة من سنة إلى أخرى، ومن الضرائب الاضافية؛ ضريبة الرؤوس (على الأفراد)، اذ يتحتم أن يدفعها المكلف كل شهر، ثم ضريبة على دواب الجر وقطعان الماشية وعلى المناحل والكرمة والزيتون والزبيب وضريبة المونة (وهي في الأساس ضريبة اضافية يجعلها الوالي عندما لم تكن تكفي الضريبة العادية)، وضريبة (الفطرة) وهي عادة ضريبة يدفعها المسلم الصائم للفقراء، وضرائب على العمليات التجارية في السوق، وقد فرضت ضرائب اخرى اضافية اواسط القرن السادس الهجري، على أية مناسبة أو عيد، في حين كان الحاكم يعفي الأهالي من بعض الضرائب احيانا، اذا رغب في كسب شعبيتهم.[3]

وهذه الضرائب كانت تخضع في غالبيتها الى تقدير الوالي أو نوابه في بداية دولة الموحدين، وكانت تسجل على اسم كل مزارع في سجلات خاصة، ويقبض هذه الاتاوات جباة، يذهبون الى الأماكن مصحوبين بقضاة محليين، (رؤساء الفرق)، يجبون ما هو مخصص للادارة المالية، وكان لكل مقاطعة جابٍ خاص بها، ولم تكن له صلاحيات محددة على الاطلاق. لذلك رأينا الشعب يشكو من تعسف هؤلاء الولاة، اذ كثيرا ما كانوا يحاسبون من قبل السلطة التي تلغي بعض هذه القبالات احياناً.[4]

---

(١) ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٩٨، ١٩٩؛ المراكشي: المعجب، ص:٣٧٠؛
Rachel Arie: Historia DE Espana. Page, 75.

(٢) المراكشي: المعجب، ص:٣٧٠، ٣٧١.

(٣) Ravhel Arie: Historia De Espana, Page, 74-75.
المصدر نفسه، ٧٩.

(٤) Ravhel Arie: Historia De Espana, Page, 74-75.
المصدر نفسه، ٧٩.

١- الزراعــة:

أخضع عبد المؤمن الأرض زراعة وانتاجا إلى سيطرة الدولة، لذلك لم يبق شبر واحد مـن الأرض الصالحة للزراعة، الا وأصبح من المحتم عـلى المـزارع أن يسـتغله تحـت نظـر السـلطة وتوجيهها وإشرافها المباشر، لتعطي أكبر طاقة انتاجيـة ممكنـة لأرض هـي مـن أخصـب بقـاع العالم، وأطيبها تربة، وأكثرها أنهاراً دائمة الجريان.[١]

وأهتم عبد المؤمن باستصلاح الأرض وغرسها بمختلف انواع الفاكهة، فقد استقدم الأمير المهندس أحمد بن ملحان، ملك وادي آشى، وقد التجأ اليه فرارا من ابن مـردنيش- الـذي قـام بانشاء البستان الكبير في مراكش، ثم غرسـه بـأنواع الـثمار والفاكهـة الأندلسـية، مـما لم تكـن معروفة حينئذ بالمغرب، فلما اكتمل البستان، ونضجت ثماره، وكان مصـدرا هامـا مـن مصـادر الاقتصاد بالبلاد، مما جعل امير المؤمنين يقوم بتهيئة أراضٍ أخرى وغرسها[٢].

وحذا حذوه خليفته أبو يعقـوب يوسـف، اذ اهـتم بغراسـة البسـاتين؛ فأنشـأ الجنـات المعروشات في أغمات ومراكش وغيرها من المدن، وقام بتخزين المياه اللازمـة لهـا في صـهاريج ضخمة، وعلى أثره جاء ابنه يعقوب الذي أحدث بستانا طوله اثنا عشر ميلا في مراكش، وأكـثر فيه من اشـجار النـارنج والريـاحين والليمـون، فضـلا عـن اعـمار أراضي فـاس بـأنواع الفاكهـة والزيتون، وكان لها من محاصيل التمر والتـين والعنـب والرمـان، والسـفرجل والبطـيخ الشيـء الكثير[٣].

وكان للخلفـاء الموحـدين الفضـل في تقريـب وتشـجيع المهندسـين المـبرزين بالمسـاحة والفلاحة، مثل: محمد بن المعلم، وابو القاسم أحمد بن محمد الحـوفي القـاضي[٤]، وابـو بكـر

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:٣٧٠، ٥١١، ٥١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص:٢٩٤.

(٣) حسن علي: الحياة الادارية والاقتصادية، ص:٢٧٧، ٢٧٨؛ الحميري: الروض المعطـار، ص:٤٣٥، ٥٤٤، ٤٦، ٣٠٥-٥٤١.

(٤) وابو القاسم أحمد بن محمد الحوفي القاضي: هو أحمد بن محمد بن خلف بن عبد العزيز القلعي المعروف بالحوفي، الفقيه الإشبيلي المشهور، وقد كان تلميذ ابن العـربي، تـولى قضـاء إشـبيلية بعـد أبي بكـر الغـافقي، وتخصص في العقود والمواريث وكتب فيها كتاباً مشهوراً، توفي في شعبان سنة ٥٨٨هـ
ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص: ٤٦٥، هـامش ١، منقـول عـن التكملـة (نشرـ ابـن شـنب) رقـم ٢٢٧- التكملة، نشر العطار رقم ٥٩٢. ابن فرحون: الديباج المذهب، ص: ٥٤.

محمد بن يحيى الحذاء[1]، وتألق نجم هؤلاء في مدة بني عبدالمؤمن، واليهم يعود الفضل في تنفيذ كل المشاريع الهامة، وبخاصة الاقتصادية منها.[2]

وكان الخليفة الناصر يختلف دائما إلى بساتينه بمراكش، ولشدة محافظته عليها من العبث، واهتمامه بها من التعدي، عين عليها حراسا دائمين ليلا مع نهار.[3]

وقد اولع ابنه المستنصر بتربية المواشي وتكثيرها، اذ عمل على تحسين نسلها من الأنواع الجيدة، وإهلاك الرديء منها، فكان يؤتى اليه بأصناف البقر المحسّن من الأندلس، ويرسلها إلى الحظائر المعدة لذلك في بساتين مراكش.[4]

وقد استكثر الرشيد بن المأمون من غرس الرياض، وإنشاء البساتين في عاصمته[5].

لم يكن الخلفاء وحدهم أكثر الحاحا في احياء الاراضي وغرسها، بل سار على هديهم حكام المقاطعات، فهذا الوالي محمد بن عبدالله بن واجاج، قد عمر مكناسة بشجر الزيتون، اذ اصبح ثمره اسما مميزاً لها (مكناسة الزيتون)، وملأ أراضيها بغيضات الثمار والكروم والجنات والزروع، وأحدث بها ملوك بني عبدالمؤمن بحيرات عظيمة الاتساع، جلبت اليها المياه من النهر في شرقها التي بنيت عليه النواعير (الأرحا) لرفع المياه.[6]

واهتم الموحدون باعمار اراضي جبل طارق الصخرية بالزراعة واستنبات الكروم والبساتين، حيث جمعت مياه الينابيع من سفح الجبل، واجري جدول يصب في خزانات ضخمة لري أراضيه، ثم سربت للجبل واشبيلية المياه العذبة في قنوات فخارية تحت الأرض [7].

---

(١) هو محمد بن يحيى بن محمد بن متوكل التميمي من أهل إشبيلية وأصله من قرطبة ويعرف بابن الحذاء، وهو من بيت أبي عمر القاضي يكنى أبا بكر. روى عن أبي محمد بن عتاب وكان موثقاً، أخذ عنه أبو علي الشلوبين توفي سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص: ٤٦٥، هامش ٢، منقول عن التكملة (كوديرا) رقم ٨٨١. ابن فرحون: الديباج، ص: ٣٠٢، ٣٠٣.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٣٨-١٣٩، ١٤٣، ٤٦٤، ٤٦٩.

(٣) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٢٥؛
B, Meaking: The moorish empire, pp, 84-85.

(٤) ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٢٨.

(٥) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٢٤٦.

(٦) الجميري: الروض المعطار، ص:٥٤١.

(٧) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٣٧-١٤١، ٤٦٥-٤٦٩؛
الحميري: الروض المعطار، ص:٣٨٢.

هكذا كانت الزراعة مزدهرة في سهول المغرب سواء منها الساحلية والداخلية، وفي التلال القريبة من الجبال، وقد كانت الزراعة-في الجزء الأكبر منها- زراعة بعليه، بينما انتشرت الزراعة المروية في المناطق التي يتوفر الماء فيها عند حدود جبال الأطلس، كما في أغمات أو في الواحات المتسعة على امتداد نهري زيز ودرعة[1]، حيث تكثر انواع من الثمر لا يشبه بعضه بعضا، مثل الرطب ذات الانواع المختلفة، منها الاسود والبني والاخضر جداً، وتفوق حلاوتها كل حلاوة، وتنتشر غلات القطن والكمون والكراويا والحناء والاعناب والنخيل والزيتون وغيرها.[2]

وقد بنى يعقوب المنصور ساقية معلقة لحمل الماء من أحد الأودية الى سهل البحيرة في ضواحي مراكش[3].

وهكذا لاحظنا تنوع الانتاج وكثرته في المغرب، فهو ينتج الغلال والزيتون، منها ما يستعمل للتغذية والانارة والعلاج، بالاضافة إلى المزروعات الصناعية؛ وأهمها قصب السكر في نواحي مراكش وسوس، والقطن في جهات سجلماسة، ويستنبت الحنا في أراضي درعة، وغيرها من النباتات التي تستخرج منها الاصباغ.[4]

ولم يكن هذا الازدهار الزراعي خاصا بالمغرب فقط، بل استفادت منه أيضاً سهول المغرب الكبير والأندلس، حيث تمتد فيها أراضٍ واسعة تلائم زراعة الخضار والحبوب والاشجار المثمرة، وذلك لوفرة المياه التي تحملها الأنهار الكثيرة دائمة الجريان، فضلا عن توفر مناخ ملائم للفلاحة عموما، وقد عرف أهل الأندلس كيف يستفيدون من هذه الظروف الطبيعية المناسبة لجعل أراضيهم على درجة عالية من الخصب والعطاء، وبخاصة في ظل حكم الموحدين الذي حقق للبلاد على جانبي المضيق استقرارا سياسيا، وحرية اجتماعية، طالما افتقدتهما ابان الفتنة الثانية، حيث ازدهر انتاج الزعفران في أراضي بياسة

---

(١) زنيبر: تاريخ العصر الوسيط، ص:٢٣٢؛
نهر زيز: نهر يقع قرب سجلماسة، ويروي أراضيها الواسعة في جنوب المغرب؛
الحميري: الروض المعطار، ص:٣٠٦.
نهر درعة: نهر كبير قرب مدينة درعة في جنوب المغرب، يجري من الشرق نحو الغرب؛
الحميري: الروض المعطار، ص:٢٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ص:٣٠٥.

(٣) ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢١٨، ٢٦٩.

(٤) الحميري: الروض المعطار، ص:٢٣٥.

الذي كان يصدر منه بكميات وافرة إلى داخل الأندلس، وإلى الخارج عن طريق البر والبحر[١]، ومدينة جيان القريبة، كانت كثيرة الخصب وافرة اللحوم والعسل والحبوب والغلال[٢]. واهتمت اشبيلية بزراعة الزيتون وعصره والتين القوطي والشعري، وهما صنفان لا يوجدان في أقطار الدنيا الا بها، مما جعل من اليسير تصدير انتاجها حتى بلغ الاسكندرية[٣]، وكما في بياسة واشبيلية ازدهرت غرناطة بالبساتين والكروم والمتنزهات؛ حيث توزع النهر فيها على مساحات شاسعة عبر أحوازها، وكذا مدينة مالقة التي جمعت بين منظر البحر والبر بالكروم المتصلة، اذ لا نكاد نرى قسماً من الارض فيها دون استنبات أو غرس، وبما حوته ارضها ذات المسافات الشاسعة من شجر التين والكرمة وغيرها، حتى قيل في ثمرها حينما أشرف أحد الظرفاء على الموت، قال له اصحابه : "أسأل ربك المغفرة، فرفع يديه وقال: يا رب، أسألك من جميع ما في الجنة، خمر مالقة وزبيبيّ اشبيلية".[٤]

وامتازت قرطبه بكثرة سهولها التي تمتد أحوازها شرقا لتصاقب حدود جيّان، وتنتهي غربا لتحاذي احواز اشبيلية، وتأخذ في الجوف ستين ميلا، كلها تشتهر بأنوع مختارة من الغلال، فضلا عن جبالها التي تزينت بأنواع نادرة من الورود[٥].

وتوصل الاندلسيون إلى عملية تركيب النباتات لتنويعه وتكثيره، واهتدوا إلى استخراج المياه الجوفية، لتتوافق مع التطوير الزراعي، وتحسين السلالات الانتاجية التي ابتدعوها[٦].

وتطورت الزرعة، وازدهرت، وتنوعت في بلاد الموحدين في العدوتين كلتيهما، اذ نشأت في الأندلس دراسات عن التربة والمياه والاسمدة، فظهرت تقنيات الحراثة والبستنة وزراعة الاشجار الحرجية وأشجار الزينة، فضلاً عن تقنيات علم الحيوان الذي المعنا اليه سابقا. وقد أحيا الموحدون الأراضي الموات في الاندلس، وأصبحت بجهودهم مورقة

---

(١) المقّري: نفح الطيب، ج٤، ص:٢٠٧.
(٢) الحميري: الروض، ص:١٨٣.
(٣) المقّري: النغم، ج٤، ص:٢٠٢.
(٤) المقّري: نفح الطيب، ج٤، ص:٢٠٩؛ Rachel Arie: His toria DEp ana,p. 224
(٥) المصدر نفسه، ص:٢٠٦؛ الحميري: الروض، ص:٤٥٨.
(٦) ابن سعيد: المعزب في حلى المغرب، ج٢، ص:٩؛ المقّري: تفح الطبيب، ج٤، ص:١٥٠.

ومعطاءة، وأن غنى التربة هذه، ووفرة المياه فيها، وخصب السهول التي منحتها الطبيعة الى المدن الأندلسية جعلتها وسط حزام من الحدائق والمناطق المخضرة، وبخاصة السهول الواقعة على أعتاب جبل سيرانفادا Siera Nevada ، حتى تجاورت البيوت والمزارع مرصوصة في تناسق وتناغم رائع، فبدت سهولها كالمنحل لا مكان فيها لموطئ قدم واحد دون زرع.[١].

وقد انتشرت غابات الزيتون على عهد الموحدين كما كانت زمن بني امية بل أكثر في سهول قرطبة واشبيلية متوغلة في سلسلة الجبال الى المغرب منها، وفي لورقة ومالقة وغيرها، وكان بالاستطاعة أن تقول: أن منطقة خودار(شوذر) Jodar الى الجنوب من ابدة، كانت بالتأكيد ابان القرن الثاني عشر الميلادي/السادس الهجري، بلد احتياطي الزيت في الأندلس، وتصدر الفائض منه الى المغرب والشرق[٢]. وحيثما انتشرت هذه المزارع، شاع استعمال معاصر الزيت (وهي عبارة عن برغي من حديد أو خشب وأدوات اخرى) ومنها اشتقت الكلمة الاسبانية Almazarra (المعصرة).

ولقد فرق عرب الأندلس زمن الموحدين بين الأراضي البعلية والمروية في الزراعة، اذ كان يزرع في الاولى القمح والشعير والكرمة في استجة ولورقة والحمة والمرية وغرناطة وأن الغلال كانت تختلف كثرة وقلة، حسب موسم نزول الأمطار، وعندما يقل المحصول، كان يجلبه الموحدون من أراضي المغرب، ولذا قد شاع استعمال صوامع تحت الأرض لتخزين فائض القمح. أما في الأراضي المروية، كانت تستنبت البقوليات، كالفاصولياء والفول والحمص الغذاء االأساسي لسكان الأندلس، وأن غنى التربة هذه كان سبباً وراء تنوع المحاصيل الحقلية، وانتشار الزراعة الحثيثة في اسبانية المسلمة (الحواكير)، فتواجدت في الأندلس الطواحين المائية والنواعير، مقامة على حواف الأنهار، على طول الوادي الكبير؛ قرب قرطبة، والمنطقة الواقعة في المياه الواطئة من اشبيلية، وذكر أن هناك أكثر من ثلاثمائة طاحونة تدار بالماء في داخل أسوار غرناطة وخارجها فقط، فضلا عن الطواحين التي تدار بواسطة الريح، وهذا بفضل التقنية الزراعية التي برع فيها المهندسون الزراعيون الأندلسيون[٣]، والتي ربما ورثوها عن أنظمة الري الرومانية، وطوروا هذه الابداعات، اذ كانت تعتمد على السواقي (القنوات)، وعلى الاختلاف في مستويات الأرض، حتى

---

(١) Rachel Arie: Historia DE Espana, Page, 222-224.

(٢) المصدر نفسه والصفحات نفسها؛ المقّري: نفح الطيب، ج٢، ٢٠٢-٢٠٩.

(٣) أمثال الاستاذ المهندس الزراعي ابن باسة وغيره..Rachel Arie: Historia DE Espana, page, 220

أصبحت جهداً عربياً خالصاً، وهذا التطابق كان بادياً، ما بين نواعير الأندلس ومراكش، والتي ما زالت تعمل على شواطىء العاصي في سوريا والفرات في العراق[١]. وربما انتقل نظام الري هذا الى الأندلس والى الشمال الاسباني، اذ لم تكن الزراعة ممكنة في بعض الأودية بدون هذه النواعير التي هي عجلات وعوارض خشبية تتحرك بواسطة شلالات المياه، وكذلك عجلات تتحرك بواسطة الجمال أو الخيل او غيره، وكانت هذه الأجهزة تضخ المياة في برك كبيرة، ومن ثم يمكن جرها الى الحقول، وإلى مزارع القمح أحياناً[٢]، وهذا الازدهار الزراعي قد عاد على خزينة الدولة بفائض كبير من المال.

٢- الصناعة:

نهض الموحدون بالصناعة التي توفرت لها المواد الخام المنتشرة في أنحاء المملكة الواسعة من مختلف المعادن، اذ عمد عاهل المغرب الى تكليف المتخصصين باستخراجها من مناجمها والانتفاع بها، للنهوض باقتصاديات البلاد، ولم يتوان ملوك بني عبد المؤمن عن دعم آلاف الصناعات النسيجية والمعدنية والورقية والزيوت النباتية، والصابون والدباغة التي أنتجت صنوف الحقائب والأحذية، ثم صناعة الصباغة والزجاج والحبر، هذا عدا عن ثلاثة آلاف طاحونة تطحن بالطاقة المائية بفاس وحدها كما مر آنفاً. والأرحا الطاحنة في جيان تحتشد على أبواب البيوت[٣].

ولقد حاكى الموحدون في صناعاتهم الفنية والزخرفية من كان قبلهم، فأخذ الناس فيها ينشطون في ابداعاتهم الفنية، على الرغم من تداول الحكم بين الأسر الحاكمة وتعاقبها في تسلم السلطة، ولا أدل على ذلك من انتشار الفنون المعدنية في أرض الموحدين في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وبخاصة تلك الصفائح الذهبية التي تغطي المصراعين الخشبيين في جامع اشبيلية (كاتدرائية اشبيلية في الوقت الحاضر)، وتتوالى داخل البناء زخارف نباتية، وخطوط كوفية تتردد فيها عبارة (الملك لله)[٤]، وربما توصل المغاربة الى صناعة الصوف الصخري[٥]، والانسجة القطنية، اذ جاء

---

(١) Rachel Arie: Historia DE Espana, page, 223-225.
(٢) المصدر نفسه والصفحات نفسها.
(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٥٠٥؛ الحميري: الروض، ص: ١٨٣.
(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٧٨.
(٥) الحميري: الروض المعطار، ص: ٢٣٦، وقيل أنه يوجد بوادي درعة حجارة تسمى (تامطغيت) تحك باليد فتلين الى أن تصبح في قوام الكتان، فتصنع منها الحبال، وتغزل وتنسج منها مناديل لا تؤثر فيها النار، مثل السمندل: وهذا نسيج من ريش بعض الطيور لا يخترق؛ المعجم الوسيط، ج١، ص: ٤٥٤.

في المصادر الاسبانية أن القطن ينتقى بكل عناية لينشرـ في الشـمس عـلى سـطوح المنازل قبل نسجه[١].

وإلى مصنوعات الأندلس ينتهي الابداع، فانتشرت مقاطع الرخام الأبيض والخمري والمجـزع، وذات الألـوان بـين الأحمـر والأصـفر، وبخاصـة في مـدينتي قرطبـة وغرناطـة، واشتهرت الأخيرة باللباس الملبد ذي الألوان المتطورة النادرة[٢].

كما ازدهرت على عهد بني عبد المؤمن، صناعات المريـة ومالقـة ومرسـية وجبـان وبلنسية بانتاج الحرير النادر الموش بالذهب الخالص[٣]

وتخصصـت بلنسـية بصـناعة النسـيج البلنسيـ الـذي يصـدر الى أقطـار المغـرب العربي[٤]، كما وأنتجت لورقة وحدها حجر اللازورد الفريد من نوعه[٥]. وابتكرت اشبيلية ومرسية صناعة الأسرة المرصعة، وحصرها غاية في الأناقة وفيهـا السـجاد الملـون، والآلات الحديدية والنحاسـية والمعدنيـة والفولاذيـة والذهبيـة، كالسـكاكين والمقصـات المذهبـة وغيرها، وكان يتم تصديرها الى البلاد الافريقية[٦].

أما مدينة المرية فلها قصب السبق في الصناعات النسيجية والحريريـة اذ تحتـوي مصانعها على آلاف الأنوال؛ ففيها ثمانمائة نول لتطريز الحريـر وحـده، والـف نـول لكـل صنف من أصناف الحلل واللباس والديباج الفاخر وغـيره، وكانـت قـد أبـدعت وجارتهـا الثغرية مالقة في صناعة الفخار المطـلي بالـذهب، والزجـاج والـزليج المفضـض، اذ يقـوم مقام الفسيقساء في الشرق، هذا فضلا عن أصباغ الأمنان القرمزية ذات الألـوان الحمـراء الناصعة، وحتى حصى المرية، كان من النـادر وجـوده، فـلا يتواجـد في مدينـة غيرهـا، في رونقه وبهائه الذي ينعكس على صفحة مائة بألوانه الزاهية العجيبة[٧].

---

(١) Rachel Arie: Historia DE Espana, P. 224.

(٢) المقّري: نفح الطيب، ج١، ص: ١٦١.

(٣) المقّري: نفح الطيب، ج١، ص: ٢٠٧، ٢٠٩؛ واختصت جبان بتربيـة دودة الحريـر، ولهـا أزيـد مـن ثـلاث آلاف قرية كلها تعتني بدودة الحرير؛ الحميري: الروض، ص: ١٨٣.

(٤) ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص: ٢٩٧؛ اللمقري: ج٤، ص: ٢١٠.

(٥) المقّري: نفح الطيب، ج٤، ص: ١٦١.

(٦) المصدر نفسه، ج٤، ص: ١٩٠؛ ج١، ص: ١٩١
ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص: ٢٤٥-٢٤٦.

(٧) ابن سعيد؛ المغـرب، ج٢، ص: ١٩٣، ج١، ص: ٤٢٤؛ المقّـري: الـنفح، ج٤، ص: ٢١٠؛ ج١، ص: ٢١٦، ١٩٠، ١٥٧؛ ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ١٧٣.

واستمر الخزف غير المموه الوافد من الشرق يصنع في دولـة بنـي عبـد المـؤمن[1]. بقى الموحدون يستعملون هذا النوع من النسيج المذهب واللبـاس مـن الحريـر الممـوّه بالذهب، وأنواع الجواهر واليواقيت والأحجار الكريمة[2]. وكانت تمدهم بهـا دور الطـراز المنتشرة بمرسية وبلنسية وغرناطـة ومالقـة كـما ذكرنـا سـابقاً[3]. وأحـدثوا عـدة مصـانع لانتاجها في المدن المغربيـة، وكانـت مـن الكـثرة، حيـث احصـيت دور الطـراز في مدينـة واحدة، فنافت على الثلاثة آلاف[4] تنتج مختلف أنـواع الـديباج مـن الملابـس الحريريـة والقطنية والكتانية[5].

رغم التقدم الفني والبذخ الذي عاشه الأندلسيون، لم تنس مدنهم زمن الموحدين، أنها تعيش حالة حرب مستمرة، لذلك اقيمت الصناعات الحربية في مدن العدوتين لانتاج الأسلحة، من أسهم ورماح وسيوف، وابتكرت المصانع الحربية المدافع القاذفة التي تقذف الكرات الحديدية الملتهبة[6]. وازدهرت دورا لصناعة وانتاج سفن الأساطيل الحربية وسفن النقل لحمل المحاربين وأسلحتهم وتموينهم في قصر معمورة قرب طنجة[7]، إذ كان مركزاً لانتاج المراكب وصنع الحراقات لنقل المسافرين الى الأندلس[8] وانتجت دور الصناعة في المغرب والأندلس أساطيل من اربعمائة قطعة بحرية مختلفة نشرها عبد المؤمن على امتداد الثغور في العدوتين، استعدادا منه لخوض معركة بحرية مصيرية مع الاسبان، كان يخطط لها في الأندلس[9]، ففي أماكن استحداث دور الصناعة رابطت مائة وعشرون

---

(١) توريس بالباس: الفن المرابطي الموحدي، ص: ٦١.
(٢) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ١٧٣.
(٣) المقّري: نفح الطيب، ج٤، ص: ٢١٠.
(٤) الناصري: الاستقصا، ج٢، ص: ١٩٩. كانت فاس وحدها تمتلك ثلاثة آلاف دار للطراز.
(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص: ١٣٤، ١٣٥، ١٣٩.
(٦) أشباخ: تاريخ الأندلس، ج٢، ص: ٢٤٤-٢٤٧.
(٧) قصر مصمودة أو قصر المجاز، أو القصر الصغير: بناه أحد زعماء قبيلة، مصمودة قرب طنجة؛ أيام طارق بـن زياد، وهو حصن على شاطىء البحر، على رأس المجاز الأقرب الى الأندلس، يبعد عـن سـبتة اثنـا عشرـ مـيلا، تقابله مدينة طريف Tarife في العدوة المقابلة من اسبانية، ويبعد عن طنجة عشرون ميلا.
ياقوت: المعجم، ج٤، ص: ٣٦٤؛ الحميري: الروض، ص: ٤٦٧؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٢٩.
(٨) الجزنائي: زهرة الآس، ص: ٦٨، تر، العزديل، الجزائر، ١٣٤٢هـ ١٩٢٣م.
(٩) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٨.

قطعة من هذه الأساطيل على سواحل مدينة المهدية[1]، ومائة وعشرون في مينائها الرئيسي المجاور، وفي قواعد طنجة وسبتة وقادس، مائة سفينة حربية، وفي القواعد الريفية المطلة على اسبانية مائة قطعة، وفي موانىء افريقية (تونس) ووهران، مائة قطعة بحرية، وفي مراكز الأندلس البحرية ثمانون قطعة، هذا فضلا عن أن الطاقة الانتاجية لمصانع الأسهم وحدها كانت عشرة كنتالات يومياً، وكان العمل بها لا يهدأ ساعة من ليل أو نهار[2]. وابتنى عبد المؤمن مصانع اخرى الى الشرق من فاس، عند ملتقى وادي فاس بنهر سبو، لانتاج القوارب والسفن الصغيرة الصالحة للسير في النهر الأخير تعزيزاً للأساطيل عند توجهها الى افريقية، واهتم الى جانب ذلك بوسائل الدفاع الساحلية للحيلولة دون تقدم الأعداء النصارى والنزول الى السواحل المغربية، فأنشأ القلاع والرباطات- ذات الأبراج التي تشعل النار على قممها، وينتشر الدخان منها نهاراً لإنذار الشعب في حالة وقوع هجوم مباغت ليكون يقظاً وعلى تعبئة تامة، فضلا عن صناعة الطبول الكبيرة للغرض نفسه- كرباط (تيط) جنوب مدينة الجديدة، وغيرها.

واهتمت أجهزة التصنيع العسكري بربط مدينة الرباط وسلا بجسر من السفن المشدودة بالسلاسل عبر وادي (أبي الرقراق)، عليه ألواح خشبية، لتكون ممراً للجيش ومعداته المتجهة الى اسبانية، وابتنت جسراً على وادي اشبيلية (الوادي الكبير) من السفن لاستخدامه للغرض نفسه، ونقل الجيوش المتجهة الى غرب البلاد، وحضر الخليفة افتتاح هذا الانجاز الهندسي الحربي الضخم في سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، وأمر ببناء مصنع للسفن في هذه المدينة[3].

غير أن قمة الصناعات العسكرية الهامة التي توجت أعمال عبد المؤمن وخلدت ذكراه، هي تلك المدينة البحرية الحصينة التي بناها على سفح جبل طارق سنة

---

(١) تقع مدينة المهدية: الى الغرب من مدينة القنيطرة الحالية (شمال شرق الرباط)، عند مصب نهر سبو في البحر المتوسط؛
ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٠١، وقد قمت بنفسي بزيارة هذه المدينة عام ١٩٧٧/١٣٩٧م وعاينت مصب نهر سبو في البحر.

(٢) جغلول: مقدمات في تاريخ المغرب والأندلس، ص: ٦٥؛ الكنتال يساوي القنطار ويساوي مائتين وخمسين كيلوغراما؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٤٣.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢١٨-٢٢٨، ٤٥٠، ٤٨١؛ ابن خلون: العبر، ج٦، ص: ٣٢٣.

٥٥٥هـ/١١٦٠م، وأطلق عليها اسم مدينة الفتح[١]، وأشرف على بناء هذه القلعة الاستراتيجية (العسكرية) السيد أبو سعيد عثمان، والي غرناطة، إذ وظف لاتمام هذا المشروع الصناعي مئات من الفعلة والبنائين الأندلسيين المهرة، كما تابع تنفيذ البناء فريق من المهندسين المشهورين، أمثال الحاج يعيش المهندس، برئاسة كبير المهندسين أحمد بن باسة، اللذين أحدثا الانشاءات العسكرية في هذا الجبل وفي غيره من المشروعات العمرانية الأخرى، تشهد لهما بالبراعة والابداع، كما تشهد لعصر الموحدين بالتقدم الحضاري والنبوغ العلمي[٢].

٣- الحركة التجارية:

اهتم عبد المؤمن بالتجارة الداخلية أولا، فسهل التعامل بين أبناء شعبه، بأن جزأ السكة، وضرب الدرهم، ونصفه وربعه، وثمنه، ثم "الحزاريب"[٣]، وتشجيعاً منه أعفى التجارة من الضرائب المقررة وأخضعها للدولة، بأن راقب موازينها وجودتها، وعين رجال الحسبة الذين كانوا يسهرون ليلا مع نهار يجوبون الأسواق، ويضبطون الأسعار.

أما التجارة الخارجية، فنالت القسط الأوفر من اهتمامه، فقد نشطها، ووضع لها الأنظمة، وعقد من أجلها المعاهدات التجارية، مع مدن ساحل المتوسط كالبندقية وجنوه وبيزة ومرسيليا، واستطاع أن يوائم بين فئة كبار التجار "الارستقراطية التجارية" المتناقضة مع "الارستقراطية القبلية"، برباط مصلحة وغير عدائي، يتوخى مصلحة الدولة في آن واحد، فالأخيرة مشاركة في التجارة الخارجية، والاولى صاحبة المشاركة في التجارة نفسها، ومشيدة المزارع الكبرى حول المدن بأموالها الخاصة[٤].

كانت العوائق تحول دون حرية النشاط التجاري بين شطري الدولة، لكن بلاد الموحدين رغم ذلك ظلت تحتفظ بالرخاء في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة عبر

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٣١٠؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٥؛ الاستقصاء: الناصري، ج٢، ص: ١٤٠.

(٢) الحاج يعيش المهندس: هو الذي صنع في أعلى الجبل (جبل طارق) أول رحى تدار بواسطة الريح لطحن الأقوات، وكانت قبلا تدارالطواحين في العصور الوسطى بالماء؛
ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٤٢، ٤٦٧- ٤٦٩، ٤٧٤؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٤٥، ١٥٥.

(٣) الحزاريب: صرف النقود؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣٠٢.

(٤) جغلول: تاريخ المغرب العربي الوسيط، ص: ٧٨-٧٩.

سجلماسة، مروراً بطريق الذهب الى بلاد السنغال الذي استمر عامرا، في حين تعطلت باقي الطرق الصحراوية الأخرى[1]. واستمرت منتجات المدن الأندلسية تتدفق على المغرب، وتصدر اليها الأخشاب والحبوب والكتان، مما حدا بالموحدين أن يزيدوا في عيار الدينار الموحدي (رفع سعر العملة). وقد نشطت حركة المراكب التجارية بين العدوتين، تحمل الغلال والطعام من المغرب، وتعود بأنواع الفواكة والقطن وزيت الزيتون من اشبيلية الى ميناء سلا، فضلا عن المنسوجات اليلنسية وأدوات الزينة من المرية[2].

تطورت طرق التجارة شمال جنوب وشرق غرب، وقام المغاربة بدور الوسطاء من اقليم السودان في الجنوب، يحملون الذهب والقمح، ويعودون بمنتوجات الأندلس الصناعية ومحاصيلهم التي يحملها المغاربة في طريق العودة من المغرب، كالزجاج والفخار والرخام والملابس الحريرية المذهبة والصناعات المعدنية، يجلبها الأندلسيون من مدينة مالقة الى المغرب[3].

هذا بالاضافة الى اللحوم الحمراء من الأبقار وبعض الحيوانات البرية الأخرى، إذ يزودون بها عدوة المغرب، عن طريق مدينة فاس، ذات النشاط التجاري الهام، وإليها يشد التجار رحالهم، وفيها ينزلون لكثرة انتاجها الصناعي، ومصارفها المختلفة التي أصبح فيها لكل أهل بلد وإقليم منزل ومتجر ومصرف[4]. ويقول المراكشي- "ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج الى شيء يجلب اليها من غيرها-الا ما كان من القطن الهندي- سوى مدينة فاس، فإنها لا تحتاج الى مدينة في شيء مما تدعو اليه الضرورة"[5].

أما تجارتهم شرق غرب، كان الموحدون وسطاء للتجارة بين المشرق الاسلامي والمغرب، اذ شهدت الحركة التجارية في عهد الخلفاء الموحدين ازدهارا واضحاً لم تعرفه البلاد منذ سنين طويلة: فكانت كل من الاسكندرية وتونس قاعدتين هامتين ارتكزت عليهما التجارة الى الشرق؛ فموقع الاسكندرية المتميز على البحر، ومن الطرف الغربي لفرع رشيد، مكنها لأن تكون حلقة وصل بين مصر وصحراء المغرب الشمالي وأقطاره

---

(١) ارشيبا لدلويس: القوى البحرية والتجارية، ص: ٣٨٦-٣٨٧.
(٢) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص: ١٩٣.
(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٥٠٥؛ المقّري: النفح، ج٢، ص: ٦٨؛ ابن سعيد: المقرب في حلى المغرب، ص: ٤٢٣-٤٢٤.
(٤) حسن علي: الحياة الادارية والاقتصادية، ص: ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٠٥.
(٥) المراكشي: المعجب، ص: ٥٠٥، ٥٠٦.

الساحلية، حيث يمر الطريق القديم الذي يصل بين أقصى المغرب (من سجلماسة في الجنوب الى فاس وتازة في الشمال)، عبر افريقية الى تونس، ثم طرابلس الى الاسكندرية، والى الجنوب الشرقي، فالطريق الرئيس المؤدي الى الحجاز.

وتونس المدينة الموحدية بموقعها الساحلي المتوسط، كانت منفذاً رئيسا أيضا للطريق البري السابق، وبحكم هذا الموقع غدت تونس مركز استقطاب هام، سياسي واقتصادي معاً[١]. وإذا كان البحر المتوسط قد اصبح نتيجة لظهور الاسلام، حداً فاصلا بين الشرق والغرب ثقافياً وسياسياً، فإنه لم يكن كذلك في مجال التجارة والتعامل الاقتصادي اللذين احتفظا بنشاطهما في مياهه ومراسيه[٢].

كما كانت مدينة المرية ثغراً هاماً، تحط وتنطلق منها المراكب التجارية الدولية، فلم يكن في بلاد الموحدين أكثر مالا من أهل المرية، ولا أعظم تجارة، ولا أرحب تخزيناً حيث كان بها من الحمامات الوفيرة والفنادق لاستقبال التجار من مختلف الاقطار، نحو الألف فندق، يأتيها رزقها زعداً من كل مكان، فنعمت بهذا الموقع التجاري الهام[٣].

ومن المدن الافريقية التي ازدهرت تجارتها تلمسان مع وفرة الانتاج من الغلال وأنواع الفواكه، مع رخص الأسعار، فقصدها التجار من سائر الاقطار، مما أدى الى ثراء أهلها، ووفرة أموالهم. وقد قيل أنه لم يكن في بلاد المغرب بعد أغمات وفاس أكثر من أهل تلسمان أموالاً، ولا أرفه حالاً[٤].

ومما ساعد على ازدياد التبادل التجاري بين قطري الدولة، هو إعادة الأمن والاستقرار الى تلك الربوع، ويقول ابن أبي زرع "فكانت الظعينة تخرج من بلاد نول من بلاد السوس حتى تصل برقة شرقا وحدها، لا ترى من يعارضها ولا من يكلمها"[٥]. مما زاد الصناعة تألقا والزراعة بركة[٦]. لذلك نشطت المراكب رواحا وغدوا بين مدن العدوتين (المغرب والأندلس)، ثم بين تونس وسوسة، وعنابة، وتنيس، ووهران من جهة، وبلاد الشام عبر الاسكندرية من جهة أخرى، وكانت الطرق التجارية سالكة بين

---

(١) عثمان الكعاك: العلاقة بين تونس وايران عبر التاريخ، ص: ٣٢، تونس، ١٩٧٢م/١٣٩٢هـ
(٢) H. Pirenne, op, eit, p. 14.
(٣) المقّري: نفح الطيب، ص: ١٥٧.
(٤) عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج٢، ص: ٢٣٣-٢٣٤.
(٥) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢١٧.
(٦) أندريه جوليان: تاريخ افريقية الشمالية، ج٢، ص: ١٥٩-١٦٠.

المرية-مالقة والاسكندرية-طرابلس من ناحية ثانية، ولم ينس تجار الأندلس أسواق بونة مما جعل مدينة المنستير التونسية سوقاً سنوية كبيرة يتزاحم عليها التجار من جهات عديدة[١].

واشتهرت مدينة بجاية بتجارة الرقيق بنوعيه الأبيض والأسود مما أغرى اسحاق بن غانية أن يملأ أجفانه (سفنه) في رحلاته المكوكية من هؤلاء العبيد، لاستخدامهم في الجندية وخدما في القصور، وعمالا لفلاحة الأرض[٢].

أما في ما يخص الحركة التجارية بين الموحدين ونصارى اسبانيا فثمة تحذيرات مشددة صدرت من الطرفين كليهما الى رعاياهما تحظر التعامل التجاري مع الطرف الآخر تحت طائلة القانون، فقد أصدرت السلطة الاسلامية قرارات متعددة في ما يخص بيع المواد الغذائية والخيل والعتاد الحربي والرقيق الى النصارى[٣]، وقابلهم ملوك اسبانيا بالمثل؛ إذ حظروا على رعاياهم الاتجار مع المسلمين خلال عصر الموحدين، وخاصة ما يتعلق بالثياب وأنواع الطعام والرقيق والحبال والأخشاب والحديد، وتشدد الضغط على المقاطعة الاقتصادية والعسكرية[٤].

وتدخلت البابوية، وأخذت تحذر النصارى من التعامل تجارياً مع المسلمين، وتذكرهم بين الحين والآخر بأن الاسلام هو عدوهم الحقيقي، والذين وصفوا بالوثنيين، على حد تعبير ارشيبالدلويس[٥]. ومن حين لآخر علا صوت البابا مذكراً أن الاسلام هو العدو، وأنه حجر أن يصدر نحو الأراضي الاسلامية ما من شأنه أن يزيد في طاقتها، وكان التحجير لا يشمل الرقيق النصارى فحسب، بل كذلك مجموعة من المواد كالاسلحة والمعادن والمراكب، والمواد الصالحة لبنائها وتجهيزها، وكذلك المواد الغذائية ولا سيما الحبوب[٦].

غير أن هذه العداوة المجذرة الى الأعماق والمحاطة بسياج من التشريعات القاسية، وجدت من يكسر هذا الطوق بهدوء، وقد وقع تبادل تجاري على مستوى فردي وغير رسمي على الأقل؛ فمعاهدات الصلح بين الفونسو الثاني ملك أراجون وملك قشتالة

---

(١) ارشيبا لدلويس: القوى البحرية والتجارية، ص: ٣٣٠.
(٢) الغبريني: عنوان الدراية، ص: ٢٣-٢٤.
(٣) نجاة باشا: التجارة في المغرب الاسلامي، ص: ٦٤، منشورات الجامعة التونسية.
(٤) J.F Ocallaghan; A history of Medieival,Spain, p. 297, 483.
(٥) ارشيبالدلويس: القوى البحرية والتجارية، ص: ٣٧٩.
(٦) نجاة باشا: التجارة في المغرب الاسلامي، ص: ٦٤.

سنة ٥٧٣هـ/١١٧٨م كتبت على ورق الكتان المصنوع من مدينة شاطبة الاسلامية Jaivaالواقعة الى الجهة الجنوبية من مدينة بلنسية[١]، مما يوحي أن المقاطعة التجارية بين المسلمين والبلاد النصرانية. كانت غير محكمة وغير جدية.

وقد تبت أن النصارى القطلان من أهل مملكة أراجون يتصلون تجارياً مع البلاد الاسلامية الواقعة في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وهذا ما أكده الرحالة ابن جبير، إذ يذكر أن الحروب الصليبية بين دول المسلمين والفرنج لم تعطل من حركة التجارة بين رعية الفريقين في أنحاء البلاد، ودل على ذلك ما شاهده بنفسه من نشاط وتبادل في السلع بين دمشق الاسلامية وعكا الصليبية[٢]، وسرعان ما أخذ تجار قطالونية دورا متطورا في البحر الأبيض المتوسط، الى حد منافسة المدن الايطالية، بيزا وجنوه والبندقية، اذ لم يمتنع تجارها من التعامل تجارياً مع المغاربة الذين استحوذوا على قدر كبير من التجارة العالمية خلال القرن الثاني عشر الميلادي، فهذه سبتة ثغر المحط والاقلاع فيها من التجار الأثرياء الذين يبتاعون سفن الاسطول التجاري بما فيه، من بضائع في صفقة واحدة، مما جعل الموحدين يتقاضون عشر قيمة البضائع المستوردة، وعشر وتصف من قيمة الصادرات[٣].

ومن المعروف أن قطالونية ورثت التجارة الاسبانية في البحر الأبيض المتوسط، وارتفع بذلك تعاملها التجاري مع ثغرتونس وحده من مائة الف بيرنت الى ثلاثمائة الف سنويا، كما ارتفعت تجارتها مع اقليم بجاية من اثني عشر الف الى أربعة وعشرين الف دينار[٤].

وهكذا اندفعت الأموال الى خزينة الدولة نتيجة طبيعية للنهضة الزراعية والصناعية والتجارية التي عادت على الشعب بالخير العميم، وانتشر الامن في جميع ربوع الوطن، وتمكنت الدولة من تحقيق طموحاتها في الداخل والخارج، وعاش الشعب في

---

(١) المقّري: نفح الطيب، ج١، ص: ١٥٩؛ أشباخ: تاريخ الأندلس، ج٢، ص: ٢٥٢.
(٢) ابن جبير: الرملة، ص: ١٤.
(٣) محمد زنبير: تاريخ العصور الوسطى، ص: ٢٢٩، ٢٣٦؛ أرشيبالدلويس: اقوى البحرية والتجارية، ص: ٣٨٧.
(٤) نجاة باشا: التجارة في المغرب الاسلامي، ص: ٧٠. والبيرنت: عملة اسبانية قضية. وتساوي القطعة الواحدة الحالية منها 6 فلس بالعملة الاردنية في الوقت الحاضر.
حسن حسني: النقود العربية، ص: ٣٥.

كنف الخلفاء، وبخاصة أبي يوسف، إذ كانت أيامه زينة الدهر، وكلها رفاه وطمأنينة وأمن انتشر ظلاله على جميع البلاد[١].

وأنست الحضارة الموحدية تشق طريقها بهدوء وطمأنينة نوعا ما نحو الظهور والتفنن، ولا نغالي اذا قلنا: أن الخليفة الأول هو من أرسى قواعد الأنظمة الاقتصادية والمالية، اذا كانت هي السبب في ازدهار الرخاء في زمنه، وفي عهد خلائفه من بعده، ويفضل هذه المنجزات بلغت بلاد المغرب مبلغ من الرفاه لم تصل اليه من قبل[٢].

يتبين أن الدولة الموحدية كانت سباقة الى جعل الاقتصاد باجنحته الثلاثة؛ الزراعة والصناعية والتجارة، موجهاً تشرف عليه الحكومة اشرافا مباشرا، دعماً وتنسيقاً وتسويقاً.

ورغم هذا يظهر أن الاقتصاد المغربي لم يشهد نموا ظاهراً في قواه المنتجة خلال حكم الموحدين، ولا يبدو أن الانتاج الزراعي أو الصناعي اليدوي قد عرفا أي تغيير أو تقدم يتناسب وقوة الدولة، باستثناء بعض الازدهار في اقصى المغرب وأقصى المشرق من البلاد.[٣]

غير أن عظمة الامبراطوررية تكمن في تنشيط القدرات المنتجة -الموجودة قبلا- لصالح الجهاز الحكومي- وبخاصة لصالح الجيش، بينما الصناعة الحربية قد تكون هي الوحيدة التي تطورت تطورا مدهشاً.

لقد عزز الموحدون الوحدة الاقتصادية والروحية التي كانت قائمة بين أقطار المغرب العربي منذ الفتح الاسلامي بالوحدة السياسة، وهذا العمل وحده كاف لجعل عصرهم ذهبيا في تاريخ المغرب، ولكن هذه الوحدة ظلت سطحية، بسبب موقف الموحدين من الأرض المفتوحة؛ ففرض الخراج تدبيراً يتنافى مع وعود عبدالمؤمن للسكان، ومقتضيات الشريعة الاسلامية، ولهذا يكون مذهب التوحيد قد وقع لفائدة الفاتحين وحدهم.

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٣٧١، ٣٤٧، ٣٣٢، ٣٧٠، يقول المراكشي: ولم تزل أيام أبي يعقوب أعبادا وأعراساً ومواسم كثرة خصب، وانتشار أمن ودرور آرزاق، واتساع معايش واستمر هذا صدرا من إمارة أبي يوسف ويقول: كان يحمل الى أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف خراج افريقية، وجملته في كل سنة وقر مائة وخمسين بغلا، هذا من افريقية وحدها، خلا بجاية ومحيطها، وتلمسان ومحيطها، والمغرب والأندلس قاطبة.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٣٧١.

(٣) جغلول: فقد مات في تاريخ المغرب العربي، الوسيط منه، ص:٦٥.

٤- الصعوبات الاقتصادية:

اعترض طريق التبادل التجاري بين المغرب والأندلس بعض العوائق التي حالت بصفة مؤقتة أمام قيام تبادل تجاري بين القطرين، لتحريم التعامل تجاريا مع الخصوم، فلما استعصت مالقة على الموحدين، ورفضت فكرة التومرتية، فرضوا عليها حظرا تجاريا وحصارا اقتصاديا برا وبحرا، وهدد عبدالمؤمن بالقتل كل من يخالف هذا.[١] ناهيك عن الحالة التي وصلت اليها الأندلس والمغرب اثر حروب ابن مردنيش، اذ دامت زهاء عشرين عاما ونيف، ملحقة الخراب والدمار باقتصاديات نواح كثيرة من البلاد، فضلا عن المغارم الغريبة التي فرضها على رعيته من رسوم أعراس وملاه، وضريبة الاغنام والابقار وغيرها، يسدد بها نفقات الحروب واتاوات النصارى.[٢]

وكذلك حروب ابن غانية وحلفائه من العرب الثائرين بالمغرب والأندلس التي دامت مدة خمسين عاما،[٣] كبدت الدولة نفقات كثيرة؛ فقد انفق الخليفة الناصر بن المنصور مبالغ طائلة لاخماد فتنة يحيى بن غانيه في المهدية، كما يشير الى ذلك المراكشي- بقوله: "وبلغني أن جملة ما انفق في هذه السفرة- أي سفرته لفتح المهدية- مائة وعشرين حملا ذهبا[٤]"، هذا ماعدا التخريب والدمار الذي لحقها حتى استسلمت، ويشير ابن عذاري الى سوء الحال اثناء الحصار فيقول: "والمجاعة تشتد والوبا يزيد حتى عم الموتان وانحصر المسلوبون والمغنمون إلى البلد في امم لا يحصى عديدهم، ولا ينادي من الاقتار وليدهم، وعجز أهل البلد عن تكفين الموتى وعن مواساة الاحياء، فكانوا يصيحون في الخرب وفي سكك المدينة زمرا ذكورا وإناثا"[٥].

ان هذه الأحوال كانت كافية لكساد التجارة وندرة المحاصيل الزراعية، والمنتجات الصناعية، وبالتالي إلى انهيار البلاد اقتصاديا، مضافا اليها غزوات العرب الهلالية، وقطاع الطرق، وقراصنة البحار، ممن كانوا يعترضون القوافل التجارية البرية منها والبحرية،

---

(١) حسن علي: الحياة الادارية والاقتصادية في المغرب، ص:٣٢٢، ٣٢٣؛ رسائل موحدية: الرسالة الخامسة، ص:١٣.
(٢) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٢، ص:١٢٤.
(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٣٩٠-٣٩٧، ٤٤٨-٤٥١، ٤٥٢.
(٤) المراكشي: المعجب، ص:٤٥٢.
(٥) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:١٥٢-١٥٣.

يقتلون وينهبون كلما احسوا بحبل الأمن قد اضطرب"[١] ورغم ذلك لم تكتف الممالك الاسبانية المجاورة عند حد المقاطعة التجارية، وإصدار القرارات، واعتراض طريق القوافل، بل كان اسطول برشلونه على الخصوص، والبحرية الجنوية تعترضان طرق السفن الموحدية المحملة بالمواد المختلفة وتستولي عليها بما فيها[٢]. وكان نهب الشواطئ والموانئ هدفا من اهدافهم التجارية، بالاضافة الى فرض الغرامات على المدن التي تنشد العافية، وتشتري سلامتها على التصدي للقوى الصليبية، وخصوصا الايطالية منها والانجليزية والفرنسية وقوات الالمان والفلمنك والنورمان الذين زاولوا النهب والسبي، وامتهان كرامة الانسان خلال مرورهم عبر المحيط الاطلسي، ومضيق جبل طارق جهة الشرق، وغالبا ما يجدون في شواطئ الأندلس بغيتهم، فلم يعد هناك من تسويغ لمواصلة مسيرهم إلى الشرق، للاشتراك في الحروب الصليبية؛ ويعلق ارشيبا لدلويس على ذلك بقوله: "وهكذا تم الانتقام لمدن باري، ومونت جارليانو، وفراكسينت، بما أنزله المسيحيون بثغور الشواطئ الاسلامية الضعيفة من تقتيل وسلب ونهب."[٣]

لم يتحرج رجال الدين والقساوسة كذلك من ممارسة مهنة السطو البحري، اذ اصبحت حرفة يتداولها كل طالب مغنم، فهذا كبير قساوسة طرّكونةTarrgona ، قام واعترض بعصابته طريق التجار التونسيين واستولى على أموالهم.[٤]

ثم كثر انتشار القرصنة، وتخطت حدودها، وعاثت في أملاك النصارى واليهود على قدم المساواة مع المسلمين، حتى أصبحت السفن التجارية في عرض البحار لجميع الدول غير آمنة.

لم يكن والحالة هذه من مفر للدول الاوروبية، وبخاصة جنوه وبيزة، وميورقة من أن تعقد معاهدات مع المسلمين الموحدين، أول من حارب عصابات البحار، وتحملوا وحدهم، في سبيل ذلك، كثيرا من التضحيات والجهد والتكاليف، وهم في طليعه من

---

(١) البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص: ١١٨.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٩٨.

(٣) ارشيبا لدوليس: القوى البحرية والتجارية، ص:٣٧٢، ٣٧٣؛ الجيلالي: تاريخ الجزائر، ج٢، ص:٣١.

(٤) نجاة باشا: التجارة في المغرب الاسلامي، ص:٧٠.

قاوموا الارهاب الدولي بشتى اشكاله وصوره، من أجل القضاء عليه، وحماية التجارة البحرية العالمية عام ١١٨٦/٥٨٢، ٦٣٤هـ/١٢٣٦م، ٦٣٧هـ/١١٣٩م[١].

ولقد اتيح للمغاربة المسلمين تنفيذ نصوص هذه المعاهدات باعتبارهم سادة حوض البحر الابيض المتوسط، وهم القوة الرادعة، حتى ذلك الحين، استجابة لمقتضيات التجارة الدولية ونواحيها، ورعاية لمصالح تجارتهم الخارجية، ونشر الطمأنينة والسلام عبر المياه الدولية، وهكذا الزم الموحدون انفسهم بحماية الحرية التجارية[٢]. وكان الخوف طاغيا من نهاية آجال المعاهدات التجارية، وكان عدم تمكن التجار الفرنج من الاحتفاظ بامتيازاتهم التجارية في المواني المغربية، دافعا لهم الى طلب تجديد المراسلات مع الموحدين. وفي هذا الاتجاه، جاء رد الخليفة يعقوب المنصور الموحّدي: "أنه ما زوى له من المشارق والمغارب والاكناف والأرجاء والرضا عن الامام المعصوم المهدي المعلوم محي رسوم الدين بعد الدروس... مظهر معالم الشريعة بعدما تناولها الجهل بيد "الاضحار" والاخفاء وعن خليفته أمير المؤمنين... ابن أمير المؤمنين.. ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمين.. من الصلح للقناصلة والأشياخ والأعيان والكافة من أهل بيشة وجهاتها... وسردانية وجهاتها.. وكل من فيها من زعمائهم وأعيانهم، اطر روان بن تدسك واستنابوه في العقد لهم وعليه.... فعرف رسولهم المذكور برغبتهم في ادامة الهدنة لهم.. وأنهم ملتزمون لكل شرط يشرط عليهم ومنتهون إلى جميع ما يحل لهم... وأجاب مسئلتهم وأمر لهم صلح على عادتهم وهدنتهم وعقد لهم السلم إلى مدة خمسة وعشرين عاما من تاريخ هذا الكتاب، على الامنة التامة والمعدلة الشاملة العامة، وأذن لهم أعلى الله اذنه ووصل انعامه ومنه في الوصول إلى بلاد الموحدين، أعزهم الله للتجارة فيها والتجهيز بها وقصرهم على أربعة بلاد من جملتها وهي سيتة ووهران وبجاية وتونس حماها الله، ولم يبح لهم النزول بغيرها ولا الاحتلال بسواها الا لضرورة من صعوبة البحر".[٣]

وتتوضح في موضع آخر صورة أخرى لطمأنة التجار الاوروبيين الى حد القول: "... ونحن نهدي اليهم من السلام أعطره، وننثر عليهم درره، ونذرف بذكرهم مسكة وعنبره، وتحضر فيهم كل يوم محضرة، لما انعقد قديما وحديثا من السلاف والأحلاف

---

(١) B. Meakin: Moorsh, empire, p, 256-257.

(٢) ارشيبا لدلويسي: القوى البحرية والتجارية، ص:٣٩٣.

(٣) مشيل أماري: رسائل موحدية، رسالة رقم ٥، مؤرخة في رمضان ٥٨٢هـ/ نوفمبر ١١٨٠٦م، ص:١٩-٢٠.

مناومنهم، ومن أسباب المحبة ومتقدم الصحبة والمودة.. وشجت بيننا وبينهم أواصر الاتيلاف واستمرت منا ومنهم المحبة.."[1].

وواضح من هذه الرسائل ان الدولة الموحدية بينت اسلوب تعاملها مع التجار الفرنج، كما حددت المراسي التي يدخلونها والأعراف التي يلتزمون بها.

وبالرغم من تحديد الموانيء والمراسي الموحدية التي يجب التعامل التجاري فيها فقط، الا أن هذا لم يمنع القراصنة الاوروبيين من مزاولة القرصنة دونما التفات لاي اعراف دولية أو معاهدات تجارية، فهذه جنوه لم تكن متلهفة لأي تحالف او اتفاق مع المسلمين، بشأن الحرية البحرية، بل تهتم اصلا بالتجارة ومسالكها لمزيد من الفائدة والربح السريع، فانتهزت فرصة تفكك الدولة الموحدية، وانقسامها، وزاولت السطو البحري (القرصنة) جهارا نهارا متجاهلة جميع العهود والمواثيق التي أبرمتها.

وقامت بحركة عسكرية بحرية خاطفة للسيطرة على ثغر سبنةCeuta ، نظراً لأهميته التجارية، فتصدت لها المدينة الباسلة، وأوقع اهلها بالمهاجمين هزيمة بحرية شنيعة ردتهم على أعقابهم خاسرين، فتمكن الناجون منهم من العودة مرة أخرى بمائة مركب جنوي يمخر عباب البحر للثأر والاستيلاء على سبته، إذ دفعتهم بغرامة مالية قدمتها لهم قدرها اربعمائة الف دينار ذهبا سنة ٦٣٢-٦٣٦هـ/١٢٣٤- ١٢٣٨م[2] ومثلها حدث في ميناء تونس، عندما قام تجار بيزة، بالاستيلاء على مسطحين (سفينتين)، وأسر ثلاثة مراكب للمسلمين، بما فيها من ركاب وتجار ومواد تجارية، وقتل آخرين، وما ترتب على هذا الاعتداء من انتهاك للحرمات، وقتل للاطفال والشيوخ والنساء، وموت البعض غرقا، ووقوع عدد من الجرحى، وعندها اتخذ الموحدون سلسلة من الاجراءات المشددة، لمعاقبة المعتدين، بالعقوبات المنصوص عليها في قوانين الدولة الموحدية، طبقاً للشريعة الاسلامية، لكي لا تتكرر مثل هذه الحوادث مرة اخرى- فلا يتجاسر احد من القراصنة بعد ذلك على التعرض للمسلمين "لا بأخذ ولا مضره"، وهذه المعاملة نفسها، تعامل بها أهل جنوة ازاء المسلمين الذين يتعرضون لهم بأذى أو اساءة.[3]

---

(١) المصدر نفسه، رسالة رقم ١، ص:٣.

(٢) ارشيبالدلويس: القوى البحرية والتجارية، ص:٣٩٣؛ الناصري: الاستقصاء ، ج٢، ص:٢٤٤.

(٣) أماري: رسالة رقم ٦، في ذي القعدة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م، ص:٢٣-٢٨.

ومن الصعوبات الاقتصادية التي كانت ماثلة، تلك المغارم والمكوس، مضافا اليها الرشاوي وقضايا السلب الذي كان يمارسه بعض الولاة المغاربة مع رعيتهم باسم الحكومة، وقد أمر عبدالمؤمن بإلغائها في رسالة موجهة إلى الطلبة المسؤولين في الأندلس، والضرب على أيدي اصحابها بيد من حديد، وتلتها رسائل مماثلة وجهت إلى أهل قسنطينة.[١]

ثم تعرض التبادل التجاري بين المغرب والاندلس للكساد والتوقف بعد وقيعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٢م، فقد واصل النصارى ضغطهم على أراضي الاندلس، دون ان يتمكن الموحدون من صدهم، إذ انصرفوا إلى التنازع على عرش الخلافة، بل والاستعانة بالعدو، مقابل التنازل لهم عن بعض الحصون المهمة، مما أدى إلى ثورة أهل الأندلس على الموحدين وطردهم، حتى أصبحت بلد الجهاد لقمة سائغة يلوكها النصارى، ونهبا بين طغمة المتسلقين.[٢]

أخذت بعض القواعد تسقط تباعا بأيديهم، فتدهورت الحياة الاقتصادية بصفة عامة، وضمرت المبادلات التجارية على الخصوص[٣]

انتهز بنو مرين[٤] فرصة التمزق والتشتت هذه، فبسطوا سيطرتهم على بعض البلاد؛ سيطروا على مكناسة، وتازة، وفاس سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م[٥]. وأنزلوا هزائم

---

(١) بروفنسال: رسائل موحدية، الرسالة العشرون، ص:١٠١؛ الرسالة التاسعة، ص:٢٨؛ الرسالة الحادية عشرة، ص:٤٠، ٤١؛ الرسالة الثانية عشرة، ص:٤٩.

(٢) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٥٠؛ يذكر أن الخليفة أبا العلاء ادريس، الملقب بالمأمون، تنازل لملك قشتالة عن عشرة حصون يختارهم بنفسه، مقابل أن يمده بجيش من المرتزقة يحارب به ابن اخيه يحيى، ليحتل منه مراكش.

(٣) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٢٣٦-٢٣٩.

(٤) بنو مرين: ينتسب الرينيون إلى مجموعة قبائل زناته البربرية، ويذكر علماء التاريخ انهم عرب صريحون؛ اذ يقول بعض ولد ما دغيس بن بربن قيس عيلان:

أيهـا السـائل عـن احسـابنا ... قـيس عـيلان بنـي العـز الاول

وقيل غير ذلك.
اذ كانوا في مطلع القرن السابع/ الثالث عشر، يسكنون بلاد القبلة من زاب افريقيه الى سجلماسة، يتنقلون في تلك البراري والقفار، يرعون الابل والغنم، فينتجعون الكلأ في فصل الربيع والصيف حتى ناحية تازه ووجدة في المغرب، ثم يقفلون نحو الجنوب في نهاية الخريف، لا يؤدون لأمير درهما ولا دينارا، ولا يدخلون تحت حكم سلطان، وهم خلافا لبني عبدالواد لم يخضعوا لحكم الموحدين، لكنهم شاركوا إلى جانبهم في معركتي الأرك والعقاب لا يعرفون الحرث ولا التجارة، ولا يشتغلون بغير الصيد وطراد الخيل والغارة، جل اموالهم الخيل والابل والغنم، وطعامهم اللحم والتمر واللبن والعسل.
ابن خلدون: العبر، ج٢، ص:٥، ١١١-١١٣؛ ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٧٨ وما بعدها.

(٥) المصدر نفسه، ص: ٢٩٣.

عديدة في جيوش الموحدين، وتسابق بنو عبدالواد[1] بدورهم، واقتطعوا جانبا من نواحي المغرب الممزق، اذ هزموا دولة بني عبدالمؤمن في مواقع كثيرة.[2]

لم تقف بعض القبائل المغربية موقف المتفرج، والمغرب يترنح تحت ضربات الثائرين، فشاركت في انعدام الأمن، وساعدت في تخريب الزرع والعيش بالأرض، وتدمير الاقتصاد، فانعدم الأمن، وسدّت طرق التجارة، وانتشرت المجاعات والاوبئة[3]، ويشير ابن عذاري الى ذلك بقوله: "ضاقت الارض بما رحبت على الناس... وارتفعت الأسعار وعدمت الأقوات... حتى انتهى الربع الواحد من الدقيق اللطيف الفاسد إلى ثلاثة دنانير، والناس في ازدحام على من يشعرون عنده زنة الخردلة منه أو من سواه..ومن لم يستطع المزاحمة فهم كثر..

وتغيرت الصور الجميلة، وتنكرت الدنيا باستيلاء المجاعة.. فإذا ما توصل احد الناس الى قطعة من الخبز، يجتمع عليه العشرون وأكثر من الضعفاء والمساكين حتى ينتزعوه منه قهرا... حتى لقد هلكت أمم لا تحصى"[4].

٥- العملة عند الموحدين:

كانت أساس العملة الموحدية الدينار الذهبي، والدرهم الفضي واستعمل المثقال الذي له نفس وزن الدينار، واستعملت الاوقيه التي لها نفس وزن الدرهم[5].

كان اول نقد موحدي للعملة المتداولة في الاسواق الدرهم المربع الذي احدثه المهدي محمد بن تومرت، وكانت نقوشه على الشكل الآتي:

---

(١) بنو عبدالواد: ينتسبون الى قبيلة زناته كبني مرين، اسسوا امارة بتلمسان على يد قائدهم يغمر أسن بن زيان سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م. وقد عرفت هذه الدولة منذ تأسيسها تاريخا مضطربا، فظلت معرضة للغارات من الشرق والغرب على السواء، وكانت لا تفلت من قبضة "الحفصين أمراء تونس الا لتقع في يد المرينيين، وظلت على هذا الحال إلى أن استولى عليها الاتراك سنة ١٥١٨م/٩٢٥هـ
ابن خلدون: العبر، ج٤، ص:٣-٧، ٩٧-١٦١؛
زنيبر: تاريخ العصر الوسيط، ص:٢٥٠.

(٢) ابن ابي زرع: الادنيس المطرب، ص: ٢٥١.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٤٨-٣٥٣؛ ج٧، ص: ٢٣٧-٢٣٩؛
مجهول: الحلل الموشيه ص: ١٦٨-١٧٠.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:٣٠٧، ٣١٥، ٣١٦.

(٥) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٦٥.

الوجه الاول: الله ربنا، محمد رسول الله، المهدي امامنا.

وعلى الوجه الثاني: لا إله إلاالله، الامر كله لله، لا قوة الا بالله.

ويأتي بعد المهدي خليفته عبد المؤمن بن علي، ليغير العملة من الدرهم الفضي-إلى الدينار الذهبي، ومن الشكل المربع، الى المستدير مع بقاء التربيع شائعاً، ولم يلغ نهائياً.[1]

وكانت نقوش الدينار على النحو الآتي:

الوجه الاول: على حافة الدائرة: ابو محمد عبدالمؤمن بن علي أمير المؤمنين وفي داخل الربع الصغير: المهدي امام الامة الاسلامية بأمر الله وفي داخل الربع الكبير، على الحافة العليا والسفلى: اسم المدينة.

وعلى الوجه المقابل، في حافة الدائرة: بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليما.

وفي داخل المربع الصغير: لا اله الا الله محمد رسول الله.

وفي المربع الكبير على الحافة العليا والسفلى: اسم المدينة[2].

أما الدينار الموحدي الذي زاد انتشارا وذيوعا هو الدينار اليوسفي المغربي المنسوب الى أبي يعقوب يوسف. وقد بلغ وزنه، ٤.٧٢٩ غم ذهبا وتعادل اربعة عشر-قيراطا، والقيراط، ثلاث حبات، فيكون المجموع ٧٢ حبة. وهذا يساوي وزن الدينار الاموي تقريبا الذي كان يزن ٤.٢٥غم حسب تحديد الوزن الشرعي له[3].

يتبين هنا أن التأثير الشرقي كان له حتى في العملة نصيب.

لقد قلدت الدولة الحفصية اختها الدولة الموحدية، في سك مسكوكاتهم شكلا ونقشا منذ فجر تاريخها، أما الامراء المتأخرون فقد شذوا عن تلك القاعدة، وتأثروا

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب: النقود العربية، ص:٣٥، توفي، ١٩٥٨، ابتسام مرعي، العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامي ص:٣٠١.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢٩٢، جاثية رقم ١ نقلا عن
Luis Massingnon, LeMarco, P, 102-103.
محمد الصبيحي: ابتلاج الفجر، ص:٩-١٨، ط١، الرباط، ١٩٤٠م/ ١٣٥٩هـ؛ محمد الزغاري، معرض نقود اسلامية وقديمة، ١٩٦٢، ص:١٦.

(٣) عبد الرحمن فهمي: النقود العربية، ماضيها وحاضرها، رقم ١٠٣، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٤؛ المصادر نفسها/ و الصفحات نفسها؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٥٧.

بالاتراك في عملاتهم أواخر القرن العاشر الهجري.[1] وجاءت نقوش الدينار الحفصي في زمن أبي زكريا يحيى بن علي في هذا الشكل:

الوجه الاول: الاطار: الامير الاجل- ابو زكريا يحيى بن ابي محمد بن ابي حفص.

الوسط: المهدي امام الامة القائم بأمر الله.

أما الوجه الآخر: الاطار: بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليما.

الوسط: لا إله الا الله محمد رسول الله.

وكان الدينار مستديرا، اما الكتابة فقد حشرت في مربعات، ولم تذكر التاريخ، بينما ثبتت اسماء المدن في أحيان اخرى.[2]

وحينما وصلت بيعة شريف مكة الى المستنصر الحفصي عام ١٢٥٧/٦٥٧.[3] نراه ينقش على ديناره المسكوك في تونس مايلي:

الوجه الاول: الاطار: المؤيد بنصر الله، المنصور بفضل الله، أمير المؤمنين.

أما الوسط: أبو عبدالله محمد بن أمير المؤمنين، تونس، والوجه الثاني.

الاطار: بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد، لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

الوسط: المهدي خليفة الله، الشكر لله، والحول والقوة بالله.[4]

وفي القرنين السادس والسابع الهجريين ظهرت مشكلة امام المدن التجارية الاوروبية تتعلق بقيمة الدينار، لما يعتريه من ارتفاع مستمر بالمقارنة بالعملات الأخرى، وأمام تلك المشكلة، حاولت الدولة ضرب انواع رديئة من العملات، أثارت ثائرة الناس، وغضب الرعية الساخطة، فتراجعت امامها السلطات، وهذا ما حدث عام

---

(١) ابتسام مرعي: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامي، ص: ٣٠٢ نقلا عن حسن حسني عبد الوهاب: النقود العربية في تونس، ص: ٣٥.

(٢) المرجع نفسه، ص: ١٤٠-١٤١.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٤٠٧.

(٤) ابتسام مرعي: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامي، ص:٣٠٤، نقلا عن د. حسن حسني عبدالوهاب: النقود العربية، ص: ١٤٣.

٦٦٠هـ/١٢٦٢م، عندما ضربت الحناديس، أي الفلوس النحاسية التي الغيت في شوال من العام نفسه.[١]

لقد أدى نقص العملة الذهبية (كما حدث سنة ٥٧٧هـ/١١٩١م، إلى ظهور تغييرات متكررة في النظام النقدي[٢]. لذلك كان الالتجاء إلى العملات الاجنبية كي تعوض الدينار الاسلامي فظهرت في عام ٦٥٠هـ/١٢٥٢م في جنوه العملة الجنوية المذهبه، وفي السنة نفسها ظهر الفلورين الفلورنسي، وكان وزنها، ٣.٥غم، وهما يعتبران اكثر وزنا من وزن الدينار الموحدي، اذ كان يزن ٢.٣٢ غم، بالمقارنة بالدينار المرابطي الذي بلغ وزنه ٣.٨٨غم، وهذه كلها من الذهب الخالص، فضلا عن الدوكا البندقي، والبيزنت البرشلوني.[٣]

كان انخفاض قيمة الدينار منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، واختلاف وزنه وعياره سببا في استخدام العملة الجنوية بشكل يدعو إلى الدهشة، وبخاصة في شرق البحر المتوسط وغربه.

ثم إلى جانب الدينار ظهر الدرهم الموحدي، وكان وزنه في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ١.٥غم، وهذا اقل عن مثيله المرابطي الذي كان يزن "٢غم".

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص:٢٠٦، وعن هذه الحناديس يقول: د. حسن حسني: "واستحدث السلطان المستنصر بالله الأول، سكة من النحاس مقدرة على قيمته من الفضة، حاكى بها الفلوس بالمشرق، تسهيلا على الناس في المعاملات، وسمى سكته التي استحدثها (بالحندوس) يعني السوداء، ثم افسدها الناس بالتدليس، وضربها أهل الريب ناقصة في الوزن، وصارت ريبة لمن يتناولها، وأعلن الناس النكير في شأنها، وتنادوا بالسلطان في قطعها، وكثر الخوض في ذلك، وتوقعت الفتنة، فأزال السلطان تلك السكة وعفا عنها. النقود العربية في تونس، ص: ٣٧.

(٢) مجلة الدراسات الاسلامية، ص: ٥٤، باريس، ١٩٤٩م/١٣٦٩هـ؛ نقلا عن:
E, strauss, prix, et salaires al, epoque, mamlouke, etude sur l, et et Economigue, de l, Egypte, et de la syrie ala fin du moyen Age.

(٣) الدوكا: عملة ذهبية استخدمت في معظم اوروبا، قيمتها حوالي ثلاث شلنات، واستخدمت كذلك الدوكات الذهبية، وكانت تمادل تسعة شلنات، في عهد الدوج وندولو في البندقية، أما البيزنت فهي عملة اسبانية فضية. تبلغ قيمتها حاليا في العملة الاردنية ستة فلسات.
New English Dictionary, Val, III, P, 699.

ولقد أقامت الادارة الحفصية بمناسبة نشاطها التجاري ادارة خاصة، ترعى مصالحها التجارية تعرف بالادارة القمرقية المعتمدة في ميزانيتها على المداخيل الناتجة عن التجارة والقرصنة (حرب البحار)، فقد عملت على تشجيع التجارة، وكانت تعفي الحبوب من الضريبة المترتبة عليها، وتمنح التجار الأجانب حقوق التصدير للبضائع المعفاة من الضرائب اذ كانت بضعائهم الى تونس تتساوى فيها قيمة الواردات مع الصادرات، أما اذا زادت قيمة الصادرات على الواردات. فتكون نسبة الضريبة ٥% وتعفي هذه الادارة الصفقات التي تعقد داخليا مع الاجانب من الضرائب، وكانت تشجع البضائع المحلية لتشجيع حركة الانتاج، وتمنح تسهيلات كبيرة في تصدير بضائعها ذات القيمة المرتفعة خارجيا، حتى أن دخل القمرقيمة في العهد الحفصي بلغ مائة وسبعين الف دينار سنويا، وهذا يدل على انتعاش التجارة في تونس في ذلك الوقت.

واعتنى الحفصيون باصلاح المكاييل لمعرفة النصاب الشرعي للمكاييل في القطر التونسي، فاعتمدوا الوسق الشرعي[١]، كالقفيز التونسي،[٢] وهم اول من طبع الدينار والدرهم الذهبي التونسي الجديد.

كما اوجدوا نصف الدينار والدرهم الناصري[٣]، وضربت كذلك في عهد الحفصيين نقود النحاس لأول مرة، وعرفت بالحندوس كما مر سابقا، وكان المكس يقدر على العموم في النظام المالي الموحدي بنسبة العشر حسب الشريعة الاسلامية. إلا أن هذا العشر قد اختلف في مقداره الفعلي بين ٨%، ٢٠% من ثمن البيع. ويعود سبب هذا الاختلاف في التقدير الى تعداد انواع البضاعة وديانة التاجر ومدى قربه وبعده من السلطة. وهذه المقادير موزعة بنسبة ١٠% للأجانب، ٥% للذمي، ٥.٢ % للتاجر المسلم، والتزمت الدولة بهذه النسب التزاما قانونيا واخلاقيا[٤].

---

(١) الوسق الشرعي، يساوي مائة وخمسين كيلو غرام.
سيد سابق: فقه السنة، مج١، ص:٤١٢ فصل زكاة الفطر؛ المعجم الوسيط، ج٢، ص:١٠٤٤، احياء التراث العربي، بيروت، لا.ت. المعجم الوسيط، ج١، ص:٣٥٢؛
مجد الدين: المحيط، ج٣، ص:٢٩٩، دار الجيل، بيروت، لا.ت.

(٢) القفيز: مكيال يختلف باختلاف البلدان، فمثلا في مصر، يساوي اربع عشرة أقة ونصف، الاقة، تساوي نصف رطل شامي، أي تساوي كيلوغرام وربع، فيكون القفيز، يساوي ١٨.١٢٥ كغم؛ المعجم الوسيط، مح٢٢، ص:٧٥٦.

(٣) قام الحفصيون بتجزئة الناصري إلى "خمسي"، وهو خمسة أسداس الدرهم، وإلى خروبه وهي أربعة اسداس الدرهم، وإلى نصف ناصري، ويعني ٦/٣ ثلاث أسد س الدرهم، وإلى قفصي، وهو "القيراط" ويساوي ٦/١ درهم "سدس" ويساوي ثمانية عشر غراماً؛ المعجم الوسيط: مج٢، ص:٧٣٤؛ حس حسني عبدالوهاب: النقود العربية في تونس، ص:٣٧.

(٤) د. ابتسام مرعي: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق، ص:٣٠٨، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥/١٤٠٥.



الفصل الرابـع

الحياة الاجتماعية والناحية العمرانية عند الموحدين

تطورت الحياة الاجتماعية مدة بني عبد المؤمن في جميع المجالات، وعلى كل الأصعدة في المغرب والأندلس، ففي المجال الرسمي كانت أيامهم كلها خير وبركة كأنها من حسنها أعراس، وبخاصة في عهد الخلائف الأوائل، اذ كثيرا ما تقربوا إلى الشعب بالصدقات والهبات، أغدقوها عليهم اثر كل مناسبة، سواء في تنصيب خليفة أم تشييد بناء، أم اقامة مصنع، وتوديع جيش أم انتصاره، وتدشين مسجد أم تطهيره.

لذلك جرت عادة الموحدين أن يحتفلوا عندما يتولى أحد الخلفاء منصب امير المؤمنين، ويتسلم سلطاته الشرعية كخليفة. ففي مناسبة بيعة أبي يعقوب يوسف بالخلافة من يوم الجمعه ١١ جمادى الثاني سنة ٥٥٨هـ/٢٩ أيار ١١٦٢،[١] كانت باكورة أعماله، أن اصدر عفوا عاما عن المساجين ليشاركوا الناس فرحتهم في الاحتفالات التي ستجري بهذه المناسبة؛ وفي غمرة هذه الاحتفالات وزع الخليفة الاموال على المحتاجين في العاصمة اولاً، وأصدر اوامره الى عماله في الولايات ان يحذوا حذوه بالعفو وتقديم الهاديا والمنح المالية، سواء في الاندلس أم في المغرب، وقد شملت هذه المنح جميع الناس، من موظفين ومزارعين ومسنين وغيرهم.[٢]

هذا لا يقل تألقاً عن الاحتفالات التي جرت اثر تولي يعقوب المنصور الخلافة من يوم الأحد ١٩ ربيع الثاني سنة ٥٨٠هـ/٣٠ تموز ١١٨٤م.[٣] وقد اغدق الاموال على الناس، اذ أخرج مائة الف دينار ذهبا من بيت المال. ووزعها على المحتاجين، وذوي العاهات واصحاب البيوتات الفقيرة، وأمر باطلاق سراح المساجين، عفوا وسماحة، ورد المظالم الى أهلها.[٤]

يتبين أن المظالم كانت تمارس مدة حكم أبيه أبي يعقوب يوسف، ويوقعها الولاة في غياب القانون، دون رادع من ضمير أو خوف من عقاب. وكان المنصور يتحسسها أثناء ولايته في عهد والده، ولم يتمكن من تغييرها، لكنه عندما اصبح صاحب الشأن أمر

---

(١) ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٠٨؛ مجهول: الحلل، ص: ١٥٧؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣١٩؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢٩١.
(٢) ابن صاحب الصلاة:: المن بالامامة، ص: ٣٤٧- ٣٥٧؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٥٨؛ ١٥٩.
(٣) ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢١٦، ٢١٧.
(٤) المراكشي: المعجب، ص: ٤١١.

بايقافها، وايقاع العقوبة على مرتكبيها، متحريا العدل، وسنن الخلفاء الأول، ما استطاع سبيلاً إلى ذلك؛ فزاد تقربه إلى الفقهاء، وتودده إلى وجهاء الأمة وعامة الشعب بالاموال والهبات والمكافآت، ولم ينس افراد القوات المسلحة من عطفه وكرمه.(١)

ولم تخل مناسبة إلا وانتهزها الموحدون، فاحتفلوا بها، كاحتفالاتهم باستقبال الوفود الواردة اليهم والصادرة من قبلهم، ومن أهم المواسم الاحتفالية، ذلك الاحتفال لاستقبال القبائل العربية عند وصولها إلى مراكش من افريقية سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م.

وكان السلطان ابو يعقوب يوسف قد استدعى اليه هذه القبائل لتشترك معه في حروبه مع نصارى اسبانية، اذ أخذ يستعد لاستقبالهم حين بلغه مسيرهم نحو عاصمته، فأمر بتوزيع السلاح من مختلف الأنواع على المشتركين في موكب الاستقبال، وخرج الأمير نفسه في كوكبة لم ير مثلها في الاهبة والاستعداد، والسادة عن يمينه وعن يساره ومن خلفه.(٢)

كما كانت تجري الاحتفالات كذلك عند قدوم احد السادة من اخوة الخليفة او من أقاربه، عمال الولايات، كالذي جرى سنة ٥٦٠هـ/١١٦١م، عند خروج السيد أبي حفص من مراكش بأمر من الخليفة، ومعه كبار رجال الدولة من القادة والاشياخ، وزعماء الاندلس لملاقاة اخيه السيد أبي سعيد بجبل الفتح "جبل طارق". إذ عبر البحر بموكب فخم وفي هيئة عظيمة ادهشت المشاهدين من نشر للبنود وقرع للطبوع، وبرز السيد أبو سعيد بجبل الفتح تحف به تشكيلات من قطاعات الجيش المختلفة، تخفق فوق هاماتهم الرايات والاعلام، في زي يعجز وصفه، لا عين كمثله رأت، ولا اذن سمعت؟ عن يمينه وفد أهل اشبيلية، وفي مقدمتهم الفقيه ابن الجد، وقاضيهم ابو بكر الغافقي، وصاحب المخزن محمد المعلم، وعن يساره اهل المغرب القاطنون في الأندلس، ووفد قرطبه وغرناطه، وقد تقدم الجميع الشعراء للتهاني باللقاء السعيد وجلس السيد في القصر المعد للاحتفال باستقبال الوفود، اذ تزاحمت للسلام عليه جماعة اثر جماعة، واعذق عليهم الهبات والاعطيات والشارات الخلافية، ومنحهم الالقاب والاوسمة، ودامت الأفراح خمسة عشر يوما متواصلة "في مسرة متصلة وميرة مشتملة"(٣).

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١١.
(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٣٠- ٤٣٢.
(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٢٥٠-٢٥٧.

وكثيرا ما احتفل الموحدون بمناسبة الانتهاء من بناء مرفق من مرافقهم، بمحضر الخليفة وكبار رجال الدولة، والحاشية وأعيان البلاد، وحضور وفود شعبيه كبيرة، فينتهز الشعراء فرصة، يلقون بها قصائدهم بين يدي أمير المؤمنين.

ومن اوضح المراسم على ذلك، الاحتفال الذي جرى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، عند الانتهاء من تشييد مدينة الفتح بجبل طارق، اذ سار الخليفة عبد المؤمن بموكب مهبب من مدينة مراكش عابراً البحر الى الجبل، ويوم اجتيازه المضيق برز لاستقباله اعداد من المشاهدين لا حصر لها، وكان يوما مشهودا؛ ظهر فيه من البذخ وعز الملك ما لا نظير له، مما شكل عبئاً ثقيلاً على بيت المال[١] "خزينة الدولة".

وحالما علم أهل الاندلس بزيارة امير المؤمنين، وذلك في شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥هـ/كانون الثاني ١١٦٠م، تدفقوا على شكل وفود على رأسها الولاة والقضاة والأعيان لاستقباله، وكان اول الداخلين على الخليفة الشعراء وبأمر منه؛ اذ استدعاهم بهذه المناسبة لالقاء اشعارهم، وكانوا قبلا يستأذنون فيؤذن لهم، ثم سمح لرؤساء الوفود بالقاء خطبهم وتجديد البيعة له وسمح بتقبيل يده[٢].

ظل الناس في عرس وفرح مدة عشرين يوما، مصاريفهم على نفقة الدولة من أكل وشرب ونوم، هذا فضلا عن عطاء الخليفة ومنحه لجميع الحاضرين كل حسب حاجته ومرتبته، وقد خص منهم عمال البناء والفنيين والمهندسيين بمكافآت سخية على اخلاصهم وتفانيهم، واتقانهم عملهم حسب المواصفات والمقاييس.[٣]

وامتازت الحياة الاجتماعية على مستوى الدولة بطابع جهادي مميز، كان الجيش يسير للغزو بموكب احتفالي مهيب وبروز عظيم، يعد له مسبقا، وقد استمر العمل بهذا النظام الرتيب طوال حكم الموحدين. فاحتفل أبو ديوس ادريس آخر خلفاء بني عبد المؤمن عندما اقتحم مراكش على عمر المرتضى، وقد فر هذا منها هاربا وتركها له.[٤]

---

(١) المصدر نفسه، ص: ١٤٧-١٥١.
(٢) المراكشي: المعجب، ص:٣١١.
(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٢٧-١٥١.
(٤) المرتضي: هو أمير المؤمنين عمر بن اسحاق بن يوسف بن عبدالمؤمن بن علي الكومي، تولى الامارة سنة ٥٤٦هـ/١٢٤٨م- سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م و ابن ابي ذرع: الانيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٥٨-٢٥٩.

وجلس أبو العلاء في ديوانه يتقبل بيعة الموحدين كافة، والأشياخ والوزراء والفقهاء والقضاة، وزعماء العرب، ثم كبار المصامدة ذلك يوم الأحد الثالث والعشرين من محرم سنة ٦٦٥هـ الرابع والعشرين من تشرين الأول ١٢٦٦م[١].

ومن اوضح الأمثلة التي ذكرت في وصف موكب الجيش خلال مسيره للحرب من مراكش إلى الأندلس سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م زمن الخليفة يوسف أبي يعقوب بن عبد المؤمن؛ اذ قسم الجيش المؤلف من الموحدين والعرب، الى فرق حسب قبائلهم، واستعرضها فرقة، فرقة، ودام هذا العرض مدة خمسة عشر يوما، زودهم أثناءها بالخيل، وأمدهم بمختلف انواع الأسلحة؛ من رماح، ودروع، وبيض وسيوف، وصرف لهم المكافآت الماليه والرواتب الشهرية، وجهزهم بمواد تموينهم تكفيهم الذهاب والاياب، بالاضافة إلى الملابس الصيفية والشتوية.[٢]

ثم أخذ الجيش في الحركة صباح يوم السبت الرابع من شهر رجب سنة ٥٦٦هـ/ اليوم الثالث عشر من شهر آذار ١١٧٠م، من مراكش، وعلى رأسه أمير المؤمنين، في عسكر كثيف، قد ملأ الأرض كثرة، تتقدمه الأعلام البيض، والطبول من ورائه، وأمامهم مصحف عثمان محمولاً على جمل مصحوباً بمصحف الإمام المهدي، وقد اصطف الناس لتوديعه[٣].

وكان المصحف المذكور يصان بنفيس الجواهر والألوان الزاهية؛ الأحمر والاصفر والاخضر الغريب، والزمرد الاخضر؛ وهكذا قد جمعت كل الزخارف المتعارف عليها في ذلك الزمن، وموكب امير المؤمنين وراءه، يحيط به حرسه من السود والحشم، ويرافقه اهل بيته، ورؤساء أركانه، يتلوهم باقي الجيش من الموحدين والعرب، وقد غصّ بهم السهل والوعر، إلى ان القى عصا تسياره في قرطبة في الأول من ذي القعدة سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م.[٤]

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب في اختصار اخبار ملوك الاندلس والمغرب، ص:٤٤٤-٤٥١.
(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالآمامة، ص:٤٣٨-٤٥٢.
(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٣٨-٤٥٣.
(٤) المصدر نفسه؛ ص:٤٣٩-٤٤٠، ٥٣؛
المقريّ: نفح الطيب، ج٦، ص:١٣٦-١٤٣؛
ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢١١، كان اللون الرسمي والأساسي للدولة الموحدية هو اللون الابيض، بيد أنهم اتخذوا اللون الأحمر للقبة الخلافية مكان اقامة الخليفة كما أنهم عمدوا إلى اتخاذ الوان أخرى؛ الاحمر والاصفر، والابيض، وجملوا بها خزانة المصحف العثماني.

اعتنى الموحدون بالاحتفالات بمناسبة انتصاراتهم الحربية، إذ كان الخليفة يبعث بكتبه إلى ولاته على الأمصار، فيقرأونها على الطلبة وعلى الرعية، يستظهرون ما اشتملت عليه هذه الكتب من الأخبار والاشعار، وبخاصة اثر المعارك الهامة والحساسة، فتستمر الاحتفالات مدة شهر كامل أحياناً، وفي العادة تصحبها قرع الطبول، وعزف الموسيقى وتناول مختلف اطايب الطعام، كما جرى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، حين انتصر عبد المؤمن على نصارى صقلية، واسترد موانئ افريقية منهم.[١]

ومن هذه المراسيم ما وصفها ابن عذاري حين انتصر المنصور على غرب الاندلس- مجال نشاط الموحدين العسكري وقتئذ- سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م، وانكفأ راجعا الى اشبيلية مزهواً يجر سباياه ويحتجز اسراه، ويحمل غنائمه الكثيرة، وجرى عرض عسكري، اشتركت فيه تشكيله من القوات البحرية والبرية، وظهرت فيه النجب المحلاه، والخيول المطهمة، وعلى ظهورها الجند المحاربون، من سودان وأغراز[٢]، فضلا عن العرب والموحدين والأندلسيين.[٣]

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٢٠-١٢١.

(٢) الاغزاز: جنس من الترك، بلادهم في أقصى المشرق على تخوم الصين وقد عرفهم العرب في أيام الفتوح الاولى، دخلوا بلاد المسلمين اسارى ومماليك، فلم يلبث كثير منهم ان ملكوا حرياتهم، وبرزوا في الحياتين المدنية والعسكريه جميعاً، فنبغ منهم قادة ووزراء، وولاة؛ ثم قوي سلطانهم حتى صار الخلفاء في قبضة ايديهم، وسياسة الدولة وفق ارادتهم.
وهؤلاء الغز الذين اشرنا اليهم في المتن، كان لهم شأن في تاريخ افريقيه، أواخر القرن السادس وأوئل القرن السابع، وكان وصولهم اليها حوالي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م، اذ كان على عرش مصر وقتئذ الناصر صلاح الدين الأيوبي، والحروب الصليبية ناشبة في الشرق والغرب، فثمة صليبيون يغيرون على الشام ومصر، وقد تجمعوا من أقطار شتى، وصليبيون في صقلية يحاولون أن يغلبوا العرب على سواحل افريقية، وصليبيون آخرون من الاسبان والفرنجة يضيقو،ن الخناق على العرب في الأندلس وما يجاورها من الجزر في بحر الروم (البحر المتوسط)، وقيل ان في بعض هذه الحملات احس صلاح الدين الايوبي صاحب عرش مصر والشام بحاجته إلى معونة المسلمين في المشرق والمغرب، على رد عادية الصليبيين على بلاده؛ فأرسل الرسل والكتب الى أمراء المسلمين هنا وهناك، وكان في من ارسل اليهم صاحب عرش المغرب والأندلس من امراء الموحدين، وخاطبة برسالته "امير المسلمين.." قالوا: فغضب خليفة مراكش، اذ لم يخاطبه صلاح الدين "أمير المؤمنين" فلم يستمع لندائه.
وخلال ذلك ظهر المماليك المصريون في ذلك التاريخ بأرض افريقية، وأميرهم شرف الدين قراقوش مملوك تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين...، فحالفوا عرب بني هلال، ونزعوا الى الشر، وأغاروا على الأطراف الشرقية لمملكة الموحدين، ففتحوا كثيرا من المعاقل واستولوا على كثير من البلاد؛ المراكشي: المعجب، ص: ٤١٢، ٤١٤.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب في اختصار ملوك الأندلس والمغرب، ق٣، ص:١٨٠؛ ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢١٩.
يذكر الاخير ان المنصور غزا شلب والمناطق الغربية من الاندلس، وعاد إلى قرطبة يجر وراءه ثلاثة آلاف اسير نصراني مقيدين بالحديد، وخمسة عشر الف سبيه من عقائل وأبكار بنات الروم، صنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م.

وللقارئ أن يتلقى باعجاب بالغ المعلومات التي اعطاها المراكشي في المعجب عن عادات الموحدين في إقامة الجمعة.[1] والمعلومات التي اوردها صاحب الحلل الموشية عن ترتيب السفر.[2] وله أن يندهش اكثر ويشعر بمتعة زائدة اذا قرأ عند ابن صاحب الصلاة "التشريفات"[3]، وبمناسبة تنصيب العمال الجدد، وعند خروج الخليفة للغزو، وعند أداء اليمين من المؤيدين الجدد، وكذا جلوسه في الصباح المبكر مجلس التهنئة، وتقديم الوزير الحاجب للأشياخ والكبراء، وأبناء الجماعة وطلبة الحضر والقضاة والكتاب والولاة، والشعراء، وعند الاستقبالات الخليفية الفخمة التي كانت تجري في بحيرة مراكش، بل والعادات عندما يلازم الخليفة فراش المرض، ويخرج في أثنائه للمسجد.[4]

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٤٨٥-٤٨٩،
يقول حول اقامة الجمعة: "فيخرج -أي الخليفة- عند زوال الشمس من خوخه في القبلة، ويخرج معه خواصه (حشمة)، ويركع ركعتين ثم يجلس، فيقرأ قارئ قدر عشر آيات... ثم يقوم رئيس المؤذنين ومعه العصا التي يتوكأ عليها الخطيب، فيقول: "قد فاء الفيء يا سيدنا أمير المؤمنين والحمدلله رب العالمين"... فيقوم الخطيب ويصعد المنبر، ثم يناوله ذلك الرجل العصا، فإذا جلس الخطيب فوق المنبر، أذن ثلاثة من المؤذنين مفترقين، أصواتهم في نهاية الحسن.. ثم يقوم الخطيب فيخطب، فأول شيء يقول: "الحمدلله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور انفسنا وسيئات أعمالنا.. إلى أن يقول: أسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله، ويتبع رضوانه، ويجتنب سخطه، فانما نحن به وله...".
ثم يتعوذ ويقرأ سورة (ق) من أولها إلى آخرها ثم يجلس، وإذا قام إلى الخطبة الثانية قال:
"الحمدلله نحمده ونستعينه، ونتوكل عليه، ونبرأ من الحول والقوة اليه، ويتشهد ويصلي على الرسول وأصحابه إلى أن يقول: وعلى الامام المعصوم المهدي المعلوم أبي عبدالله محمد بن عبدالله العربي القرشي الهاشمي الحسني الفاطمي المحمدي، الذي أيد بالعصمة، فكان أمره حتما... وعلى وارث شرفه الصميم قسيمه... في النسب الكريم المجتبي لوراثة مقامة العلي، الخليفة الامام ابي محمد عبد المؤمن بن علي، وعلى أبي يعقوب ولي ذلك الاستخلاص، اللهم وارض عن المجاهد في سبيلك، المحي سنة رسولك الخليفة الامام ابي يوسف امير المؤمنين ابن امير المؤمنين، ابن امير المؤمنين، وعلى الخليفة الامام ابي عبدالله ابن الخلفاء الراشدين- ويعني الناصر- اللهم وانصر ولي عهدهم... واجعل لهم من عضدك وتأييدك اعز ظهير وأكرم نصر..." ثم يدعو وينزل فيصلي، فإذا فرغ دعا الخليفة بنفسه...".

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٤٨.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٥٧.

(٤) المصدر نفسه، ص: ٤٢٠، ٤٥٦.

وكم تجملت البلاد بالحشود الشعبيه لاستقبال الخليفة وتوديعه، تعبيرا عن الطاعة وإظهاراً للمحبة، في مهرجانات تسمى (التبريز)، حيث لا يبقى من أعيان البلاد وعلمائها وشعرائها من لا يخرج لاجتلاء طلعة الخليفة والتبرك بوجوده.[1]

ومثلها تجديد البيعة للأمير الخلف، فيبايع المصامدة أولا، ثم الناس من مختلف الفئات ثانياً، ومن عادة الأمير أن يجلس في ديوانه يستقبل وفود المدن كل شهر مرتين، يستوضح منهم عن أحوال السوق، ومدى توافر المواد الغذائية فيها، واسعارها، وعن سيرة حكامهم، وقضاتهم وولاتهم، فاذا ما نوهوا بأعمالهم خيرا، حملهم مسؤولية شهاداتهم يوم القيامة، وربما تلاعليهم في بعض هذه الجلسات، "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين"[2].

يلوح مما سبق أن اصبحت الحرية الاجتماعية شعارا للدولة، فلا يقدمون على عمل صغير أم كبير، الا بعد طرحه على أهل الحل والعقد لنيل القبول، فهم اذن، عند قيامهم بغزوة أو تشييد مبان ومنشآت داخل الدولة، يلجأوون إلى أهل الاختصاص لصنع القرارات بخصوص ذلك، واخذ مواقفة الشعب عليها، وتتجلى في شكل رسائل توقعها الطبقة المثقفة في البلاد وتبعث بها الى السادة.[3]

هكذا بدت لنا الحياة الاجتماعية في بداياتها، أنها كانت متأثرة إلى حد كبير بدعوة المهدي وآرائه الجدية، أي أنها تمثل خطا عاما في حياة المغرب الاجتماعية القائمة على العلم والعقيدة والتميز في التجديد والتقشف، وبخاصة في مكافحة الغناء والطرب، اللذين يعتبرهما مرشد الثورة لهوا وفسقا، لذلك استخدموا عصا غليظة في تكسير أدوات الطرب وآلات الموسيقى كما مر سابقا.[4]

---

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٠٩.

(٢) قرآن كريم، النساء، ١٣٥/٤٢؛
المراكشي: المعجب، ص:٤١٠.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٣٥٣.

(٤) البيدق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص:٦٠-٦١؛
رسائل موحدية، ج١٠، الرسالة الثالثة والعشرون؛
B. Meakin: The Morrish, empire, pp, 65-66;
J.W. Ahistory of the Jews, in the north of africa, p122.

ولقد بالغ الموحدون بعد وفات ابن تومرت في محاربة، اللهو، فالخليفة عبد المؤمن أصدر أوامره إلى ولاته سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م في طول البلاد وعرضها، أمرهم باغلاق دور الملاهي والمواخير ان وجدت ومطاردة روادها أينما ثقفوا.(١)

ورغم هذا نراهم يغضون الطرف عن تعلم الموسيقى، فإن ابن طفيل العالم والطبيب، والمهندس، والكاتب والشاعر، والجندي المحترف، كان موسيقيا فيقول: "ولو نفق عليهم علم الموسيقى لأنفقنه عندهم"(٢). في حين استقبلت النساء الخليفة المنصور ضمن المستقبلين أثناء زيارته قبر المهدي في تينمل، وهن يغنين ويضربن بالدفوف :" يولون ... ويقلن... صدق مولانا المهدي: نشهد أنه الامام حقا"(٣)

غير أن صورة الحياة الاجتماعية قد تبدلت في عهد الموحدين، وتغيرت تغيرا واضحا في معالمها، ومسالكها العامة، ولم يكن تبدل هذه الحياة إلى هذا الحد، الا نتيجة حتمية للحرية الفكرية والاجتماعية، التي منحها الموحدون إلى مجتمعهم، وهذه بلا شك ميزت تاريخهم عمن سبقهم، وطبعت عهدهم بطابع خاص منفرد، له حلاوته، ووضوحه، واشعاعه، وهي اذ تركت اثرها في الممارسات العلمية والفلسفية كما سنرى، فمن الأجدر أن تترك بصماتها على الحياة الاجتماعية، وعلى سلوك الأفراد والجماعات، وعلى دواوين الدوله، ومجالس الامراء والخلفاء. وهذا واضح فعلا في مجتمع الاندلسيين، فأخبارهم واشعارهم لهي مؤشر مهم، إلى ذلك التحرر والانطلاق، مصورة مجالات البذخ في أفراحهم، والترف واللهو التي لونت اجتماعاتهم اللاهية العابثة المتحللة، وصبغت مجالسهم الخمرية الصاخبة في استهتار وتجاوز لكل عرف ديني أو أثر اجتماعي.

ويعتبر ابن سعيد الاندلس خير من أطنب باسهاب وتفصيل عن تلك الجوانب السادرة من حياتهم العابثة، ذاكراً مروج لهوهم، واصفا بالشعر والنثر امسيات

---

(١) ابن القطان: نظم الجمان، ص:٢٣، ٢٤، تح ونشر، محمد علي مكي، المغرب، ١٣٨٠هـ/١٩٦٢؛ رسائل موحدية : الرسالة الثالثة، ص: ٥٩؛ الرابعة، ص:٦٩؛ والثالثة والعشرون، ص:١٣٤.

(٢) المراكشي: المعجب، ص:٣٥٠.

(٣) خرج المنصور يوما الى تينمل ومعه جماعة من الغز، فجلسوا تحت شجرة خروب مقابلة لمسجد المهدي، وقد كان ابن تومرت ان قال يوما لأصحابه: "ليبصرن منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر- مستظلين بهذه الشجرة قاعدين تحتها.." فلما جلس الغز على الصفة المتقدمة، كان ذلك اليوم في تينمل يوما عظيما ومشهودا، فهتف الرجال بالتهليل والتكبير وجاءت النسوة يولون...
المراكشي: المعجب، ص:٤١٦، ٤١٧.

شرابهم،[1] وتفانيهم في البحث عن اللذات المادية من خمر وجسد[2] ناقلا أخبار المدمنين وقصص فتيان الراح المعاقرين لدنانها ونوادرهم، اذ كانوا ندماء صبوة وخدم شهوة، راضعين لأخلاف البطالة، موغلين في طرق التهتك، بين قهقهات الأباريق وقرقرات الكؤوس[3]

(١)
ولا لحظ الا راتع في خميلة — ونهر وخلّ بالحياء مورّد
ولا سمع الا سامع ما يريده — حديث حبيب أو أغاريد منشد

ودعا ابن سعيد صديقه يوما الى مرج الفضة بهذه الأبيات
هلم أبا اسحاق نحو نزاهة — كمثل التي عوّدت بالدّوح والنهر
وتبدي لزهر الروض والورد وجن — وثغرفم أندى من الورد والزهر

فيرد عليه صاحبه الجواب:
أبا حسن لاحسّن الله حالة — تحوّج أرباب الشباب الى العذر
فوالله ما في الأرض مجلس راحة — بغير حلى الراح التي سكبت صبري
سألفها الف العتيق كتابة — ولا أشتهي وردا سواها لدى الحشري

ابن سعيد: القدح المعلي في التاريخ المحلي، ص:٧٣، ٧٤.

(٢) كان ابن صناديد (ت ٥٤٣هـ/١١٤٨م) يلازم سكنى غرف بشنتبوس، مكبا على الكؤوس والنساء، وكل يوم في كفه قدح بين مذهلات الناي والوتر، اذ قال:
لا تكن تعشق الا — أملح العالم طرا
فإذا مت غراما — وهوى الفيت عذرا
عجبا ممن يرى الشمس — ويصفى الحبّ بدرا

وقال غيره في غلام:
يا ابدع الخلق بلا مرية — وجهك فيه فتنة للناظرين
طوبى لمن قد زرته خاليا — فمتع النفس ولو بعد حين
من ذلك الثغر الذي ورده — ما زال فيه لذة الشاربين
و ما حوى ذاك الإزار الذي ج — لم يعد عنه أمل الزائرين

وقال آخر وكان كاتبا لعثمان بن عبد المؤمن:
لا تدعني الا لشدو وراح — وشادن كالمهرجمّ المراح
مهفهف همت له وجنة — تسفر في جنح الدجى عن صباح
اسكتني الخوف كخلخال — لكن هواه ردني كالوشاح

ابن سعيد: القدح المعلي، ص: ١٤٣، ١١٣؛ المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص:١١٣

(٣) قال أبو يحيي بن هشام القرطبي، شيخ الكتاب في أوانه:=

وراويا قول بعضهم في سبيلها ومن أجلها[1]. فقد كان في اشبيلية وحدها عديد من المتنزهات والمروح؛ مرج الفضة، والعروس، والسلطانية، وطريانة. وشنتبوس، ووادي

= ويـوم شربنـا فـوق شـاطئ جـدول ... هـو الـذّرّ مياعـا يسـمونه نهـرا
كبـار زجاجـات اعـادت عقولنـا ... عقـول صـغار تحمـل النّفـع والضرّـا
ولمـا انفصـلنا بالمصـلى عشـية ... تنـاثر سـلك كـان منـتظما درّا
وصرت وذهنـي عـازب غـير حـاضر ... وقـد قيـدت عـن خطوهـا قـدمي سـكرا
إلى أن اتـاح الله لي نجـل حـرة ... حـداني إلى المثـوى فيسرـ لليسرـى

وقال ابو الحجاج البياسي مؤرخ الأندلس، وكان مدمنا على الخمر ملازماً لها، اذ دخل عليه في ساعة شربه شيخ ضخم الجثة: ثقيل الظل:

آسـقني الكـأس صـاحبه ... ودع الشـيخ ناحيـه
ان تكـن سـاقيا لـه ... لـيس ترويـه راويـة

بن سعيد: القدح المعلي، ص:٩٢، ٩٣ نفسه: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٤٢٧.
المقري: النقح، ج٤، ص:١٨١.

(١) وقد وصف الشاعر ابو الحسن رضي بن رضا المالقي انهماك الناصر الموحدي في شرب الخمر، أنه كان لا يصحو منها فقال:

اشرب عـلى البحـر بحـرا ... والـتم عـلى الزهـر زهـرا
وانظـر لدهـر تـأتي ... فكـم تشـكّيت دهـرا
ولا تمـل لميـل ... لا يقبـل الدهـر عـذرا
خلعـت فـي الكـأس عـذري ... فـأخلع فـديتك عـذرا
أولا فدعنـي فـإني ... أمحـق العـمر سـكرا

ابن سعيد: المغرب في حل المغرب، ج١، ص:٤٢٦، ٤٢٧؛ وقال بعض المستهزئين:

اذا لاح الهـلال فقـم اليـه ... بإهـلال لتوديـع الصـيام
وقـل ان قيـل حـيّ عـلى حـلال ... صـباح الفطـر حـيّ عـلى حـرام
ولا تسـمح بقـدر اللحـظ الا ... تلاقـي وفـد أكـواس المـدام

وقال في استهتار وافتخار كذلك:

إذا اسمعـت حـي عـلى الفـلاح ... فقـم في نحـو ريحـان وراح
وصـلّ الى وجـوه مـن جـمال ... كسـاها الحسـن اردية الصـباح
ولا تـستدع الا كـلّ خـلّ ... يسرّـك في دنـو وانشرـاح
يقـيم كأيكـة يـهتز لينـا ... ويرحـل كالنسـيم عـلى البطـاح

ابن سعيد: القدح المعلي، ص:١٧٩، ٨٦، ١٠٨، ١١٠. وقول بعضهم:

آهـوى محادثـة النـدّمان في السـحر ... ونغمـة الطـائر المصـغي الى الـوتر
وقـول سـاقي النـدامي حـان شربكـم ... عـلى بقايـا شـعاع البـدر في النهـر
وقـد غـدت رنـة الـدولاب موقظـة ... إلى الصـبوح عيونـا دنّ بالسـهر
والكـأس ضـاحكة في كـفّ شـاربها ... كـالبكر تمـرح بـين الأنـس والخفـر
لا ضـيّع الله الا مـن يضـيع أو ... قـات الأصـائل للـذات والبكـر

المصدر نفسه، ص:١٨٦.

الطلح[1]، وفي غرناطة؛ حور مؤمل، واللشتة، والزاوية، والمشايخ، ومرج الشنيل[2]، وفي قرطبة؛ وادي العقيف والرصافة، ووادي الدير، وبطحاء عبدون، وأبواب جيرون، وعنين، وقضبان نعمان، وكثبان بيرين، والدير، ومتنزه الدمشقي، والمنية المصحفية، ومنية الزبير، والقصر الفارسي، ومرج الخز، وفحص السرادق، والسد (الأرحا) ومنية المنبر[3]

أمّا في المرية؛ منى عبدوس، ومنّى غسان، والنجاد، وبركة الصّفر، وعين النطية[4]. هذا فضلا عن منازه منبثة في جميع انحاء الاندلس، في كل قرية ومدينة، كالمنية العامرية، ومنية السرور، ومنية الناعورة[5]، وجنة وادي العسل، والعروش، وعين القدح، والرشاقة، والزنقات، وجبل أيل[6]، ومن أبدع المنازه وأشهرها، الرّصافة ومنية ابن ابي عامر في بلنسية[7].

وفي ظلال هذه النّزة، وبين ادواحها، وفي وسط تلك المروج، وترنم أطيارها، وعلى حافات الجداول ومنحدراتها؛ يكون منسرح العشاق، واحتشاد مغاني الأنس، ونضارة النعيم، ومجالس اللهو، وكواعب الطرب[8] وكان التطرف صفة هذا التيار، فما عاد يحس بخوف الرقيب، أو سلطة الحكام، أو حذر العقاب، فقد وجدنا من دعا للعشق حتى الموت، وإلى الشرب المدمن الذي لا يعرف الصحو "(متكئاً على دنّ مستنداً إلى خابية"، والاغراق في متع الحياة بنهم الظمآن الذي لا يرتوي، يتنقلون على ضفاف الانهار وشطآنها حفيلة الجنان، مغرمين بالحسان، ومنقادين إلى طاعة الغلمان، يجولون بين أصناف الملاهي التي تعج بالرواقص المشهورات، كأنهن خلقن للهو، وزينة المنزع، هكذا كان لهم حظ وثير المهاد في الترف والنعيم والمجون، والعيش بين شدو ورقص وتعانق (وتغامز بنواظر)[9]

---

(١) ابن سعيد: القدح، ص: ٧٣؛ المقري: النفح، ج١، ص:١٧٣.
(٢) المصدر نفسه، القدح، ص:٨٦، ١٠٨، ١١٠؛ المغرب، ج٢، ص:١٠٣
(٣) المقري: النفح، ج٢، ص:١٧-٢٦.
(٤) ابن سعيد: المغرب، ج٤، ص: ١٩٣- ١٩٤.
(٥) المقري: النفح، ج٢، ص: ١١٨.
(٦) ابن سعيد: القدح، ص: ٨٦، ١٠٨، ١١٠، المغرب، ج٢، ص: ٢٤٦.
(٧) المقري: النفح، ج١، ص: ١٧١؛ ابن خاقان: مصحح الأتفس، ص: ٣٤٧.
(٨) ابن سعيد : القدح، ص: ٧٣.
(٩) المقري: النقح، ج٢، ص: ١٧٥- ١٨٥، ١٩٩، ج١، ص: ١٩٧، ١٨٠، ومن قولهم:

وهوينـــه يســـقي المـــدام كـــأه	**قمـــر يـــدور بكوكـــب في مجلـــس**
يســـعى بكـــأس في أنامـــل سوســـن	**ويـــدير أخـــرى مـــن محـــاجر نـــرجس**
عنـــا بكأســـك قـــد كفتنـــا مقلـــة	**حـــوراء قائمـــة بشـــكر المجلـــس**

ولم يكن هذا الهيام في الشطحات والترويح بزيارة المتنزهات، قاصرا على الرعية، بل مارسه كذلك الخلفاءالموحدون، فقد أنشأوا البرك والبحيرات، وغرسوا البساتين والجنات، وكانوا دائمي الاختلاف الى تلك الأماكن، تتوسطهم جواريهم ومغنياتهم في شطحاتهم بين المروج والرياض.(١)

وكذا الولاة كانوا يخرجون مع خاصتهم وخدمهم إلى المشمومات والمعروشات، يتمتعون بلياليهم العابثة وبرؤى الجداول والأنهار تنساب بين الخمائل والأشجار.(٢) اذ حينما يكون الترف، وكان في القصور والحاشية، كان التحلل والتميع والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الارستقراطية.

ان هذه المتفرجات كان لها وقع حسن في قلوب الناس، حيث يذهبون اليها في المناسبات السعيدة، كالاعياد والاحتفالات يمارسون اللهو غير البريء والغناء والطرب، واستمر هذا الحال إلى أواخر الدولة الموحدية؛ منهم من اتخذ الشراب والخلاعة ملاذا للترفيه، وهذا دليل كاف يدين الى حد ما عقيدة المهدي المتشددة التي لم تعرف حدا للاعتدال والتوسط، فقضت تعليماته بالقتل دون غيره لكل من لا يؤدي الصلاة، أو يمتنع عن دفع الزكاة، أو يشرب الخمرة(٣) علما أن التعاليم الاسلامية لا تأمر بقتل شارب الخمر، وإنما تضع عليه الحد بنعلين أربعين جلدة، أو بجريدتين من نخيل اربعين جلدة، أو ثمانين جلدة بسوط، وإن تجاوزت السنة و قتلت تارك الصلاة، أو مانع الزكاة، فكان هذا لا ينفذ الاوسط ظروف سياسية نادرة للمحافظة على سيادة الدولة.(٤)

وأقبل الاثرياء وأصحاب المراتب العليا أواخر دولة الموحدين، على الاستكثار من الجواري، والعمل على تأديبهن، وتعليمهن الغناء والطرب؛ فكان لأبي علي بن يبقى والى مالقة جارية بارعة الجمال، قام على تأديبها وتعليمها الغناء، وكان يستدعي السادة الامراء الى حفلاتها الراقصة التي تحييها، فاشتهاها مرة ابو العلاء المأمون بن يعقوب

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:٢٩٤؛ المقري: النفح، ج٧، ص:١٨٦؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٠٤.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٢٩٩؛
ابن سعيد: القدح المعلى، ص:٨٦-١٠٨- ١١١، ١١٤- ١١٣.

(٣) رسائل موحدية: الرسالة الثالثة والعشرون، ج٠١، ص:١٣٣، أصدرها بروفنسال، الرباط، ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م.

(٤) محمد منلامسكين: الكنز، ج٢، ص:٣٧٠، ط٢ بولاق، القاهرة، ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م.

المنصور، وطلبها منه لكن الوالي ضن بها عليه؛ لثقافتها وعلو كعبها في الطرب والغناء، فكتمها الأخير في نفسه، إلى أن اصبح خليفة المسلمين سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، فطلب من والي مالقة الحضور إلى العاصمة اشبيلية، وضرب عنقه فيها[١].

ان السبب في غضب الأمير، ربما لم يكن في عدم تمكنه من جارية الوالي، التي كانت تتميز بثقافة فنية جامعة الى جانب الجمال الرائع الذي كانت تتحلى به، بقدر ما كان من تمرد الوالي وعدم تلبية طلب أميره في أمر بسيط عارض كهذا، فكيف به اذا طلب منه أن يركب مركبا صعبا لحماية الدولة ودرء الخطر عنها، أو طلب منه الاستقالة مثلا، فمن المحتمل أن يثور ويؤلب الناس ضد الامارة، فاقتضت مصلحة الدولة تصفيته في الحال عند اول فرصة.

ثم بدا لنا مدى الترف الذي عاشه الموحدون عند رجوعهم من احدى المعارك. فقد انصرف الخليفة ابو يعقوب بعد فشل معركة وبذه[٢] Huete سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، وتوجه الى مرسية ضيفا على هلال بن مردنيش وأقاربه، فخرج جميع أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم رجالهم ونساؤهم لاستقباله يغنون ويرقصون على أنغام الموسيقى والطبول، فضلا عن هبات الأكسية والأرزاق التي تزيد عن حاجة الجيش، ومما ادهشهم ان رأوا: "الجواري الكعاب والسراري ذوات الحسن والشباب" وقد وزعت على كبار رجال الجيش والامراء والاعيان منهم.[٣]

عادوا للظهور مرة اخرى، وانتشروا بصورة ازعجت الخلفاء ففي حوادث سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م، يقول ابن عذاري عن الخليفة المنصور: "لما رأى التساوي في الانهماك والاغترار، وسمع المجاهرة والاستهتار والتنافس في الشهوات، ونفاق سوق الغانيات الملهيات، تنكر وغضب في الله لذلك المنكر، وأضرب عن القال والقيل وجعل الإنذار والإعذار مكان السيف الصقيل".[٤] فأمر بمنع المسكرات، وجعل عقوبة الموت لكل من يمارس ذلك اللهو.

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص:٤٩؛ كان المأمون أمير الأندلس آنذاك، وعاصمته اشبيلية، قبل أن يلي إمارة المؤمنين، فلما جاءته، الخلافة، دعا لنفسه فيها قبل أن يرحل الى مراكش.

(٢) وبذة: حصن قديم يقع في مقاطعة قونقة، وغرب طليطلة؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص:٣٥٩؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٨٧.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٥١٤،..

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ص:١٤٣-١٤٤.

وابتعد الموحدون أول أمرهم عن ارتداء الملابس الزاهية الغالية الثمن والمصنوعة من الحرير والديباج المطرز، اذ كان ابن تومرت امامهم المؤسس لدولتهم يلبس الثياب المرقعة اقتداء بعمر بن الخطاب، وله قدم في التقشف وفي العبادة.(١) وسار على طريقة في الزهد والتواضع في اللباس والمعيشة تلميذه وخليفته عبد المؤمن بن علي؛ فاكتسى من الثياب خشنها، ومن الطعام أقله وأدومه، وربى أولاده على ذلك.(٢)

لذا لم يحرص بنو عبدالمؤمن في بداية الدولة على إقامة مصانع دور طراز خاصة بهم لصناعة الملابس الحريرية والديباج المحلي بالذهب والأحجار الكريمة، وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب، انما أقاموها في أواخر الدولة.(٣)

ثم أخذ الموحدون يقلدون الأندلسيين شيئا فشيئاً في ارتداء مختلف انواع الديباج من الملابس الحريرية والصوفية والكتانية والقطنية، فأقبل الخلفاء وكبار رجال الدولة وعامة الناس رجالا ونساء على اقتناء تلك الملابس(٤) فنشطت دور الطراز الخاصة بهذا النوع من الملابس في كل من مرسية وبلنسية وغرناطة وبسطة ومالقة والمرية.(٥)

عم هذا الاسراف في اللباس عامة الشعب مما جعل الخليفة المنصور يصدر مرسوما ملكيا بعدم ارتدائه سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م، وأن المنصور نفسه قد أظهر بعد عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، زهداً في الحياة والتقشف، وقد عاد الناس بعد المنصور الى ارتداء الملابس الحريرية المطرزة والديباج الموشى(٦).

بالغ الموحدون في هذا العهد في نسج الأقمشة الحريرية، بأنواع الجواهر واليواقيت والأحجار الكريمة، وشاهدنا مدى الترف الذي بلغته البلاد زمن الناصر، تلك الهدية التي قدمها الخليفة الى علي بن الغازي (من بني غانية) عندما أعلن توحيده، وقدم ولاءه وطاعته للدولة. وكانت ثوبين نسجا بأنواع الجواهر، وحليت بنقوش من اليواقيت والأحجار النفيسة.(٧)

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٥.
(٢) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٠٤.
(٣) ابن خلدون: العبر، ج١، ص:١٧٣.
(٤) ابن الخطيب: الاحاطة، ج١، ص:١٣٤-١٣٩.
(٥) المقري: نفح الطيب، ج٤، ص:٢١٠.
(٦) المراكشي: المعجب، ص:٤٠٠.
(٧) الجزنائي: زهرة الآسى في بناء مدينة فاس، ص:٣٣؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٤، ويقول ابن خلدون بخصوص الكافي(ابن الغازي): "فناله من الكرامة والتقريب ما لا فوقه"؛
المقري: نفح الطيب، ج٤، ص:٢١٠، تح- يوسف الشيخ، دار الفكر، ١٤٠٦/١٩٨٦.

واتخذ الموحدون العمائم ذات الاثمان الباهظة التكاليف، وهي من جملة الهبات التي كانت توزع على الحاشية وأفراد الجيش[١]. إلا أنّ سكان شرق الأندلس، قد حسرت رؤوسهم وكانت دون أغطية، على عكس ما كان الناس في غرب البلاد[٢]. لقد تأثر الأندلسيون بالأردية المغربية، فاستعملوا الأردية الأفريقية والمآزر والمقاطع التونسية[٣].

أما اليهود الذين أسلموا بالمغرب وفي الأندلس كان لهم زيهم من الملابس الكحلية، ذات الأكمام المفرطة السعة حتى تصل إلى أقدامهم، والزمهم المنصور بارتداء هذا اللون من اللباس، وقد كرهوا هذا اللباس، وحاولوا تغييره، فتوسلوا إلى الخليفة الناصر، وكلموه في ذلك، فغيره بلباس أصفر اللون[٤].

غير أن الموحدين لما شكوا بصدق نوايا أهل الذمة وبخاصة اليهود منهم لم يتسامحوا بإقامة ديانتين أوأكثر على أرض واحدة، وقالوا لن يجتمع دينان في المغرب، فحظروا اختلاط اليهود بالموحدين؛ لأن وجود فئة لا تدين بمباديء الدولة، ولا تخضع لقوانينها أمر بالغ الخطورة في كيان الدولة الداخلي، وكان لا بد أن تخضع هذه الفئة لنظام الدولة أو تحاربه، فمنهم من أسلم وحسن اسلامه، ومنهم من هاجر وترك البلاد، وقسم أخر كان مترددا في اسلامه، وفضل الاقامة بالمغرب يظهر خلاف ما يبطن، وإلى هؤلاء توجه المنصور في شكه وتردده في شأنهم، وكان يقول: "لو صح عندي اسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين.... في سائر امورهم، ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم.. ولكني متردد في أمرهم"[٥].

الطعام والشراب:

بين صاحب كتاب الطبيخ[٦] ألوان الطعام الذي شاع في بلاد الأندلس والمغرب خلال عصر الموحدين، وذكر طريقة طهي كل لون، وألمح إلى أسماء البلاد أو المدن التي

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٠٢.
(٢) المقري: نفح الطيب، ص:٢١٠.
(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص:١٣٤-١٣٥.
(٤) المراكشي: المعجب، ص:٤٣٤، ٤٣٥.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) هو مؤلف أندلسي، لم يذكر اسمه ولا عنوان كتابه.. عاش في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، عثر على كتابه المستشرق الاسباني امبروثوهويتي مراندا، فحققه ونشره في مجلة مدريد للدراسات الأسلامية ضمن مجلدين، ٩، ١٠، لسنتي ١٩٦١-١٩٦٢، ص:١٨-٢٢٥.

تخصصت في لون من ألوان الطعام، وأضاف اسماء بعض الخلفاء والوزراء والولاة الذين ابدوا رغبتهم بنوع خاص من الطعام، فكان من أشهر هذه الأنواع بالاضافة إلى طريقة عمله:

١. نوع من الأحرش:

استعملة السيد أبو الحسن[١] وغيره بمراكش، وكانوا يسمونه اسفيريا، يؤخذ كمية من لحم الغنم الأحمر، ويطحن طحنا جيداً، ويفرك بالخل والزيت والثوم المطحون، والفلفل والزعفران، والكمون والكزبرة، والزنجبيل والقرنفل (ويعرك بالمري النقيع والسنبل)، ثم يؤخذ كمية من اللحم ودهنه المطحون، وقليل من البيض، ويعمل من كل هذه خلطة على شكل اقراص لا تتجاوز سعة كفه اليد، وتوضع في الزيت على نار هادئة حتى تحمر، ثم يصنع لها شراب من خل وزيت وثوم أو بدون ذلك.[٢]

٢. لون المخلل:

يؤتى بمقدار من لحم البقر أو الغنم السمين، ويقطع قطعا صغيرة، ويغمر بالخل والزيت في وعاء كبير، دون ماء، مع الملح والفلفل والكزبرة اليابسة، والكمون والزعفران، وكمية من الثوم المقطع واللوز، ويوضع الجميع على نار هادئة، ويحرك حتى يغلي، وينضج وبعدها يضاف اليه صفار البيض والقرفه وغيره، ويصبغ بالزعفران، وهذا يسمى ببلاد المغرب طعام الأعراس، وقد اشتهرت به قرطبة واشبيلية.[٣]

٣. صنعة البلاجة:

كانت تستعمل في بلاد ما بين قرطبة ومراكش، يؤخذ من لحم الغنم السمين دون عظم ولا عصب، وقطعا اخرى من شحمه، وامعائه وكبده، وقلبه وكرشه، ويصار الجميع

---

(١) هو أبو الحسن علي بن أبي حفص عمر بن عبدالمؤمن، كان من أجل اهل بيته قدرا وأطيبهم ذكرا، وأسفحهم يدا وأمنعهم سندا... كان مألفا للشعراء والادباء، ولاه الخليفة المنصور على مراكش خلال احدى سفراته عنها، ثم ولاه الخليفة الناصر تلمسان؛ ابن سعيد: الغصون اليانعة، ص:١٥٠-١٥١، تح، ابراهيم الابياري، نشر دار المعارف بمصر، ١٩٤٥/١٣٦٥؛ بينما يذكر المقري: النفح، ج٤، ص:١٠٧؛ انه كان- اي ابو الحسن- من أهل الأدب ولي بجابه مدة، ثم عزل عنها لاهماله وانهماكه في ملاذه، وقيل انه ولي بجايه وتلمسان، ويده في الجود لا تطاول، ونفسه عالية زكية.

(٢) كتاب الطبيخ، ص:٢٢.

(٣) كتاب الطبيخ: ص:٢٦.

إلى قطع صغيرة، ثم يضاف إلى الخليط الملح والبصل مقطعاً، والكزبرة اليابسة والزبيب، ويجعل في قدر على نار هادئة حتى ينضج، ثم ينزل عن النار ويصفى من المرق، ويقلى في مقلاه بالزيت حتى يحمر، ويضاف اليه قسم من مرقه، ويفقس عليه كثير من البيض، وينثر عليه الفلفل والكزبرة، واللوز المقشر والمكسر وصباغ الزعفران، ويغمر بالزيت، وصفار البيض مرة أخرى، ويدخل في فرن، ويترك حتى يجف ماؤه، ويحمر وعندها يخرج.[١]

٤. الحوت المروج:

اشتهر بتناول هذا اللون من الطعام اهل بلاد غرب الاندلس، وأهل سبته على الخصوص، فكان يحضر من السمك، يقطع ويقشر، ويسلق في الماء والملح لوقت قصير، ويترك جانبا حتى يجف من الماء، ويؤتى بوعاء فيه كمية من الزيت، ويوضع على نار هادئة حتى يغلي، ثم يقطع السمك المسلوق، ويغمر في الزيت حتى يحمر، ويرفع عن النار، وينشل من الزيت في وعاء، ثم يؤتى بالفلفل والكمون والثوم والصعتر والقرفة، ويغمر الجميع بالزيت، ويرفع على نار هادئة حتى يغلي، ثم تؤخذ قطع السمك وتوضع في الخلطة وتقلب، وتبقى حتى لا يبقى إلا الزيت وحده، وينزل عن النار حتى يبرد[٢] .

٥. طعام المجبنة:

يؤخذ من جبن البقر والغنم بنسبة الربع إلى الثلاثة أرباع، ويمزج معا ويحرك حتى يتماسك ويختلط اختلاطا جيدا، ويضاف اليه الحليب عند الضرورة، وهذا الطعام اشتهرت به على الخصوص مدن، قرطبة واشبيلية، وشريش وغيرها من بلاد غرب الأندلس..[٣]

٦. طعام الرفيس:

هي عجينة من السميد المخمر الصافي مع قليل من الملح، ويخلط بالزبدة والعسل المصفى، ويخبز في تنور بحيث يبقى خبزه مفتوح المسام منفوشا.[٤]

---

(١) المصدر نفسه، ص:٤٩.
(٢) كتاب الطبيخ: ص:٢٦.
(٣) المصدر نفسه، ص:١٩٩.
(٤) كتاب الطبيخ، ص: ٢٠٤.

٧. عجل مشوي:

كان يصنع للسيد أبي العلاء اخي الخليفة أبي يعقوب يوسف حين كان واليا على سبتة.

يؤتى بكبش سمين مسلوخ منظف مفتوح بين فخذيه فتحاً ضيقاً، ويخرج ما في جوفه من احشائه، ثم يوضع في جوفه اوزة مشوية، وفي داخل الاوزة دجاجة مشوية، وفي احشاء الدجاجة فرخ حمام، وفي جوف الفرخ زرزور مشوي، وفي بطن الأخير عصفور مشوي، ويدهن الجميع بالسمن أو المرق الموصوفة للشواء، ويخاط ذاك الفتح، ويوضع الكبش في الفرن المحمي، ويترك حتى ينضج ويحمر، ثم يدخل في جوف عجل قد أعد مسلوخا منظفا، ويخاط عليه، ويصار في التنور المحمى، ويترك فيه حتى ينضج ويحمر، ثم يخرج ويقدم.(١)

٨. طعام الثومية:

كان يصنع عادة للسيد ابي الحسن فيستطيبه، هو عبارة عن دجاجة سمينة، يخرج ما في جوفها وينظف ويترك جانبا، ثم يؤخذ كمية محددة من الثوم المدقوق ويخلط ما أخرج من جوف الدجاجة بالزيت، ثم يوضع مع الدجاجة في وعاء مع الملح والفلفل والقرفة والزنجبيل والقرنفل، والزعفران، ومع قسم من اللوز المدقوق وغير المدقوق، ويغلق الوعاء بالعجين ويدخل الى الفرن حتى ينضج ثم يخرج ويقدم غذاء شهيا.(٢)

٩. مجبنة البيض:

يوضع البيض على العجين، ويحرك تحريكا جيدا حتى لا يكاد يظهر عليه علامات البيض، ثم يفقس عدد آخر من البيض ويحرك معا، ويضاف اليه التوابل من اليانسون وغيره، ثم يؤخذ ويحشى به العجين وتقلى على النار بالزيت. وهذه كانت من الاكل المفضلة لأبي سعيد بن جامع.(٣)

---

(١) المصدر نفسه، ص: ٣٢، ٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٤٦.

(٣) هو ابو سعيد عثمان بن عبدالله بن ابراهيم بن جامع سليل اسرة تولت منصب الوزارة كثيرا للخلفاء الموحدين.. كان أبو سعيد المذكور وزيرا للخليفة الناصر أبي عبدالله، ثم تولى الوزارة أيضاً للخليفة أبي يعقوب يوسف المستنصر؛
المراكشي: المعجب، ص:٤٤٣.
كتاب الطبيخ، ص: ٢٠٠.

١٠. الفيجاطة:

كانت تصنع في الأندلس، وهي من الجبن الطري، تدعك باليـد، وتوضـع في إنـاء عميـق مجوف في قعره رغيف من الرقاق المصنوعة، كخبز الكنافة، وتغطى برقاق، ثـم جـبن، فرقـاق، طبقة فوق طبقة، وهكذا حتى ثلاثة أرباع الاناء، ويصب عليه الزيت، ويوضـع في الفـرن، ثـم يخرج ويسقى بالحليب، ويرد للفرن قليلا، ويخرج ويسكب عليه الحليب مرة اخرى، ويرد إلى الفرن حتى يحمر وجهه ويصير مسـكيا (لزجـا مطاطـا)، ثـم يخـرج ويصـب عليـه كميـة مـن العسل، أو من السكر، ويقدم للأكل.(١)

١١. صنعة تارفست:

وهي من أطعمة أهل فاس، تتكون من عجينـة السـميد، ويصـنع منهـا رغيـف رقيـق، وتخبز في فرن معتدل الحرارة، ثـم يـؤتي بالعسـل ويحـل بمثلـه مـن المـاء، ويمـزج بـالزعفران، ويخلط مع الخبز مفتتا، ويحرك جيدا حتى يصبح مثل المعجون، ويفـرغ في انـاء، وينـثر عليـه اللوز والسمن والسكر والقرنفل وغيره من البهارات، بعدها تكون جاهزة للأكل.(٢)

١٢. السنبوسك:

كان يصنع للأمير أبي يوسف المنصور بمراكش، ويتكون من السكر الأبيض، ويخلـط بمـاء الورد، ثم يضاف اليه اللوز المعجون، ويوضع على نار هادئة ويحرك، ثم ينزل عـن النـار حتـى يبرد، ويوضع عليه القرنفل والزنجبيل وشيء من المصطكي، واللوز مخلوط بمـاء الـورد، ويحـرك الجميع تحريكا جيداً، ويصنع منه قرص على شكل الكعك أو التفاح، ويقـدم باسـم سنبوسـك الملوك.(٣)

بالاضافة إلى ذلك نذكر ايضاً طريقة اضافة الملـح والفلفـل إلى الطعـام، فكـان المغاربـة يضعون الفلفل المسحوق على الطعام وقت الأكل، بيـنما كـان اهـل الانـدلس عـادة يضـيفون الفلفل المسحوق على الطعام قبل الطهـي، ثـم يضـعون عليـه عنـد الأكـل القرفـة وغيرهـا في أطعمة خاصة عندهم.

أما عادة تقديم الطعام على السفرة، فأول ما يبدأ تقديم البقول والمقبلات، ومـن بعدها الوان "من الجملى والمثلث والمري"، ثم المخلل والعسل، أما الأثرياء مـنهم اتبعـوا

(١) كتاب الطبيخ، ص: ٢٠٢.
(٢) كتاب الطبيخ، ص:٢١٣.
(٣) المصدر نفسه، ص:٨٠-٨١.

طريقة أجمل وأكثر تأدباً، اذ يضعون على كل مائدة بين يدي الرجال الوان مفـردة، لـون بعـد لـون آخـر مرتبـة، وهـي طريقـة أهـل الأنـدلس والمغـرب ورؤسـاؤهم وخاصـتهم وعامتهم.[١]

١٣. شراب الرُّب:

هو الطبيخ الخاثر مـن عصـير العنـب، وقـد كـان شربـه معهـوداً عنـد الموحـدين المصامدة، ليبعث الحرارة في أجسامهم، فيتحملون شدة برد جبال درن وثلجه، نظم أبـو عثمان بن الشيخ أبي جعفر بن ليون التجيبي أبياتاً شعرية تدل على كيفيـة عمـل الـرّب فقال:

الــرب طــبخ صــفو مــاء العنــب	**بعـــد قعـــود ثـــقلة المجتنـــب**
للثلـــث في الطيـــب او للربـــع	**في العنـــب الـــرديء والبـــاني رع**
واطبخـــه مـــع مـــاء يـــزاد وتـــزال	**رغوتـــه مـــدة طبخـــه اتصـــال[٢] ج**

وقد انتشرت عادة شرب الرب في كافة أنحاء المغرب والأندلس، لكـن النـاس عـلى ما يبدو قد أسرفوا في تخميره حتى أصبح مفعوله لا يختلف عن مفعول الخمـر الحـرام، وأصدر الخليفة عبدالمؤمن أمره برسالة إلى الطلبة والكافة والأعيان والأشياخ، بالانـدلس، أمرهم فيها بالكشف عن مواضع صناعة الخمر، ومكافحة أماكن بيع الرّب وعصره سـنة ٥٤٣هـ/١١٤٧م[٣].

لكن الناس قد استمروا أو عادوا الى تناول شراب الرب المسكر الحـرام، ففـي سـنة ٥٥٦هـ/١١٦١ أصدر الخليفة عبدالمؤمن رسالة أخرى إلى ولاته أكثر تقريعا، واشـد حزمـا، يـأمرهم فيهـا "بـالنظر في الربـوب وتمييزهـا والهجـوم عـلى بائعيهـا، ومـدمني شربهـا ومستعمليها، فيراق سكرها ويقطع منكرها، وليعمد الى من عمل المسكر الحـرام عامـدا، وشربـه مـدمنا عليـه ومعاهـدا ولم تردعـه الحـدود، ولم تقيـده القيـود... فيمحـى أثـره ويحذف خبره، فالخمر أم الكبائر وجماع الأثم.. وهي رجس من أعمال الشيطان".[٤]

---

(١) المصدر نفسه، ص:٥٨.
(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٧٤-١٧٥.
(٣) بروفنسال: رسائل موحدية، الرسالة الثانية عشرة، ص:٥٣.
(٤) المصدر نفسه، الرسالة الثالثة والعشرون، ص:١٣٣.

ولم يكن تناول شراب الرب المسكر مقصورا على الناس وعامتهم فحسب، بل اتهم الوزير عبدالسلام الكومي "وهو ابن زوجة والد عبد المؤمن بن علي"، أولاد الخليفة نفسه بتناوله، وأخبر عبدالمؤمن بذلك، "فتأثر الخليفة لقوله وبحث عليهم وبعث شيوخ الموحدين الثقاة اليهم، ودخلوا موضعهم ومجتمعهم عليهم دون اذن ولا مشورة فوجدوهم يأكلون طعاما وبين ايديهم مشروب مطبوخ من الرب الحلال الذي لا مرية فيه ولا ريبة، فرجعوا إلى أمير المؤمنين وشهدوا عنده بالحال، وزوروا عنده كلام كل مطالب وحيلة كل محتال، فتيقن أمير المؤمنين رضي الله عنه مطالبته لهم"[١].

وكان محمد ابن عبدالمؤمن ولياً للعهد، وقد ادمن على تناول الخمر، فلم تتم لذلك بيعته بالخلافة، وقيل إن أباه عزله عن ولاية العهد قبل موته[٢].

وقد استمر الموحدون يتناولون شراب الرب غير المسكر ممزوجاً بالماء، وكانوا يقدمونه للضيوف والوافدين عليهم في المناسبات الخاصة والاحتفالات الرسمية، هذا وقد تحايل الناس في صنع شراب الرب فجعلوه مسكرا بطريقة أو بأخرى، لذلك رأى الخليفة يعقوب المنصور ان يفوت كل الفرص على الناس، فأمر بمنع صنع الرب بجميع أشكاله من كافة أنحاء المملكة، وتحريم تناوله، ثم أصدر مرسوماً سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤، يأمر فيه بإراقة المسكرات وقطع دابرها، وهدد بالموت لكل من يتعاطاها[٣]. غير أن الرواية، تذكر أن الخليفة الناصر عاد إلى مراكش بعد هزيمة العقاب سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م، فدخل "قصره واحتجب فيه عن الناس وانغمس في لذاته مصطبحاً ومغتبقا"[٤].

(١) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ١٧٤-١٧٥.
(٢) المراكشي: المعجب، ٣٤٤، ابن عذاري: البيان، ق٣، ص:٥٥؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٢١٦-٢١٧.
(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:١٤٤.
(٤) ابن أبي ذرع: الأيس المطرب بروض القرطاس ص: ٢٤١.

تمهيد:

لقد لعبت الجاليات الأجنبية دورا بارزا في نقل العادات الاجتماعية أثناء خضوعها لأحد الطرفين، أو حين انتقالها إلى الطرف الآخر، وتتمثل في المعاهدين النصارى واليهود والمسلمين المدجنين، فالأوائل لم تنقطع هجرتهم إلى الممالك النصرانية ومن المغرب إلى الأندلس، اذ حدثت اكبر هجرة لهم خلال قيام الفونسو المحارب بغزوته الكبرى للأندلس سنة ٥١٩هـ/١١٤٥م، اذ كان يشجعهم على الانضمام لجيشه والهجرة معه، مع تذكيرهم بوعودهم اليه، أنه حضر من أجلهم، وبناء على دعوة تلقاها منهم، فرافقه اثناء عودته اثنا عشر الف مهاجر نصراني.[١]

لذلك أشار القاضي ابن رشد على أمير المسلمين بتغريب النصارى من الأندلس الى المغرب، عقابا لهم على نكثهم العهود (وهذا اخف اجراء يمكن ان يتخذ بحق من يخون بلاده)، للعمل فيها كجنود مرتزقة وحراس، وجباة ضرائب،[٢] واستمروا على هذا الحال إلى أن خير الموحدون أهل الذمة عامة بين مغادرة البلاد أو اعتناق الاسلام، مما أدى الى هجرة أعداد كبيرة من اليهود والنصارى إلى الاندلس، ومن ثم إلى الممالك النصرانية، فاستوطنوا ضواحي طليطلة، والمقاطعات الاسبانية الأخرى، حيث سكنها إلى جانب هؤلاء عناصر مهمة من المسلمين المدجنين الذين فضلوا البقاء في ديارهم الذاهبة الى الهجرة منها، منذ سقوط المدينة الأخيرة وضواحيها الواسعة الارجاء.[٣]

وعلى سبيل المثال كان في بلنسية وحدها ثلاثمائة الف نصراني، ومثل عددهم من المسلمين، مما أثار غضب رجال الدين تزايد المساجد على الأخص، فأخذت البابوية تكن لهم البغض والحقد، وتنقم عليهم تمتعهم بالحرية الدينية واللغوية، اذ تعتبره من التحدي

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص: ٦٩-٧٢.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص:٧٢-٧٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص:١٣٨؛
ابن خلكان: الوفيات، ج٥، ص:٢٨؛
لطفي عبدالبديع: الاسلام في اسبانية، ص:١٦٧؛
وإلى هؤلاء المهرة من المدجنين ترجع من غير شك بعض الآثار النصرانية ذت الطابع العربي، وبعد سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين، لم تجد السلطات الحاكمة سوى المدجنين، تعهد اليهم بالاعمال الفنية التي ورثوها عن الموحدين بخاصة.

المذموم، وتسعى جاهدة لدى الملوك لتحريضهم على اتباع سياسة الانتقام والعنف ازاء اولئك الرعايا المسلمين، حيث أمر البابا أنوسان الرابع سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ملوك اسبانية، وبخاصة خايمي الاول ملك اراجون، من وجوب استرقاق المسلمين فضلا عن تنصيرهم في حين عارض الاخيرون هذه السياسة العنيفة لبواعث وأسباب قومية واقتصادية.(١)

ان هذا الاستقرار والتعايش والانفتاح الذي تمتع به المدجنون لم يستمر طويلا، فقد تغلبت رغبة رجال الدين، بعد فترة، على السياسة السلمية التي انتهجها ملوك النصارى، وعانى المسلمون كثيرا من المتاعب في خدماتهم مع الأخيرين؛ إذ اصبحوا الطبقة الأكثر سحقا على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، حيث انطفأت وهج الابتكارات التي زينتها أيديهم، فانزووا عبيدا في فلاحة الارض، وخدما في بيوت النبلاء، والقساوسة، وفي الأديرة والكنائس، وكان اسعدهم حظا اولئك الذين انضموا إلى الفرق العسكرية.(٢)

أما اليهود فكانوا أحسن حظا من المسلمين، رغم صدور قرارات مجحفة بحقهم، فقد استخدمهم الملوك، كسفراء، وجامعي ضرائب، وأطباء ومستشارين.(٣)

<u>في العادات الاجتماعية:</u>

نستطيع القول ان المدجنين احدثوا انقلابا في الحياة الاجتماعية الاسبانية، شملت عدة جوانب من جوانبه الكثيرة في الاطعمة، اذ انتقل معه الذوق الاندلسي وتعداد الأصناف، في آداب الموائد التي لا زالت في كثير من ملامحها سائدة هذه الايام، وفي مظاهر الاناقة والتنويع في الألبسة التي تزين بها نبلاء قشتالة وأعيانها، اذ مارسوا رياضة المبارزة بالسيف واللعب بالعصا.(٤)

وأخذت المرأة الاسبانية تتزين بالحياء، وتسبل الستار على وجهها، ومارست عادة الجلوس على الأرض، وقد ظلت الحياة الاجتماعية في اسبانية متأثرة تأثرا كبيرا بالحياة الاسلامية، فاستمرت الريفيات عدة قرون، سواء اندلسيات ام نصرانيات يستعملن الحجاب، ولا يخرجن سافرات في الطرق العامة، وإنما تسليتهن الكبرى ان يطلن من

---

(١) J.. O, Callaghan, Ahistory of, medievel, spain, p, 246-263;.

(٢) J.. O, Callaghan, Ahistory of, medievel, spain, p, 463.

(٣) المرجع نفسه، ص: 284 ,283 ,265 ,246.

(٤) شاخت بوزورث: تراث الاسلام، ق١، ص:١٣٩-١٤٠، تر، ونشر المجلس الوطن، الكويت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م؛

نوافذ بيوتهن عبر الستائر يشاهدن الحياة في الخارج التي تختلف كل الاختلاف عن حياتهن المنزلية الرتيبة.[١]

وانتشرت عادة الاستحمام المفضلة لدى المسلمين في عدة مدن، مارسها الجميع، ملكاً كان أم فقيراً، مسيحيا كان أم عربيا، أم يهوديا، حتى الراهبات امتلكن حمامات خاصة بهن في طليطلة وغيرها، وبقيت هذه إلى قريب من القرن السادس عشر، يرتادها الرجال والنساء، والصبيان في مواعيد مختلفة، ثم أخذت تختفي تلك العادة من بين النصارى.[٢]

إلى جانب هذه الممارسات التي وصلت إلى منزلة متفوقة، فقد انتشرت عبارات التحية، وآداب المجتمع الاسلامي، من عطف الكبير على الصغير، واحترام الابن للأب، وعادة تقبيل اليد، إلى عادات الترحيب والتمنيات الطيبة، وتعابير غاية في المجاملة والدعاء مثل "حرسك الله وحفظك"، إلى تفضيل اللباس المغربي، والنسائي منه على الخصوص، إذ كان يشاهد لدى أعلى الطبقات الاجتماعية، كل هذه الألوان تطرقت إلى المجتمعات النصرانية في اسبانية، ويظهر فيها أن تعريب هذه العادات قد عاش مدة طويلة، بعد غروب السيطرة الاسلامية، وزوالها، ولا علاقة لها باخلاقيات الاقطاع الاوروبي.[٣]

وقد يظهر للنظرة الاولى أن اختلاف الديانتين كان يمكن أن يكوّن عقبة كؤودا امام تبادل التأثير بين الأمتين، ومع ذلك فلم تقم هذه العقبة على الساحة الاسبانية؛ إذ ان العمل الملاحظ كان ظاهرة عمل متبادل مستمر متغلغل إلى الاعماق، بيد أن وصفنا هذا التأثير بالتبادل قولا من التجاوز، لأن الجانب الأسلامي كان اكثر تفهما للحياة الثقافية، أي أن الاسلام هو الذي قدم ادوات الانتاج، وأن الجانب النصراني هو الذي تلقى الأثر الانفعالي فقط.

---

(١) توريس بالباس: الأبينة الاسلامية الاسبانية، تر، عليه ابراهيم العناني، مجلة مدريد للدراسات الاسلامية. ص: ١٢٥-١٢٦، العدد الاول، ١٩٥٣ م / ١٣٧٣هـ

(٢) المرجع نفسه، ص: ١١٦- ١١٧.

(٣) شاخت بوزروث: تراث الاسلام، ص: ١٣٩-١٤٠.
أحمد لطفي: الاسلام في اسبانية، ص:٩٢-٩٣.

التأثر بالتطوع الجهادي:

ان تأثير الاسلام على الفرد الاسباني في جانبه الجماعي يتجلى في ظهور الفرق الدينية العسكرية التي لها ذكر طويل في السجلات التاريخيه لما يسمى بحرب الاسترداد، باعتبارها قوى عسكرية محاربة[١].

نشأت هذه العصابات العسكرية في أحضان الاديرة والكنائس، ويتبين انها كانت محاكاة لفرق الزوايا والاربطة في الاسلام، الذين يقيمون في الثغور، وعلى أطراف البلاد في المناطق الحدودية، وقد نذروا انفسهم للجهاد في سبيل الله، امتثالا لقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا، اصبروا وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون"[٢]، وقال تعالى: "فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتل في سبيل الله، فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجر عظيما"[٣].

لأنه لا يمكن ان يتصور المرء حسب التصورات الكنسية الصرفة، كون الشخص يجمع بين الرياضة الروحية، والتعلق بالطعان، فالكنيسة لم تكن تنظر بعين الرضا الى من ينقطع للعبادة والتبتل داخل الدير، ويحمل الانجيل في يد، والسيف في يده الأخرى، فظاهر أن هذه الفرق ارتوت من نظم الاسلام، وتشبعت بروحه الكفاحية[٤].

كما أصبحت عندهم جزءاً من الحرب المقدسة التي تفضي الى الجنة، والسبيل الذي يقود الى المجد في الآخرة، وهذا لم يكن له وجود في المفاهيم المسيحية الاولى.

كان لهذه المفاهيم آثار ذات شأن خطير على مستقبل اسبانية، ففي موقعة العقاب الحاسمة، وكان الفونسو الثامن يمر بلحظات ضعف، وتردد، وهو يقاتل الموحدين، اذ لاحظه، الدون رودريجو مطران طليطلة، فكان يتقدم اليه، ويستحثه على مواصلة القتال مشجعا "يا سيدي ان كان مصيرنا الموت فمآلنا معكم إلى الجنة"[٥].

وكان يقال "الشهادة تمحو السيئات".

---

(١) Prestage. E. Chivarly, P, 124.

(٢) آل عمران، ٣/ الآية ٢٠٠.

(٣) النساء، ٤/الآية ٧٣.

(٤) احمد لطفي: الاسلام في اسبانة، ص:١٠١-١٠٤.

(٥) احمد لطفي : لاسلام في اسبانة، ص:١٠٥-١٠٦.

ان مثل هذه النصوص وأمثالها، صدى لفكرة الجهاد في الاسلام التي تحض على القتال، وتبين منزلة الشهداء في الجنة، وأنها قد أعطت مفهوم الحرب عند النصارى معنى جديدا لم يعرفوه من قبل.

استخدام الاسرى:

كانت الروايات عادة تبالغ في تعداد الأسرى بما فيهم النساء والصبيان من الطرفين المتخاصمين؛ النصارى والمسلمين، ويجرونهم كلاً إلى بلاده، لاستعمالهم كخدم في البيوت، وعمال بناء، وفي المزارع.(١)

كان بعض أهل الذمة، سواء كانوا نصارى أم غيرهم، قد عاشوا أحرارا في مدينة مراكش، لذلك رأينا، عندما حصل قحط وانحباس المطر في عهد المنصور الموحدي، طوائف المدينة كلها خرجت للاستقساء والدعاء، ومنها اليهود والنصاري.(٢)

ثم جرت عمليات تبادل الأسرى بين الطرفين، بالمال حينا والمنّ احيانا، كما حصل لعدد ضخم من أسرى موقعة الأراك، اذ سرحهم المنصور دون مقابل، وأثبتت الأيام ان تلك الفعلة كانت سقطة من سقطات الملوك التي ندم عليها بعد فوات الأوان.(٣)

كما لم يتحرج الخلفاء الموحدون من اتخاذ بعض النصارى، حراسا لهم وحجابا، وبالاخص في أوج عظمة الدولة، فاتخذ ابو يعقوب كافور الخصيـ وريحان، ومبشرـ وعنبر، حجابا له واحدا تلو الآخر، أما أبو "السرور" كان يعمل في خدمة الناصر.(٤)

كما استخدم الموحدون كثيراً من المرتزقة النصارى جنوداً لهم وقادة، كالقائد بلاسكودي الأراجواني، والباربيريث القشتالي، والقائد شانجة، ثم جبرالدو سيمبافور البرتغالي، ولم يكن يعنيهم من الولاء للدولة سوى ما تحققه من مكاسب دنيويه لهم ولرفاقهم في السلاح، دون التوقف عند هوية هذا أو انتماء ذاك، وقد عاد الأراجواني إلى بلاده يحمل إلى مليكه نقاط ضعف بلنسية، ويستعجله على احتلالها.(٥)

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:١٦٧.
(٢) حسن علي: الحياة الادارية في المغرب الأقصى، ص:٤٢٠.
(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٢٨-٢٣٠؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالاممة، ص:٣٩٣-٣٩٤.
(٤) المراكشي: المعجب، ص: ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٨، ٣٥٦، ٣٦١، ٣٨٠.
(٥) N. Barbour: Marocco, P, 80.

وكان افضلهم صدق نية، وإخلاصاً في العمل أبو الحسن علي (ابن الربرتير) من كبار قادة الموحدين في البر والبحر، اذ قتل سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م في مواجهه ابن غانية قرب قفصة الافريقية، وأحمد الصقلي، التي آلت اليه قيادة الاساطيل البحرية بأكملها، فأحسن جهاد النصارى والنكاية بهم.[١]

ولم يقتصر هذا على القادة منهم، فاتيحت حرية التحرك لجنود مرتزقة، من اخوانهم رافقوهم، أو لحقوا بهم، كان لهم شرف الخدمة إلى جانب الاصناف الأخرى التي منها تكون جيش الموحدين؛ كالعرب والغز، والأندلسيين، وقبائل المرابطين وغيرهم. للاستعانة بهم فقط على العناصر المتمردة على السلطة من العرب والبربر.[٢] لذلك منعهم الموحدون من مرافقة المجاهدين من الأصناف السابقة الى أرض النصارى، حذرا من مما لأتهم على المسلمين.[٣]

ثم استخدمهم ضعاف الخلفاء. كالظافر، ثم المأمون، والرشيد، ومن بعدهم السعيد، ثم الخليفة المرتضى، في الأزمات الموقوتة، التي عجزوا عن استيعابها.[٤] ولم تكن خدمات هؤلاء كرما وبلا مقابل بل بشروط كانت قاسية، كنت قد المعت اليها سابقاً.

وترتب على كل ذلك، أن تدخل بابوات روما، ولأول مرة، في شؤون المغرب الداخلية، وهو الهدف الذي جاهدوا من أجله طوال السنين الماضية ليصلوا اليه؛ من تعيين اساقفة، ورجال دين، وعقد محاكم خاصة بهم، بحجة المحافظة على مصالح الجاليات الأجنبية فيها، وهذه من النذر التي بشرت بالاستعمار الحديث.

الزواج من الاسبانيات:

على وهج هذا الجو، ظهر الخلفاد الموحدون في أفقهم الواسع ينزعون الى التمازج، والتكيف مع المعطيات المستجدة في مجمتع التماس مع النصارى. فلم يجدوا حرجا في الزواج من نصرانيات، مواءمة مع روحية العصر. لقد اتخذ الخليفة ابو يعقوب احدى السبايا "ساحر" زوجة، أنجبت له الخليفة من بعده، المنصور، الملع أمراء الموحدين، وأكثرهم توفيقا، وهو الذي بنى بمخطيته "سر الحسن زهر" احدى سبايا شنترين، إذ كان الخليفة

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ١٦٦، ج١، ص:٣٢٨

(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٤٨٣.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج١، ص:١٧٧.

(٤) المصدر نفسه، ج٦، ص:٣٣٩، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٦، ٣٥٠.

الناصر من أنجب أبنائها، الذي هام الأخير "بقمر" الجارية السبية الحكيمة، وكان من عقبها ابنه وولي عهده المنتصر الذي يمثل عهده بداية شيخوخة الدولة.[١]

ثم اقترن الخليفة المأمون بنساء من سبي النصارى، فولدن له عدداً من الأبناء، فكانت جاريته "حباب" الأثيرة عنده، وأم الخليفة الرشيد، احدى دهاة النساء رجاحة عقل وادارة، أما الواثق ادريس، ذو البشرة البيضاء واللحية الشقراء، والعيون الزرقاء، فهو ابن امة "شمس الضحى" وآخر الأمراء الموحدين الذي كان على يديه زوال الدولة.[٢]

ومن سمات هذا العصر، اعتناق بعض النصارى الدين الاسلامي؛ وهذا أحد أبرز أمراء قشتالة، وهو قريب الملك الفونسو ويدعى بيدرو فرنانديزي كاسترو، كان قد لجأ على رأس وفد إلى الموحدين بمراكش، وأعلن اسلامه باسم "أبي زكريا يحيى بن فرناك"، واستوطن فاس[٣]، وهناك وصف شيق للاحتفال الذي يصفه الصديق بن العربي، لكل من يعتنق الاسلام، حيث يخترق شوارع مراكش في كوكبه على صهوة جواده، يرافقه موكب يختلط فيه الرجال والأطفال، تحت قرع الطبول وعزف الموسيقى، وزغاريد النساء.[٤]

تطور العمارة:

تمتعت الأندلس في عصر الموحدين بمستوى رفيع من القوة العسكرية والسياسية، والعمرانية والعلمية، فضلا عن الفنية، رغم أنها أضحت ولاية تابعة، لكن الفن الأندلسي وجد طريقه ممهدة للمغرب لذلك يعتبر عصر الموحدين من أخصب عصور الفن الأندلسي بالمغرب الاسلامي، فبنو عبدالمؤمن والموحدون بعامة لم تكن لديهم تقاليد فنية على درجة عالية من التقدم في بداية الامر لتعمل على تطوير الفن الأندلسي، أو

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:٣٧٨، ٤٣٨، ٤٥٩؛
الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٢٢٦؛
ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢١٦.

(٢) ابن أبي زع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٥٤، ٢٥٠؛
الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:٢٤١.

(٣) الصديق ابن العربي: طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب، مجلة نطوان المغربية، العدد الاول، ١٩٥٦، ص:١٥٤، ١٥٥؛
أشياخ: تاريخ الاندلس،ج٢، ص:٨٧؛ ويذكر اشباخ اسلامه بطرقة ملتوية، إلى التلميح أقرب منها إلى التصريح، كعادته عند ذكر أي شيء ويهز العقيدة المسيحية.

(٤) الصديق بن العربي: طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب، ص:١٥٨.

احتلال مكانه، وإن ما يسمى تجاوزاً بالفن الموحدي، إنما هو في الحقيقة فن أندلسي مغربي متطور، مرتبط بمنهجية الموحدين التقشفية[١].

لذلك نرى، أن الفن الأندلسي الذي أخذ الموحدون به أنفسهم في محاربة كل ما في الحياة من مظاهر البذخ والترف، ليكون بذلك منسجماً مع دعوتهم الأصولية، فتخلى الفن عن الزخارف الجميلة، والنقوش البديعة، والتزم بدلا منها، أنماطا من النظام والبساطة، واصبحت زخارفه تتحلى في أشكال رئيسة حاسمة لخطوط، بينة المعالم فوق أرضيات قيمة، عاطلة من الزينة.[٢]

فيتبين أن الحضارة المغربية اتخذت من الحضارة الاندلسية قاعدة لها وارضية تستند عليها متأثرة معها، تنطلق بها في دروب التقدم والسمو وذلك عند استيلاء الموحدين على بلاد الاندلس وانتقال الكثير من اهلها الى المغرب طوعاً او كرها.

وهذا ما أشار اليه ابن خلدون في عبره : "فكان فيها -أي المغرب- حظ صالح من الحضارة... ومعظمها من أهل الأندلس... عندما انتقل الكثير من أهلها اليهم.. فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثاراً".[٣]

وعند بدء الجامع الكبير في اشبيلية، استنفر شيخ المهندسين، اي شيخ العرفاء، احمد ابن باسه الاندلسي اصحابه المهندسين المعماريين من اهل اشبيلية، وجميع مهندسي اهل الاندلس، ومعهم المهندسون المعماريون من اهل مراكش ومدينة فاس، واهل العدوة، فاجتمع باشبيلية من المهندسين ومختلف النجارين والعمال الفنيين من العدوتين، وكان المهندس المخطط ابن باسه المذكور والمهندس المنفذ ابو داود يلول ابن جلداسن المغربي. وبنيت لاخيرالده على التصميم نفسه التي بنيت فيها صومعة حسان في الرباط، والكتبية بمدينة مراكش. فيتبين ان الفن الاندلسي رغم تقدمه كان لا يستغني بحال عن الفنانين والخبراء من اهل العدوة، فقد اسهم هؤلاء بنصيبهم في الفنون المعمارية في الاندلس، ولا تصح الفكرة ان الاندلس هي وحدها كانت تمد الغير رغم تقدمها، والا فكيف نفسر استنفار خبراء وعمال مدينتي مراكش وفاس واهل عدوة المغرب، فضلاً عن اشراف يلول ابن جلداسن على الاعمال الفنية وتنفيذها.[٤]

---

(١) ليوبولدتوريس بالباس: الفن المرابطي والموحدي ، ص ١٣-١٤، تر، سيد غازي، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص:٣١، ١٤.
(٢) عبدالعزيز بن عبدالله: تطور الفن الموحدي، ص:٧٤، الدار البيضاء، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.
(٣) ابن خلدون: العبر، ج١، ص:٢٣٤.
(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ٤٧٤، ٤٧٦، ٤٨٢.

لذا نرى، أن الموحدين أصبحوا أصحاب مدرسة فنية في العمارة، اذ ترك فنهم أثرا واضحا على الفن الأندلسي، من حيث الضخامة والاتساع، مع مراعاة الزخرف الحريص على الترتيب والوضوح، وتعتمد هذه الزخرفة على الكتابة الكوفية، والأشكال الهندسية، كالأقواس والرسوم التي تحاكي الأزهار والنخيل والأصداف، ويتسم المجموع بطابع الانسجام والضخامة، وهو انعكاس لازدهار الدولة وعظمتها وثروتها، ثم بدا في التدني والانحطاط منذ القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.[١]

وبنى الموحدون كثيرا من المنشآت؛ فالخليفة الأول أقام عدة مساجد، كان أولها مسجد مدينة تازة، في الجهة الشمالية الشرقية من المغرب، ثم جامع الكتبيين الأول في مراكش، فضلا عن مسجد تينمل تخليدا لذكرى المهدي، اذ كان عبدالمؤمن قد ارتحل الى مدينة تينمل بقصد زيارة قبر ابن تومرت، فزار وفرق في أهلها أموالا عظيمة، وأمر ببناء مسجدها وتوسعتها[٢]، وقد اجتمع في هذه المساجد الفن الأندلسي المغربي.

ثم بنى عبدالمؤمن مسجد الكتبيين الثاني سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م، فيه من احكام البناء وغريب الصنعة، وتجهيزه ما يجل عن الوصف، من شمسيات الزجاج، ودرجات المنبر، وسياج المقصورة، مالو عمل في سنين عديدة لاستغرب تمامه.[٣]

وأدرك عبدالمؤمن قيمة جبل طارق كموقع حربي هام، لمراقبة بلاد النصارى برا وبحرا، فقرر انشاء مدينة عسكرية على الجبل (كبرى ياكل؟) وهي واحدة من المعاقل الحصينة الفريدة في نوعها في ذلك الوقت، وابتنى فيها قصره، وأحاطه بقصور السادة أبنائه وألحق به ديارا ومنازل اقطعها الى اعيان البلاد ووجهائها، بالاضافة الى الجامع الذي تقام فيه الصلاة، وقد احيطت جميع هذه المباني بسور يدخل إليها الداخل من باب واحد، هو باب الفتوح، وقام على تخطيط هذه المدينة، والاشراف على تنفيذ بنائها، نفر من الاساتذة المهندسين اللامعين، ومئات من العمال والفعلة والفنيين، والبنائين وكان على رأسهم المهندسان أحمد ابن باسة والحاج يعيش المالقي، ولهذا الأخير الفضل في صنع

---

(١) أندريه جوليان: تاريخ افريقية الشمالية، ج٢، ص:١٦٧؛ الناضوري ورفقاه: المغرب الكبير، ص:٨٣٢.

(٢) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٢٢؛
أندريه جوليان: تاريخ افريقية الشمالية، ج٢، ص:١٦٥.

(٣) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٢٨؛
المقري: نفح الطيب، ج٢، ص:١٤٦.

الرحى التي تطحن الأقوات بواسطة الـريح في أعـلى جبـل طـارق، ولعلهـا أقـدم رحى وجدت في التاريخ[1].

وفي كل هذه المباني التي اقيمت، كانت اليد الطولى فيها، للحاج يعيش، وهو مـن ألمع وأشهر المهندسين الذين تألق نجمهم على عهد الموحدين، إذ كـانوا يلجـأون اليـه في كل المشاريع الهامة، وهو الـذي صـنع مقصـورة المسـجد الجـامع في مـراكش، بـأمر مـن الخليفة الأول، فحير وصفها سائر المهتمين بالآثار الموحدية، وخاصة منهم الـذين يعنـون بالنهضة التقنية على ذلك العهد، "لقد وضعت حركات هندسـية ترفـع بهـا عنـد خـروج الخليفة، وتخفض لدخوله"[2]، وهو نفسه الذي قام سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م بعملية تسريب المياه لسقي البحيرة الملكية في اشبيلية التي شيدها ابو يعقـوب يوسـف، وتوصـيله المـاء إلى داخل المدينة من قلعة جابر[3] Alcala de Guadaira كما قام ببناء خـزان للـماء في داخلها؛ منه كان الماء يتوزع على مختلف أحيائها[4].

ثم أمر الخليفة أبو يعقوب البنائين ببناء قصور البحيرة خـارج بـاب جهـور[5] مـن اشبيلية، اذ كان يختلف اليها في وقت راحته وتنزهه، ولقـد أشرف عـلى بنائهـا المهنـدس المعماري أحمد بن باسه، عمدة الموحدين في مشاريعهم العمرانية، سواء في جبل طـارق أم في قرطبة أم قصور البحيرة، وهذه التسمية "باسه"، ما تزال بعض الأسر تحمله بمدينة فاس، وهي مشهورة بخبرتها في البناء.[6]

---

(١) وقيل إن أقدم رحى تحدث في هنغاريا ترجع للقرن الثامن الميلادي، وإذا صح هذا فإذن تكون أقـدم رحـى تعمل على الريح توجد في الأندلس. ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:١٣٧-١٤٢؛ هامش ٢؛ ١٤٣.

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٤٥.

(٣) قلعة جابر: تقع إلى الجنوب من اشبيلية على مقربة من قرمونة؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٦٩، ويذكر ابن سعيد، أنها تقع قرب اشبيلية، وكثيرا ما يتفرج فيها، الأعيان لحسنها مع كثرة المروج والمياه والطير؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٢٩١؛
ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢١١.

(٤) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٦٨، ٤٦٩.

(٥) يرد اسم هذا الباب عند ابن صاحب الصلاة في كتابه المن بالامامة، سيما عند ذكره القصور الموحدية، ثم ذكر المؤرخ المسيحي Ortiz De zuniga في كتاب "الحوليات الكنسية لمدينة اشبيلية" كان موجودا في حي اليهود باشبيلية، ومن المحتمل ان يكون هذا الاسم تحريفا لباب جهور؛
نقلا عن ابنه صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٢٣٥.

(٦) المصدر نفسه، ص:٤٦٨-٤٦٩؛ وقد عفى الزمن على قصور البحيرة هذه؛ المصدر نفسه، ص:٤٦٥، هامش ٤.

وشرع أبو يعقوب في سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، في بناء الجامع باشبيلية حتى كمل عام ٥٧١هـ/١١٧٥م، وابتنى قصبتها الداخلية والخارجية وعمل على تدعيم سورها، وتقوية قلاعها، إذ أمر بترميم قلعة رباح لرد عادية الاعداء، وأقام رصيفين بضفتي وادي اشبيلية[١]، وابتنى داراً لصناعة السفن[٢]

ولما قضى عبد المؤمن على ثورة برغواطة، سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م شيد قصبة على الضفة اليسرى لوادي ابي الرقراق، وهي المعروفة اليوم بقصبة الاودايا[٣]، وإلى جانبها اختط ابو يعقوب يوسف مدينة الرباط، ورسم حدودها، وابتدأ في بنائها، لكن المنية عاجلته، وعاقه الموت عن اتمامها[٤]، فشرع أبو يوسف يعقوب في بناء هذه المدينة، ذات الموقع العسكري الممتاز الذي يسهل تحصينه والدفاع عنه، فهي تشرف على المحيط الاطلسي، على مدخل وادي ابي الرقاق، من أعلى ضفة شديدة الانحدار، يحيط بها جدار عال طوله خمسة كيلومترات. كانت رباطا للمتعبدين والمجاهدين في آن واحد، وقاعدة لانطلاقهم نحو الاندلس، لذلك سميت برباط الفتح، وقد زينها الأمراء بالقصور والمتنزهات، إذ كان المنصور ينوي اتخاذها عاصمة لبلاده، لكنه عدل عن ذلك مترددا.[٥]

أما آثارها المتبقية من عهد الموحدين؛ السور المحيط بها، وباب الاودايا المار الذكر، وباب الرواح، وجامع حسان، وهو أعظم جامع بالمغرب الاسلامي، إلا أن بناءه لم يتم[٦].

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢١١؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١٠٣.
(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٤٨١.
(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص:١٩٠-١٩١؛
قام البناء عام ٥٤٥ هـ/١١٥٠م؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٤٧، ٤٤٨.
قصبة الاودايا: هي قصبة الاودية، نسبة إلى قبيلة "اودي" التي هي فخذ من قبيلة معقل العربية التي سكنت في ذلك المكان، وكانت تسمى قبلا المهدية، نسبة إلى المهدي ابن تومرت، وحرفها العامة الى اودايا؛ ابن عذاري: البيان،ق٣، ص:١٨٨،
مجهول: الاستبصار في عجائب الامصار، ص:٢٨، نشر، سعد زغلول، ١٩٥٨.
(٤) المراكشي: المعجب، ص:٥٠٦.
(٥) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٣٠.
نهر أبي الرقراق، يقع بين سلا والرباط؛ ويسميه المراشكي: المعجب، ص:٥٠٦، وادي الرمان.
(٦) لم يتم بناء هذا المسجد، بسبب موت الخليفة أبي يعقوب، فتوقف البناء ولم يتمه خلفه المنصور؛ المراكشي: المعجب، ص:٣٨٤.

وندم المنصور على بنائها وقال: "ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي، الا على ثلاث، وددت اني لم أفعلها:

اولها: ادخال العرب من افريقية الى المغرب، لأني أعلم أنهم أصل فساده.

والثانية: بنائي رباط الفتح، أنفقت فيه من بيت المال وهو صعيد لا يعمر.

والثالثة: اطلاقي أساري الأرك، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم". إذ كان المنصور قد أخذ اربعة وعشرين الف فارس من زعماء النصارى أسرى من حصن الأراك سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م[(١)].

لم تصدق نبوءة الامير يعقوب الا في واحدة، اطلاقه نصارى الأرك؛ اذ حرضوا ملوكهم على مواصلة حرب المسلمين، ومن نتيجة ذلك وقيعة العقاب الحاسمة سنة ٦٠٩هـ/١٢١١م، وقد خسر فيها المسلمون خسارة لا تعوض.[(٢)]

أما الرباط[(٣)] فقد عمرت وما زالت عامرة إلى هذا اليوم، وأما ادخال العرب من افريقية، كان له فائدة تعريب المغرب، وهي فائدة عظيمة جداً لا تزال آثارها عميقة الجذور، ولم يكن التعريب قبلهم قد ترسخ وتجذر، كما كان لهم مواقف حاسمة في معركة الأرك المذكورة[(٤)].

يلاحظ أن بني عبدالمؤمن، ابتداء من الخليفة الأول، بدأوا يتحللون من القيود التومرتيه، ويتأثرون إلى حد ما بمظاهر الفن الأندلسي، وهو أول علامة على طريق تطور الفن الموحدي، حيث أخذ يظهر واضحا في جامع القصبة بمراكش، وجامع رباط الفتح، وجامع حسان، وقد تميز الأخير بأنه المسجد الوحيد الذي اشتمل على أعمده رخامية اسطوانية.[(٥)]

---

(١) ابن ابي زرع: الأنيس المطرب، ص:٢٢٨-٢٣٠.

(٢) المراكشي: المعجب، ص:٤٥٦-٤٥٨؛ مجهول: الحلل، ص:١٦١؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٣٣٩-٢٤٠؛
ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٣٥، ٣٣٦.

(٣) لقد قيل أن الموحدين بنو مدينة الرباط، بناء على أوامر من ابن تومرت، اذ "قال لهم: تبنون مدينة عظيمة على ساحل هذا البحر، "أي المحيط الأطلسي" يعني البحر الأعظم، ثم يضطرب عليكم الأمر وتنتقض عليكم البلاد، حتى ما يبقى بأيديكم الا هذه المدينة، ثم يفتح الله عليكم ويجمع كلمتكم، ويعود أمركم كما كان"؛ المراكشي: المعجب، ص:٥٠٦-٥٠٧.

(٤) ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٢٣-٢٣١.

(٥) ليو بولد بالباس: الفن المرابطي الموحدي، ص:٢٢؛ المراكشي: المعجب، ص:٣٨٤.
وقد قمت بنفسي بزيارة سور الرباط، ودرت حوله، وإلى مكان مسجد حسان، واطلعت على ساحة كبيرة مكشوفة مبلطة بالرخام، وأعمدة مقامة، وواقفة دون سقوف، وصومعة لم يتم بناؤها، وذلك في السنوات، ١٩٧٥، ١٩٧٤، ١٩٧٧، ١٩٧٨.

هكذا قد تفنن الخلفاء الموحدون بالبناء، (كما ولعوا بشؤون الفكر والثقافة)، فشيدوا بنايات عديدة، ذات فائدة اقتصادية أو عمرانية، عسكرية أو دينية، ولا تزال بعض هذه الآثار قائمة إلى الآن بالرباط، ومراكش، واشبيلية على الخصوص، ولقد سبق أن تعرفنا على مآثر الموحدين بهذه المدن، ولا تزال الأخيره تضاهي بمسجدها ومنارها المعروف بالخيرالدة[1].

وقد استعمل الموحدون في أبنيتهم مواد مختلفة، كالحجر المنحوت في صومعة حسان، والآجر في اللاخيرالدة، والطوب المشوي في سور الرباط.[2]

لقد حقق تصميم البناء تقدما ملحوظا يتجلى بالخصوص في أبواب المدن، وفي المساجد؛ فباب الرواح بالرباط مثلا، يحيط بها برجان شاهقان كالعادة، لكن ممرها متعرج[3]. وربما كانت الغاية من تعريجه، عرقلة وثوب خيالة العدو المهاجمين.

أما الصوامع فقد أقامها الموحدون على غرار مئذنة جامع قرطبة الأموي التي شيدت زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م، اذ كانت نموذجاً اهتدى به الموحدون، فنسجوا على مثيلتها في جامع الكتبيين بمراكش، والاخيرالدة باشبيلية، وصومعة حسان بالرباط، وهذه المآذن الموحدية الثلاث الباقية، تعد بحق من أروع ابتكارات الفن الاسلامي[4]، غير أن منارة الكتبية تفوق حجما وضخامة صومعة قرطبة.[5].

---

(١) أمر ببناء هذه الصومعة الخليفة ابو يعقوب يوسف، أثناء توجهه إلى مدينة شنترين غازيا سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م، وهي السنة التي توفي فيها، فتعطل العمل بها، ولما تولى يعقوب المنصور الخلافة، أمر باتمام البناء سنة ٥٨٤هـ/١١٨١م، تحت اشراف نائب ابن باسة المهندس (العريف) علي الغماري، ولم نعثرعلى ترجمة لهذا المهندس، ولو أننا عثرنا على ترجمة وافية لحياة الغماري، لكان في امكاننا ان نحكم بصفة شبه قاطعة على باني صومعة حسان؛ ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٧٦، ٤٨٢.

(٢) المصدر نفسه والصفحات نفسها؛
ابتدأ البناء في الصومعة بالحجر الصلب، واكملت بالآجر

(٣) محمد زنيبر: تاريخ العصور الوسطى، ص:٢٤٠.

(٤) بالباس: الفن المرابطي والموحدي، ص:٢٤؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص:١٩٦؛ ابن ابي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٢٩.

(٥) ما نيول جوميت: الفن الاسلامي في اسبانية، ص:٣٥٢، تر، أحمد لطفي عبدالبديع، وسيد محمد عبد العزيز سالم، مراجعة جمال محمد محرز، الدار العربية للترجمة والنشر، لا.ت؛ السلاوي الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٩٥-١٩٦.

ومن غير شك أن المئذنة الوحيدة، التي تجلى فيها الفن الموحدي في أبهى صوره، كانت مرصد اشبيلية، إذ أمر الخليفة يعقوب المنصور باتمام ما بدأه والده وعمل "التفافيح من أملح ما يكون، ومن أعظمه، لا أعرف لها قدرا، إلا أن الوسطى منها لم تدخل على باب المؤذن، حتى قلع الرخام من اسفله، وزنة العمود الذي ركبت عليه أربعون ربعا من حديد، وكان الذي صنعها ورفعها في أعلى المنار المعلم أبو الليث الصفار.."، كما قام هذا المهندس بطلاء هذه التفافيح بمبلغ مائة الف دينار ذهبا، وسربلها بهاء يرد الأعين كليلة، وبالغ في رفع منارها، وثابر على تزيينها.[1]

ولقد شغف الخلفاء الموحدون بتشييد القصور الخلافية، في المغرب والأندلس؛ اذ أمر يعقوب المنصور أن يبنى له حصن على نهر اشبيلية، وأن تنشأ له في ذلك الحصن قصور وقباب، وكان ولوعا بالبناء "وفي طول ايامه لم يخل من قصر يستجده أو مدينة يعمرها".[2]

يظهر أنه لم يبق أثر لكثير من المنشآت التي بنيت في منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

وتأثر الموحدون في أبنيتهم التي شادوها؛ بمظاهر الترف والبذخ الاندلسي فجملوها بالحدائق المغروسة حواليها، وزينوها بالبرك في داخلها، وأكثروا من تحليتها بالزخارف البديعة، والنقوش الجميلة[3].

---

(١) ابن أبي ذرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢٢٩؛
السلاوي: الاستقصاء، ج٢، ص:١٩٥؛ يذكر أن المهندس الذي قام بصنع هذه القطع الذهبية النادرة، وبطلائها، هو المهندس ابو الليث الصقلي، ويظهر أن المهندس هو نفسه الذي يحمل اللقبين، ويذكر ابن صاحب الصلاة؛ أن أمر الخليفة صدر أثناء اقامته باشبيلية "بعمل التفافيح العربية الصنعة، العظيمة الرفعة، الكبيرة، الجرم، المذهبة الرسم، الرفيعة الاسم والجسم، فرفعت في منارها بمحضره، وحضر المهندسون في أعلاها على رأيه وبلوغ وطره مركبة في عمود عظيم من الحديد مرسى اصله في بنيان اعلى صومعة الصومعة اعلاها- هكذا وردت- ربما يعني ان العمود ركب من أسفل الصومعة إلى أعلاها ليحمل هذه التفافيح "وزنة العمود مائة وأربعون ربعا من حديد"، وهذا خلاف ما أورد ابن ابي ذرع، وكان عدد التفافيح التي رفعت أربع، احداهن صغرى، وطليت جميعها بالذهب الذي يبلغ تسعة وعشرون كيلو غراما ونصف تقريبا، ورفعت بآلة، هكذا يقول: ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٨١-٤٨٤، هامش ١.

(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص:٤٨٤-٤٨٦.

(٣) المراكشي: المعجب، ص:٤١١-٢١٤-٤١٨؛ المقري: نفح الطيب، ج٤، ص:٢٢٧؛ الحلل الموشية: ص:١٤٤-١٤٥؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٢٨؛ الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١٩٦-١٩٧؛ المقري: النفح، ج٤، ص:٢٧؛=

=الضبي: بغية الملتمس، ص:٥٠٨؛ مجهول: الحلل، ص:١٤٥؛ المقري: النقح، ج٤، ص:٢٢٦، ٢٢٧.

ومن أوضح الأمثلة على هذا المستشفى الفخم الذي بناه الخليفة يعقوب المنصور في مدينة مراكش، لايواء المرض وعلاجهم، اذ بنى بها بيمارستانا فريدا من نوعه، لما يحويه من ساحة فسيحة، في أفضل موضع في البلد، وأمر البنائين باتقانه وهندسته على أحسن الوجوه؛ فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة، ما زاد على الوصف، حيث غرس فيه من جميع أنواع الاشجار، وجرت اليه مياه كثيرة، واستحدثت اربع برك في وسطه.

لذا كان من المسشفيات النادرة، يستقبل كل المرضى بدون النظر الى مستواهم الاجتماعي، سيان كانوا اغنياء أم فقراء، وقد بني في الأصل للفقراء فقط، لكنه لم يقصره عليهم دون الاغنياء، قام هذا المستشفى بالمعالجة المجانية (على حساب الدولة)، لكل مريض وطئت قدماه أرض مراكش، إلى أن يتماثل للشفاء.

ويتبين أن المنصور أول ملك احدث زيارة المرضى في المستشفيات، في كل جمعة، بعد صلاته، يركب ويدخله -أي المستشفى-، يعود المرض، ويسألهم فردا فردا، مستوضحا عن أحوالهم، "ويقول كيف حالكم..."، ويحاول أن يطلع بنفسه على معاملة الاطباء والممرضين، وموظفي المستشفيات، للمرضى، من نزلاء المستشفى انفسهم، ويسأل: "كيف القومة عليكم؟..".

ويظهر التألق الفني الموحدي واضحا جليا في المقصورات التي احدثها الخلفاء الموحدون، فعبد المؤمن عملت له مقصورة في جامع الكتبية بمراكش، إذ أثارت اعجاب كل من شاهدها، وقد ركبها المهندس الحاج يعيش المالقي على حركات تتحرك تلقائيا، وتخرج أطرافها بطريقة تكنوولجية (تقنية) متقدمة، لا يسمع لها همس، ولا يرى مسارها.

ثم عمل الخليفة المنصور مقصورة مماثلة للسابقة، وضعها في مسجده المتصل بقصره في مراكش، اذ كانت تعمل بحركات هندسية، فترتفع عند دخول الخليفة ومرافقوه من الوزراء والأمراء، وتختفي اذا انفصلوا عنها. ويذكر الناصري نقلا عن صاحب النفح "وقد بطلت حركات هذه المقصورة الآن، وبقيت آثارها حسبما شاهدته سنة عشر وألف"، وهذه ربما كانت ابرز معلم حضاري شهدته المدينة الموحدية، إن لم تكن المع ما أفرزته الذهنية العالمية حتى ذلك الوقت، ويقول الكاتب الشاعر أبو بكر بن مجبر يحيى الفهري وصفا لهذا الابداع من قصيدة طويلة له:

طورا تكون بمن حوته محيطة	**فكأنها سور من الأسوار**
وتكون طورا عنهم مخبوءة	**فكأنها سر من الأسرار**
وكأنها علمت مقادير الورى	**فتصرفت لهم على مقدار**
فإذا أحست بالأمير يزورها	**في قومة قامت إلى الزوار**
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده	**فتكون كالهالات للأقمار**

يحيى بن مجبر: أديب شاعر متفوق على أهل زمانه، من أهل بلش بالاندلس، توفي بمدينة مراكش سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م؛

ولما افتتح عبد المؤمن بن علي مدينة مراكش، وسيطر عليها، خلفا للمرابطين، امتنع الموحدون عن سكناها، لاعتبارها نجسة استجابة لتعليمات المهدي الذي كان يقول: "لا تدخلوها -يعني مراكش- حتى تطهروها". فسأل عبدالمؤمن الفقهاء في هذا المجال، فأفتوه بوجوب بناء مسجد حديث، وهدم مسجد السلطان علي بن يوسف بن تاشفين.(١)

لقد زود الخليفة مسجده الجديد بمراكش بمنبر فخم، كان قد أمر بصنعه في الأندلس؛ من خشب العود والصندل المغطى بصفار الذهب والفضة، على يد المهندس يعيش المالقي السابق.(٢)

واشتهر هذا المنبر منذ القدم بأنه من أجمل المنابر شأنا في بلاد الاسلام، بعد منبر المسجد الجامع بقرطبة الذي اتخذ مثلا في مثمناته، وأجزائه المحفورة في الخشب، وزخارفه النباتية، وفصوصة المتداخلة.(٣)

وإذا تمكنت دولة المغرب من غزو الاندلس عسكريا، فإن الرد المفاجئ كان من الأخيرة بما يتناسب وحسها الحضاري، فغزتها فينا، حتى نعم المغرب بما أنتجته القريحة الأندلسية، من ابداع فني تألق في بناء المساجد، والصوامع والقناطر والاسواق، والاقنية والجسور، والبساتين، والحدائق، تتخللها البرك للتنزه، والتعليم، وغير ذلك من متطلبات المجتمع المتحضر، وتوثقت العلاقة الفنية بين الاقليمين، لذلك رأينا الفن المغربي قد بلغ في عهد الموحدين، بهاء وانسجاما لن تجدهما في الأيام اللاحقة.

لذا فإن أثر الموحدين الفني، اذا اخذناها من الزاوية المغربية بدا زاهيا ذا بهاء، وإذا ما نظر اليه من دائرة أوسع، كان تفتحا في نهاية الخريف، تبعا لاقتصاد الدولة الذي لم يكن قد نما، وازدهر ذاتيا في القرن السادس الهجري، وإنما ثروات الزيريين وأموال المرابطين، اذ استولى عبدالمؤمن على خزائن علي بن يوسف، وذخائر لمتونة "مما يقصر على وصفه اللسان، ولا يأتي على شرحه البيان".(٤) فضلا عن ثروات ملوك الأندلس.

---

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٤٤.
(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٣) جوميث مورينو: الفن الاسلامي في اسبانية، ص:٣٥٠.
(٤) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٤٤.

اذن فلم تكن الحضارة الموحدية، على ما يبدو، الا امتداداً لـذلك الارث الحضـاري الـذي لم يكـن للموحـدين يـد طـولى في تـدعيم اسـسه، كمـا لم تعمـل الحكومـات الموحـدية المتعاقبة على اثرائه ونمائه، كـما أن عـدم تقبـل المغاربـة للمفـاهيم المهدويـة المهزوزة، ساهم وبشكل كبير، إلى جانب تلك الصراعات، في جمود ذلك التراث الحضاري، وعدم ارتقائه، فكانت تلك الحقبة بصدق آخر عهود المسلمين الحضارية.



الفصل الخامس

الحياة الثقافية النتاج الثقافي والعلمي والفكري

تمهيد:

لم يكن المظهر العام للموحدين يدل على أنهم من حماة العلوم والحضارة؛ فقد نشأوا كالمرابطين في مهاد القبائل العسكرية الساذجة، لكنهم أبطلوا مطاردة تعاليم الغزالي وغيرها من الكتب المحظورة، وأطلقوا حرية العلوم والفنون[1]، فسارت الدولة الموحدية بوحي الفكرة، بفضل الدفعة الاولى التي أطلقها المهدي وألّف لها عدة من الكتب: "كتاب التوحيد في سبعة أجزاء على عدد أيام الاسبوع، باللسان البربري، يقرأونه كل يوم، أثر صلاة الفجر، وكتابا آخر "الامامة"[2]، وكتبا اخرى "أعز ما يطلب" وعقائد في اصول الدين[3]. وكان بمقدور هذا الرجل أن يعيد صياغة الحياة المغربية بما تتطلبه المرحلة من تربية عسكرية وحضارية. وحرص خليفته عبد المؤمن على رعاية الرعيل الاول في أول عهده، فربى طلائعها، وزودها بالعلم والمعرفة، وخصها بالتربية[4].

وفي ظلال هذه الدولة المغربية تفيأ الادب والشعر، وازدهرت الحكمة والفلسفة، وتعددت مواهب العلماء والادباء؛ فهناك جماعات متخصصة في كثير من العلوم والفنون؛ ولذلك لا نتعب في البحث عن العدد الضخم من الرجال الممثلين للثقافة والفكر في كل مجال من المجالات، فهذه اسرة ابن زهر في الطب، وعائلة ابن البيطار في النبات[5]، واحمد بن محمد البطروجي في الرياضيات، وفي النحو عمر بن محمد المعروف بالشلوبين، وفي التاريخ من أمثال ابن الابار وابن بشكوال وابن صاحب الصلاة، وفي الادب والشعر من النساء: أسماء العامرية والشلبية وحفصة الركونية وغيرهن، ومن الرجال: ابو جعفر بن سعيد، وابن حبوس، والاصم الروائي "الطليق"، وابن المنخل وغيرهم ممن سنذكره في وقت لاحق من هذا البحث وفي الفلسفة ابن طفيل وابن رشد، ومن الجغرافيين: أبو حامد الغرناطي، وابن جبير، واليهودي بنيامن الرحالة وغيرهم.

---

(١) ابن الخطيب: الاحاطة، ج٤، ص: ٣٥١.
الحلل، ص: ١٠٤.
(٢) ابن ابي زرع: روض القرطاس، ص: ١٧٧.
(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٢٧٥ وللمهدي "كتاب الموطأ" طلب من اتباعه حفظه.
(٤) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٠.
(٥) وهناك علماء نبات آخرون مثل ابن العوام، وأبي جعفر الغافقي وغيرهم.

وعلى ما يبدو فقد بلغت الحياة الفكرية بعيداً في كل مظهر من مظاهر النشاط المعرفي، وهذا مرجعه تشجيع رجال السياسة لارباب الفكر وما يغدقون عليهم من الهبات، حبا في العلم وشغفاً في الثقافة، وليس أدل على ذلك من علو كعب يوسف بن عبد المؤمن بالعلوم، ومطارحاته اللغوية والدينية والطبية للعلماء، وجمعه للكتب حتى تجمع لديه العدد الضخم الذي حوته مكتبته التي ضارعت، بل فاقت مكتبة الحكم المستنصر الاموي الشهيرة، مع ايثار للعلم، وتعطش اليه شديد[1]، ولا نستطيع الاحاطة ولو حرصنا بعلماء كل فن في عصر الموحدين وهو الزمن الحضاري الاخير لدولة الاسلام، حتى المدينة الواحدة من مدن دولة بني عبد المؤمن يحتاج علماؤها الى مجلدات ضخمة ليس مجالها هذه الاطروحة.

وإنه ليمكن القول بتأكيد ان الثورة الثقافية التي أحدثها ابن تومرت قائمة على التحرر العقلي والمنهج النقدي ونبذ التقليد، وكانت المناخ الصالح الذي نما فيه فكر فلسفي مغربي متميز الملامح ابتداء بأبي بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة (٥٣٣هـ/١١٣٨م) الذي شهد فجر الثورة التومرية وقضى اكثر سني حياته بالمغرب، حيث توفي بفاس، والف مجموعة من الرسائل في الفلسفة اشهرها "تدبير المتوحد". ثم ترسخ هذا الفكر بابن طفيل المار الذكر الذي عاش في بلاد الموحدين، وكان أحد مستشاريهم الثقافيين، ومن المقربين، ثم بلغ أوجه عند ابن رشد الذي عاش هو أيضاً في البلاط الموحدي وانتج ما انتج من الشروح الفلسفية بتكليف منهم[2].

ثم لاتصاف ابن تومرت بالعلم وولعه به، ودعوته إليه واعتماده إياه أصلاً للايمان، وأساساً للحياة الاجتماعية، كما أوضح ذلك في تأليفه وتعاليمه، كانت ثمرته أن أصبح معظم الامراء الموحدين علماء في أشخاصهم مشجعين عليه في رعيتهم، وتلك صورة قل نظيرها في التاريخ الاسلامي، فقد كثر أن يتولى حكم المسلمين غير العلماء، وهو ما كان بابا لشر صعب اغلاقه.

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٣٤٦، ٣٤٩-٣٦٠.

(٢) Juan Vernet; La culture hispanoarabe, en oriento yoccident, de, Editorial Ariel p. 43-44.
خوان بيرنيث: الثقافة الاندلسية في الشرق وفي الغرب.

١. الكتـاب والادبـاء:

اهتم عبد المؤمن كما ذكرنا سابقاً بالعلماء من كل فن، وجمع حوله طائفة من الكتاب، جعلهم على الاقاليم لتبصير أبنائه ومساعدتهم في سياسة ولاياتهم، فكان ابو الاصبغ بن عياش كاتباً في تلمسان، وابو الحسن ابن هرودس على كتاب غرناطة، وأبو بكر بن حبيش رئيس كتاب بجاية، وعلى فاس الكاتب أبو العباس بن مضا، وكان رئيس كتاب القصر الملكي الكاتب ابو علي الاشيري[1]، الذي برع في الشعر أيضاً فارتجل أبياتاً من قصيدة له في موقف لعبد المؤمن[2].

أنس الشبل ابتهاجا بالاسد	ورأى شبه أبيه فقصد
ودعا الطائر بالنصر لكم	فقضى حقكم لما وفد
أنطق الخالق مخلوقه	بالشهادات فكل له قد شهد
أنك القائم بالأر له	بعد ما طال على الناس الامد

أما ابو جعفر احمد بن عطية الوزير والكاتب الخاص لامير المؤمنين، وكان قبل ذلك كاتباً لأمير المسلمين علي بن يوسف المرابطي في آخر أيامه، فاختصه عبد المؤمن لنفسه، وانفلت يخدم معززاً حاشية الخليفة ومن المقربين الى أن قضى نحبه على يديه للحظة ضعف كان بها مدلا على السلطان؛ أفشى أسرار الدولة وحرض صهره يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين، فارس المرابطين المشهور الذي آمن بالتوحيد، واصبح زعيم لمتونة في جيش الموحدين عل الهرب، واللحاق بجزيرة ميورقة عندما اكتشف ان

(١) ابو علي الاشيري هو "الحسن بن عبدالله بن الاشيري من أهل تلمسان، كان كاتباً لعبد المؤمن (ت ٥٦٩-١١٧٤).

(٢) قيل أن عبدالمؤمن كان مولعاً بتربية الاسود فاهدى اليه شبل صغير وادخل على الخليفة في مجلسه، فأمر بحله من عقاله فمشى الشبل بين الناس يخترق الصفوف حتى وصل الى الخليفة وسكن بين يديه وربض لا يتحرك من مكانه، واتفق ان اهدي اليه في نفس اليوم زرزور يتكلم بأنواع الكلام، ودعا بالنصر لعبد المؤمن وعندما ارتجل الكاتب المذكور الأبيات الشعرية تلك. وقيل ان عبد المؤمن عمل حيله ليخضع المترددين من المغاربة لحكمه فدرب الاسد والطير على ذلك بالسر، وجمع رجال دولته لينظروا واقع الحال.
مجهول: الحلل، ص: ١٤٩-١٥٠.
المقري: النفح، ج٤، ص: ١٠٢، يذكر هذا الشعر أنه قيل في حفيد عبد المؤمن الخليفة المنصور.
الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص: ١٠٢.
وأورد صاحب الأنيس المطرب بروض القرطاس، الرباط، ١٩٧٢، ص: ١٨٤-١٨٦ قصة طريفة حول هذه الحادثة مناقضة لما جاء في البداية فارجع اليه.

السلطة مصممة على القبض عيه، وإيداعه السجن والتحقيق معه في امور عسكرية، ربما تكون لغير صالحه.

وخلفه ابو القاسم عبد الرحمن القالمي من مدينة بجاية-من بلدة قالم- ومساعده الكاتب ابو محمد عياش بن عبد الملك القرطبي، ومن الكتاب ابن محشوة البيجاوي، الذي خدم الدولة في مدة أبي يعقوب وابنه أبي يوسف يعقوب من بعده، والكباشي، وأبو محمد مغن، فضلا عن الذين كتبوا للخلفاء والامراء السادة كما مر سابقاً[(١)]. وأخص بالذكر منهم ابراهيم الزويلي شيخ الكتاب، وأمير الشعراء في عصره الذي لزم أمير المؤمنين المنصور، ومدحه بقصيدة أثر حصاره ابن غانية في مدينة قفصة منها:

سائل بقفصة هل كان الشقي لها　　بعلا وكانت له حمالة الحطب
تبت يدا كافر بالله ألهبها　　فكان كالكافر الاشقى أبي لهب

ويستطرد ويقول:

لما زنت وهي تحت الامر[(٢)] محصنة　　حصبتموها اتباع الشرع بالحصب[(٣)]

ولا ننسى آخر من انتهى اليه علم الآداب بالاندلس "أبا جعفر الحميري المؤدب" محمد بن يحيى الحميري، الذي لم يغادر حكاية تتعلق بأدب أو مثل سائر، أو بيت نادر، أو سجعة مقبولة الا أتقنها، وعلمها الى غيره، وكان لا يعد من حفظ كتاب سيبويه وديوان المتنبي شيئاً، ولم يكن بالاندلس في زمنه أعلى رواية منه، ولا من يباريه في اتساع علمه وشدة تمييزه، وحسن اختياره ومعرفته فقه اللغة، توفي في شهر صفر من عام ٦١٠هـ/١٢١٣م[(٤)].

ومن الكتاب الذين خدموا أبا عبدالله الناصر، أبو الحجاج يوسف المُرَاني، من كتاب الجيش الذين اختصوا به[(٥)]. وأبو جعفر احمد بن منيع الذي أتى بعده. ومن الادباء المتقنين: ابو الربيع سلمان الاندلسي المعروف بكثير المتوفى ٦٣٤هـ/١٢٣٦م من أهل الضبط والحفظ، وفي الادب لا يباري سبق اهل زمانه بلاغة وفصاحة، متفوقاً في الانشاء،

---

(١) المركشي: المعجب، ص: ٢٩٢، ٣٥٥، ٣٧٤، ٣٨٠، ٣٨١؛ المقري: النفح، ج٥، ص: ٢٩٥
(٢) الامر: الخليفة.
(٣) المصدر نفسه، ص: ٣٩٦، ويسميه المعجب: من شيوخ الكتاب، وظرفاء الشعراء، وهو ابراهيم ابو اسحاق الزويلي الكاتب.
(٤) المصدر نفسه، ص: ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٢٩، ٤٣٤.
(٥) من مدينة شريس بالاندلس، المصدر نفسه، ص: ٤٤٤.

مختصاً في الخطابة والفصاحة مفوها، واليه انتهى، وينتهي الحديث في مجالس الملوك، اذ نبغ في النظم والنثر، وله قصيدة تربو على خمسائة بيت، فيها يصف نفسه ويلوم زمانه مطلعها:

الحمـــد لله لـــيس لي بخـــت ولاثبـــات يضـــمها نحـــت

وهو ممن أزرى على الغزالي تسمية كتابه إحياء علوم الدين فكان يقول:

"ومتى ماتت العلوم حتى تحيى علوم الدين؟ ما زالت حية ولا تزال"[١]، وكان من الناقدين للمؤلفين والمصنفين والمتكلمين والشعراء.

ونبع في اللغة أعداد من أئمتها لا يحصيهم هذا البحث[٢]، وليس بعجيب أن يظهر هذا العدد من رجال الادب، طالما ان ابن تومرت نفسه من المهتمين باللغة العربية، وعلى دربه سار خليفته عبد المؤمن الذي ربى ابنه يوسف تنشئة دينية ولغوية فالناس على طريق ملوكهم[٣].

وكان من أساطين النحاة في المغرب والاندلس على عهد الموحدين، محمد بن عبداللة بن مالك الطائي الجياني؛ ابو عبدالله جمال الدين، أحد الأئمة في علوم العربية، الذي ولد في جيان سنة ٦٠٠هـ/٦٧٢هـ-١٢٠٣م/١٢٧٣م، ورحل عن المغرب الى دمشق وتلقى علومه هنالك، وتصدر لتعليم اللغة العربية في حلب، ومات بدمشق، وهو صاحب الالفية المشهورة في النحو، والصرف، وله أيضاً "تسهيل الفوائد" و "لامية الافعال" من انتاجه وغير ذلك[٤]، أما شيخ الادباء ونقيبهم في هذه الحقبة "ت ٦٠٧هـ/١٢١٠م فهو ابو موسى عيسى بن عبد العزيز بن يللبخت بن عيسى الجزولي البربري المراكشي من علماء العربية، تصدر مجلس الاستاذية زمناً لتعليم النحو في المرية، والجزائر وكان متقدماً في النحو لا يجاريه أحد في دقائقه وغريبه، وشاذة ومن كتبه المهمة، "شرح قصيدة بانت سعاد" و "الامالي" في النحو و "مختصر شرح ابن جني لديوان المتنبي"، وصاحب "الجزولية" وهي رسالة في النحو التي انكب عليها النحاة، درساً وتحليلاً ونعتوها بعده، بأسماء منها:

---

(١) الغبريني: عنوان الدراسة، ص: ٢٧٩، ٢٧٠.
(٢) منهم محمد بن جعفر بن احمد خلف الذي برع في علم اللغة والبلاغة، وعبداللة بن يحيى الحضرمي النحوي البلنسي، وجيه بن يحيى بن خلف الاشبيلي الذي اتخذه المنصور معلماً لاولاده.
ابن الابار: التكملة، رقم ١٤٦٧، ٢٠٦٦، ١٨٧٩.
(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٤٠١.
(٤) ابن قنفذ: الوفيات، ص: ٣٣٢.

"القانون" "الاعتماد" وسميت كذلك "المقدمة" وعلى الرغم من صغر حجمها، كانت شهرتها بالألغاز والرموز اكثر منها قواعد نحوية واضحة[١]. ومن الكتاب الموسومين بالجرأة وقوة الحجة الأديب أبو العباس احمد بن عبد السلام الكورايي[٢]، وقد تقدم به الشأن، وجالس عبد المؤمن ثم ولده يوسف ثم ولده يعقوب[٣].

يلاحظ أن الموحدين، رغم الذي قيل فيهم كانوا الضوء الساطع الذي أشرق بالعلم والمعرفة من أول يوم ظهرت فيه دعوة ابن تومرت على ارض المغرب، اذ جند طائفة لامعة من تلاميذه انبثوا في أنحاء عديدة من البلاد بيشرون بميلاد مبدأ جديد يحملون على كواحلهم جزءاً من قضيته.

٢- الشعر في زمن الموحدين:

لما كان الشعر العربي، وبخاصة المدح منه، مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً على طوال التاريخ الأدبي بالساسة والحكام، وذوي النفوذ والثراء، فهو لذلك يتأثر سلباً بموقف الأخيرين منه. يشع، وينمو اذا واجه التشجيع والرعاية، ويخمل، ويضعف حينما يصادف الزهد والاهمال من ذوي السلطة، وعدم الالتفات الى قائليه، فلا بد لحاملي هذا الفن من توفر عاملين رئيسين في ممدوحيهم ليكون الابداع والاجادة والرغبة.

أولهما: الاذن الشعرية من الممدوح والذهنية الناقدة.

وثانيهما: النفس السمحة واليد المعطاء، فهل توافر هذان الدافعان في عصر الموحدين؟

لقد توافر هذان العاملان مدة دولة بني عبد المؤمن؛ فزعماؤهم عُرفوا بثقافاتهم العالية، وبخاصة في اللغة العربية وآدابها، على الرغم من نشأتهم المتواضعة غير

(١) ابن قنفذ: الوفيات، ص: ٣٠٧؛ ابن خلكان: الوفيات، ج٣، ص: ١٥٧، ١٥٨؛ ابن الابار: التكملة، ج٢، رقم ١٩٣٢؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص: ٥٠٥.

(٢) وكورايا قبيلة من البربر ويقال لها جَرَاوة؛ ابن خلكان الوفيات، ج٧، ص: ١٣٦.

(٣) ولقد حضر الكورايي يوماً إلى باب الأمير ، والتقى هناك الطبيب سعيد الغُماري، فطلب الامير من بعض رجال الحرس ان ينظر من بالباب من الاصحاب، وعاد إليه وقال: احمد الكورايي وسعيد الغُماري، فقال الامير متعجباً: من عجائب الدنيا شاعر من كورايا وطبيب من غمارة، فلما سمع ذلك الكورايي، قال: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ){ يس:٧٨}، اعجب منها والله خليفة من كوميا؛ فيقال ان الأمير يوسف لما بلغه ذلك، قال نعاقبه بالحلم والعفو ففيه تكذيبه، المصدر نفسه، ص:١٣٧.

العلمية[1]. فالأمين العام للدعوة ومرشدها، وأميرها الأول من بعده كانا من العلماء المختصين، فان ابن تومرت مؤسس الدولة، وتلميذ الغزالي عاش حياته يتلقى العلوم الدينية، ويعلمها لتلامذته، كما مر سابقاً، ويكفي مؤلفه القيم "أعز ما يطلب" أول ما طبع بالجزائر سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م، أما صاحبه وتلميذه عبد المؤمن، كان معلماً للصبيان للعلوم الدينية واللغة العربية، قبل اتصاله باستاذه، وله مواقف عديدة تؤكد ميله للشعر وعنايته به، وتذوقه اياه، لقد مدحه أبو محمد عبدالله الجياني بشعر من بحر الطويل استهله بقوله:

أضاءت لنا الأيام واتصل النجح　　　كأن وجوه الدهر مسوده كلـح

فأجابه عبد المؤمن على نفس البحر والقافية[2]:

هو الفتح لا يجلو غرائبه الشرح　　　أصاب بني التجسم من باسه ترح
أتتنا به البشرى علـى حين غفلة　　　بمهلك قوم كان موعدها الصبـح

ولربما كانت بلاغتهما الأدبية في النثر والنظم تدخلهما -مع نزارتها- بين الشعراء والفحول لولا الظروف السياسية ومشاغل الحروب، وأولويات أكثر أهمية كانت تفرض الانصراف اليها قد حالت بينهما وبين نظم الشعر، فهذا المهدي ينظر الى عبد المؤمن نظر المعجب الولهان، ويجد في طموحه صورته الشابة، اذ وضع فيه كل أمله في تحقيق ما كان يستهدفه من خطته، ويعبر عن اعجابه بصفاته في قوله[3].

تجمعت فيك أشياء خصصت بها　　　فكلنا بك مسرور ومغتبط
فالسن ضاحكة والكف مانحة　　　والصدر متسع والوجه منبسط

وليس أدل على مواقف عبد المؤمن الشعرية وتشجيعه له، فعند عبوره الى الأندلس، ولأول مرة، اجتمعت لديه على جبل الفتح، وفود من وجوه بلاد الأندلس، ورؤسائها، وأعيانها للتهنئة والمبايعة، وعلى رأسهم طائفة كبيرة من الشعراء المداحين من جميع أنحاء المملكة، أكثرهم مجيدون، فاستدعاهم في هذا اليوم المشهود ابتداء وكانوا أول الداخلين[4]. فلا يمكننا الا أن نستشرف ثلة مجيدة منهم، اذ لم تسعفنا الحظوظ بصحبتهم

(١) المقري: نفح الطيب، ج٩، ص: ٣٠١-٣١٠.
(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٧؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ق٢، ص: ٢٢.
(٣) المراكشي: المعجب، ص: ٢٨٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص: ٣٦٣-٣٦٤؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٨٤؛مجهول: الحلل، ص: ١١٩.
(٤) المراكشي: المعجب، ص: ١١٣-١٣٥؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٨٥-٤١٩.

جميعاً. وكان أبو عبدالله محمد بن حبوس من أهل مدينة فاس اول المنشدين قصيدته التي أجاد فيها فقال:

بلــغ الزمــان بهــديكم مــا أمــلا وتعلمــت أيامــه أن تعــدلا
وبحســبه أن كــان شــيئاً قــابلا وجــد الهدايــة صــورة فتشــكلا[١]

ولابن حبوس قصائد كثيرة، وهو شاعر الدولة اللمتونية السابقة التي لم تغفر لـه طول لسانه عليهم، فهرب يتنقل في الخفاء من بلد الى بلد آخر حتى ظهور الدولة الموحدية، وظهر معها، ونال بسبب قصائده حظوه عند السلطان وعند ابنه ابي يعقوب، وجمع ثروة طائلة، لذلك فهو يمثل الشعراء المداحين المتكسبين. أما بعض الشعراء فقد دافع عن كرامته وقناعته بما لديه من مال يجنبه ذل السؤال، ولعل الرصافي البلنسي كان على رأس الممثلين لهذا الموقف، فهو شاعر عصره المعترف له بالاجادة مع العفاف والانقباض وعلو الهمة، والترفع عن التكسب بالشعر، وعاش من صناعة الرفو التي كان يعالجها بيده "لم يبتذل نفسه في خدمة ولا تصدى لانتجاع بقافية"[٢]. فيلاحظ أنه يفضل العيش بما تدره حرفة الرفو على ضآلته وقلته، على التسكع والتذلل أمام أبواب ذوي الجاه والنفوذ، والأثرياء، متحصنا بالقناعة، مؤمناً بأن الرزق يجري بنصيب، وقدر بعد أن ساوى عبد المؤمن بينه وبين الشعراء بالعطاء[٣].

صــون الفتــى وجهــه أبقــى لهمتــه والــرزق جــار عــلى حــد ومقــدار
قنعــت وامتــد مــالي فالسمــاء يــدي ونجمهــا درهــي والشــمس دينــاري

غير أن زهده وترفعه لم يمنعا المسؤولين من تقريبه، واغرائه بالعطايا دون ان يرحل اليهم او يفد الى حضرتهم، وهو ما يعنيه بقوله مخاطباً الوزير الوقشي[٤].

---

(١) بهذا الاستهلال البارع- يبدو أنه أجاد فيها ما أراد- القائم على مبدأ المهدي المنتظر، الذي يملأ الزمان بهدية ما أمل، في ادعاء الشاعر. وازداد تقربا من عبد المؤمن، ونال ثقته، فتجرد لخدمته؛
المراكشي: المعجب، ص: ٣١١-٣٢٦؛ مجهول: الحلل الموشية، ص: ٥٥١-٦٥١؛ ابن صاحب الصلاة" المن بالامامة، ص: ١٥٠-١٧٠.
نرى أن ابن صاحب الصلاة يغفل او يتغافل عن ذكر هذا الشاعر في هذه المناسبة المهمة، الذي استخلصه عبد المؤمن دون سائر الشعراء فلربما يعود ذلك الى نزعة التعصب الاقليمي.

(٢) الرُّصافي: هو الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البلنس المعروف بالرصافي، هذا الشاعر منسوب الى رصافة بلنسية، وكان مستوطناً مالقة، وعاش فيها سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م، ويسمى "ابن رومي الأندلس" تشبها بالشاعر ابن الرومي المشرقي؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣١٦-٣٢٧؛ ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص: ٣٤٢.

(٣) ديوان الرصافي البلنس، ص: ٩٤ جمعه، د، احسان عبا، بيروت، دار الثقافة؛ ١٩٦.

(٤) ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، ج٢، ص: ٣٤٣.

نعـــماء جـــدت بهـــا ان لم نلتـــق فـــيمن يدنـــدن حولهـــا ويحـــوم

وهذا الترفع من قبل الشاعر ربما يرجع الى شيء واحـد هـو الكرامـة وحفـظ مـاء الوجه، وقد عبر عنها الشاعر (بغيرة جاهلية) أم غيرة شعرية، وقال[1]:

عــلى أننـــي لا أرضى الشعـــر خطـــة ولـــو صُـيّرت خضرـا مسارحـــيَ الغـبر
يقـــول انـــاس: لـــو رفـــعت قصـيدة لأدركـــت حـــتما في الزمـــان بهـــا أمـــراً
ومـــن دون هـــذا غـــيره جاهيـــة وإن هـــي لم تلـــزم فقـــد تلـــزم الحُـــرا

وفي هذا العهد تطورت قصيدة المدح في مضمونها، وتعينـت معالمهـا، وشـاع روح الغلـو والمبالغـة، واتسـامها بـالروح التومرتيـة وتعاليمهـا وتضـمين المـديح معـان دينيـة مستوحاه من قصة موسى-ع- في أغلب الأحيان وتتجلى نزعة المبالغة بغلـو في أمـداحهم في وصف الممدوح بصفات تخرجه عن كونـه بشراً، وتجعلـه شـيئاً آخـر مقدسـاً منزهـاً، شبيهاً بالأنبياء يسير الأقدار، ويتحكم بالقضاء، وهو نـور لا تدركـه الابصـار فكأنـه خلـق كما يشاء، وهذا يذكرنا بابن هـانىء الاندلسي- شـاعر الغلـو، عنـد مدحـه الخليفـة المعـز الفاطمي، فقال:

شئـــــت لامـــــا شـــــاءت الاقـــــدار فـــاحكم فانـــت الواحـــد القهـــار

ومن أمثلة الغلو في مدائحهم قول الرصـافي يمـدح أبـا جعفـر الوقشي- وزيـر ابـن همشك[2]:

لمحـــــلّك الترفيـــــع والتعظـــــيم ولوجهـــــك التقـــــديس والتكـــــريم
ولـــــراحتيك الحمـــــد في أرزاقنـــــا والـــــرزق أجمـــــع مـــــنهما مقســـــوم

فممدوحه مكرم معظم أقرب إلى النبوة ان لم يكن نبياً، ويقول ان الشعر لا يبلـغ صفاته، ولا يحيط بمآثره، وهو حقيق بآيات قرآنية فيه لا أبيات شعرية:[3]

فلـــو لحقـــتم زمـــان الـــوحي نـــزّل في تلـــك الصـــفات مكـــان الشـــعر قـــرآن

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٣١٧، يتضح لي أن الرصافي مع غروره وجودة شعره كان يطمح الا يساوى كالشعراء، بل يجب أن يميز عنهم بأي شيء، لذلك ترك المدح لغيره وقنع بصنعة الرفو.

(٢) ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، ج٢، ص: ٣٤٣.

(٣) ديوان الرصافي، ص: ١٤٠.

لكن الروح الترمرتية تظهر واضحة جلية في مدحه لعبد المؤمن بجبل الفتح استهلها بقوله[١]:

لو جئت نار الهدى من جانب الطور قبست ما شئت من علم ومن نور

أما المدائح التي تشبه الموحدين بالأنبياء، فتبرز بشكل واضح ملفت للنظر، اذ كانت قصة موسى وطوره ويوشعه وعصاه وعبوره البحر تتردد في أشعار المديح، وربما كانت اولى المدائح التي استغلت هذه المعاني، تلك الاشعار التي قيلت بجبل الفتح ترحيباً بعبور عبد المؤمن بن علي الى الأندلس لأول مرة، اذ أوجدت هذه الأمداح ترابطا بين موسى عليه السلام، وبين عبد المؤمن، وكأن الشعراء بذلك يتخذون من عبد المؤمن رمزاً للمنقذ المخلص، كما شأن موسى منقذاً ومخلصاً لبني اسرائيل فالصورتان -موسى وعبوره ومعاناته وعبد المؤمن وعبوره وهمومه ايضا- تلتقيان من مفهوم الجهاد من أجل مثل أعلى، والمضي قدما بهمة ونشاط في سبيل هدف مقدس، فيقول الرصافي:[٢]

فالبحر قد عاد من ضرب العصا يبساً والأرض قد غرقت من فور تنور
وإنما هو سيف الله قلده أقوى الهداة يدا في دفع محذور
فإن يكن بيد المهدي قائمُهُ فموضعُ الحدّ منه حدٌّ مشهور
والشمس اذ ذكرت موسى فما نسيت فتاة يوشع قمَّاعَ الجبابير

ويتحقق هذا التوافق في المعنى في أكثر من قصيدة من قصائد المديح، يقول الأصم المرواني (الطليق) بجبل الفتح منشداً عبد المؤمن[٣]

وطودُ طارقَ قد حل الإمام به كالطور كان لموسى أيمن الرتب

لو يعرف الطود ما غشاه من كرم لم يبسط النور (الغور) فيه الكفَّ للسحب

ولو تيقن بأساً حل ذروته لغار كالعين (لعاد كالعهن) من خوف ومن رهب

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٣١٧؛ ابن سعيد: المغ في حلى المغربرب، ج٢، ص: ٣٤٣؛ المقّري: نفح الطيب، ج٥، ص: ٣٥.
(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٣٢٣.
(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٦١؛ الكراكشي: المعجب، ص: ٣١٥..

ويلـــــبس الـــــدينَ غضــــا ثـــــوب عزتـــــه

كـــــأن أيـــــام "بـــــــدر" عنـــــــه لم تغـــــــب

وهنا قد وصل المدح الغاية في الغلو، اذ لو عرف الجبل الأمير الذي حل به لخر صعقاً مـن جبروتـه وبطشه. وتأكد هذا التلاحم في الغلو عند أكثر من شاعر من شعراء المدح، فقد ألقى أبو جعفـر بـن سـعيد العنسى قصيدته على جبل الفتح مخاطباً عبد المؤمن استهلها[1]:

تكلم فقـد أصغى إلى قولك الدهر ... وما لسواك اليوم نهى ولا أمر

ورم كل ما شئته فهو كائن ... وحاول فلا بر يفوت ولا بحر

فما "طارق" الا لذلك مطرق ... "ولابـن نصـير" لم يكن ذلك النصر

هم مهداها كي تحل بافقها ... كما حلّ عند التم بالهالة البدر

وهنا يظهر الغلو واضحا جليا، فما فتوح طارق بـن زيـاد، وابـن نصـير في الأنـدلس الا شـيئا ضـئيلا ومقدمة لفتوح عبد المؤمن لها.

وكانت في أمداح الموحدين تـتردد معـاني التفـاخر بالأنسـاب العربيـة العريقـة، اذ كـان الموحـدون يرفعون أنسابهم الى قيس عيلان من مضر[2].

وبذلك مدحهم الشعراء، ففيهم يقول أبو محمد بن حامد في مدح سليمان حفيد عبد المؤمن[3]

ومؤيد من قيس عيلان الألى ... هم روضة الجاني وعود الجاني

ويقول الرصافي في عبد المؤمن[4]:

وآية كآيات الشمس بين يدي ... غزو على الملك القيسي منذور

ومن مميزات شعر الأندلسيين مدة الموحدين أنهـم كـانوا حريصـين عـلى وقـع الفـاظهم في نفـوس السامعين، مدركين قيمتها الجمالية، ومقدار أهميتها صوتيا ومعنوياً، حذرين مـما قـد يصـادف مـنهم قـراءً ناقدين ومتلقين متذوقين كالذي حدث للشاعر أبي

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٥٥-١٥٦.
(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص: ١٤٢؛ المراكشي: المعجب، ص: ٢٨٨.
(٣) التجيبي: زاد المسافر، ص: ٣٨.
(٤) ديوان التجيبي، ص: ٧٩.

العباس أحمد بن سيد المعروف باللص حينما ألقى قصيدته الرائعة أمام عبد المؤمن على جبل الفتح استهلها بقوله[١]:

غمض عن الشمس واستقصر مدى زُحل

وانظر الى الجبل الراسي على الجبل (جبل)

فأنكر أمير المؤمنين هذا الاستهلال، وقال على مسمع من الناس غمّض!! غمض!، لقد ثقلتنا يا رجل، وأمره بالجلوس، وأعطاه جائزته علماً أن هذه القصيدة كانت من خيار القصائد التي قيلت لولا أن كدرها بهذه الفاتحة، وكانت لعبد المؤمن ملاحظات نقدية على أشعارهم تدل على تذوق الشعر ومعرفته به، وأدرك ثقل اللفظين غمّض وزحل، فالاولى فيها صيغة الأمر ومعنى العمى. فالكلمة اذن تأخذ ثقلاً مهماً في بناء القصيدة، وقد تزيد على معناها وتوازنها.

لم يكن أولاد عبدالمؤمن بأقل منه حماساً للشعر وتقريباً للشعراء، وبخاصة حفيده أبو يوسف يعقوب، اذ كانت علاقاته مع الشعراء تؤكد ذلك الحماس وهذا التقريب[٢]، وكان الشعراء يعرفون ذلك ويعونه، فعند انتصاره بموقعة الأرك سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م، اجتمع لديه منهم عدد جم غفير "فلم يكن لكثرتهم ان ينشد كل انسان قصيدته، بل كان يختص منها بالانشاد البيتين أو الثلاثة المختارة... وانتهت رقاع القصائد وغيرها إلى أن حالت بينه وبين من كان أمامه لكثرتها"[٣] ثم امتدت نزعة الغلو في المدح مدة الموحدين، قال أبو العباس الجراوي، صاحب الحماسة المغربية، مشيرا إلى الطوائف المتمردة أيام ابي يعقوب.[٤]

تنال المارقين بكل أرض	**ولا طارت ولا نقلت خطاها**
وعذر الشمس لوحسدتك باد	**لأن سناك اشهر من سناها**

---

(١) المقري: النفح، ج٥، ص: ٣٣٣، ٣٣٥، وسمي باللص لاغارته على اشعار الناس؛ المراكشي: المعجب، ص: ٣١٦؛ ابن سعيد: رايات المزرين، ص: ٤٨؛ لعل عبد المؤمن استحسن هذه القصيدة، وقال له: أنت شاعر هذه الجزيرة لولا ما بدأتنا "بغمّض"، "وزحل"، والجبل كما يذكر الرايات، ونفح الطيب.

(٢) المقّري: نفح الطيب، ج٣، ص: ٢٣٧-٢٣٨.

(٣) المقري: النفح، ج٥، ص:٥٠٣؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص:١٩٧؛ يقول ابن عذاري، وقد أكد الخليفة المنصور على وزيره أبي الطاهر، أن يوجز كتب المدح في هذا الفتح غاية الايجاز، فامتثل الوزير أمره، (وطوى بساط الشعراء).

(٤) المصدر نفسه، ص:١٣، ١٤.

ويقول:

لـــو كانـــت الجـــوزاء مـــن اعدائـــه　　لم تـــنج عـــن غاراتـــه الجـــوزاء

هذه الرغبة لدى الخلفاء في سماع المديح شجعت الشاعر، ودفعته الى النظم والاجادة، لأنه يدرك مسبقاً مقدار ثقافة السامعين، ورقة اذواقهم، ودقة ملاحظاتهم ولم يطل هذا الحال، فبعد امارة الناصر سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م، قل موقف الشاعر المادح، واصيب باحباط وتخاذل مشوب برهبة وخوف نتيجة لتغير الظروف والحكومات، واضطراب الاحوال، وقد خيم الرعب وانتشر الهلع في كل مكان، بينما كان الشاعر مادحاً مقربا من الحاكم، نرى رأسه معلقاً إلى جذع شجرة مصلوبا، تنز منه الدماء وتفوح منه الروائح في الهواء[1]. وقد يصبح مديحه نقمة عليه، فيجمح في البلاد خائفاً طريداً لان ممدوحه قد زال حكمه، وأفل سعده، ازاء هذه الأحوال القلقة، فضل بعضهم الصمت والعيش في الظل بعيدين عن أجواء السياسة وبلاط الحكم.

واستحدث إلى جانب المدح، الاستصراخ، وطلب العون والحض على الجهاد، وتأتي القصيدة في مثل هذا ممتزجه مع المدح، بل هي جوهره لأنها تحمل معاني البطولة والشجاعة والنخوة، ومن ذلك نماذج لأبي المطرف محمد بن أحمد المخزومي يستصرخ أمير المؤمنين الموحدي عند حصار مدينة ٠(شقر) من قبل محمد بن سعد سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م.[2]

تـــدارك أمـــير المـــؤمنين دماءنـــا　　فانـــك للاســـلام والـــدين نـــاصر

فهـــذا الـــذي يبنـــي المســـاجد امـــره　　وأمـــر ابـــن ســـعد أن تشـــاد المعـــاصر

واستنجد ابن مردنيش (أبو جميل زيان) بالأمير أبي زكريا بتونس، وأوفد عليه كاتبه الفقية أبا عبدالله بن الأبار (صريخا)، اذ بلّغ البيعة، وأنشد في ذلك المحفل قصيدته على روي السين يستصرخه فيها للمسلمين ضد الاسبان بدأها بقوله:

أدرك بخيلـــك خيـــل الله أندلســـا　　ان الســـبيل إلى منجاتهـــا درســـا

إلى أن يقول:

وفي بلنســـية منهـــا وقرطبـــة　　ما يذهب النفس أو ما ينـزف النفسا

(١) ابن سعيد: القدح، ص:١٣٦. (٤) المصدر نفسه، ص:١٢٤.
(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص:٢٦٩.

طهـــر بـــلادك مــــنهم انهـــم نجـــس ولا طهـــارة مـــا لم تَغْسِــل النجســـا

وهي قصيدة طويلة مشحونة بالمدح والاستغاثة وذم الاعداء وشتمهم.[1]

أما شعراء الوصف في القصيدة الأندلسية زمن الموحـدين، فقـد كـان ميـدانها الطبيعـة التي أصبحت أفقاً رحبا لتحليـق الخيـال، ومصـدراً مهـما للاسـتلهام والاسـتيحاء، فاسـتحوذت بفضل ذلك على حواس الشعراء وأذواقهم، وتسربت الفاظها وألوانها إلى كل الفنون الشـعرية الأخرى من غزل وخمر ومدح ورثاء[2]. وعرف ابن الأبار في عصر الموحدين بـالاهتمام بوصـف الطبيعة. ومن قوله في وصف ظل منسرح على نهر.[3]

والظـــــــل يبـــــــدو فوقــــــه كالخــــــال في خـــــد الكعــــاب

حيث أثارت الطلال المنتشرة على صـفحة النهـر اهتمامـا خاصـا لـدى شـاعرنا الرصـافي فقال:[4]

ومهـــدّل الشـــطين تحســـب انـــه مُتسـيّل مـــن درّة لصــفائه (متسـايل)

فـــاءت عليـــه مـــن الهجـــيرة سرحـــة صـــدئت لفيئتهـــا صـــفيحة مائـــه

فـــــتراه أزرق في غُلالـــــة سُـــــمرة كالـــدارع اســـتلقى بظـــلّ لوائـــه

فقد صور الرصافي الطل بالصدأ، وهذا جديد في أيام الموحدين، ويتعرض الرصافي كذلك في وصفه للجبل من خلال قصيدة يمدح فيها عبدالمؤمن عند نزوله بجبل الفـتح، وقـد اسـتمد منه معنى القوة والشموخ والمجد.[5]

مُعـــــبّرا بـــــذراه عـــــن ذُرى ملـــــك مســـتمطر الكــف والأكنــاف ممطــور

وقد رأى في الجبل شيخا وقوراً ناظراً في اطراق كأنما يفكر في أمر.[6]

قـد واصـل الصـمتَ والاطـراقَ مفتكـراً بادي السـكينة مغفـر(مغـبّر) الأسـارير

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٨٥-٣٨٨؛ المقري: النفح، ج٦، ص:٢٤٧-٢٥١.
(٢) د. احسان: عصر المرابطين والموحدين، ص:٢٠٣.
(٣) المقري: أزهار الرياض، ج٣، ص:٢٢٣.
(٤) ديوان الرصافي، ص:٣٦؛ المراكشي: المعجب، ص:٣٢٤.
(٥) المصدر نفسه، ص:٨٢؛ المصدر نفسه: المعجب، ص:٣٢٤.
(٦) المصدر نفسه، ص:٨٣؛ المصدر نفسه، ص:٣٢١.

وانتشر الوصف في عصر الموحدين بين الشعراء، فمن واصف للنار والدولاب، والرياض، اذ تبارى الشعراء في عهد الموحدين في استغراق اوصاف خيول عديدة، وبخاصة وصف خيول الخلفاء[1].

ومن شعر ابن مجبر (يحيى بن عبدالجليل بن عبدالرحمن بن مجبر الفهري) يصف خيل المنصور من قصيده في مدحه:

لــه حلبـة الخيـل العتـاق كأنهـا ... نشـاوى تهـاوت تطلـب العـزف والقصـفا

عــرائس اغنتهـا الحجـول عـن الحـلى ... فلـم تبـغ خلخـالا ولا التمسـت وقفـا

تهـب عـلى الأعـداء منهـا عواصـف ... ستنسـف ارض الشركين بهـا نسـفا

وانتشر لون من الشعر وهو الشعر العاطفي، وبخاصة النسائي منه، المصبوغ بصبغة عاطفية، المرتبط بصورة وجدانية عميقة، بحياة شاعرة وعواطفها وانفعالاتها. وهو يكاد أن يشكل مسرحية عاشتها الشاعرة، وعانت ما فيها من حرقة الانتظار والترقب، وفرحة اللقاء، وقاست بسبيلها هموم البعد والهجران، وكان الشعر العاطفي الصادر من طرفي القصة، وهما شاعران يتحركان ضمن جو عاطفي واحد، ويسعى كل منهما الى هدف واحد، لا يرجوان اكثر من دفء الحنان وساعة لقاء ووصال بين الورد والأزاهير بعيدا عن اعين الناس، بين العناق والضم والارتشاف.

كان خير من يمثل هذا الشعر النسائي حفصة الركونية، من أشراف غرناطة، رخيمة الشعر رقيقة النظم والنثر، أديبة نبيلة فريدة زمانها حسنا وجمالا، مع ظرف وأدب ولوذعيه[2]. وكان صاحبها الشاعر الوزير أبو جعفر بن سعيد العنسي المار الذكر، لم يكن اقل منها شاعرية، ولا أقل منها منزلة اجتماعية، فقد برع في الادب والكتابة والشعر وهو حدث، واعتبر أشعر بني سعيد بل أشعر اهل بلدة[3]. فقد تحققت بهما خلوات، وزورات، ذاقا فيها عذب اللمى، وتهامسا بأرق كلمات الحب والهيام، ونعما بحلظات هنية خالية من رقيب أو حسيب، تقول حفصة الركونية:

---

(١) المقري: النفح، ج٤، ص:٢٨٥، ٢٢٦، ج٥، ص:٢٩٣، ٢٩٥.
المراكشي: المعجب، ص:٣٢٦؛ الحميري: الروض المعطار، ص:٤٧٩.

(٢) ابن الخطيب: الاحاطة، ج١، ص:٤٩٩.

(٣) المقري: نفح الطيب، ج٥، ص:٣١٢(٣) ابن دحية: المطرب، ص:١٠.

ثنـــائي عـــلى تلـــك الثنايـــا لانـنـــي أقـول عـلى علـم وانطـق عـن خـبر[1]

وانصـــــفها -لا اكـــــذب الله- اننـــــي رشـفت بهـا ريقـا أرق مـن الخمـر

وطالما اغرته شاعرتنا بزياراتها، وأثارت فيه لواعج ولهفة بما تقدمه من أصناف الاغراء واسباب الاثارة كقولها:[2]

أزورك أم تـــــزور فـــــان قلبـــــي إلى مـــــا ملـــــتم أبـــــدا يميـــــل

وقـــــد أمّنـــــت أن تظمـــــى وتضـــــحى اذا وافى الي بـــــــــك القبـــــــــول

فثغـــــري مـــــورد عـــــذب زلال وفـــــرع ذوائبـــــي ظـــــل ظليـــــل

فعجـــــل بـــــالجواب فـــــما جميـــــل اناتـــــك عـــــن بثينـــــة يـــــا جميـــــل

قال في جوابها:[3]

اجلكـــــــم مـــــــا دام بي نهضـــــــة عـــــن ان تـــــزوروا إن وجـــــدتُ السـبيل

مـــــــا الـــــــروض زوارا ولكـــــــنما يـــــزوره هـــــب النســـــيم العليـــــل

زارهـــــا مـــــن غـــــدا ســـــقيم هواهـــــا وبـــــراه شـــــوقا اليهـــــا النحـــــول

وكـــــذا الـــــروض لا يـــــزور ويـــــأتي أبـــــدا نحـــــوه النســـــيم العليـــــل

وهذه صرعة جديدة في الغزل، وسلوك محدث في تصرف انثى، فقد جعلت الشاعرة من نفسها عاشقة لا معشوقة، ومتهلفة لا متهلّف اليها. مندفعه مع غرائزها وهيامها، ولا تقف حفصة عند هذا الحد، وإنما تندفع أكثر وراء نزواتها وعواطفها متجاوزة حياء العذارى وتمنعهن، فتسمح لنفسها بزيارة الحبيب في بيته، ويصادف أن تجد عنده مجلس انس وشراب، فتتحرج عن الدخول، وتكتب اليه بطاقة تقول فيها.[4]

زائـــــر قـــــد أتى بجيـــــد غـــــزال طـــــامع مـــــن محبيـــــه بالوصـــــال

بلحـــــاظ مـــــن ســـــمر بابـــــل صـــــيغت ورضـــــاب يفـــــوق بنـــــت الـــــدوالي

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص:١٦٦.
(٢) المقري: النفح، ج٤، ص:٢٠٨، ج٥، ص:٣١١.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص:١٣٩؛ المقري: النفح، ج٥، ص:٣١٢.

يفـــضح الـــورد مـــا حـــوى منـــه خـــدّ　　　وكــــذا الثغــــر فاضــــح لــــلآلي

مــــا تـــــرى في دخولـــه بعـــــد اذن　　　او تـــــراه لعــــــارض في انفصــــــال

فيهرع اليها الحبيب ابو جعفر ليدخلها، لكنه لم يجدها، فقد عادت فيكتب اليها راغبا في الوصال والانس المتصل.[1]

اي شــــغل عــــن الحبيـــب يعـــوق　　　يـــا صـــاحبا قـــد آن منـــه الشرـــوق

لا وذل الهـــــوى وعـــــز التلاقـــــي　　　واجـــــتماع اليـــــه عـــــز الطريـــــق

وما دمنا نتفيأ حنان الشعر النسائي، لا بد أن نذكر إلى جانب شاعرتنا، شـواعر غـزلات، وأخريات مقلات ازدان بهـن المجتمـع الموحـدي، وأفـرزتهن الحيـاة الفكريـة اللامعـة في هـذا الزمن، وجعلت منهن شريحة اجتماعية على قدم المساواة مع الرجل ولنا مؤشر من قـول ابـن رشد فيلسوف الموحدين، (الذي أفرده مقعد في مجلس أبي يوسف العلمي). إذ يرى أن المرأة بعامة لا اختلاف بينها وبين الرجل، وإنما هو اختلاف في الكـم ولـيس في المضـمون. إن طبيعـة النساء تشبه طبيعة الرجـال، ولكـنهن اضـعف مـنهم في الاعـمال التـي تتطلـب جهـداً شـاقاً. فطالب بافساح المجال لهن بالعمل،وإعطائهن حرية التعبـير والتفكـير. وعـاب عـلى المشـارقة حرمانهم المرأة تمتعها بقواها الانسانية، وكأنها لم تخلق الا للولادة وإرضاع الاطفال.[2]

يتبين ان هذه فكرة تقدمية وتطور ناضج، وهـي خطـوة تسـمح لنـا ان نتصـور مقـدار تحرر الفكر العربي في نظراته تجاه المرأة، وإفساح المجال أمامها للعمل المثمر، وبناء المجتمـع الانساني، فانطلقت المرأة الموحدية الاندلسية، أديبة وشاعرة جنباً إلى جنب مع الرجل تقاسمه الحب، وتشاركه الشعر وهموم الحياة. وقـد بـرزت في فترتنـا عـدة اسـماء مـنهن عـلى سـبيل المثال: الشاعرة الشلبية، وأسـماء العامريـة، وحمـدة بنـت زيـاد المـؤدب، فضـلا عـن حفصـة الركونية المارة الذكر، وغيرهن، يقلن الشـعر يطفـح بالعذوبـة والصراحة، وبالعلاقـات الغراميـة، والجرأة في مزاولة العشق دون حرج أو خوف من عرف اجتماعي أو قيد شرعي، ونتلمس ذلـك مـن خلال اخبار الشاعرة الاخيرة، والشاعرة نزهون بنت الكلاعي، التي كان في سلوكها وشعرها نـوع من التحلل والابتذال والفحش، ما يدل على

---

(١) ابن الخطيب، الاحاطة، ج١، ص:٥١١.

(٢) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص:١٦٦؛ المراكشي: المعجب، ص:٤٣٧.
د. محمد مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين، ص:٥٠.

نفسية متحررة ماجنة، لا تعرف الخفر والاحتشام اللذين يجملان في المرأة، ويطلبان منها، وقد اشار بذلك ابن سعيد حينما وصفها بأنها "شاعرة ماجنة كثيرة النوادر"[1]، ولعلها كانت مثقفة ثقافة ادبية واسعة مع خفة روح وجمال فاتن. مما مكنها ان تقف امام شعراء كبار وتجالسهم، كالاعمى المخزومي والكتندي وأبي بكر بن قزمان، تهاجيهم أم تحاورهم، وتجادلهم وتجيزهم[2]. ويقول بعض الرواة ان ما وصلنا من شعرها العاطفي لا نجد فيه تلك المجونية، ولا ذاك التحدي الصارخ لأعراف المجتمع، ولكنه لا يخلو من صراحة منحرفة كقولها.[3]

لله در ليال ما أحيسنها ... وما أحيسن منها ليلة الأحد

لو كنت حاضرنا فيها وقد غفلت ... عين الرقيب فلم تنظر إلى أحد

ابصرت شمس الضحى في ساعدي قمر ... ورئم مجهلة في ساعدي أسد

وربما اجادت في بيتها الأخير في اظهار محاسنها إلى جانب صفات العشيق، وهو ما تحرص عليه، أغلب الاحيان، النساء عامة. ولها قطعة أخرى تتغزل فيها بأبي بكر بن سعيد، وفيها تدعي أنه افضل من غيره، وتردله منزله لا يطولها احد، وقد استعملت في بيتها الثاني تورية معنوية طريفة تقول:[4]

حللت أبا بكر محلا منعته ... سواك وهل غير الحبيب له صدري

وإن كان لي كم من حبيب فانما ... يقدم أهل الحق حب أبي بكر

فلفظة "أبي بكر" يمكن أن تعني حبيبها، كما تعني في الوقت نفسه أبا بكر الصديق.

أما أسماء العامرية فليس لها سوى قطعة واحدة، بعثت بها الى الخليفة عبدالمؤمن بن علي تسأله، ان يعيد اليها دارها، وما أخذ من مالها[5]. وكذلك الشاعرة الشلبية ليس لها غير قطعة وجهتها إلى السلطان يعقوب المنصور تتظلم فيها من حاكم بلدها الموحدي،

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص:١٢١.
(٢) ابن سعيد: المغرب، ج٤، ص:١٢١؛ المقري: النفح، ج٤، ص:٢٩٥، وما بعدها، المقري: النح، ج٦، ص:٧٥.
(٣) المقري: النفح، ج٦، ص:٧٨.
(٤) المصدر نفسه، ج٦، ص:٧٥.
(٥) المقري: النفح، ج٦، ص:٧٢؛ وكانت دار الشاعرة قد صودرت، واموالها قد جمدت.

وصاحب الخراج فيها، وقيل أنها ألقت هذا الشعر في مصلى المنصور، ولما انتهى من الصلاة قرآه، فرق لها، ثم أنصفها وأكرمها.[1]

أما الشاعرة أم السعد بنت عصام الحميري التي توفيت بمدينة مالقة سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م، فهي تختلف في منحاها وسلوكها الشعري عمن سبقها من شواعر غزلات، فهي شاعرة متدينة عفيفة متيمة في الذات النبوية، تود وتتمنى لثم تمثال نعل المصطفى، وليس إكبار القبر وما حوى، والتلذذ بترابه، والالتصاق باحجاره الا تعبيراً عن تقديس صاحب النعل والقبر وتكريما له، وتفخيما لمبادئه وأفكاره[2]، وهذا لا يدخل في موضوع الغزل، وإنما تكملة لشواعر هذه الفترة.

وفي عصر الموحدين ظهر اتجاه في الغزل، التزم اصحابه جانب العفة، وصرحوا بتلك السلوكية حقيقة أو زعما، منهم الفيلسوف ابن طفيل، له قصيدة رقيقة يتحدث فيها عن زيارة محبوبة في الظلام ليلا بعد نيام الرقباء والوشاة، وكان لقاؤهما حارا فيه لوعة وشكوى ودموع مسكوبه، لأنه جاء بعد تهاجر وتباعد، لكنهما رغم شوقهما وتوهج عواطفهما لم ينسيا الطهر والخلق المستقيم، يقول فيها:

ولما التقينا بعد طول تهاجر	**وقد كاد حبل الود أن يتصرما**
جلت عن ثناياها وامض بارق	**فلم أدر من شق الدجنة منهما**
وساعدني جفن الغمام على البكا	**فلم أدر ايّنا كان أسجما**
فقالت وقد رق الحديث وابصرت	**قرائن احوال أذعن المتكتما**
نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهبا	**يهوّن صعبا أو يرُخّص مأثما**
فأمسكت مستغنياً عن نوالها	**ولكن رأيت الصبر أوفى واكرما**

أما الشاعرة حمدة بنت زياد المؤدب، وتعرف بحمدونه، وتسمى بخنساء المغرب، لها جودة في الشعر، ورصانة في التركيب، والقدرة الفنية، وهي من وادي آش[3]، وهي ملتزمة في أشعارها جانب العفة إلى حد ما، وتشكو مراقبة الناس، وهي تتبع الحبيب من

(١) المصدر نفسه، ص:٧٤.
(٢) المقري: النفح، ج٤، ص:٣٠٠.
(٣) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٤، ص:١٤٥-١٤٦.

مكان إلى آخر، وآخيراً تلجأ إلى الشفيع الاعظم، دموعها، وتنهداتها ونظرات العشيق الحادة تجاه الواشين، وتقول:[١]

ولمـــا أبى الواشـــون الافراقنـــا	ومـا لهـم عنـدي وعنـدك مـن ثـار
وشـنوا عـلى أسـماعنا كـل غـارة	وقـلّ حـماتي عنـد ذاك وانصـاري
غـزوتهم مـن مقلتيـك وأدمعـي	ومـن نفسي بالسـيف والمـاء والنـار

وللشاعرة غزل من نوع ظريف تتعشق بنات جنسها، فخرجت متنزهة إلى نهر "شنيل" قرب مدينة وادي آش مع جوار "كان لها منهن هوىً" كما في عبارة ابن سعيد، وسبحت معهن، وتأثرت بالجمال المحيط بها، جمال النهر المنساب، يصافح الروض المعطار، والفتيات الجميلات يعمن برشاقة وخفة، ومن بين اولئك الظباء الرشيقات، مها انسيه ساحرة، خلبت لب الشاعرة، لها لحظ تكمن في تكسره الحلو المطيب، هو الذي يعذبها ويؤرقها في عزّ منامها فأنشأت تقول:[٢]

أبـاح الـدمع اسراري بـوادي	لـه في الحسـن آثـار بـوادي
فـمن نهـر يطـوف بكـل أرض	ومـن روض يطـوف بكـل وادي
ومـن بـين الظبـاء مهـاة انـس	لهـا لبـي وقـد سـلبت فـؤادي
لهـا لحـظ ترقـده لأمـر	وذاك الأمـر (اللحـظ) يمنعنـي رقـادي
إذا سـدلت ذوائبهـا عليهـا	رأيـت البـدر في افـق الـدآد[٣]
كـأن الصـبح مـات عـلى شـقيق	فمـن حـزن تسربل بالسـواد (أو بالحـداد)

وقد رفعت كتابا إلى الخليفة ابي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن، يتضمن بيتين من الشعر فيه توقيعاً (فوتوغراف)[١].

---

(١) المصدر نفسه، ص:١٤٦؛ المقري: نفح الطيب، ج٦، ص:٦٧؛ ابن الأبار: التكملة، ج٢، ص:٧٨٤.
(٢) ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص:١٤٦؛ المقري: النفح، ج٦، ص:٦٧-٦٨.
(٣) الدآدي: الليالي الثلاث الأخيرة من الشهر.
وفي رواية أخرى: رأيت العجز في افق الدادي، وفي ثالثه رأيت الصبح أشرق في الدآدي، وفي رواية رابعة، تخال البدر اشرق في الدآدي.

امـــــــنن عـــــــلي بصـــــــك يكـــــــون للـــــــدهر عـــــــدة

تخـــــــط يمنـــــــاك فيـــــــه الحمـــــــــــــد لله وحـــــــده

(وهذه العبارة الأخيرة، كانت هي شعار الموحدين).

* **الشعر الماجن:**

لون آخر من أغراض الشعر في عصر الموحـدين، ان الحركـة الفكريـة والاجتماعيـة التي اتسمت بها مدة بني عبدالمؤمن، هي بلا شك ميزة تاريخية مهمة، طبعت عهدهم بطابع معين، وسنرى كيف تركت اثرها في النشاطات العلمية والفلسفية، فمـن الأولى أن تترك بصماتها على الحياة الاجتماعية، وعلى سيرة الفرد ومذهبه واتجاهه، وهو ما تـراءى لنا فعلا في مجتمع الأندلسيين.

فأخبـارهم وأشـعارهم تـومئ إلى التحـرر والانطـلاق، وانعكـاس لجوانـب البـذخ والـترف واللهـو، التـي راجـت في أنحـاء الأنـدلس، متعرضـه لمجالسـهم اللاهيـة العابثـة، واجتماعاتهم المختلطة الصافية، وبخاصة أواخر دولـة الموحـدين، أيـام ضـعف السـلطة، واهتزاز سيطرتها، وتهاونها بالقيم التومرتية في بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وقد بلغ الأمر ببعض الشعراء، أن اعلنوا صراحة الحادهم وزندقتهم بلا تردد أو خوف، متمردين على الأعراف والقيم، متهمين برهـق في ديـنهم، واصـفين الاسـلام بـدين الرعاع، وفي ذلك يقول احمد بن محمد بن طلحة (ت سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م.

يقـــول أخـــو الفضـــول وقـــد رآنـــا عـــلى الايمـــان يغلبنـــا المجـــون

اتنتهكـــون شـــهر الصـــوم هـــلاّ حـــماه مـــنكم عقـــل وديـــن

فقلـــت اصـــحب ســـوانا نحـــن قـــوم زنادقـــــة مـــــذهبنا فنـــــون

نـــدين بكـــل ديـــن غـــير ديـــن الله فـــــما بـــــه أبـــــداً نـــــدين

يحـــيّ عـــلى الصـــبوح الـــدهر نـــدعوا وإبلـــيس يقـــول لنـــا آمـــين

فيـــا شـــهر الصـــيام اليـــك عنـــا اليـــك ففيـــك (أكفـــر) مـــا نكـــون[٢]

---

(١) الضبي: بغية الملتمس، ص:٥٤٥.

(٢) ابن الخطيب: الاحاطة: ج١، ص:٢٤٧؛
المقري: النفح، ج٤، ص:٢٩٠.

ولا نستطيع الاحاطة، ولو حرصنا، بأغراض الشعر كافة، في زمن بلغت فيه الحضارة الموحدين أعلى درجاتها، وكانت خاتمة المطاف للحضارة الاسلامية اجمع حتى الآن.[1]

ومن أغراضه الأخرى على سبيل المثال لا الحصر كثيرة، منها، اليأس، والزهد، والشعر الصوفي، والهجاء، والحنين والتشوق، وكثرت في مدة الموحدين اشعار الغربة، ذات طابع الحنين والتشوق، وذكرى الربوع والصحاب، فهذا الشاعر أبو الأصبغ عيسى بن محمد العبدري (كان موجودا سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م، يشكو بقصيدته اهمال أهل بلده (ألش) لمكانته العلمية والثقافية، مصورا تعذيبه النفسي، وعزلته التي فرضها عليه بنو قومه، حتى أصبح فيهم غريباً. كأنه في جزيرة مسجونا يحيط بها البحر من جميع الجهات، لا ينفلت منها، وهم مع ذلك لا يدركون مقاساته وآلامه، وهو يقول[2]

عدمت باخمالي وجوها من الانس	**فها أنا في الأيام مستوحش النفس**
برئت زمانا من حوادث أمرضت	**وألش لعمري اسلمتني الى النكس**
أقمت بها كالسيف لازم جفنه	**وإن كنت حيا مثل من دس في رمس**
فإني بآدابي أتيت جزيرة	**فعوقبت منها بالاقامة في حبس**
وهل وحشة الانسان الا بمثلها	**فصيح لسان بين السنة خرسي**
شروني رخيصا ليس يدرون بقيمتي	**وقد تشتري الاعلاق بالثمن البخس**

أما شعر الزهد، فإنه بصورة عامة تظهر عليه مسحة الكآبة وروح اليأس، تصل الى حد التخاذل والانهزام، وأول ما صدر عن علماء أتقياء، وزهاد عباد، دفعهم إلى نوع من التشاؤم، والخوف من الناس والحذر منهم، ومن الزهد نظرات قد تبدو غارقة في التواكل والسلبية، وفيها بعد عن التفاعل الاجتماعي، والعمل الانساني، لكنها وقتئذ تمثل الخضوع لله، والتذلل اليه، والرضى بقدره، ومن الزهاد من اتصف بالعزوف عن الدنيا وأهلها، منصرفاً عن الزواج أحياناً، ومن أتقيائهم، أبو عمران موسى بن عمر المارتلي الذي عرف بالورع، والانقطاع للعبادة، وشدة العزلة، وملازمة المسجد، وكان الملوك

(١) ابن سعيد: المغرب، ج١، ص:٤٠٦؛ ابن ابي اصيبعة: عيون الانباء، ص:٥٢٤.
(٢) ابن الأبار: المقتضب، ص٦٣.

يزورونه ولا يلتفت اليهم، وتوفي في اشبيلية سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م، وقد عبر عن زهده وتقشفه وقناعته في قوله[١]:

سليخة[٢] وحصير	**لبيت مثلي كثير**
وفيه-شكر لربي-	**خبز وماء نمير**
وفوق جسمي ثوب	**من الهواء ستير**
ان قلت اني مقل	**اني اذن لكفور**
قررت عيشا بعيشي	**فدون حالي الأمير**

وتطور شعر الزهد، حتى أفرز فنا جديداً من فنون الشعر الأندلسي، القصيدة النبوية، وكان مولد هذا اللون من الشعر، في أواخر العهد الموحدي، في بداية القرن السابع الهجري، اذ ظهرت فيه المدائح النبوية، مع ذكر فضائل الني ومكارمه، ومنزلته بين الناس، وبين المرسلين والانبياء، وتؤكد هذه الظاهرة مخمسة ابن الجيّان(ت ٦٤٠هـ/١٢٤٢م) التي تصل إلى تسع وعشرين مخمّسة مطلعها.[٣]

الله زاد محمـــــــــــداً تكريمـــــــــا	**وحبـــاه فضـــلا مـــن لدنـــه عظـــيما**
واختصـــــــه في المرســـــلين كريمـــــا	**ذا رأفـــــة بـــــــالمؤمنين رحـــــــيما**

صلو عليه وسلموا تسليما

دار أمـــــــة بــــــالمؤمنين رحـــــيما	**صـــــلوا عليـــــه وســـــلموا تســـــليما**

ومن الزهد، التبرك بالأثر النبوي، من القصائد المنظومة في تمثال (نعل) المصطفى محمد، للشاعر علي بن إبراهيم الأنصاري المتوفي سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م يقول:[٤]

يـــا لاحظـــا تمثـــال نعـــل نبيـــه	**قبّـــل مثـــال النعـــل لا متكـــبرا**
والـــثم بـــه فلطالمـــا عَكَفَـــتْ بـــه	**قـــدم النبـــيّ مروّحـــاً ومبكـــرا**

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٤٠٦؛
ابن الأبار: التكملة، ج٤، ص:٧٨٦.

(٢) سليخة: جلد شاة مدبوغ؛ المعجم الوسيط، ج١، ص:٤٤٤.

(٣) المقري: نفح الطيب، ج١٠، ص:٢٩١-٢٩٥.

(٤) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ج٥، ص:١٨٩.

أو مــــا تـــــرى أن الشــــــجيّ مقبّـــــلٌ   طلــــلاً وإن لم يُلـــف فيـــه مخـــبرا

والشعر الفلسفي لـون مـن الزهـد، يتمثـل في قطعـة قصـيرة لابـن طفيـل عـالج فيهـا موضوع الروح وانفصالها عن الجسد، وحقيقة العلاقة بينهما، منها.[1]

يـا باكيـا فرقـة الأحبـاب عـن شـحط   هـلا بكيـت فـراق الـروح للبـدن

نـــور تـــردد في طـــين إلى أجـــل   فانحــاز علــوا وخــلّى الطــين للكفــن

يـا شـدة مـا افترقـا مـن بعـدما اعتلقـا   أظنهـا هدنــة كانــت عــلى دخــن

وكانت بواعث هذا الزهد، تناقض الحياة وثقلها، وتغير الأيام وغدرها، فلربما هي ممـرّ واسع يخلص الانسان مما يشعر به من تمزق، وألم، ويلهمه الطمأنينة والهدوء، ليمده بالقناعة والرضا، ولعل من أسباب الزهد كذلك، الشيخوخة والكبر، وما يشعر به صاحبها من احاسـيس وهواجس محزنه، بقرب الرحيل ودنو الأجل، وذهاب الشـباب وقوتـه اللـذين يسـتمد مـنهما المرء اعتداده وأمله.

أما شعر الهجاء فمقتطفات في معظمه، تنظم باسلوب بسيط واضح ليسهل فهمها من قبل الآخرين، وليكون وقعها في النفوس أشد، وابعد اثراً، وقد تعتمد اللوحات (الكاريكاتريـة) القائمة على الاستخفاف بالاشياء، او ابداء التناقض فيها وتضخيمه لتثير الضـحك، ومنـه ابيـات للشاعر ابي بكر محمد الأعمى المخزومي، نزيل غرناطة، وأصله من المدوّر، وكان لا يسلم مـن هجوه أحد، وقد تعرض للشاعرة نزهون وهجاها بقوله.[2]

ألا قــــل لنزهونـــــة مالهـــــا   تجـــــــرمن التيــــــه أذيالهـــــا

ولــــو ابصرـــــت فيْشــــةً شــــمّرت   -كــــــما عــــــودتني- سربالهـــــا

فقالت فيه:

قل للوضيع مقالا   يتلى إلى حين يحشر

من المدوّر انشئْت   والخرا منه اعطر

حيث البداوة امست   في جهلها تتبختر

(١) عبدالواحد المراكشي: المعجب، ص:٣٥٢.
(٢) ابن سعيد: المغرب، ج١، ص:٢٢٨.

وللشاعر ابن حزمون باع طويل في هذا الفن (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)[١]، الذي يقول فيه المراكشي "انه ركب طريقة ابي عبدالله بن حجاج البغدادي.. فأربى فيها عليه... وله في الهجاء يد لا تطاول.

غير أنه تفحش في كثير منه، وكان بذيء اللسان، صاعقة من صواعق الهجاء، له موشحات في الغرض نفسه، ومن هجوه لرجل من أعيان الأندلس يدعى محمد بن عيسى- بدأها بهجو نفسه، على طريقة الحطيئة، ثم ختمها بهجو ذلك الرجل، ويقول:[٢]

تأملت في المرآة وجهي فخلته … كوجه عجوز قد أشارت إلى اللهو

اذا شئت أن تهجو تأمل خليقتي … فإن بها ما قد أردت من الهجو

كأن على الأزرار في عورة … تنادي الورى غضوا ولا تنظروا نحوي

فلو كنت مما تنبت الأرض لم اكن … من الرائق الباهي ولا الطيب الحلو

وأقبح من مرأى بطني فإنه … يقرقر مثل الرعد في مهمه جوّ

ثم ينتقل بعد ذلك لهجو ابن عيسى قائلاً:

وإلا كقلب بين جنبي محمد … سليل بن عيسى- حين فرّ ولم يلو

تميل بشدقيه إلى الأرض لحية … تظن بها ماء يفرّغ من دلو

ثقيل ولكن عقله مثل ريشة … تُصفّقها الأرواح في مهمهة دوّ

أما قصيدة التشوق والحنين، فتبنى على وصف الرحلة، عبر الصحاري والقفاز، وما يواكبها من مشاق ومتاعب، وعلى تصوير الاشواق، والهيام في زيارة ضريح خير الأنام، ومن أجل ذلك لا يريد مع عيسه الراحة او التوقف، ولا حتى شرب الماء، دون مقام الرسول والبيت الحرام لأنه مشتاق وهائم، كما هي عيسه حسرى مشتاقه لبلوغ مرادها، تركض وسط الهجير وفي لهبان الحر ظلعاً غير مبالية، وقد أضناها السرى وأذابها المسير، فقال الشاعر علي بن محمد بن حسن الأنصاري الاشبيلي الجياني الأصل:[٣]

يا حداة العيسى: رفقا أنها … شكت الجهد وبعد المرتمى

---

(١) المصدر نفسه: ج٢، ص:٢١٤-٢١٧؛ المراكشي: المعجب، ص:٤٢٢-٤٢٣.

(٢) المصادر نفسها.

(٣) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ج٥، ق١، ص:٢٩٤.

طاويـــات لم يـــدع منهـــا السرّــــى ودخيـــــل الشـــــوق الا الأعظــــــما

جنبوهـــــا مـــــورد المـــــاء فقـــــد حرّمتـــــــه او تـــــــزور الحرمــــــا

يـــــا خلـــــيلي: رويـــــداًَ إنهـــــا لتعــــاني الشـــوق مـــثلي فـــاعلما

تبين لنا من خلال دراستنا السـابقة لأغـراض الشـعر وفنونـه في عصرـ الموحـدين، مدى نضوج الشعر الأندلسي، ونموه، وتلبيته لحاجات الفرد العاطفية والوجدانيـة، التـي كانت انعكاسا وانسجاما مـع جـمال الطبيعـة الأندلسـية اللاهيـة، اللاهثـة وراء مراتـب الغناء، وآلات الصهباء. كما اتضحت أصالة الشعر وواقعيته المتمثلتان في تجذير التفاعـل بينه وبين أحداث العصر ووقائعه، ولا سيما المآسي الوطنية التي تضمنتها دواوينهم، غـير أنه لم يحافظ على مستوى واحد من النمو والازدهـار والأصـالة طـوال عصرـ الموحـدين، فقد كان يصطدم أحيانا بهزات ذات طابع ديني او سـياسي تـؤثر في تقدمـه، وتحـد مـن تفتحه، وتضيق من آفاقه، وبخاصة الأزمات التي تبلورت أواخـر فـترة الموحـدين، حيـث اصيب بشيء من الضعف والنكوص، والتراجـع؛ فـانخفض مسـتواه الفنـي، واهتـز مبنـاه وتركيبه، متحولا إلى نظم أقرب إلى النثريـة والضـحالة السـاذجة التـي تهـتم بموضـوعات مألوفة ليست ذات بال، كالشكر والاعتذار وغيرها.

أما خصائصـه الفنيـة وسـماته التـي تميـز بهـا، أنـه كـان يعنـي بالبيـت ويحـرص عـلى استقلاله، لذلك نجد في قصائدهم مجموعة من الصور المتجاورة غير المتداخلـة أو المتلاحمـة، وربما يقع التنافر، أو عدم الانسجام احياناً، هذا في الشـكل، أمـا في المضـمون، فيكـثر الوضـوح والصدق، والاغراق في المبالغة والبعد عن التفلسف والتوكؤ على التراث، استمدها الشاعر مـن ثقافاته الدينية، والأدبية واللغوية، والتاريخية، لتغذية مضامين شعره واثرائها وهناك ملاحظـة تجدر الاشارة اليها وهي ظهور قصائد ذات أوزان شـعرية تتصـل بعـروض يسـمى الخبـب.[١] استعملها ابن حزمون لأول مرة في الأندلس بنى عليها قصيدة تربو على الأربعين بيتـا، ومـدح فيها أمير المؤمنين يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن، عند صـدوره منتصرا مـن معركـة الأرك، استهلها بقوله:[٢]

حيتـــــــك معـــــــــطرة الـــــــنفَس نفحـــــــات الفـــــــتح بأنـــــــدلس

فـــــذر الكفـــــــــار ومـــــأتمهم ان الاســـــلام لفــــــي عــــــرس

(١) تفعيلاته (فعلن، ثماني مرات) وهو في الحقيقة بحر المتدارك (فاعلن، ثماني مرات) مخبون التفعيلة.

(٢) المراكشي: المعجب،ص:٤١٩-٤٢١.

٦٥٨هـ/١٢٦٠م، في مدح ابي زكريا الحفصي في قصيدة طويلة مطلعها.[١]

قامـــــت بـــــالحق خلافتــــه يتقلـــــــده ويقلـــــــده

ويمكننا ان نستخلص من ثنايا دراستنا للمدح، سمات منها؛ طغت على المدح في عصر الموحدين مسحة دينية ذات صبغة موحدية متأثرة بتعاليم ابن تومرت، وبرزت شخصية النبي موسى -ع- في مدائح الموحدين، اذ لم تكن معهودة او مطروقة من قبل، ودخلت كذلك معاني الاستصراخ، وطلب النجدة كعنصر بارز في مدائح الموحدين لم يسبقهم اليه من كان قبلهم.

* **الشعر الزجلي والموشحات:**[٢]

أول ما ظهر الزجل في زمن الأمير عبدالله بن محمد (٢٧٧-٨٨٨/٣٠٠-٩١٢) في الأندلس وله أسبقية على الموشح[٣]. لأن الزجل في أصله اغنية شعبية، ولكنه أخذ مكانته الأدبية بعد شيوع الموشح الذي هو شعر منظوم باللغة العامية الأندلسية من غير التزام في الاعراب -وهو هزلي-... لقد تناول الوشاح الموحدي الموضوعات المطروقة من مدح وغزل وخمر وطبيعة، وعالج في موشحاته عدا ما سبق، التصوف والهجاء والرثاء، وكان الغرض الأخير مضمحلا حتى جاء ابن جبير وابن حزمون (كان موجودا سنة

(١) ابن الأبار : المقتضب من كتاب تحفة القادم، تح، ابراهيم الأبياري، القاهرة المطبعة الأميرية، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.

(٢) الزجل والموشح: فن شعري واحد، أما الزجل فيطلق على الشعر السوقي، والموشح يطلق على الشعر المهذب منه، وهو فن من فنون الشعر العربي يختلف عن غيره من أنواع النظم بكثرة قوافيه، وتعدد أوزانه، وتنميق الفاظه؛
جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص:١٤٣، تر، حسين مؤنس.

(٣) يقول المقّري في نفحه: هكذا أورد جنثالث في كتابه، غير أنني أميل إلى أن الموشح فن منفصل عن الزجل وأما الزجل فهو فن شعري للعامة؛ ان الموشح سابق على الزجل "ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلاسته، وتنميق كلامه، وترصيع اجزائه، نسجت العامة من اهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها اعرابا، واستحدثوه فنا سموه الزجل"؛
المقّري: نفح الطيب، ج٩، ص: ٢٥٠، دار الفكر، ط١، ١٩٨٦م/١٤٠٦هـ
ابن خلدون: ج١، ص:٥٨٣.

٦١٤هـ/١٢١٧م) فكتب الأخير فيه مرثيته الباكية في القائد ابي الحملات الموحدي قائد الاعنة ببلنسية وقد استشهد في حربه مع النصارى، فقال:[١]

يـــا عـــين بـــكى السرـــاج الأزهـــرا	النيـــــــــــــرّا اللامـــــــــــــع
وكـــان نعـــم الرتـــاج فكسّـــرا	كي تنـــــــــــثرا مـــــــــــدامع
مـــــن آل ســـــعد أغـــــرّ	مثـــــل الشـــــهاب المتقـــــد
بكـــــى جميـــــع البشرـــــ	عليــــــه لمــــــا أن فُقــــــد
والمشرـــــــــــ فيّ الـــــــــــذكر	والســـــــــــمهريّ المطـــــــــــرد
شـــــق الصفـــــوف وكـــــرّْ	عـــــلى العـــــدو متئـــــدْ

أما الثاني الذي طرق الرثـاء في موشـحاته، فهـو الرحالـة ابـن جبـير، لـه، كـما يـذكر صـاحب الـذيل والتكملة، خمس موشحات في رثاء زوجه (أم المجد)، جمعها مع مرثيات أخرى في كتاب أسماه "نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح"[٢] فيه يذكر وفاتها ويتوجع لها أيام حياتها.

ومن مراثيه يقول في زوجه بعد أن فرغ من دفنها بسبتة:[٣]

بســـــبتة لي ســـــكن[٤] في الـــــثرى	وخـــــلٌّ كـــــريم اليهـــــا أتـــــى
فلـــــو أســـــتطيع ركبـــــت الهـــــوا	فـــــزرت بهـــــا الحـــــيّ والميتـــــا

ولقد نال المدح والغزل حظا كبيراً من موشحات الأندلسيين، كما بلغ كذلك التصوف عند ابن عربي شأوا عظيما بين أغراض الموشح.

وقد يبتدئ الوشاح المادح موشحته بالغزل ثم يختمهـا بـه، أو يختمهـا بغـيره مـن الأغـراض الأخرى، كالفخر بنفسه، أو كذم اعداء الممدوح، وفي بعض المـدائح لا يكتفـي الوشـاح بـالغزل وانمـا يذكي غزله ويثير اشجانه وعواطفه بالعقار فيمزج الكؤوس، ويغترف بنت العنب مـن كـف غـلام أهيف، وبعدها يعرج على المديح ليعود ثانية الى حبه

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ح٢، ص:٢١٧؛
المقري: نفح الطيب، ج٩، ص:٢٤٥، دار الفكر، ط١، ١٩٨٦م/ ١٤٠٦هـ
(٢) عبدالملك المراكشي: الذيل والتكملة، ج٥، ق٢، ص:٨٠٦.
(٣) المقرّي: نفح الطيب، ج٣، ص: ٢٤٥؛
(٤) السكن: الزوجة؛ أحمد حسن الزيات: المعجم الوسيط، ج١، ص: ٤٤٢.

واشواقه. وقد يصف مجلس شراب في أحضان الطبيعة ابتداء، وتحت ظلال خمائلها، ثم يمدح فيوجز، ليختم انشاده باظهار الجوى ولوعة الهوى. فالغزل، اذن يلازم مدائحهم بشكل حاد، ويشاركها بشكل عضوي اقرب ما يكون إلى الديمومة والاستمرار.(١)

أما الطبيعة فقد ذكرت في موشحات المديح مصاحبة بنت الدوالي وسلافة النبيذ، يتجاوب حفيفها وانسياب نسيمها مع أصوات الكؤوس وعربدات الأباريق.(٢) وخير من يمثل هذه الخصائص، ابن زهر، وابن هرودس، وابن مسلمة وغيرهم، في موشحاتهم.

يقول ابن زهر الحفيد(٣) في موشحته.(٤)

أيها السّاقي اليك المُشْتَكى كم دَعَوْناكَ وإن لم تَسْمعِ

ونديم هِمْتُ في غُرّته وسقاني الراحَ من راحته

كلما استيقظ من سَكْرَتِه

جَذَبَ الزِّقَّ اليه واتكى وسقاني أَرْبَعا في أربعِ

وقال ايضاً:

أدرأ كؤس الخمر عنبرية النشر ان الروض ذو بشر

وقال ايضاً:

ان عيني لا أذنبّها اتعبت قلبي وأتعبها

لنجوم بت أرقبها

رمت أن احصي لها عددا وهي لا يحصى لها عدد

وغزال يغلب الأسد جئت لاستنجاز ما وعدا

فانزوى عني وقال غدا

---

(١) ابن الخطيب: الجيش، ص:١٠، ٥١، ٤٦، ١٠٦، ٢١٣.

(٢) المصدر نفسه، ص:٩٩.

(٣) هو أبو بكر ابن زهر الطبيب، الايادي الاندلس الاشبيلي، تفرد هذا الطبيب العالم، فضلا عن علمه بالشعر المنظوم والموشح، وحفظ شعر ذي الرمة، وهو ثلث لغة العرب.
ابن خلكان: الوفيات، ج٤، ص:٤٣٤، ٤٣٦.

(٤) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٢٧١-٢٧٩؛
ابن ابي اصيبعة: عيون الأنباء، ص:٥٢٦؛ المقري: النفح، ج٩، ص:٢٤٤.

وقال:

عَشِيت (شقيت) عيناي مـن طُول البُكـا وبــكى بعضي ــ عــلى بعضي ــ معــي

قــد بَـــراني في هـــواكَ الكمـــدُ يـــا لقـــومي عـــذلوا واجتهـــدوا

أنكـروا شَكـواي ممـا أجـدُ

وقال:

أنحى على رُشْدي وأفقدني (واعدمني) صلاحي

ثَغْرُتَنَي الأَبصار عـن نـوْرِ الصبـاح (الأقـاح)

يسْــقيُ بمختلِطَـينْ مــن مســكٍ كالحَبَـــاب العـــائم في صـــفحة المـــاء القَـــرَاح وراح

وموشحته:

صـــادَني ولم يـــدْرِ مـــا صـــادا شـادِنٌ سَـبَا الليـث فانقـادا واســتخفَّ بالبـدر أو كــادا
لـــو أَجـــاز حكمـــي عليـــه لاقترحـــت تقبيـــل نَعْليـــه لا أقـــول ألـــثُّم خدَّيـــه[1]

وقال ابن هرودس في موشحته في عثمان بن عبد المؤمن:[2]

يا ليلةَ الوصل والسعودِ بـالله عـودي كم بـتُّ في ليلـة التمنـي لا أعـــرف الهَجْـــر والتجنـــي
ألـــثُم ثغـــر المنـــى وأجنـــي من فـوق رُمَّـانَتَيْ نُهـودِ زَهْـــــــــر الخـــــــــدود
بسَـــمْع صـــوت ونقـــر عـــود مـــن كـــف خُـــودِ مَـــدحُ الأمـــير الأجـــل أولى
الســـيد الماجـــد المعـــلَّى تـــاج الملـــوك الســـني الأعـــلى
لله يـــــوم أغــــر زاهـــــر قـد حـل بالأنـدلس آمـر قـــالوا وقـــد وافـــت البشـــائرْ
بالملـك السـيد السـعيد ابي سـعيد افضل من سار بالجنود تحت البنودِ
أكـــرم بِعلْيـــاهُ مـــن هُـــمام امـــام هَـــذْيٍ وابـــن الامـــم
مبـدّد الـروم بالحسـام

---

(١) ابن أبي اصبيعة: عيون الأنباء، ص:٥٢٥-٥٢٧؛
ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٢٧٣-٢٧٧.
(٢) ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص:٢١٥-٢١٦.

وطرق الوشاح موضوعات مختلفة في فنه المحدث، وتغاضى فيه عن المدح والغزل، وعرج على التصوف، وانحاز إلى الطبيعة والخمر، ولم ينس الرثاء والهجاء والأمداح النبوية بشكل يسير، وبذلك تكون الموشحة موازية ومزاحمة للقصيدة في التعريج على كل الفنون المعروفة، فلم تتوقف عند الغناء والانشاد، ولم تنحصر اسيرة اللهو والتطريب، وإنما مارست موضوعات هامة، وأغراضاً انسانية محددة.

وعودة الى تلك الأغراض، لنشاهد ان الطبيعة والخمر تلازما، والتحما في بناء الموشحة حتى شكلا أو كادا ان يشكلا نسقا واحداً وشيئا متكاملا. فالخمر والشرب لهما مجالس خاصة، تكون في أحضان الطبيعة وبين خمائلها، وفي متعرجات بساتينها، وجمال الرياض لا يبدو زاهيا ذا بهاء الا من خلال قرع الكؤوس وجليها، برضاب ابنة الدوالي، وتمايل الندماء، وعربدتهم. ويظهر ذلك التلاحم والتمازج جليا في موشحة ابي الحسين بن مسلمة التي منها.[1]

بـــوادي ريّـــه		**اخلـع عِـذار التصـابي**
أمُـا تـراه مفـرّعْ،	**مثـل الصـباح المرصّـع،**	**بـالروض عـاد مُجـزّع**
سـقاه ريَّـه		**مـن صـفو مـاء السـحاب**
عليـه حُـثَّ المدامـة،	**وانظُرْه في شـكل لامـه،**	**خـاف الريـاض حِمامـه**
فكـم خِطّيّـة		**مُـدّت لـه كـالحراب**
دعنـي مـن العشـق دعنـي،	**فكـم بـه هـاج حـزني،**	**فـالآن اعشـق دنّيّ**
وأُقصِي ميّـه		**مـع المُنـى والرّبـاب**
الكـأس اعشـق عمـري،	**لله سـاعات سـكري،**	**مـا بـين ورد وزهـر**

ويقول: ابو جعفر بن سعيد في متنزه حور مؤمل في غرناطه، في موشحته البديعة:[2]

ذهبـت شـمس الأصـيل فِضَّـة		**النهـــر**
اي نهـر كالمدامـة،	**صـير الظـل فِدامـهْ،**	**نسـجتْه الـريح لامَـه**
	وثنـت للغصـن لامـه	
فلهـذا بـالقبول خُـطَّ		**كالسـطر**

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ح١، ص:٤٢٤.
(٢) المصدر نفسه: ح٢، ص:١٠٣، ١٠٤.

حبــذا بــالحوْر مغنــى، هي لفـظ وهـو معنـى، مُـذهِبُ الأشـجان عنـا كـم دريْنـا كيـف سرنـا

بيد أنناء ومع كل ما تقدم، نأخذ على الوشاح والموشح الأندلسي، عـدة ملاحظـات تتعلق بالتعبير والبنـاء اللغـوي؛ أهمهـا، أن الوشـاح، وبـرغم تواجـده في بيئـة أندلسـية مترهلة جميلة، وفاتنة، نراه يقحم الفاظ العيس، والجمال، والرحـال، والبيـد والصـحارى والقفار، والأنجاد، والأغوار، والأربع الخوالي والأطلال، إلى مـا هنالـك مـن تعـابير بدويـة، ومشرقية في موشحاته، وربما كان السبب، حب التقليد، أم التأثر بالأجواء المشرقية، مـن خلال مطالعاتـه الغزيـرة لـلأدب المشرقي، ويلـوح انهـا تـأثرت بـه، وأملـت عليـه هـذا الأسلوب[(١)]

وشيء آخر نهمـس بـه عـلى موشـحاتنا فـيما يتعلـق بالاسـلوب، وبنـاء الجمـل في مضايقة القوافي وغيره، كما في قول ابن حزمون من موشحة.[(٢)]

نضــــا لبــــاس الــــزردْ
وخــــاض مــــوج الفيلــــقِ
ولم يُرعْــــــه عــــــدَدْ
ذاك الخمــــــــــيسِ الأزرق
والحــور تلــثم خــدٌ اديمــه الممــزَّق
وكـــــــان ذاك الأســـــــدْ **في كــــل خيــــل يلتقــــي**

٣. المحدثون والفقهاء:

ان بذار النهضة العلمية الكبرى التي نمت وترعرعت، وأتـت ثمارهـا الحلـوه، بـذرت في أيام أسلافهم المرابطين، التي توكأت ابتداء على جهود ملوك الطوائف الاندلسيين.[(٣)]

إن حديث الرسول أخذ يتبوأ مرتبة عالية في صفوف الموحدين، فكـان امـامهم المهـدي محدثا ملهما رغم استناده في مهدويته إلى طائفة من الاحاديث المنتحلة التـي ابتـدعها خيـال غلاة الشيعة، لتسويغ مبادئ الامامة والمهدوية.[(٤)] وربما كان ابن تومرت مؤمنا بمثل

(١) ابن الخطيب: الجيش، ص:١٧٥، ١٨٥، ١٩٨، وهذه الصفحات فيها امثلة على ما تقدم.
(٢) ابن سعيد: الغرب في حل المغرب، ح٢، ص:٢١٧.
(٣) المراكشي: المعجب، ص:٢٤٣، ٢٤٤، ٢٥٤، ٢٧١، ٢٩٠.
مجهول: الحلل الموشية، ص:١٤٢.
(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٢. الناصري: الاستفصاء، ج٢، ص:٨٠، ٨١.

هذه الاحاديث التي تمنيه بقيام الدوله على يديه، فسلك اسلوب الغاية تبرر الوسيلة، طريق الساسة المحترفين، بلجاجة غير مبررة؛ انتقاده الهجومي لأمير المسلمين على بن يوسف، "ارى جواري منقيات"[1]، ووصفه المرابطين بالمجسمه، لعدم ايمانهم بتأويل المتشابهات من آي القرآن الكريم، وكشف "الصوره" اخت علي بن يوسف عن وجهها وباقي نساء المسلمين[2]، وذلك في سبيل الوصول الى قيام الحكومة الموعودة.

وكان عبد المؤمن من المتضلعين بعلم الحديث، بالرغم من انتحاله بدعة الامامة والعصمة كسلفه، وهي من الفلتات التي انكرها رجال السنة، وسجلت في تاريخه، وبدأت هذه الاخيرة تنهار بعد الخليفة الاول؛ فالامير يوسف اشتد في طلب الحديث من أصوله الموثوق بها، على حد قول المراكشي: "... صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين -الشك مني، أما البخاري أو مسلم، وأغلب الظن أنه البخاري- حفظه في حياة ابيه بعد تعلم القرآن..."[3]

يتبين أن يوسف جانب احاديث العصمة المنتحلة الى الاحاديث الصحيحة مع ابقائه مرحليا على رسوم المهدوية والعصمة والامامة.

غير أن ابنه يعقوب المنصور، كان من أشد الموحدين اهتماماً بالحديث وعلمائه، استطاع وبهدوئه المعروف ان يرفض علنا الاعتراف بالامامة والعصمة، وأبقاها لتمارس في خطب الجمعه ومناسبة الاعياد،[4] مداراة للجمهور الساذج. وظل الحال هكذا حتى عصر المأمون، الذي محا آثار العصمه وجميع رسوم المهدويه:

واشتهر في هذا العهد طائفة مبدعة من المحدثين.[5] المعهم القاضي ابوالفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي[6]، من قمة الحفاظ، ومن أقدر أئمة عصره على تمييز

---

(1) البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، ص:٦٧، ٦٨.
(2) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠١، ٣٠٣.
(3) المراكشي: المعجب، ص:٣٤٧.
(4) المراكشي: المعجب، ص:٤١٧، ٤١٨.
(5) منهم: محمد بن عبدالله بن احمد بن مسعود بن صنعون، ويوسف بن عبدالعزيز المعروف بالدباغ، ثم ابو الخطاب بن دحية، والشيخ ابو الحسن علي بن عبدالملك الكتامي الحميري، المعروف بابن القطان، صاحب كتاب نظم الجمان، الذي استفدت منه كثيرا في هذا البحث، ومحمد بن ابراهيم بن خلف المعروف بابن الفخار المالقي، وكان هذا اماما في الحديث يحفظ صحيح مسلم وشديد الورع والتمسك بالحق، ابن بشكوال: الصلة رقم ١٥١٠.
(6) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٣، ص:٥١١؛
ابن بشكوال: الصلة ق١، ج٧، ص:٤٥٣.

صحيح الاحاديث من موضوعها. إماما في علم اصول الفقه وعلم الكلام، متمكناً من الشروط والاحكام، متقنا للغة العربية، اديبا متبحرا بالسير والاخبار، وله مشاركة في علوم كثيرة، وعندما اكتمل شبابه تنقل في رحلة علمية بين مدن المغرب، واستمع إلى فقهائها، ومن ثم عاد إلى بلده ليتولى القضاء فيها وفي غرناطة مدة من الزمن، ليعود مرة ثانية إلى سبتة يتولى منصب القضاء وسط زوابع كثيرة أثيرت حوله لموقفه المتذبذب من الموحدين، وبقي صامدا لم ينحن، وأخيراً أعلن طاعته للآخيرين، اشتهرت له عدة تصانيف منها "الاكمال في شرح كتاب مسلم" "ومشارق الانوار" في تغير غريب الحديث "والتنبيهات"، "والعيون الستة في أخبار سبتة"، وكتاب "الشفاء بتصريف حقوق المصطفى" وهو من أشهر كتبه.

وكذلك اخذ علم الكلام نصيبه الكامل من الانتشار والظهور، اذ الزم ابن تومرت المغاربة على الأخذ بمذهب التوحيد الكلامي على طريقة الاشعرية بالأخص[1]. علما أن المغاربة، كانوا قبل هذا الوقت يمقتون علم الكلام، ويسيرون على طريقة السلفيين، فأخذ ابن تومرت بتأويل المتشابه من القرآن.[2]

ومثله علم أصول الفقه، اذ تبوأ مقعد صدق بين العلوم الدينية في هذا العصر ووجد في الذهنية المغربية المجال الأرحب لنموه وازدهاره، غير أنه لم يكن من وضع ابن تومرت الذي ابدع لهم مذهبا توحيدياً كلاميا، لكنه لم يحاول فيما يبدو أن يهيء لهم مذهبا فقهيا، بل بقي فقه مالك له السيطرة الكاملة على الحياة المغربية، رغم الحرية الكافية للمذهب الظاهري ليجد طريقه في النمو والذيوع.[3]

ولقد تزعم الموحدون الدعوة الاجتهادية، وعرفنا كيف حاول عبدالمؤمن تأصيل المذهب التوحيدي، وطلب إلى الناس العودة إلى القرآن الكريم، وقراءة كتب الحديث، واستنباط الاحكام منهما، لكنه ركن إلى التراجع، ولم يتابع تنفيذ اوامره، كما حاول

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، :٣٠٢؛ الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدامغة، وذهب الى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث؛
المراكشي: المعجب، ص:٢٧٥.

(٢) من علماء الكلام في عهد عبد المؤمن: أبو الحسن علي بن محمد بن خليد الأندلسي- الاشبيلي، وأبو عمر عثمان بن عبدالله القيسي القرشي المعروف بالسلالجي الذي يرجع اليه الفضل في اقناع المغاربة بعصمة العقيدة التومرتية؛
ابن بشكوال: الصلة، رقم ٢٠٥.

(٣) المراكشي: المعجب، ص:٢٦٤-٢٧٠؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٠٢.

خليفته يوسف تنفيذ رغبة ابيه، والاحتكام لفقه يستنبط مباشرة من القرآن والسنة، دون الرجوع إلى أقوال الفقهاء، إلا أن المنية عاجلته، ومات قبل أن يتم هذا المشروع.[1]

أما الذي خطا الخطوة الحاسمة في أمر الفقه، وعجز عن اتمامها أبوه وجده هو الخليفة يعقوب المنصور، إذ أصدر أمر الاحراق، وهز عصا غليظة هدد بها فقهاء المالكية، الذين انحنوا أمام العاصفة ينتظرون الوقت المناسب للظهور[2]. وطلب إلى الناس عدم الاشتغال بعلم الرأي، وهو أول من أمر بقراءة البسملة في أول سورة الفاتحة في الصلوات،[3] تحت طائلة القانون، ثم طلب الى العلماء الحاضرين جمع الاحاديث من المصنفات العشرة[4]، وبعد أن فرغ العلماء من وضع هذا الفقه المأخوذ من الكتاب والسنة، جمع في مدونة واحدة اطلق عليها "موطأ الامام المهدي" بعد وفاة الاخير.

إن الموحدين قد انفوا من التمذهب بمذهب معين[5]، وليس صحيحاً ما ورد عنهم عنهم أنهم مقلدون للظاهريه وابن حزم، بل رجعوا إلى الكتاب والسنه، وتركوا الفقهاء يصطرعون ويتجادلون الى نهاية دولتهم، وقد اشتهرت طائفة كبيرة من الفقهاء في هذه الحقبة من الزمن سواء كانوا مالكيين أم موحدين: مثل القاضي عياض المار الذكر، واسحق ابن ابراهيم بن يعمر الفاسي، تولى قضاء فاس ومرسيه، وتبحر في الفقه المالكي[6]. ثم محمد بن أحمد المعروف بأبي جمره، نشأ بمرسية وتولى قضاءها، ثم ناحية بلنسية وشاطبة، واريوله، وكان بصيرا بمذهب مالك متخصصا في تدريسه[7]. أما قاضي الجماعة في مدة المنصور، فهو أبو عبدالله محمد بن علي بن مروان، الذي كان له حظوه عند الخليفة، وله في الفتوى باع طويل، ولا أعلم أحداً كان أفضل في الصحبة عند

---

(١) المصدر نفسه، المعجب، ص:٤٠٠-٤٠٢.
(٢) المراكشي: المعجب، ص:٤٠٠، ويقول المراكشي وهو شاهد عيان "لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالاحمال فتوضع ويطلق عليها النار".
(٣) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٧، ص:٤.
(٤) المراكشي: المعجب، ص:٤٠١-٤٠٢، التفاصيل في الفصل الأول من هذا البحث.
(٥) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٧، ص:١٠، ١١. اورد المعجب ان المنصور وابنه ابراهيم على مذهب ابن حزم الظاهري، ص: ٤٤١.
(٦) التكمله: رقم ٥١٧.
(٧) ابن الابار: التكمله، رقم: ١٥١٤.

السلطة يداً منه، وإذا ما شعر بتغير نحوه من النظام القـائم. هـدد بالاسـتقاله.[(١)] لأن وظيفة قاضي الجماعة منصب خطير يعادل سلطة الأمير الحاكم نفسه.

وكان من أكثرهم تملقا إلى الخلفاء، القاضي المكيدي، الذي رافق المأمون (الخليفـة وقتئذ) في رحلته الانتقامية من اشبيلية إلى مراكش، واعتمده مفتيـا للدولـة، ومستشـاراً خاصة له، لا يبرم أمراً دون أخذ مشورته، في ظل مناخ مازالت عقيدة ابن تـومرت تأخـذ دورها المؤثر. غير أن المفاجأة التي نقلتها الاخبار من العاصمة؛ -تخـلي سـكانها عنـه(أي عن المأمون)، ومبايعة أشياخها والسياسين فيها ابن أخيـه "يحيـى"، بعـد أن انحـدر مـن اشبيلية ميمما شطر مراكش-، جعلته يتريـث قلـيلاً ويطـرق مليـا، ليسـتنجد بالنصـارى، ويستأصل جذور الفتنة، فيدمر العقيدة التومرتيـة، بنـاء عـلى نصـيحة قاضـيه المـذكور. وبخاصة في أمر التصفية والملاحقة التي طالت زعـماء الموحـدين، ورؤسـاءهم. وبعـد أن مارس معهم الحرب النفسية والتبكيب، قطـع بالسـيف اعـداداً لا تحصىـ مـن رؤوسـهم دون رحمة، وساق منها إلى مراكش وحدها اربعـة عشرـ الـف رأس، تعلـق عـلى جـذوع اشجارها للعبرة، ولم يرحم صغيراً ولا ذا رحم، وسط حمام من الدم يديره ببراعـة قاضـية المذكور "إنك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفارا".[(٢)]

ومن المفتين البارزين الذين اتصفوا بالصلابة والمعرفة بمدينـة مرسـية محمـد بـن احمد بن محمد بن ابي العافية اللخمي، اشتهر بالفقه، وكان مرجعاً ترجـع اليـه الدولـة في

---

(١) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٧، ص:١٠.
ومن القضاة الآخرين الذين تعاونوا مع الامراء الموحـدين وخـدموا دولـتهم، وهـم طائفـة كبـيرة، فهـم: ابـو محمد عبدالله بن جبل المغربي الوهراني، وعبدالله بن عبدالرحمن المـالقي، وابـو عبـدالله محمـد بـن مـروان لوهراني، وأبو القاسم محمد بن محمد بن يقي، وأبو العباس بن مضا القرطي، ومحمد بن عيسى بن عمـران واحمد بن عبدالرحمن بن محمد البطروجي، واحمـد بـن محمـد بـن احمـد بـن رشـد قـاضي قرطبـة؛ ابـن بشكوال: الصلة، ق١، ج٢، ص:٢٨، ٨٣.
المراكشي: المعجب، ص: ٣٥٧، ٢٩٣، ٣٨٢، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٦١.
ابن ابي زرع: روض القرطاس، ص:٢٠٦-٢١٦؛

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص:١٦٥؛ سورة نوح ٧٠/٢٧؛
ابن ابي زرع: روض القطراس، ص:٢٥٢-٢٥٣.
وكان لهذا القول مناسبة، في أمر صبي هوابن اخت الخليفة المأمون، لا يتجاوز ثلاثة عشر عامـا، حيـنما جـاء دوره في القتل، فقال لخاله: اعف عني لثلاث: قال له ما هي: قال صغر سني، وقرب رحمي، وحفظي لكتاب الله العزيز، فنظر إلى القاضي كمستشير، ويبدو أنه رق له: "وقال للقاضي: كيف رأيت قوة جأش هـذا الغـلام واقدامه على الكلام في هذا المقام؟". فرفض القاضي، وقال قولته السابقة، فقتل الغلام بناء على فتواه.

المعضلات الدينية، وتوفي عام ٥٥٨هـ/١١٦٣م والقاضي محمد بن ابراهيم بن خلف المالقي المعروف بابن الفخار، اشتهر بالفقه والحفظ.(١)

أما أكثر الفقهاء حفظا وأبعدهم صيتا، عالم متفنن اصولي محدث مشهور أديب شاعر جيد الشعر، مؤلف، رئيس وقته، وهو آخر علماء الأندلس وأئمتها وحفاظها، هو محمد بن عبدالله ابن محمد بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن العربي المعافري الاشبيلي، قاضي قرطبة، المكنى بأبي بكر، كان من العلماء الرحالة الذين تركوا بلدهم إلى المشرق سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، فدخل دمشق، والتقى أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، واستمع اليه، ورحل إلى الحجاز في موسم سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م، وأمّ بغداد مرتين، وصحب أبا بكر الشاشي، وأبا حامد الطوسي الغزالي، وغيرهما من العلماء والادباء، ثم صدر عن بغداد، الى مصر وأقام بالاسكندرية، واجتمع إلى علمائها، وخلف أباه متوفياً فيها سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م(٢). ثم انصرف عائداً إلى الأندلس بحصيلة كتب تربو على الاربعين تأليفا. تتلمذ على يديه عدد من العلماء، يقيمون عنده عدة اعوام، فكثر حساده وأعداؤه، وأوذي في ذلك بذهاب كتبه وماله، فأحسن الصبر والتجلد.(٣)

قال الشعر ومن أجوده:(٤)

وقد قيل يشقى الحاسدون بسعيهم	**ألا إنما المحسود أشقى وأنصب**
يريد بي الأعداء ما الله دافع	**وفيض المعالي والجلال المهذب**
يسرّ لك البغضاء نارا يحشّها	**عليك لسان باد العظم اشنب**

ومن العلماء المجيدين العلامة، أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي البلنسي المعروف بابن دحية المتوفى سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م(٥).

(١) الضبي: بغية الملتمس، ص:٥٤، ٥٧، ٨٢.
(٢) ابن قنفذ: الوفيات، ص:٢٧٩، ٢٨٠؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٢٥٤؛ ويذكر الضبي: بغية الملتمس، ص:٩٢-٩٩، ان ابن العربي ذهب إلى دمشق برفقة إبنه.
(٣) من هذه الكتب "كتاب أنوار الفجر"، و "أحكام القرآن"، و "التلخيص في مسائل الخلاف"، وكتاب "القبس"، وكتاب "العواصم من القواصم"و "وأحكام القرآن"و " وقانون التأويل" وغيرها؛ الضبي: بغية الملتمس، ص: ٩٣؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص:١٠٥، ١٠٦.
(٤) الضبي: بغية الملتمس، ص:٩٤-٩٨.
(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص:٢٩٦.

٤- المؤرخـون:

لم يخرج هذ العصر مؤلفات مهمـة ذات شـأن في التـاريخ، وإن كـان علـماؤه قـد خلفوا لنا عدداً لا بأس به مـن معـاجم الـتراجم. أمـا المؤلفـات التاريخيـة الـذي تنسـبه المراجع إلى هذا العصر قد ضاع معظمه، ونكاد لا نعثر على مؤرخ ذي أهمية إلا في آخـر عصر الموحدين، اذ كانت هناك حركة ناشطة في مجـال التـاريخ، فشـارك فيهـا مؤرخـون معاصرون للأحداث، ومـن أشـهرهم: ابـن بشـكوال، وابـن الأبـار، وابـن صـاحب الصـلاة وعبدالواحد المراكشي، وابن سعيد، وأبـو بكـر يحيـى بـن محمـد بـن يوسـف الأنصـاري الغرناطي[1]، وأبو الحسن السـالمي الـذي أرخ اخبـار الفتنـة الثانيـة بالانـدلس، وروى في كتابه، أخبار الصراع بين دولة لمتونة وبني عبدالمؤمن، ورتبه حسب السنين، وبـدأه سـنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م، وبلغ به سنة ٥٤٧هـ/١١٥٣م. ولكننا لم نعثر عـلى هـذا الكتـاب،[2] وأرخ لهذه الفترة كذلك المؤرخ، اليسع بن عيسى بن حزم الغـافقي (ت ٥٧٥هــ/١١٧٩م)، ولـه كتاب، "فضائل اهل المغرب"، ولكن لم يعثر المهتمون إلى الان على هـذين الكتـابين، وقـد ضاعت كتب كثيرة ليست بذات قيمة كبيرة، وأهم منها كتاب المن بالامامة لابن صاحب الصلاة، الجزء الثاني منه، وربما كان أحسن ماكتب في تاريخ الموحـدين، وتوكـأ عليـه كـل من أتى بعده من المؤرخين.[3]

أما وقد نشط بنو سعيد بالأدب، وألممنا في ما سـبق بـذكر أبي جعفـر بـن سـعيد صاحب حفصة الركونية، واشترك بنو سعيد في تـأليف كتـاب "المغـرب في حـلى المغـرب" وكتاب "المشرق في حلى المشرق"، ونهجوا في التصنيفين كلهيما مرتبـا عـلى حسـب الـبلاد، حتى إذا ما ذكر مدينة تكلم عنها، ثم عطف على كورها (قراها)، واسهب في كل مـنهما، اذ يبتدئ بحاضرة مملكتها من تعريف بمكانها من الاقاليم، ومن بناها، ومـا يحـيط بهـا، أو يكتنفها من أنهار أو متنزهات، أو معادن، أو زراعات وصناعات، ومـن تعاقـب عليهـا من أبناء الملوك، وما تتجمل بـه مـن طبقـة الأمـراء، وطبقـة الرؤسـاء، وطبقـة العلـماء، وطبقة الشعراء، وطبقة اللفيف، أي الذين ليس لهم حظ من النظم، ثـم يعـود ويقسـم الأندلس، إلى غرب ووسط وشرق، ويفرد لكل قسم كتابا، وينحو فيه المنحى السابق،[4].

(١) جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص:٢٤١.
(٢) المقري: النفح، ج٤، ص:١٧٥.
(٣) عبدالهادي التازي: مقدمة المن بالامامة، ص:٤٧-٥٠.
(٤) ابن سعيد: المغرب، ج١، ص: ٣٣-٤٥؛
جنثالث: تاريخ الفكر الاندلسي، ص٢٤٣-٢٤٥.

ويجدر بنا ان نثبت دراسة واضحة لما أنجزه المؤرخون الثلاثة الأوائل، فضلا عن عدد آخر من المؤرخين، اخص بالذكر منهم المؤرخ الجغرافي الأديب المعاصر للأحداث، الذي اعتمدت عليه هذه الدراسة كثيرا، هو عبدالواحد المراكشي الذي كان رفيقا لامراء بني عبدالمؤمن وفي خدمتهم[1]، وهو المؤرخ المنفي إلى المشرق، والشاعر الذي ليس له ديوان، مثلما هو مؤرخ ليس له تاريخ الا هذا الكتاب الذي أملاه في بلاد الغربة، ويتبين أنه نفي لأسباب سياسية، كما يتضح ذلك في ثنايا الكتاب، وإلى مثلها يبعد الزعماء، وأهل الرأي عن بلادهم أيام الجور والطغيان.

❖ **<u>ابن بشكوال: "٤٩٤- ٥٧٨/١١٠٠-١١٨٢"</u>**

هو أبو القاسم خلف بن عبدالملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال،الخزرجي الانصاري الاندلسي[2] وفي مقدمة كتاب الصلة: أبوالقاسم خلف بن عبدالملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال بن يوسف بن دامه "داحه" الانصاري، ويقول عنه ابن خلكان: هو أبو القاسم خلف بن عبدالملك بن مسعود بن بشكوال بن يوسف بن داحه بن داكة بن نصر بن عبدالكريم بن وافد الخزرجي الانصاري القرطبي.[3]

ينحدر هذاالمؤرخ من قرية شرّين "Sorrion" بضواحي بلنسية في شرق الاندلس، أما مولده كان بقرطبه عام ٤٩٤هـ/١١٠٠م وقيل غير ذلك، ويبدو ان سبب هذا الاختلاف في يوم مولده، ان ابن بشكوال كان له يجيب من يسأله عن مولده، ويقول لسائله معنفا، "اقبل على شأنك، ليس من مروءة الرجل ان يخبر بسنه"[4]

وهو عالم بحاثة، ومن كتّاب السير، وراوية اخبار بلاد الاندلس، تتلمذ اولا على والده، وأخذ عن معاصريه، مثل: ابن عتاب، وابن رشد، وأبي بحر بن العاصي، وأبي الوليد بن طريف وأبي القاسم بن بقي، وشريح بن محمد، والقاضي ابي بكر بن العربي، وأبي علي بن سكرة الصدفي، وأبي القاسم بن منظور،وغيرهم، وانتقل إلى إشبيلية ليستمع إلى علمائها، وبخاصة من ابن العربي، وشريح المذكورين، وسافر إلى المشرق، ميمماً بغداد، فالتقى هبة الله بن أحمد الشبلي، وانضم إلى مجلسه وإلى آخرين هناك.

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:٣٥٦، ٤٣٩، ٤٤١.
(٢) ابن قنفذ: كتاب الوفيات، ص:٢٩٠، تح، عادل نويهض، دار الافاق، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣، ابن بشكوال: الصلة، ق١، ص:ع، الدارالمصرية، القاهرة.
(٣) ابن خلكان: الوفيات، ج٣، ص:١٣، ط، القاهرة، لا تاريخ؛ نفسه، ج٢، ص٢٤، دار صادر، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
(٤) ابن بشكوال: مقدمة الصلة، ص:و

وراسله جم غفير من العلماء سواء كانوا من اهل المشرق ام من اهل المغرب، ثـم عاد إلى الاندلس، وتتلمذ على يديه كثير من العلـماء، نـذكر مـنهم عـلى سـبيل المثـال لا الحصر: الحافظ ابا بكر بن خير، وابا بكر بن سمحون، وابن بقي، موسى بن عبـدالرحمن الغرناطي، وابا الخطاب بن دحيه، وغيرهم.(١)

فهذه المجموعات الكبيرة من الاساتذة، الذين اخذ عنهم، والـذين تتلمـذوا عليـه، والجو العلمي الذي عاشه، والحياة العلمية التي كانت تتميز بها المـدن الاندلسـية، كـل ذلك أكسبه معرفة واسعة بالابحاث التي طرقها، كما اتسعت معارفه التاريخية، وله فيها مجلدات عديدة؛ اهمها كتاب الصلة في مجلدين، وهو آخر ما يصل اليه كتّـاب الـتراجم، لا يستغني عنه رجال التـاريخ والادب وعلـماء الفقـه، واعتمـد فيـه مؤلفـه عـلى تـاريخ الاندلس لأبي بكر حسن بن مفرج المعافري القبش القرطبي.(٢) الذي جعله تتمه لكتـاب بن الفرضي في "تاريخ العلماء والرواة بالانـدلس"، وجـاء ابـن الابـار بعـده، فـذيل كتابـه وسماه "التكملة"، ثم جاء ابو جعفر بن الزبير فوضع له تذييلاً آخر اسماه "صلة الصلة"، وكتاب الصلة يعتبر من أوثق مصادر التاريخ للآن.(٣)

ووصل، كتاب ابن بشكوال المذكور، ابوالقاسم بن حبيش "عبدالرحمن بن محمـد بن عبدالله بن يوسف الانصاري "٥٠٤-١١١١/٥٨٤-١١٨٨"، وهـو اسـتاذ الضـبي صـاحب كتاب بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس "٥٥٩-٥٩٩هــ"، "١١٦٣-١٢٠٢" ولابـن بشكوال كتب منها: "معرفة العلماء الافاضل"، في مجلدين، وله عدة مؤلفات تربـو عـلى الخمسين، وأخص بالذكر منها، "الفوائد المنتخبة مـن الحكايـات المسـتغربة" في عشرـين جزءا، و "كتاب المحاسن والفضائل في معرفة العلماء الافاضل" في واحـد وعشرـين جـزءا، واسند إلى اساتذته نيفاً واربعمائة كتاب، أخذ منهـا عـن ابـن عتـاب وحـده نيّفـاً ومائـة كتاب(٤)، كان هذا العالم بعيد الافق، كثير الرواية، شديد الملاحظـة، دقيـق الاخـذ، واسـع المعرفة، ناقدا محللا للراوي والرواية، ميزة اتصف بها عن غيره، واهتم بتـاريخ الانـدلس القديم والحديث، ولم يترك خـبرا صـغيرا او كبـيرا، لا شـارده ولا وارده إلا ذكرهـا بخطـه، اشتغل في

---

(١) ابن بشكوال، الصلة، ق١، ص:و.
(٢) جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسي، ص:٢٧٥.
(٣) المقري: النفح، ج٤، ص:١٧٥.
(٤) ابن قنفذ: الوفيات، ص:٢٩٠، ٢٩١.

اثناء حياته مدة من الوقت بولاية القضاء في بعض جهات اشبيلية تابعا لأبي بكر بن العربي وعقد الشروط ببلده.[1]

عاش هذا المؤرخ حياته فقيرا متقشفا، يرضى بالدون من العيش، على أن يترامى على أعتاب الحكام والمسؤولين، وبقي كذلك إلى أن وافته المنية بقرطبة عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م.[2]

❖ **ابن الابار: ١١٩٨/٥٩٤- ١١٣٨/٦٣٥**

أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن ابي بكر بن عبدالله بن عبدالرحمن بن احمد بن ابي بكر القضاعي الاندلسي البلنسي الشهير بابن الابار.[3] مؤرخ كبير، ربما كان اكبر مصنف لمعاجم الرجال أفرزته الاندلس، اديب ناقد، كان من اعلم الناس بتاريخ المسلمين السياسي والعلمي والادبي، وهو من اهل بلنسه، أصله من انده.[4] اشتغل كاتبا لامراء الموحدين في بلده للسيد أبي عبدالله بن ابي حفص بن عبدالمؤمن، ومن بعده لابنه أبي زيد.[5] وقد رافق الاخير، عندما خرج معلنا الحرب على النصارى، إلى قلعة ايوب، ولكنه انفصل عنه، حالما اعتنق ابو زيد النصرانية، وعاد الى بنلسية كاتبا للامير زيّان مردنيش، نشأ ابن الابار في بيت علم ودين وعفاف، وتتلمذ على كبار شيوخ بلده وغيرها، وتولى قضاء دانيه ٦٣٢هـ/١٢٣٥ لفترة قصيرة، سرعان ما عزل من منصبه، وارسله ابن مردنيش، -الذي صمد مقاوما لحرب الاستنزاف النصرانية، إذ عولت عليه بلاد شرق الاندلس، بعد ان خاب ظنهم بقيادة الموحدين-، سفيرا على رأس وفد من بلنسية، المدينة التي اصبحت هدفا للقوات المعادية الاسبانية وغير الاسبانية، إلى أبي زكريا

---

(١) الشرط: ما يوضع ليلتزم في بيع أونحوه، وفي الفقه، مالا يتم الشيء الا به؛ أحمد حسن الزيات: المعجم الوسيط، ج١، ص:٤٨١؛
ابن منقذ: الوفيات، ص:٢٩٠-٢٩١.
ابن بشكوال: الصلة، المقدمة، ص: ي.

(٢) المصدران: نفساهما.
جنثالث بانلثيا: تاريخ الفكر الاندلسي، ص:٢٧٥.

(٣) الغبريني: عنوان الدراية، ص:٣٠٩، المقري: نفح الطيب، ج٣، ص:٣٤٥، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص:٣٠٩، ج٣، ص:٣٠٣، ٤٧٧.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٤١٨
ابن منقذ: الوفيات، ص:٣٢٤، ٣٢٥.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٤١٨، المقري: نفح الطيب، ج٣، ص:٣٤٦، جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر العربي، ص:٢٧٧.

الحفصي، وريث الموحدين؛ ففي افريقية (تونس)، يستصرخه لانقاذ شرق البلا وعاصمته بلنسبة، التي ضرب ملك برشلونه عليها حصاره، والح في الهجوم مصمما على احتلالها مهما غلت التضحيات، فادى ابن الابار الرسالة وانشد قصيدته المشهورة على روي السين امام الامير الحفصي، يحثه فيها لانجاد المسلمين قبل فوات الاوان مطلعها:

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا ان السبيل الى منجاتها درسا[1]

استجاب السلطان لاغاثتهم، وجهز الاساطيل وشحنها بالسلاح والمؤن والاموال، وتوجهت صوب الاندلس، في حين شدد المحاصرون مراقبتهم للشواطئ، ومنعوا وصول الامدادات الى المدينة المنكوبة، وعزلوها عزلا تاما، مما اعاق تقدم سفن اسطول الاغاثة الى بلنسية، وتحولت إلى ميناء دانية، وافرغت حمولتها فيه، ولم يتمكن اهل المدينة المحاصرة من الاستفادة من هذه الامدادات التي وصلت بعد فوات الاوان[2].

وعند سقوط المدينة تسلل ابن الابار الى دانية، وابحر الى بجاية، واختارها مقرا له ثلاثة أو اربعة اشهر، وكان على معرفة تامة بها قبل هذا التاريخ[3] وارتحل بعدها الى تونس، بدعوة خاصة من الامير، والتحق بأبي زكريا الحفصي- الذي ولاه رئاسة كتاب الرسائل، لكنه عزل من منصبه لافتقاره الى التواضع واتصافه بالأنفه التي ينفر منها الملوك عادة[4]. استشاط ابن الآبار غضبا، ولم يحترم غياب السلطان، فوشى به الحاسدون وعوتب على ذلك، ولكنه لج في كبريائه، ورمى القلم "وكان بيده" وانشد متمثلا:

واطلب العزفي لظى ودع الذل ولو كان في جنان الخلود[5]

فوصل خبره الى أبي زكريا، فوضعه تحت الاقامة الجبرية في بيته. لكنه هذه المرة أظهر ندمه للسلطان وتوبته، واستجار بابنه المستنصر، "تم استعتب بتأليف رقعة اليه عدّ فيه

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص:٣٨٦-٣٨٨.
ابن منقذ: الوفيات، ص:٣٢٤.
والقصيدة كلها مذكوره بابن خلدون، ارجع اليها ان شئت وفي كتاب النفح المقري: النفح، ج٣، ص:٣٤٥-٣٤٩.
(٢) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٨٥-٣٨٨.
(٣) الغبريني: عنوان الدراية، ص: ٣١١.
(٤) ابن منقذ: الوفيات، ص: ٣٢٥
جثالت بالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسي، ص: ٣٤٦.
(٥) المرجع نفسه، جنثالت؛ المقري: النفح، ج٣، ص: ٦٤٣.

ممن عوتب من الكتاب واعتب، وسماه أعتاب الكتاب"[١]. فأفرج عنه السلطان، ونال الحظوة عنده، واصبح وزيراً للخليفة المستنصر، غير ان ابن الآبار كان يتيه عجبا بنفسه، بعيدا عن الكياسة والسماحة، سريع الغضب، طويل اللسان، حتى في حق السلطان نفسه، وأخذ يتنبأ بزوال الدولة الحفصية، فانثال عليه حساده، وأوغروا صدر السلطان عليه، فأمر الامير بنفيه إلى بجاية، فانصرف ابن الآبار فيها الى التأليف والبحث، واستدعى من المنفى للتحقيق معه، إذ اتهم بالتحريض والتآمر، وداهمت الشرطة بيته، ووجدت، أثناء التفتيش بين أوراقه، وادانته رقعة من الشعر مكتوب في أولها:

طغى بتونس خلف سموه ظلما خليفة[٢]

فثبت للسلطان صحة التهم المسنودة اليه، فأمر بجلده بالسياط، ثم قتله طعناً بالرماح، واحرقت جثته مع مجلداته وكتبه ودواوينه التي اربت على خمسة وأربعين كتابا، وذلك ضحوة يوم الثلاثاء ٢١ محوم سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م[٣].

ومن كتبه "التكملة لكتاب الصلة" في تراجم علماء الاندلس، "والحلة السيراء" في تراجم امراء المغرب، و "اعتاب الكتاب"، و "تحفة القادم"، و "الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة"، وخلف لنا معجم تراجم آخر "المعجم في اصحاب القاضي الامام أبي علي الصدفي بن سكرة"[٤].

اعتمد مؤرخنا في تآليفه على عدد غفير من شيوخه تتلمذ عليهم، وكاتبهم، سواء كانوا من الشرق أم من المغرب، كأبي الربيع بن سالم، وسليمان بن موسى ابي الربيع الحميري الكلاعي" خطيب وعالم بصناعة الحديث، وكتب اليه ابن جمرة، وأبو عبداللة بن عبد الرحمن التجيبي المرسي أشهر من حدّث، وهو من علماء التراجم المعدودين، فضلا عن العالم الاندلسي[٥].

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٤١٨؛ المقري: النفح، ج٣، ص: ٣٤٦.
(٢) ابن خلدون: العبر ، ج٦: ٤١٩؛ ص: ٤١٩؛ المقري: النفح، ج٣، ص: ٣٤٧ ابن منقذ: الوفيات، ص: ٣٢٥. جتثالت بالنثيا، تاريخ الفكر الاندلسي، ص: ٢٧٨.
(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٤) الغبريني: عنوان الدراية، ص: ٣١٠-٣١١.
(٥) المصدر نفسه يقول ابن الآبار: سمعت عن محمد بن احمد الانصاري المعروف بالاندلسي" من يغمزه فتركت الاخذ عنه "ت ٦٢٣هـ/١٢٢٦م".

وتتلمذ على المشارفة، كابي البركات عبد القوي بن عبد العزيز السعدي الاغلبي المصري المالكي، الاخباري راوي السيرة، وأبي الطاهر اسماعيل القلعي وغيرهم(1) ولابن الأبار أشعار وقصائد، لو لم يكن له من الشعر الا القصيدة السينية المار ذكرها لكفاه فخرا، وكان من أول انشاده لما مثل بين يدي المستنصر الحفصي(2).

بشراي باشرت الهدى والنورا   في قصدي المستنصر المنصورا

وإذا أمير المؤمنين لقيته   لم ألق الا نصرة وسرورا

وقال:

أمير المؤمنين لنا غياث   فعند المحل تُستسقى الغيوث

فلا حرج ويمناه الغوادي   ولا خوف وقتلاه الليوث

وقال يمدح المستنصر(3)

ان البشائر كلها جُمعت   للدين والدنيا وللامم

في نعمتين جسيمتين هما   برء الامام وبيعة الحرم(4)

وقال:

فخر لشعري على الاشعار يحفظه   خليفة الله كان الله حافظهُ

وقال:

الا اسمع في الامير مقال صدق   وخذه عن امرىء خدم الاميرا

---

(1) المصدر نفسه والصفحة.

(2) المصدر نفسه، والصفحة.

(3) المقري: النفح، ج٤، ص: ١١٩-١٢٠.

(٤) بيعة الحرم: ان اهل مكة خطبوا للمستنصر صاحب تونس بعرفة وكتبوا له البيعة، من انشاء ابن سبعين المتصوف، وهذا الاخير من أهل مرسية رحل الى تونس، وهو من المتصوفة الفلاة، وتكلم بمذاهب غريبة، رمى بالكفر والفسق من قبل الفقهاء، وطاردته الجماهير، فهرب ولحق بالمشرق، ونزل مكة، ولجأ الى جانب شريف مكة يحتمي به، وهو الذي حرض الشريف على أمر البيعة للمستنصر، المقري: نفح الطيب، ج٢، ص: ٩٩٣-٨٠٤؛ ابن خلدون: لاعبر، ج٦، ص: ٤٠٧-٤١٧.

متــــى يكتــــب تــــردْ وشــــلا أجابــــا وإن يــــركب تــــرد عــــذبا نمــــيرا[1]

❖ **عبد الملك بن صاحب الصلاة**

هو عبد الملك بن محمد بن أحمد بن ابراهيم الباجي، المكنى ابا مـروان، وأبـا محمـد المعروف بابن صاحب الصلاة، أصل اسرتـه مـن مدينـة باجـة، واسـتوطن اشـبيلية، ظهـر ابـن صاحب الصلاة، ليدخل ميدان المجـد بكتابـة المـن بالامامـة عـام ٥٥٧هــ/١١٦١، حيـنما حـل بقرمونة بعد فتحها بقيادة الشيخ عبدالله بن أبي حفص الذي امر بغسـل مسـجدها وتطهـيره من الشرك بعد تطهيره من المشركين، فدخل مؤرخنا المذكور المسجد مهنئاً الامير بالفتح، فأخـذ ينفتح له الحظ حتى انتخب وزيرا للاشغال في الاندلس مدة الموحدين، وكان تدخل الدولـة في عمله الخاص بانتقاء موظفين وعزل آخرين، مما أجبره أن يعتزل منصبه[2] مقيماً في قرطيـة في عداد الكتاب المرموقين، وأحد أعضاء وفد اشبيلية الذين خرجوا يستقبلون السادة ابا يعقـوب وأبا سعيد حين عبورهم البحر الى الاندلس[3] ويظهر مؤرخنا في سنة ١١٦٥/٥٦٠ ضمن موكـب السيد ابي سعيد ليلتقي أخاه ابا حفص في جبل طارق، الذي حضر من مراكش موفدا من قبل الخليفة لازالة التوتر بين أبي سعيد وبين أخيه أبي يعقوب إثر تولي الاخير الخلافة[4] ومن هناك تقدم ابن صاحب الصلاة ليكون ضمن حاشية السيدين للالتقاء مع أمير المؤمنين في العاصـمة، وهناك استوطن مراكش ليتعلم عقيدة التوحيد عن طريـق اطلاعـه عـلى كتـب ابـن تـومرت: الطهارة، واعز ما يطلب وغيرها، ومن ثم عاد ابن صاحب الصلاة، واشتغل مدير مكتب حاكم غرناطة الجديد (كاتم سره) الشيخ محمد بن ابي ابـراهيم، صـديقه القـديم، عـام ١١٦٩/٥٦٤. ولكنه سرعان ما افتقد صديقه حيـنما أمـره حـاكم غرناطـة بـالعودة عـلى جنـاح السرعة الى مراكش، في حين زهد ابو مروان العمل الوظيفي في غياب صديقه، فاستغل شفاء امير المؤمنين من مرضه، وترأس وفد الاندلس لتهنئـة السـلطان والقـدوم الى العاصـمة[5] ١١٧٠/٥٦٦، يقـيم فيها، ليحظى بوسام التكـريم الأمـيري، ويتفـرغ لكتابـة التـاريخ مـدونا ملاحظاتـه التاريخيـة، وأصفا عناصر المجتمع الموحدي، وعادات الناس، وطرق معيشتهم وهدايا السـلطان، ذاكـراً مرافقته له في تحركاته العسكرية، مسجلا كل المسالك والممالك

(١) المقري: النفح، ج٥، ص: ٢٥٨.
(٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ٦٤.
(٣) ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة، ص: ١٤.
(٤) المصدر نفسه، ص: ١٥.
(٥) المصدر نسه، ص: ١٩-٢٠.

التي مر بها[1]، ولم ينقطع ابن صاحب الصلاة عن مشاركة أمير المؤمنين في جميع غزواته الأندلسية والمغربية منذ حصوله على الوسام المذكور، حيث شارك في معركة شنترين التي استشهد في أثنائها الخليفة سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م، واستمر بعدها في خدمة الموحدين، أثيراً عندهم كعالم مجاهد، ومؤرخ نزيه محايد، دقيق الملاحظة ضابط للحوادث، ومؤرخ للبلاط الملكي[2] وقد ترك لنا ابن صاحب الصلاة كتابين "المن بالامامة" و "تاريخ المريدين"؛ فالأخير لم يكن له وجود، والمشهور هو الكتاب الأول[3]، وتوفي نهاية المائة السادسة للهجرة على أصح الاقوال[4].

٥- الجغرافيون[5]:

تمهيد

من مطالعتنا لعلماء المغاربة، يبدو أن غرب العالم الاسلامي (المغرب والاندلس)، اتخذ فيه علم الجغرافيا صبغة محلية، وقلما كان يخرج عن محيط البلاد التي ظهر فيها، وأن تطور تلك العلوم في هذه الأصقاع كان أبطأ مما في الشرق، على حد قول كراتشوفسكي[6]؛ ذلك انه منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ظل عدد كبير من المصادر الأدبية يقدم مادة جغرافية، غير أن الأدب الجغرافي نفسه بدأ يتخذ بالتدريج طابع التجمع، ويتوكأ على ما خلفه المؤلفون السابقون، وأخذ حجمه في التزايد بشكل ملفت للنظر، حيث تولدت الرغبة في توحيد جميع المعطيات السابقة في قالب أدبي، فظهر اتجاه جديد في هذا العصر- عصر الموحدين- يرمي الى الربط بين الجغرافية

(١) ابن صاحب اللصلاة: المن بالامامة، ص: ٢٣.
(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ١٨١-١٨٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص: ١١٥، ١٢١، ٦٣، ٦٥، ٧٢.
(٣) ابن صاحب الصلاة: لمن بالامامة، ص: ٢٩، ٢٨.
(٤) جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسي، ص: ٢٤٢.
(٥) علم الجغرافيا:كلمة يونانية بمعنى صورة الأرض، ويقال جغراويا (بالواو على الأصل): وهو علم يتعرف منه أصول الأقاليم السبعة الواقعة في الربع المسكون من كرة الأرض، وعروض البلدان الواقعة فيها، وأطوالها، وعدد مدنها، وجبالها، وبحارها، وأنهارها الى غير ذلك، وهو علم بأحوال الأرض من حيث تقسيمها الى الاقاليم والجبال والأنهار، وما يختلف حال السكان باختلاف؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج١، ص: ٨٨.
(٦) المصدر نفسه، ص: ٢٧٢؛ تر، صلاح الدين عثمان، مراجعة، ايغوربلباين، الادارة الثقافية، الجامعة العربية، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.

الوصفية والجغرافية الفلكية مرة أخرى[١]. وهذا أكثر ما يبدو واضحاً عند الادريسي وأبي بكر الزهري. وهناك نمط آخر من الأدب الجغرافي يتسع، وينال اعجاب الناس، هو وصف الرحلات الذي كثيراً ما حمل عنواناً "الرحلة"، وقد دونت على شكل مذكرات، مع تفاوت في الدقة تظهر خلالها، وربما كان الحج الى مكة، هو السبب في تأصل حب الرحلة في قلوب الأندلسيين، ثم اولعوا بالتنقل والاسفار ولعاً شديدا[٢].

ولعل أكثر الآثار قيمة في هذا المجال رحلة الأندلسي ابن جبير، بيد أنها ليست الاولى من الناحية الزمنية في هذه الصناعة من الأدب الجغراي، غير أن ابن جبير رفع هذا اللون من الصياغة الى درجة عالية، فيكون وصف الرحلة أحياناً قصة ممتازة يسجل فيها الرحالة كل ما رآه، واهتم به، وكثيراً ما تبلغ مستوى عاليا من الفن والصياغة الأدبية[٣].

ومن هؤلاء الجغرافيين، الفلكي أبو علي حسن المراكشي- الذي توفي سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م، وكان رحالة عصره؛ زار الأندلس، وأطلع على شمالي افريقية، فعبر المحيط الأطلسي، وانتهى الى نهر النيل، وأن كتابة الموسوم "جامع المبادىء والغايات الى علم الميقات" لهو خير ما يمثل تلك العلوم التي يتوكأ عليها علم الفلك، في وصف الكون "الكوزموغرافيا" وصنع الساعات الشمسية، وأفرد في كتابة بابا لصناعة أجهزة الرصد، وطريقة العمل بها، إذ كانت له محاولات جدية لرصد مائتين وأربعين نجماً سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م، فضلا عن وضعه جداول لخطوط العروض والأطوال لمائة وخمسة وثلاثين مكانا جغرافيا، وقد حقق جزءاً كبير منه بنفسه[٤].

والجغرافي محمد بن أبي بكر الزهري الذي عاش بغرناطة حوالي سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م، وتوفي بعد سنة ٥٤١هـ/١١٥٤، ويعود نسبه الى قبيلة بني زهرة بن كلاب التي كانت تعيش بضواحي مكة، اذ أنجبت أعلاما من الصحابة والتابعين. والمحدثين والفقهاء والقضاة، وانتشروا في مشارق الأرض ومغاربها، وأن الجغرافي السابق من فرعها الأندلسي، ومن سكان المرية، حيث جعل ميدانه التجوال في ربوع الأندلس،

(١) المصدر نفسه، ص: ٣٦٣-٣٧٩؛ الجغرافية الوصفية: هي علم المسالك والممالك، وعلم عجائب البلدان، وتسجيل المشاهد العامة لكل قطر، بينما الجغرافية الفلكية: هي علم الأطوال والأعراض، أو علم تقويم البلدان.

(٢) جنثالث: تاريخ الفكر الاندلسي، ص: ٣٠٩.

(٣) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص: ٢٩٧-٢٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ص: ١١٣.

ولم يغادرها، وتوفي فيها سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م، وهو من معاصري الأندلسي وأبي حامد الغرناطي اللذين سيأتي ذكرهما، وكتابه المسمى "جغرافية" اهتم بالجغرافية الفلكية، مع ميل ظاهر الى ايراد جميع أنواع العجائب والمعلومة في ذلك الوقت مثل "اسطورة الشجرة المسحورة بجزائر واق الواق بالصين التي تثمر اشجارها كل عام نساءً بدلا من الفاكهة[١].

وليس بمقدورنا أن نتجاوز الجغرافي الرحالة ابن سعيد المغربي الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثالث عشر اذ أخذ عن مصنفات الادريسي جل معارفه الاوروبية تقريباً، وجزءاً كبيراً عن بلاد أخرى[٢]. أما الرحالة جواب الآفاق الذي ما كان يمل الأسفار، ولا يستقر به قرار، فهو أبو حامد أبو عبدالله محمد بن عبد الرحيم (الرحمن) المازني القيسي الغرناطي الأندلسي الاقليشي القيرواني، ويكنى أيضاً أبا محمد وأبا بكر، ويرد اسمه في مراجع أخرى أدبية في صياغات مختلفة، ولد بغرناطة سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٢م، وفي سن الخامسة والعشرين سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م، قام بأول زيارة له الى مصر حيث اجتمع الى بعض علمائها، ثم رجع الى وطنه الذي لم يتمكن به طويلا[٣]، فغادره مرة أخرى سنة ٥١١هـ/١١١٧م متجهاً صوب الديار المصرية، وربما كان ينوي عدم الرجوع اليه مرة ثانية، في ما يبدو، وتطلع في رحلته هذه الى سردينيا، وانثنى الى صقلية، وانتهى الى الاسكندرية والقاهرة، ولا نعرف فيما اذا كان عاد الى وطنه أم استأنف رحلته شرقاً. وفي عام ٥١٦هـ/١١٢٢م. نلتقي به في بغداد، حيث استقر بها أربع سنوات، يستمع فيها الى دروس المحدث الكبير أبي العز أحمد بن عبيدالله بن كادش، وقد تمتع الغرناطي بعطف ورعاية الوزير العباسي الأديب الفقيه يحيى بن هبيرة الذي أكرمه، وأمده بالمال، فرفع الى مكتبته أحد مصنفاته "المغرب عن بعض عجائب المغرب"[٤]، وبعدها انكفأ يتطلع نحو البلاد الشرقية سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م، فزار أبهر في ايران، ثم نراه يتجول، فيعبر بحر قزوين شمالي ايران، ويصل الى مدينة سخسين التي يفرد لها وصفا

---

(١) المصدر نفس، ص: ٢٧٨؛ ويفسر الزهري عنوان كتابه "جغرافية"، فيقول: كتاب الجغرافية، وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة، وما في كل جزء من الغرائب والعجائب، تحتوي على الأقاليم السبعة، وما في الأرض من الأميال والفراسخ؛ المقري: النفح، ج٢، ص: ٢٤٧-٢٥٠؛ د. عبدالرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص: ٤٧٣.

(٢) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج١، ص: ٢٩٢؛ جنثالث: تاريخ الفكر الأندلسي، ص: ٢٤٨.

(٣) كراتشوفسكي: تاريخ الفكر الجغرافيي، ص: ٢٩٥.

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

مفصلا في كتابه، ويصل الى مصب نهر الفلجا سنة ٥٢٥هـ/١١٣١م، وفي سنة ٥٣٠هـ/١١٣٦م، يهبط الى بلاد الفلجا الأدنى، وفي خلال هذه المدة قام بثلاث رحلات الى خوارزم، ومن هناك يلتفت الى باشغرد في هنجاريا التي كان يمتلك فيها منزلاً، لأن ابنه الأكبر حامداً قد تزوج بسيدتين من أهل تلك البلاد، وأقام بها نهائياً. لكن الأب قد غادرها سنة ٥٥٣هـ/١١٥٩م[١]، عائدا الى سخسين، ومضى عنها سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩ عن طريق خوارزم قاصداً اداء فريضة الحج سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م، ومن ثم عاد الى بغداد لائذاً بابن هبيره[٢].

غير أن أبا حامد كان يود العودة الى باشغرد، حيث منزله وولده، فأحضر له ابن هبيرة كتابا من لدن الخليفة، وكتب الى صاحب قونية ليكون ابو حامد في حمايته وهاديه الى باشغرد، الا أن عودته الأخيرة لم تتحقق، لأننا نجده في سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م بالموصل، ومنها توجه الى حلب فدمشق، وكانت خاتمة المطاف، حيث توفي فيها سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م، وقد نيف على السبعين[٣].

ومن مصنفاته ذات الطابع المنسوبة إليه "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب"، ويتألف هذا الكتاب من مقدمة وأربعة أبواب؛ الأول في صفة الدنيا وسكانها من انسها وجنها، والثاني: في صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان، والثالث: في صفة البحار وعجائب حيواناتها، والرابع في صفة الحفائر والقبور وللغرناطي رسالة تبحث في جغرافية المعمور تسمى "تحفة الكبار في أسفار البحار"، وله "نخبة الألباب ونخبة الإعجاب" و "نخبة الأذهان في عجائب البلدان ، "عجائب المخلوقات".

وأبو حامد من الناقلين غير الناقدين، لسهولة تصديقه للأساطير، إذ يكثر في كلامه ذكر الخرافات والخوارق التي رآها، وسمع عنها في الأقطار التي تجول بها أثناء رحلاته، فقد كان مولعاً بهذا النوع من التصنيف، ولرؤيته أهمية لما عاينه بنفسه ورآه بعينيه، إذ رأى أعمدة هرقل عند مضيق جبل طارق سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م، قبل انهيارها، وهو ممن رأى أيضاً منار الإسكندرية في صورته التامة، ورأى المسلة بعين شمس التي سقطت سنة ٥٥٧هـ/١١٦٠م، ثم دخل إلى جوف هرم خوفو.

---

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٢) د. عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين العرب، ص: ٣٦٨.
(٣) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج١، ص: ٢٩٥.

وقد استفاد من أبي حامد العلماء الأوربيون كثيراً من المعلومات عن الألمان وهنجاريا، ووصفه لمدينة رومية العظمى (القسطنطينية)، وبعد أحد المؤلفين الذين كان لرواياته عن شعوب الاتحاد السوفيتي أهمية خاصة، لا يزال علماؤها يعكفون على دراستها وتحليلها[1].

*** الإدريسي:**

أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي بن عبد الله الشهير بالشريف الإدريسي- ولد عام ٤٩٣/١١٠٠- ٥٦٤/١١٦٩[2]. في مدينة سبتة، وانحدرت أسرته من الشرفاء الأدارسة العلويين. أما أجداده القريبون فقد كانوا أمراء مغمورين في مالقة، وهناك عجزوا عن الاحتفاظ بسلطانهم طويلا، فركبوا البحر عائدين إلى سبتة في القرن الحادي عشر الميلادي.

لكن صلتهم لم تنقطع بالأندلس، فارتحل أبو عبد الله، وهو ما يزال حدثا، إلى قرطبة التي اشتهرت بمركزها الثقافي المتميز، وفيها نشأ، وتلقى العلم في جامعتها، وتعلم العلوم والرياضيات، واهتم بدراسة التاريخ والجغرافية، وبخاصة جغرافية قرطبة، وافرد لها وصفا شاملا في كتابه الذي يحتوي على كل انطباعات المعرفة المباشرة بهذه المدينة، وبدأ أسفاره في سن مبكرة؛ أمّ كثيراً من جهات الأندلس والمغرب ومصر- وآسيا الصغرى ولشبونة، وفرنسا وبعض مدنها الهامة، واوغل حتى الجزر البريطانية، وهو لم يتجاوز السادسة عشر من عمره، وذلك سنة ٥١٠هـ/١١١٦م وفي عام ٥٣٣هـ / ١١٣٨م. عبر البحر بناء على دعوة من الملك النورماندي روجر الثاني، قاصداً صقلية، وقيل غير ذلك، مستقراً في عاصمتها بالرمو التي جعل منها الملك السابق مركز دراسات لا معاجدا، واعجب أمير صقلية بالادريس، وكان كلفا به؛ إذ طلب منه الإقامة لتلبية طموحاته الفلكية، والأخير خير معين على إشباع هذه الرغبة الملكية، فرغب إليه أن يصنف كتابا شاملا للقارات المعروفة آنذاك " في صفة الأرض" مبنياً على المشاهدة المباشرة، لا منقولا عن الكتب، على الرغم من وفرتها في ذلك الوقت، فاستجاب العالم العربي المغربي

---

(١) كراتسوفشكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج١، ص: ٢٩٦-٢٩٧؛ جنثالث: تاريخ الفكر الأندلسي- ص: ٣١٢-٣١٣؛ د. عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص: ٣٦٨-٣٧٧.

(٢) ابراهيم خورشيد ورفاقه: دائرة المعارف الاسلامية، ج١، ص: ٥٤٧، دار المعرفة، بيروت
جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسي، ص: ٣١٢-٣١٤، وهذا على اصح الاقوال في حين يذكر د. حميدة وفاته ٥٦٠/١١٦٦، ص: ٣٨٨، ويوافقه كراتشكوفسكي، ص: ٢٨٠.

للقيام بتلك المهمة الصعبة، وانتقى نفراً بمعرفة روجار، صاحبهم الرسامون، وانتشروا في أنحاء العالم وبخاصة إلى جهات أوروبا، يرسمون شكل العالم، ويقدرون المسافات وهو بدوره يتلقى تلك المعلومات، ويقوم بمعالجتها وتسجيلها أولا بأول حتى فرغ من كتابه:

"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" في سنة ٥٤٨هـ/١١٥٤م، ويعرف كذلك بالكتاب الرجاري، ولأبي عبد الله عدة مؤلفات أخرى منها: "كتاب المسالك والممالك"، وله كتاب في الأدوية "المفردة" و كتاب "روضة الأنس ونزهة المفس"، وهذا الأخير هو الاسم الثاني للكتاب الأول، ألفه في بلاط النورمانديين من أجل غليوم الأول الذي خلف أباه روجار عام ٥٤٢هـ/١١٥٤م، واستفاد من هذا الكتاب الأمير ابن البيطار، وأبو الفداء، وقد فقد هذا الكتاب[١]

اعتمد الإدريسي في تصانيفه على بعض المراجع منها: كتاب "المسالك والممالك" لابن الدلالي[٢]: احمد بن عمر بن أنس دلهات.

إن الإدريسي له أرجحية على سائر الجغرافيين العرب، بما تلقاه من الرواد الذين زاروا أطراف أوروبا لاستطلاع أوصافها وتحقيق مواضعها، ولما قيده الإدريسي من أحاديث الرحالة والتجار والحجاج؛ ركاب السفن التي كانت تحط بموانئ صقلية (الحجاج النصارى) وغيرهم، إلى جانب ما استطاع الحصول عليه من معلومات عن البلاد النصرانية، وما جمعه من معلومات عمن سبقه كبطليموس والمسعودي، ولذا يبدو أن كل من جاء بعده من الجغرافيين كان عالة على ما كتبه.

وقد وصف الإدريسي الأرض التي يتصورها على شكل كرة طول محيطها اثنان وعشرون ألفا وتسعمائة ميل معلقة في الفضاء "كالمح في البيضة"، وبعد وصف قصير للأقاليم والبحار والخلجان ينتقل إلى وصف سطح الأرض بالتفصيل، فجعل لكل إقليم من أقاليمها السبعة عشرة أقساماً متساوية من الغرب إلى الشرق، كما هي الحال في درجات الطول المعروفة في أيامنا هذه. ثم انه جعل لكل قسم من هذه الأقسام السبعين خارطة خاصة، وإذا ما ضمت هذه الخرائط الّفت خارطة عامة لكل العالم على شكل مستطيل[٣].

---

(١) كراتشوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي العربي، ج١، ص: ٢٨٠-٢٨٣.
(٢) والدلالي من دلالة قرية في مقاطعة المرية الذي حج الى مكة ١٠٠٢/٤٠٧ ومات سنة ١٠٨٥/٤٧٨؛ جنثالث: تاريخ الفكر الأندلسي، ص: ٣١٦.
(٣) كراتشوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي العربي، ج١، ص: ٢٨٥، خير الدين الزركلي: الاعلام، ص: ٢٥٠. دائرة المعارف الاسلامية، ج١، ص: ٥٤٧-٥٥١.

إن العمل في كتابه قد مر بثلاثة أطوار ليخلف وراءه ثلاثة معالم أحدها أنموذج فريد من نوعه للكرة الجوية، وهو قرص من الفضة، مرسوم عليه صورة العالم وثانيها خارطة مرسومة على الورق، وثالثها كتاب خاص مبينة فيه الأسماء الجغرافية ويقال أن الثوار حطموا "أنموذج الكرة الجوية"، ونهبوها عند استيلائهم على مقر حكم روجر في عهد خلفه عام ٥٥٦هـ/١١٦٠م، وبقي الكتاب والخارطة وقد حفظا في مخطوطات عديدة، ويلاحظ أنها غير معاصرة للمؤلف على حد قول كراتشوفسكي.(١)

إن تكليف روجر لعالم عربي مغربي مثل الإدريسي،، بوضع وصف للعالم المعروف آنذاك، لدليل قاطع على تفوق الحضارة العربية على كل الحضارات في ذلك الوقت، وبخاصة الغربية منها، وباعتراف الجميع بهذا التفوق(٢)

ولقد قام الإدريسي- بعمله الضخم الرائع المار الذكر خير قيام، إذ استفاد من ملاحظاته الشخصية، ومن معلومات معاصريه، ومن أبحاث الذين سبقوه، كمؤلفات اليعقوبي، وابن حوقل وصار من المؤكد أن أوصاف المناطق الغربية من العالم في عصره، تبدو أوضح من كل ما عداها، ومن أحسنها دراسة، فهي المناطق التي يعطينا عنها المؤلف أظهر معلومات وثائقية وأوضحها من الطراز الأول، ولهذا يخيل لي من العبث البحث عنها في كتب الجغرافيين الآخرين، باستثناء "أبو عبيد عبد الله البكري"، إذ هو أكبر جغرافي أخرجته الأندلس قاطبة، كما أورد كراتشوفسكي عن دوزي(٣)، لذلك لم يكن غريباً أن يطلق على الإدريسي "استرابون العرب" (٤)

---

(١) كراتشكوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي العربي، ج١، ص:٢٨٣.

(٢) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج١، ص: ٢٨٠-٢٩١.

(٣) Dozy: Recherches, 1, 1849, p, 282
نقلا عن كراتشوفسكي، ج١، ص: ٢٧٤؛
ابراهيم خورشيد: دائرة المعارف الاسلامية، ج٤، ص: ٤٨٠.

(٤) استرابون: جغرافي يوناني ولد في ماسيا، بآسيا الصغرى حوالي سنة ٥٨ ق.م وتوفي سنة ٢١ أو ٢٥م، وهو مؤلف كتاب ثمين اسمه (جغرافية) اذ يتخذ كتابه طابعاً تاريخياً واضحاً، ويهتم باظهار العلاقات بين الانسان والشعوب والامبراطوريات، وبين البيئة الطبيعية؛ كراتشوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي، ج١، ص: ٢٩٥ والادريسي، جغرافي مغربي تلقى علومه في مدينتي قرطبة ومراكش، في سن مبكرة، وزار عدة بلدان، ومن ثم توجه إلى صقلية وهو في سن الاربعين تقريباً، ولم يمكث بها أكثر من سنة عشر- عاماً، وغادرها بعد موت روجر بقليل إلى مسقط رأسه سبته حيث توفي فيها سنة ٥٦٠هـ/١١٦٠م، فلهذا يعتبر الادريسي عربي مغربي موحدي، في المولد والمنشأ والثقافة والممات؛ كراتشوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي، ج١، ص: ٢٨٠، ٢٨٦؛ د. عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين لعرب، ص: ٣٨٩.
وما دام الادريسي حينما هاجر الى صقلية، لم يكن في نيته الاقامة الدائمة، اذن فهو مغربي، لأن الرجل ينسب الى مكان هجرته التي استقر بها، ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكناها الى أن يموت؛ ابن حزم: رسالته في المقري: النفح ج٤، ص: ١٦١، ١٦٢.

وبالإضافة إلى كونه أشهر جغرافي العرب، فهو أستاذ في علم الجغرافية، تعلمت منه أوروبا في القرون الوسطى[١].

*** ابن جبير:**

ولد في١٠/٣/٥٤٠هـ /١١٤٥، وتوفي في عام ١٢١٧/٦١٤[٢]: هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الشاطبي البلنسي، غرناطي الاستئصال، ينحدر من أسرة عربية عريقة. سكنت الأندلس عام ١٢٣هـ/٧٤٠م، قادمة من الشرق مع القائد المشهور بلج بن بشر بن عياض القشيري. وكان اسم جبير من الأسماء المحببة إلى أسرته، فقد حمله الكثير من قبله، وأتم بن جبير دراسته في بلدته شاطبة حيث كان يعمل والده موظفا فيها. وقد أولع بعلوم الدين وبخاصة الفقه والحديث سمعها من أبيه وتفقه في علوم القرآن على أبي الحسن بن أبي العيش. لكن ميوله برزت في العلوم الدنيوية، وأخذ قسطا في الآداب، وله رسائل نثرية لها شهرتها في هذا المجال، إذ يسرت له مواهبه الشعرية نجاحاً في الأوساط الرسمية، مما جعله يحتل منصب كاتب لدى حاكم غرناطة أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن أحد ولاة الموحدين، ولم يلبث أن كسب الشهرة كاتبا وشاعرا له عدة قصائد متفرقة، بالإضافة إلى ديوان شعر.[٣]

وقد استدعاه الأمير أبو سعيد ليصوغ له ترجمة وهو في مجلس انسه وشرابه، وحدث في أثناء ذلك أن دفع إليه كأساً من خمرة، فأظهر ابن جبير الامتناع ابتداء، واعتذر قائلا أنه لم يشربها قط، غير أن الأمير غضب، وأقسم عليه ليشربن منها سبعاً، فلما رأى منه الإصرار لم يستطع إلا الإذعان فشربها كارها، وأحسن إليه الأمير، وأجزل له الصلة، فرد إلى ضيفه سبعة أقداح مملوءة بالدنانير الذهبية، وصبها في حجره مكافأة له على مجاملته، فحملها عالم الأندلس، واعتزم أن يكفر عن جريمته بأداء فريضة الحج، فباع بعض عقاراته، وأضاف ثمنه إلى هبة الأمير، وأستأذن الأخير لأداء فريضة الحج[٤]

بدأ رحلته إلى الأراضي الحجازية يوم الخميس في شوال سنة ١١٨٣/٥٧٨ برفقة صديقه الطبيب احمد بن حسان، وانحدر من جزيرة طريف إلى سبتة على متن سفينة

(١) كرا تشكرفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي لعربي، ج١، ص: ٢٩١.
(٢) ابن جبير: المقدمة الرحلة، ص: ٥.
(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها؛ المقّري: النفح، ج٣، ص:١٤١.
(٤) جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسي، ص:٣١٦؛ المقّري: النفح، ج٣، ص:١٤٢، ١٤٤؛ ابن جبير: الرحلة، ص:٥-٦.

جنوية، تريد الإقلاع قاصدة الإسكندرية، مارا برحلته بمحاذاة سواحل ميورقة وسردينيا، حيث علم بوجود عدد من أسرى المسلمين في الأخيرة من رجال ونساء يباعون في أسواق النخاسة، فأحس بالألم الشديد يعتصره. وأدرك أن ما أصاب البؤساء، إنما هو نتيجة موعودة لتفكك العالم العربي يومئذ.[١]

وساحل البحر قرب صقلية حتى دخل ميناء الإسكندرية المار الذكر، التي لفتت انتباهه منارتها الشاهقة الارتفاع، بعد أن أقام في البحر ثلاثين يوماً بين الخوف والأمل، وبعدها بأيام قلائل ركب النيل إلى القاهرة، التي غادرها إلى صعيد مصر، فوصل بلدة قوص التي قطع منها الصحراء الشرقية إلى البحر الأحمر، ليستقل من ميناء عيذاب، -وهو المرفأ المعروف للحجاج على البحر الأحمر- سفينة تحمله إلى جدة، ومنها رافق قافلة إلى مكة التي مكث بها حوالي نصف عام، ثم طوّف بالمدينة المنورة في طريقه إلى الكوفة، المدينة التي أمر ببنائها الخليفة عمر بن الخطاب، مارا بالقادسية والمدائن فالموصل متجولا بنصيبين وحران ومنبج، فحلب، ومنها انحدر إلى دمشق وأمضى بها مدة شهرين، وقبل أن يغادر الأراضي الإسلامية شاهد سواحل بلاد الشام في قبضة الصليبيين آنذاك، وعلى الرغم من ذلك فقد كان الشرق ينعم بالازدهار والأمن في ظل صلاح الدين، ثم ركب البحر من ميناء عكا إلى بلاده على متن سفينة أوروبية في رحلة اتسمت بالمشاق والكوارث، كما يصفها بنفسه، حتى نزل بساحل صقلية التي كانت تحت سيطرة غليوم الصالح النورماندي(كما كان يوسم)، حيث كان يحاط بحرس وشعب مسلم في أكثره، وفي ٢٥ نيسان عام ١١٨٥/٥٨١ وصل غرناطة بطريق قرطاجنة بعد غياب دام اكثر من عامين، وقيل أنه وصل إلى منزله ٢٢ محرم سنة ٥٨١هـ/٢٥ نيسان ١١٨٤م[٢].

وبعد وقت ليس بالطويل قام ابن جبير برحلة ثانية، حالما سمع الخبر المبهج استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس (١١٨٧/٥٨٣، إذ تعلقت به آنذاك أنظار المسلمين بطلا يعرف كيف يحقق الانتصارات. واستمرت هذه الرحلة سنتين، خرج عام

---

(١) المصادر نفسها؛ اذ يذكر المقّري ان صديق ابن جبير الطبيب الذي رافقه هو: ابو جعفر احمد بن الحسن بن احمد بن الحسن القضاعي من أنده في اقليم بلنسية، وأدّيا سوياً فريضة الحج وسمعا طرفا من العلوم في دمشق، ودخلا بغداد وتجولا فيه مدة، ثم قفلا كليهما إلى المغرب.

(٢) المقري: نفح الطيب، ج٣، ص: ٣٤٤، ١٤٢
ابن جبير: الرحلة، ص: ٥، ١٧
جنثالث: تاريخ الفكر الاندلسي، ص: ٣١٦-٣١٨.
كراتشوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي لعربي، ج١، ص: ٢٩٨-٣٠٠.

٥٨٥هـ/١١٨٩م، ولكننا لم نعثر على تفاصيل عنها، سوى انه قام بزيارة المساجد الثلاثة في عام واحد متوجهاً، وفي شهر واحد منصرفا إلى غرناطة يطالع الحديث في مالقة وفاس ثم سبتة[١].

وكانت رحلته الثالثة من سبتة إلى المشرق وهو شيخ كبير، بعد وفاة زوجه عاتكة (أم المجد) سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م، ولم يكن في نيته العودة مرة أخرى إلى الأندلس بل أمضى اكثر من اثني عشر عاماً متنقلا بين مكة وبيت المقدس والقاهرة، مشتغلا بالتدريس والأدب إلى أن وافته منيته بالإسكندرية سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م[٢].

ومن بين رحلاته الثلاث، قامت شهرته على كتابه الذي دون فيه أخبار الرحلة الأولى في شبه مذكرات يومية باسم "تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار" غير أن كتابه اشتهر فيما بعد تحت اسم "الرحلة"، ولو أن هذه الشهرة قد اقتصرت على المغرب وحده غير أنها أضحت أنموذجاً يحتذى بالنسبة للآخرين، اذ استفاد منها الجغرافيون والمؤرخون مشيرين الى اسمه تارة، ومضمنين قدرا كبيراً منه في مصنفاتهم[٣].

ويقص علينا المؤلف يوما فيوما، مختلف طوارىء جولته، والمصاعب التي عاناها، والمخاطر التي تعرض لها، ويصور لنا حياة ذلك العصر، اذ وصف وصفا حيا وبإسهاب المدن والاقطار التي عبرها مروراً بمصر والشام، عندما بدأت فيها حركة التحرير الاسلامية ضد الصليبيين بزعامة نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، وانتهاء بمكة والمدينة، وبغداد والموصل وحلب، وصقلية. كما يقدم ابن جبير عن حياة السكان الذين عايشهم معلومات قيمة تمتاز بالدقة، وبقوة الملاحظة، وبخاصة فيما يتعلق بحياة مسلمي صقلية، وببلاط النورمان فيها.[٤]

ويعتبر اسلوبه ذا قيمة ممتازة مملوءاً بالحيوية وسهولة التعبير، فهو يوجز عند وصف المدن والأوابد، ويسهب في وصف الجماهير المتحركة ومعاملة جمارك الاسكندرية للمغاربة ولكارثة السفينة على سواحل صقلية، أما عرضه في الكتابة فيستهدف التصنع

---

(١) عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ج٥، ص: ٦٠٦-٦٠٧.

(٢) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص: ؛٩٩ جنثالث: تاريخ الفكر الأندلسي، ص: ٣١٧.

(٣) الرحلة، ص: ٤١.

(٤) كراتشكوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي العربي، ص:٣٠٠-٣٠١؛ الرحلة، ص: ٦٠، ٦١، ١٠٨، ٢١٦-٢٢٤؛ المقري: النفح، ج٣، ص: ١٤٢-١٤٣، ١٤٦، ١٤٧.

والاناقة، ويضمن كتاباته السجع المملوح بمهارة دون أن يمله القارىء، أو يتكلف الجهد في فهمه، كما يشحن كتابته بالاقتباسات الأدبية الرفيعة مما يتطلب درجة معينة من الثقافة والاطلاع، وقد أثار اهتمام المستشرقين لما له من قيمة ثمينة، ربما تكون آخر حلقة من حلقات الجغرافيين الأندلسيين لهذا العصر[1].

٦- العلوم:

لقد حظيت العلوم في هذه الحقبة بنهضة زاهرة، انتشرت انتشاراً كبيرا لم تبلغه في أي عصر آخر من عصور المغرب، ولا نكون مغالين اذا قلنا أنها دخلت عصرها الذهبي من أوسع أبوابه، ولا يقل اهتمام الموحدين في تنشيط هذه العلوم والاهتمام بها عن نظرائهم العباسيين، اذ كان لابن تومرت كل التأثير في هذه العلوم العقلية، كالفلسفة وعلم المنطق والجدل والمناظرة، وبخاصة تلك التي تصلح مسائلها مقدمات لقضايا جدلية عقدية، وكان قد حصل على طرف منها أيام طلبه العلم بالمشرق على يد استاذه الغزالي الذي كان يقول (من لا يعرف المنطق لا يوثق بعلمه)، ومن غيره من أساتذة العلوم والرياضيات، كما ذكر سابقاً، ورأينا كيف تكونت لديه عقلية فلسفية ظهرت في النهج العام لتآليفه، وصبغت تفكيرة العام القائم على (الجدل والمناظرة).

وكان لهذه العقلية التي اتصف بها ابن تومرت، تأثير في الحياة الثقافية بالمغرب، حيث حرك فيهم العلوم العقلية، وهم أهل البادية الذين لم يسبق لهم أن زاولوا مثل هذه العلوم، ويمكن ان نبين نتاج المنهج العقلي (لابن تومرت) في هذا المجال (تولد الفلسفة وانتشار المنطق، وشيوع الجدل والمناظرة) والذي تبناه من بعده خلفاؤه، وجعلوه منهجاً لسياستهم الثقافية العامة، فأصبحت الأندلس في هذا العهد أكثر تقبلا للتيارات الفلسفية من السابق، بسبب المناخ الجدلي الذي فرضه الاحتكاك بين المذاهب والأديان المختلفة التي تعايشت هناك، اذ قامت بينها العراكات الجدلية، مما اضطر كل الاطراف أن تقوم جاهدة للاقتباس من الفلسفة، لتقوية حجتها والرد على خصومها، فلذلك تفتحت الذهنية المغربية، لتقبل مثل هذه العلوم، اذ أصبحت عنصرا من عناصر ثقافتها، وعرفنا كيف كان أبو يعقوب يوسف من أكثر الموحدين تعلقا بالفلسفة وتشجيعاً على تعلمها، وذكر المراكشي في ذلك، أنه بعد تعلم العلوم الشرعية والتبريز فيها "طمح به شرف نفسه وعلو همته الى تعلم الفلسفة، فجمع كثيراً من أجزائها، وبدأ من ذلك بعلم الطب،

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص: ٦٠، ٦١، ١٠٨، ٢١٦، ٢٢٤، ٢٤٠.

فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكي أكثره، مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل، ثم تخطى ذلك الى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة، وأمر بجمع كتبها، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الاموي"[١].

وإلى جانب اشتغاله بالفلسفة وجمعه لكتبها، من جميع أقطار المغرب والأندلس، اشتدت رغبته في جلب الفلاسفة الى مراكش من مختلف الأرجاء، وقد بالغ في اكرامهم وتشجيعهم، ورغبهم في التأليف في علم الفلسفة، وتبسيط غوامضها، وتذليل صعابها، فضم اليه عدداً من الشخصيات اللامعة[٢]، كان أبرزهم اثنان؛ أولهما الفيلسوف الشهير أبو بكر بن طفيل الأندلسي، أحد ألمع فلاسفة الاسلام، وكفاه مدحا، أن فضله علماء كثيرة على فيلسوف الأندلس أبي بكر بن باجة، وكان له حظ وافر، فضلا عن أنواع الفلسفة في الطبيعيات والطب، والهندسة، والالهيات، ورسالته "حي بن يقظان" فيها بيان مبدأ النوع الانساني[٣]. ثم له باع طويل بين الكتاب والشعراء والرماة والاجناد، كما لم ينسَ سوق الشعر المتأثر بفلسفته الزاهدة على طريقة ابن سيناء[٤]. وهو الحريص على الجمع بين الحكمة والشريعة، فضلا عن علم الموسيقى الذي يتقنه جيداً، فأخفاه الى فرص أكثر ملاءمة، وهو القائل "لو نفق علم الموسيقى لأنفقته عندهم"[٥].

أما تصنيفه كأحد أبرز أطباء الخليفة أبي يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن، وكان في رأس الافضلية، قد افتخر به قصر الأمير ذاتا وعملا، وانقطع اليه ليلا ونهارا، ولا يكاد يظهر في مكان آخر، غير أنه لما مات يوسف بن عبد المؤمن اتهم ابن طفيل أنه دبر له مقتلا، فدس له السم، فجرت عليه محن كثيرة من جراء ذلك، واعتزل الناس، منزويا في بيته مسجونا لم يخالطه أحد رغم ان التحقيقات لم تثبت هذه التهمة[٦].

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٣٤٧-٣٤٩.

(٢) منهم عبد الملك بن قاسم القرطبي، وأبو بكر بن زهر الاشبيلي الطبيب الذائع الصيت الخاص للمنصور، والعلامة جبر الاشبيلي الذي عاش في القرن الثاني عشر والفلكي البتراجي المراكشي؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٢٠٧.

(٣) وهي قصة صبي، ترك وحيدا في جزيرة نائية، واستطاع بواسطة التأمل الادراكي وحده ان يتوصل الى معرفة الخالق الأحد، ويتعرف على قوانين الطبيعة؛ خوان بيرنيت: الثقافة الأندلسية في الشرق وفي الغرب، ص: ٤١-٥٨، المراكشي: المعجب، ص: ٣٥٠؛ وقيل أن ابن طفيل قد وظف أفكار ابن باجة في قصته السابقة؛ خوان بيرنيت: الثقافة لاأندلسية في الشرق وفي الغرب، ص: ٤٣، هذا الكتاب ما زال باللغة الاسبانية.

(٤) ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، ج٢، ص: ٨٥-٨٦.

(٥) المراكشي: المعجب، ص: ٣٥٠.

(٦) ابن سعيد: المغرب ف حلي المغرب، ج٢، ص ٨٥.

وثانيهما أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الحفيد القرطبي، الذي نشأ كسابقه، وبالأخص بين الفلاسفة الأندلسيين الذين تمكنوا بتراجمهم وتحليلاتهم واضافاتهم، مع تقريب فهمها الى الناس، أن يسهموا برسم الطريق لدراسة الفلسفة العالمية، وعلى الخصوص فلسفة أرسطو بين المفكرين المسلمين الذين اقتحموا هذا الميدان رغم خضم الصراعات السياسية التي لم تعطل دور الابداع في هذا المجال الا حينا، والى جانب الفلسفة اختص ابن رشد علوما كثيرة ومتنوعة، اذ مضى شوطا يمارس مهنة الطب على الخصوص، أما الفقه فأصبح به قاضيا على قرطبة، وغيرها من المدن، الى جانب تفوقه في الرياضيات وعلم الموسيقى[١].

وقد أخبر بأول مقابلة له مع أبي يعقوب يوسف، حين قال كما ذكره الكراكشي:- "ولما دخلت على أمير المؤمنين يعقوب وجدته هو وأبو بكر، يثني علي ... بأشياء لا يبلغها قدري، فكان أول ما فاتحني به أمير المؤنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي، ونسبي أن قال: ما رأيهم في السماء؟- يعني الفلاسفة- أقديمة هي أم حادثة؟ فأدركني الحياء والخوف، فأخذت أتعلل، وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة... ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء ... ... وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها، ويذكر ما قاله أرسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له"[٢].

ومن أشهر مؤلفاته الكثيرة؛ كتاب الجوامع، "والسماء والعالم"، و"رسالة الكون والفساد"، و "الآثار العلوية"، ثم كتاب "تهافت التهافت" وهذا الاخير كان ردا على كتاب الغزالي، "تهافت الفلاسفة"[٣].

وقد كان ما كتبه ابن رشد من تلخيص لمؤلفات أرسطو وشرح لها، نتيجة لاهتمام الأمير يوسف بالفلسفة، جعلت الأخير يتشكى الى ابن طفيل من قلق عبارة أرسطو، أو عبارة المترجمين عنه، فطلب هذا الى ابن رشد ان يلخصها، ويقرب اغراضها من أفهام الناس، معتذراً في صرف الامر عنه لكبر سنه وانشغاله بخدمة الأمير. فكانت نتيجة ذلك،

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٤٣٧.

(٢) المراكشي: المعجب، ص: ٣٥٣.

(٣) المصدر نفسه، ص: ٣٥٤؛ وصنف نحو خمسين كتابا، منها: "فلسفة ابن رشد، و "الحيوان"؛ الغبريني: عنوان الدراية، هامش ٢، ص: ٢٠٩.

شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو، تلك التي كان لها بالغ الأثر في الفكر الفلسفي الاوروبي على الخصوص، وفي الفكر الفلسفي العالمي على العموم[١].

ولما جاء أبو يوسف يعقوب المنصور اقتفى في أول أمره نهج أبيه في انتحال الفلسفة وتشجيع علمائها، وإكرامهم، غير أنه جافي هذا الفكر بعد ذلك، وهجر علوم الفلسفة؛ وطلب الى الناس في مختلف الانحاء بترك هذه العلوم، وأمر باحراق كتبها، سوى ما كان في الطب والحساب والنجوم، وأبعد عنه ابن رشد، لوشايات بلغته عنه تظهر ابتعاده عن الشريعة في فصول من تآليفه الفلسفية، والتعريض بأمير المؤمنين[٢]، فأمر باخراجه على حال سيئة من المهانة واللعن وسوء المصير، ونفيه الى بادية قرطبة (بيَّانة قرية اليهود) فارضا عليه الاقامة الجبرية هناك[٣].

الا أن هذه الأزمة لم تطل بأبي يعقوب، فأعاد سالف عهده بالفلسفة وعلمائها، ورغب في تعلمها من جديد، وأبدى استعداده لاستدعاء ابن رشد من الأندلس الى مراكش للاحسان اليه والعفو عنه، يقيل عثرته، ويعيد له اعتباره، فحضر اليها، وتعلم الخليفة الفلسفة على يديه، وتولى منصب الطبيب الخاص له، وبقي في هذا المنصب، الى أن لبى نداء ربه سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م، بعد أن نيف على الثمانين[٤].

وقد تأثر ابن رشد تأثرا بالغا بمنهج ابن تومرت، وظهر ذلك واضحاً في التقريب بين العقل والشرع[٥]، وبين أن العهد الثقافي الذي أحدثه ابن تومرت، ودعمه خلفاؤه من

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٣٥٤.

(٢) وجد الوشاة بخط ابن رشد تلاخيص عن بعض قدماء الفلاسفة، تقول: "فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة ..." فأوقفوا أبا يوسف على هذه العبارة؛
المراكشي: المعجب، ص: ٤٣٦، ٤٣٧؛
وكذلك قرأ المنصور (عبارة ابن رشد عن الزرافة ويقول: "وقد رأيتها عند ملك البربر، فقرعه على ذلك، فاعتذر أنه ما قال الا ملك البرين"؛
ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، ج١، ص: ٥٠١.

(٣) بيانة: قرية قرب قرطبة؛ الحميري: الروض، ص: ١١٩؛ ابن سعيد: المغرب، ج١، ص: ٥٠١.

(٤) الغبريني: عنوان الدراية، ص: ٢١١؛
ابن سعيد: المغرب، ج١، ص: ١٠٤؛
المراكشي: المعجب، ص: ٤٣٧.
مات ابن رشد في مراكش، ونقل جثمانه الى بلدة اشبيلية، وحضر ابن العربي ودفنه في مقبرة ابن عباس؛
خوان بيرنيث: الثقافة الأندلسية في الشرق وفي المغرب، ص: ٤٣-٤٤.

(٥) يحيى هويدي: تاريخ فلسفة الاسلام في القارة الافريقية، ص: ٢٦٣.

بعده، عهد رفع الشرور والجهالات التي خنقت الفكر الجامع بين الحكمة والشريعة، وفسح المجال لهذا الفكر، ومهد له طرق النمو والازدهار، كما أكده في فصل المقال قائلا: "وقد رفع الله كثيرا من الشرور والجهالات والمسالك المضلات، بهذا الأمر الغالب وطرق به إلى كثير من الخيرات، وبخاصة على الصنف الذين سلكوا سبل النظر، ورغبوا في معرفة الحق، وذلك أنه دعا الجمهور الى معرفة الله عن طريق وسط ارتفع الى حضيض المقلدين، وانحط عن تشغيب المتكلمين)[١].

غير أن الفلسفة لم تتغلغل بعيدا في المجتمع المغربي الموحدي، بل بقي طلابها محدودي العدد، الا ما ظهر من أبي العباس أحمد بن خالد من ميل للطب، ومشاركة في الحكمة والطبيعيات والالهيات، وعلم الحركة، والمنطق، وشيء من علوم ابن سينا في التنبيهات[٢].

ثم أبو الحسن على بن أحمد الحرالي، الذي كان أعلم الناس بالمنطق، وله فيه تصنيف سماه (المقولات الاول)، وسبق أهل وقته بعلم الطبيعيات والالهيات[٣]، وله ملاحظات قيمة على فلسفة ابن سيناء كذلك، من شرح وتحليل ونقد[٤]. ومنهم أبو العباس محسن بن أبي بكر بن شعبان الذي شارك بمقالاته في العلوم[٥]. وكان أبو عبدالله محمد بن ابراهيم المشهور بالاصولي، من جلساء أمير المؤمنين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، وله معرفة خاصة بالحكمة والفلسفة، وقد جمعته مع ابن رشد مودة وإخاء وصفاء، وهو الذي أقنع أمير المؤمنين بالعفو عنه واستدعائه ثانية[٦]، بينما ظل المنهج العام المغربي يعارض هذا اللون من الفكر، ولم تذكر المصادر، أن احداً من امراء الموحدين بعد المنصور اهتموا بالفلسفة، وشجعوا عليها، ما عدا الذي كان من أمر الناصر، أن قرب اليه الفلاسفة، وأحسن اليهم وعطف عليهم[٧].

---

(١) ابن رشد: فصل المقال، ص: ٦٧.
(٢) الغبريني: عنوان الدراية، ص: ٧٣.
(٣) المقري: نفح الطيب، ج٢، ص: ٣٩١.
الغبريني: عنوان الدراية، ص: ١٤٣- ١٥٥.
(٤) هو الفيلسوف الرئيس أبو علي الحسين عبدالله، من كبار فلاسفة العرب، وأئمة المفكرين، صنف نحو مائة كتاب في الطب والمنطق والالهيات والطبيعيات ولد سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م ومات سنة ٢٤٨هـ/ ١٠٣٧م؛
الغبريني: عنوان الدراية، هامش٢، ص: ٣٥٩
(٥) المصدر نفسه، ص: ٢١٢.
(٦) المصدر نفسه، ص: ٢٠٨، ٢٠٩.
(٧) المصدر نفسه، ص: ٢١١.

بل ظهر تيار مناوىء للفلسفة، فحذر من علمائها، في ما تـؤدي اليـه مـن الفسـاد والبعد عن الشريعة. لذلك لم يكن المناخ العام بـالمغرب يشـجع عليهـا، فأصـابها الـذبول والضمور، فلم يبرز من يستحق الذكر، كما رأينا بعـد ابـن رشـد سـوى اعـداد لا تتجـاوز أصابع اليد، الا ما كان من محي الدين بن العربي الذي كان أميل الى التصـوف الاغراقـي منها الى الفلسفة العقلية[1]. وبقيت آثار المعارضة لعلم المنطـق والفلسـفة، والتنكـر لهـا الى القرن السابع الهجري، وهو ما نفهمه من قول الرحالة العبدري في ازرائـه عـلى أهـل مصر لتعاطيهم لعلـم المنطـق: "... ومـن الأمـر المنكـر علـيهم، والمنكـر المـألوف لـديهم تدارسهم لعلم الفضول وتشاغلهم بالمعقول عن المنقـول في اكبـابهم عـلى علـم المنطـق، واعتقادهم أن من لا يحسـنه لا يحسـن أن ينطـق فليـت شـعري، هـل قـرأه الشـافعي ومالك، أو هو أَضاء لأبي حنيفة الحوالك... والذي دعـا بعـض الفضـلاء الى مطالعتـه هـو اتقاء شره، والحذار من غوائله ومكره"[2].

ولكن رغم الحذر الشديد من علم المنطق الباقيـة الى القـرن السـابع، فقـد عـرف هذ العلم انتشارا متزايـدا بـين العلـماء، ونبـغ فيـه كثـير مـنهم، وحـبّروا فيـه المؤلفـات، وأدخلوه في العلوم منهجا للفهم، والتقرير والبرهان، ومن أشهر من برز فيـه مـن رجـال القرن السابع، محمد بن عبد الوهاب بن يوسف بن عبـد القـادر (ت ٦٨٠هــ/١٢٨١م)، الذي قال فيه الغبريني: "له علم باصول الدين واصول الفقه، ومعرفـة الحكمـة، وبراعـة في علم المنطق، وخصوصا على طريقة المتأخرين (طريقة فخر الدين الرازي) ولم يكـن في وقته أعلم منه بكشـف الأسرار الـذي وضـعه الخـونجي (ت ٦٤٦هــ/١٢٤٨م كـان عالمـا بالحكمة والمنطق) في علم المنطق، "وهو أعلم به من واضعه"[3]، ومنهم أبو علي منصور منصور بن أحمد بن عبـد الحـق المشـدالي[4] (ت ٧٣١هــ/١٣٣٠م)، وكـذلك أبـو محمـد عبدالله بن محمد بن يحيى الاغماتي الذي نبغ في العربية وعلم المنطق[5]. ثم أبو الحسن الحسن علي بن عصفور (ت ٦٥٧هــ/١٢٧٦)، وقـد اسـتخدم المنطـق في توضـيح مسـائل النحو وتبويبها[6].

---

(١) جنثالث: تاريخ الفكر الاندلسي، ص: ٣٨٦؛ الغبريني: عنوان الدراية، ص: ١٥٦.
(٢) العبدري: الرحلة، ص: ١٣٠.
(٣) الغبريني: عنوان الدراية، ص: ٢٣٣.
(٤) المصدر نفسه، ص: ٢٢٩.
(٥) المصدر نفسه، ص: ٢٢٣.
(٦) المصدر نفسه، صك ٣١٧.

أما مهنة الطب فقد زخرت مجالس الخلفاء الموحدين بعلماء الطب، وتعد أحفل سجل عرفته هذه الحقبة الذهبية من المدنية الاسلامية العربية، وبخاصة المغربية منها، وهي اصدق واشمل سجل عن الحياة العقلية في المائة السادسة والسابعة للهجرة.

ومن أشهر هؤلاء فضلا عما سبق، أبو محمد بن رشد ابن أبي الوليد الطبيب الخاص للخليفة المنصور، الذي كان يعتمد عليه اذا نزلت به علة، وله معرفة تامة بالطب التجريبي، وابو الحجاج يوسف بن موراطير من شرق الاندلس، من جهات بلنسية، برع في تشخيص الامراض ووصف العلاج، والتزم القواعد الشرعية، ونبغ بالادب والشعر، مليح النادرة، رافق الخليفة الناصر في حروية الافريقية، على الرغم من مجونه الذي اشتهر عنه.

وأبو مروان عبد الملك بن قبلان، الذي اشتغل بصناعة الطب في مدة المنصور، وتفوق في هذا الباب، ومهر في حسن العلاج، وأبو اسحق ابراهيم الداني، فله عناية بالغة في مهنة الطب، والتحق بالعاصمة من بجاية، بناء على رغبة الخليفة الناصر، الذي ولاه مدير مستشفى مراكش وطبيب العائلة المالكة. أما أبو يحيى بن قاسم الاشبيلي، كبير الصيادلة، فهو الذي زود القصر الاميري بالادوية أيام المنصور وولده الناصر وحفيده المستنصر.

والطبيب أبو الحكم بن غلندو الاشبيلي، اذا اتصف بالادب والشعر علاوة على تميزه في صناعة الطب، أن كان مقربا من الخليفة المنصور متمكناً في دولته وجيهاً بين معارفه، شغوفاً بجمع الكتب النادرة، وضم بلاط المنصور الطبيب الحاج أبا جعفر احمد بن حسان الغرناطي، له تأليف في الطب، ورفيق الرحالة ابن جبير الغرناطي صاحب كتاب الرحلة.

واحتوى بلاط المستنصر، الطبيب والكاتب أبا العلاء بن أبي جعفر احمد بن حسان، ويعد من أشهر أطباء اشبيلية. وكذلك أبو محمد الشذوني الاشبيلي الذي اختص بعلم الفلسفة والحكمة فضلا عن الطب الذي تعلمه على يد الطبيب ابي مروان عبدالملك بن زهر، وكان للأمير تلميذ آخر نبغ في الطب واشتهر بالادب والشعر، هو أبو الحسن بن اسدون المشهور بالمصدوم الاشبيلي، الذي لازم المنصور، وأحد جلسائه المقيمين. وعبد العزيز بن مسلمة الباجي الاندلسي، وكان تلميذاً للطبيب السابق، ومن حاشية الخليفة المستنصر وأبو جعفر بن الغزال، طبيب الخليفة الناصر، الذي اشتهر بصناعة الادوية، وتركيبها، في مدة المنصور والد الخليفة السابق[1].

---

(١) ابن ابي اصيبعة: عيون الانباء، ص: ٥٣٠-٥٣٦.

وأبو بكر بن القاضي ابي الحسن الزهري الذي خدم دولة الموحدين، ونذر نفسه لعلاج المرضى ووصف العلاج للناس دون أجر. والطبيب المتميز في علم الادب والعربية فضلا عن الطب، أبو جعفر أحمد بن سابق الذي خدم الناصر وصدرا من خلافة المستنصر. وأبو الحلاء المرسى أحد أطباء المنصور الخليفة الموحدي. وأبو اسحاق بن طملوس البلنسي الذي كان له ولع خاص بمهنة الطب. وابو جعفر الذهبي لذي ضمه مجلس المنصور العلمي، وكان بارعاً في المناظرة الادبية، وتوفي في مدينة تلمسان برفقة الناصر في غزوته الافريقية سنة ستمائة للهجرة. وأبو العباس بن الرومية الذي تميز في علم النبات، ومهر بالادوية، وعني بالحديث الشريف. أما الطبيب الذي فاق اقرانه وتوج هذا المحفل العلمي هو الحفيد الوزير أبو بكر محمد بن أبي مروان بن أبي العلاء بن زهر، أحد من نبغ بالطب مبكرا، أخذ عن أبيه، واشتهر اسمه في جميع انحاء العالم الاسلامي، علاوة على العالم الاوروبي، وتقدم أهل زمانه عاصر أواخر دولة الملثمين، وأوائل دولة الموحدين، انقطع الى خدمة عبد المؤمن، وخليفته من بعده يوسف، وحفيده المنصور، ومن بعدهما الناصر، وكانت وفاته عام ستة وتسعين وخمسائة مسموما بمراكش على يد أبي زيد عبد الرحمن بن يوجان وزير المنصور الذي كثيراً ما كان يتآمر عليه، ويكيد له عند الخليفة، ولما عجز عن ذلك دس له السم خفية في الاكل، وإلى جانب الطب، نبغ في حفظ القرآن، وتلاوة الحديث، وبرع في علمي الادب والعربية، وتميز في مختلف فنون الشعر، وأجاد فيه. وكان معلما من معالم لعبة الشطرنج حديث فراغ اهل ذلك الزمان[١].

واشتهر من نساء الاندلس بالطب أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي، وكانت امرأة واسعة الاطلاع كثيرة المعارف، أجادت علوماً عديدة، ولكنها في الطب كانت أبرز وأشهر[٢]، واشتهرت كذلك بهذه المهنة اخت الحفيد المار ذكره وابنتها فكانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة، ولهما خبرة جيدة في ما يتعلق بالطب النسائي والتوليد، وكانتا تدخلان الى نساء المنصور ولا يقبل[٣] لمداواة أهل الخليفة المنصور سواهما[٤].

(١) ابن أبي أصيبعة:عيون الانباء، ص: ٥٢١-٥٢٤، ٥٣٧-٥٣٨.
(٢) ابن الخطيب: الاحاطة، ج١، ص: ٢٦٥-٢٦٦.
(٣) تتولى قبالة نساء أهله أي توليدهن.
(٤) ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء، ص: ٥٢٤؛ وقيل ان الطبيبة بنت اخت ابن زهر ماتت مع خالها اثر تناولها البيض المسموم معه.

وما دمنا في مجال المفكرين، فلن ننسى "أمير مفكري الأندلس" اليهودي موسى بن ميمون (٥٢٩-٦٠٠/١١٣٥-١٢٠٤)، الذي تلقى علومه في المدارس العربية واليهودية في قرطبة، وأخذ معارفه عن أحد تلامذة ابن باجة الشهير "مدين"، واتصف ابن ميمون بذهنية نيرة، وعقل راجح، قادر على تصنيف الموضوعات بترتيب وعرضها بوضوح، وتعد ميزة انفرد بها بين اللامعين من العلماء، له كتب بالعربية، "رسالة في الردة" وهي من وحي المحنة التي قاساها بنو جلدته اليهود المغاربة على أيدي الموحدين الذين أصدروا قانوناً يقضي باجبارهم على اعتناق الاسلام[١].

وله كتاب "السراج" الذي يشرح بطريقة منهجية كتاب "المشنا" و "رسالة العزاء"، موجهة الى يهود مصر واليمن الذين اعتنقوا الاسلام قسرا على يد العبيديين[٢].

وكتاب "الفرائض" الذي ألفه دفاعا عن كتابه "تثنية التوراة" وكتاب "دلائل الحائر" الذي كتب اولا بالعربية، وترجمم الى العبرية واللاتينية، ولغات اوروبية أخرى، وهذا كتاب اليهود اللاهوتي، والفلسفي، حاول فيه صاحبه أن يوفق بين العقل والدين، تقليدا لطريقة ابن رشد والفارابي وغيرهم من فلاسفة المسلمين، والذي نحا على طريقته توما الاكويني في ما بعد وسارت هذه النظرية في الغرب حتى تدارسها الفيلسوف كانت. ويعتبر هذا الحبر أبرز مفكري اليهود، إن لم يكن آخرهم، ولم يظهر أحد بعده الا مقلدا، يتوكأ على ما أنتجته قريحته الفذة[٣].

إذن فالموحدون كانوا حسنات دهرهم في التقدم العلمي والابدع الحضاري، وبالاضافة الى ما سبق شجع ملوك الموحدين علم الفلك الذي حظي بتقدير جم بين معظم الاسر المغربية. وقد ابتنى عاهل المغرب يعقوب المنصور سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م برجا عاليا ليكون مرصدا في مسجد اشبيلية، وكان في ما يبدو أول مرصد بني في الجانب الأوروبي، وسمي في ما بعد "اللاخيرالدة"[٤].

وأود أن أختم كلامي عن العلوم بخبر جليل القدر له دلالته في التأثير الفعلي للذهنية العربية على مسيرة اوروبا الحضارية. هو أن التركيبة العضوية بين العقلية العربية، وبين التطور الحضاري تتجسد في واحد من مفكري القرن السابع الهجري، رغم تعرض

---

(١) المراكشي: المعجب، ص: ٤٣٥.
(٢) جنثالث: تاريخ مفكري الأندلس، ص: ٥٠٢-٥٠٣.
(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٤) المقّري: نفح الطيب، ج٥، ص: ٢٦٦.

البلاد آنذاك لأشد أزماتها في مطلع هذا القرن، ويعد أكثر العلماء بريقا وتأثيراً، هو محمد بن أحمد القرموطي المرسي، من أعرف الناس بالعلوم القديمة، والمنطق والهندسة والرياضيات والموسيقى، وفيلسوفا طبيبا، وكان متقنا للغات عديدة غائصا في دقائقها، عرف له فضله الأعداء قبل الأقرباء، فهذا ملك قشتالة حينما دخل مرسية في العاشر من شوال سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م[١]، عرف له قدره، فعرض عليه التنصر (لو تنصرت وحصلت الكمال كان لك عندي كذا، وكنت كذا" ولكنه رفض، وأجابه بما أفحمه، ومنح هذا الباحث ما يحتاجه من دعم مادي ومعنوي، وإن كانت على ما يبدو مناورة منه في الأصل لكسب الوقت ولإلتقاط الأنفاس، وبني له مدرسة تدرس فيها عدة لغات، عربية ونصرانية ويهودية، كان هو على رأسها[٢].

٧- المراكز الثقافية:

تمهيد:

رأينا أن الحضارة الفكرية قد شملت الوان التفوق الفكري التي انتعشت زمن الموحدين، وازدهرت في المغرب والأندلس، فاهتم أمراء الموحدين وولاتهم كذلك بالعلوم الشرعية اهتماماً كبيراً لتنظيم امورهم الدينية، وحياتهم الاجتماعية، من زواج وطلاق ووصية، وميراث، وبيع، وشراء، ومن هنا كان لزاما عليهم الاهتمام بالفقه لدراسة هذه الاتجاهات، ومن علماء هذا الاتجاه الفقيه الزاهد محمد بن حسن بن زيادة الله نزيل فاس وغيره[٣]، وإلى جانب ذلك كانت تسير الفلسفة قدما أحيانا، فيحقق الفلاسفة الوانا من الفكر الراقي، وكان أتباع الفكر الأول يثورون ضدها، فتصاب الفلسفة بنكسة خاسرة، فتحرق كتبها، ويؤذى علماؤها، ونهضت بلاد الموحدين نهضة كبرى في رعايتها للعلوم العقلية، من موسيقى ورياضة وفلك وكيميا وطب وهندسة وغيرها.[٤]

---

(١) المصدر نفسه، ص: ٢٦٦-٢٦٧، ج٦، ص: ٢٦٣؛ في حين يذكر ابن خلدون: العبر، ج٦، ص: ٣٩٤، أن مرسية سقطت بيد القشتاليين سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨، غير أن ابن خلدون كثيرا ما يخطىء في تثبيت الزمن.

(٢) المقّري: نفح الطيب، ج٥، ص: ٢٦٧.

(٣) ابن أبي زرع:" الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٦٤.

(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب، صك ٤٠١، ٤١٧، ٤١٨، ٤٣٦-٤٣٧.

واشتهرت مدن المغرب في هذا الوقت بالتقدم العلمي وبخاصة مدينة فاس، حيث اجتمع فيها علم القيروان، حاضرة افريقية، عندما عاثت فيها غزوات الاعراب، - فهرب علماؤها الى المدينة الاولى، وعلم قرطبة عاصمة الأندلس، حينما اضطرب الأمر بعد بني أمية، رحل من كان فيها من العلماء والفضلاء فرارا من الفتنة إلى فاس. ومن الفقهاء الذين استوطنوها مدة الموحدين، الفقيه أبو الحسن بن عطية خطيب المسجد فيها سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م، إلى أن توفي سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م، وأتى بعده أحد أشياخ المغرب المعروفين ورعا وفضلا وجهادا وايثارا؛ يشكر بن موسى الجوراني وأبو الحسن على المراكشي وغيرهم[١].

وتطور الفكر المغربي على يد مرشد ثورة الموحدين، وأصبح فكرا مستقلا ينزع الى التجديد ونبذ التقليد، وهكذا نرى لأول مرة في التاريخ خروج هذا الفكر من التبعية المذهبية، كما المحنا سابقاً، وهذا وحده يعد أعظم حدث فكري وقع في عهد هذه الدولة؛ إذ اجتمع إلى بني عبد المؤمن نفر من العلماء والكتاب والشعراء ما لم يجتمع لأي من ملوك المغرب قبلهم، كالقاضي عياض اليحصبي السبتي مثلا[٢]، وعبد الرحمن بن أحمد بن آصبغ الخثعمي السهيلي من علماء العربية واللغات والسير والقراءات، وهو من أهل مالقة، ومات في مراكش سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م[٣].

- **قرطبة:**

من المدن القلائل التي وصلت الى مصاف الحواضر العظمى في العالم في العصر الوسيط، وهي من المدن الاسلامية الكبرى، اذ كان لها تأثير ايجابي في التاريخ السياسي والحضاري الاسلامي والغربي، سواء في شرق البلاد أم في غربها. إليها يفد الطلاب الاوروبيون من الجنسين كليهما، ينهلون من معاهدها العلمية، ومنها تخرج رسل الثقافة إلى العالم.[٤]

بقيت حاضرة الأندلس أزيد من ثلاثة قرون، تمسك بتلابيب السياسة في اسبانية الاسلامية والنصرانية على السواء.[٥] تماماً كما تحكمت فيما يبدو بمصائر السياسة والعلم

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٧٢-٧٣.
(٢) الضبي: بغية الملتمس، ص: ٤٣٧.
(٣) ابن قنفذ: الوفيات، ص: ٢٨٠-٢٨١.
(٤) المقري: نفح الطيب، ج١، ص:٣٦٨-٣٧٨.
(٥) ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص:٣٢٤-٣٢٥؛
المراكشي: المعجب، ص:٥١٤، ٥٢٠.

للدول والامارات التي استحدثت بالمغرب، وتحديدا الدولة الفاطمية وإمارة الأدارسة[١].

وكانت مهجعاً للحياة الرفيعة؛ اذ أمها الشعراء والفلاسفة، وهي موطن للادباء، ومنار للعلماء، ومركز للفنون، أما تألقها فقد غاب بزوال بني مروان عن مسرح الأحداث، فتحولت في عصر الفتنة الاولى (الطوائف) إلى مدينة تاريخية يقصدها السواح والمتنزهون، يستقرؤون آثارها الأموية، ويجوسون بين اطلالها، يبكون رسومها الدارسة.[٢]

ومما أصابها من النكبات، منذ أن طحنتها الفتنة، أن فقدت القيادة السياسية والإدارية، وتخلت عنها مكرهة وإن ظلت تحتفظ بنفوذها الأدبي والروحي، منها تنطلق احيانا الجيوش المغربية إلى الجهاد، باعتبارها الحاضرة الاولى لدولة الاسلام، وتزدان باحتوائها على أعظم المساجد الجامعة في بلاد الغرب الاسلامي- إلى اشبيلية بني عباد التي قطعت شوطا في الحياة الارستقراطية اللاهية، كما أصبحت قاعدة الأندلس المفضلة لديهم. ورغم ذلك ظلت قرطبة تفتخر بعلمائها رمز تقدمها، ورقي حضارتها.[٣]

ولو شئنا ان نفيها حقها في هذا المجال لما تمكنا في هذه الدراسة أن نأتي الاعلى نزر يسير من ملامح عظمتها وشموخها، وتستدعي منا أن نفرد لها بحثا كاملا، لا يتسع له مثل هذا المقام.

نشأ بها وأمها العلماء من كل فن؛ من الشعراء: أبو جعفر أحمد بن قادم القرطبي، وأبو جعفر أحمد بن رفاعي القرطبي، وهو من شعراء المائة السابعة، ومحمد بن عيسى بن قزمان، امام الزجالين، وقد سبقت الاشارة اليه في بحث الشعراء بما لا مجال لاعادته هنا. وأبو الحسين الوقشي، ابن الوزير ابي جعفر الوقشي، وصهر ابن جبير الرحّالة المشهور، وعبد الغافر بن رجلون المرواني من نسل سليمان ابن عبدالملك، كان حاضرا مع الخليفة يعقوب المنصور في غزوة الأرك سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م، وهو من الشعراء.[٤]

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:١٨، ٩٢، ٩٣ وما بعدها.

(٢) المقري: نفح الطيب، ج٢، ص:٤١٠-٤٢٣.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٤، ص:١١٩؛
ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:١٨٩، ٢٠٨، ٢١١، ٢٢٩؛ راشيل أري: تاريخ اسبانيا الاسلامية، ص:٣٣.

(٤) ابن سعيد: المغرب، ج١، ص:١٤١-١٤٢.

ومن العلماء: أبو الوليد اسماعيل بن محمد الشقندي، برع في العلوم القديمة والحديثة في زمانه، ثم أخذ يتدرج في المراتب حتى أصبح من جلساء الأمير يعقوب المنصور بن يوسف بن عبدالمؤمن، حيث توفي باشبيلية سنة ٦٢٧هـ/١٢٣٠م، وله قصيدة في مدح الخليفة الأخير، اثر توجهه لحرب النصارى في وقيعة الأرك استهلها بقوله:[١]

انك نهضت فان السعد منتهضُ ترمي السعودُ سهاما والعدا غرض

لك البسيطة تطويها وتنشرها فليس في كل ما قد رمت معترض

كما انشد الوزير بن جامع قصيدة منها:

استوقف الركب قد لاحت لك الدار واسأل بربع تناءت عنه أقمار

لا خفف الله عني بُعد بينِهمُ فاني سرت والأحباب ما ساروا

ألا رعى الله ظبيا في قبابِهمُ منه لهم في ظلام الليل أنوار

غدا انيسابهم لا شيء يذعَرُه لكنه عن جنابي الدهر نفّارُ

فأجابه الوزير:يا أبا الوليد: هذا الظبي نفارك فمن توّاقُك، فخجل.

ومن القضاة: أبوجعفر أحمد بن مضا من سكان قرطبة، اشتغل لعهد الخليفة ابي يعقوب وصدرا من خلافة ابي يوسف المنصور.[٢]

أما خطيب الأندلسي وعالمها، خطيب جامع قرطبة، الذي انتهى اليه علم الآداب بها، هو أبو جعفر احمد بن يحيى الحميري الوزغي، استاذ عبدالواحد المراكشي صاحب كتاب المعجب، تتلمذ على يديه بقرطبة، واشتهر بعلم الحديث والقرآن والشعر، ولم يبقَ في تلك البلاد قبله او بعده من هو اعلى رواية منه في كل ما يروي، مع تفقهه بسائر العلوم، ومما ساعده على ذلك طول عمره، مع قوة الملكة لديه، توفي في سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م، عن عمر يقارب ستة وتسعين عاما.[٣]

---

(١) المصدر نفسه، ص:٢١٨-٢١٩.
(٢) المراكشي: المعجب، ص:٣٦٠.
(٣) المراكشي: المعجب، ص:٤٣٠-٤٣١؛
ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١ ص:٢٢٠.

♦ **اشــبيلية:**

مدينة واقعة إلى الغرب من قرطبة، على نهر الوادي الكبير، الصالح للملاحه حتـى المدينة الأخيرة مرورا باشبيلية[1]، إذ ذاع صيتها وتأثـل مجـدها حـاضرة لبنـي عبـاد أولاً، وأضحت مركز الفن والأدب على عهد المعتمد، الملك الأديـب الـذي مـلأ بشـعره الآفـاق، فاشتهرت به اشبيلية، وازدان به الأدب والشعر على الأخص في مدة، ذلك الأمير الجمـوح الذي دوخ الممالك بسيفه، وعبقها بشعره، حتى عدّ مـن أطـول الملـوك نفسـا في الشـعر مدى التاريخ العربي كله.[2]

فقـدت تلـك الحـاضرة بريقهـا المركـزي بقيـام الدولـة المرابطيـة، وزوال ملـوك الطوائف، وفي الوقت نفسه شهدت قرطبة عاصمة الاسلام الاولى صـعودا ملحوظـا، حـين اتخذها اللمتونيون عاصمة لدولتهم بالأندلس، وتمحورت بلد ابن عباد على نفسها تغرق في اللهو وفي الغناء فترة من الزمن عاشتها بين الناي والعـود مـدة ملـوك المـرابطين، كـما خطط لها أن تكون، وقد حاكت اختها المدينة الحجازيـة مـدة بنـي مـروان، وهـي التـي تصدت بعنف للجيوش المغربية التي وحدت الأندلس، وضمتها للمغرب.[3]

ثم عاودها النشاط مرة أخرى، أيام بني عبدالمؤمن بعـد دخـولهم الأنـدلس سـنة ٥٤١هــ/١١٤٧، اذ اتخـذوها عاصـمة للقطـر، يقـيم فيهـا ولي العهـد، ومنهـا تنطلـق الجيوش.[4] وكان وفدها مـن أبـرز وفـود شـبه الجزيـرة لمبايعـة عبـدالمؤمن في مـراكش بزعامة القـاضي بـن العـربي عـالم اشـبيلية آنـذاك، ومـن ابنائهـا الـذين ولـدوا بهـا سـنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م؛ وقد سبقت الاشارة اليه في بحث الفقهاء بما لا مجال لاعادته ثانية.

وكان مرافقوه في الوفد المذكور من الرؤساء اللامعين، لابـل قـادة الفكـر الأندلسي-قاطبه. وهو من أول الوفود التي وصلت حاضرة المغرب سنة ٥٤٢هـ/١١٤٨م.[5]

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص:٥٩١؛ المراكشي:المعجب، ص:٥٢٢.
(٢) المراكشي: المعجب، ص:١٨٢، ٢٤٠.
(٣) المصدر نفسه، ص:٢٥٧ وما بعدها.
(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:٢١١، ٢٢٩.
(٥) منهم: ابن صاحب الصلاة المؤرخ، والباجي، وأبو الحسن الزهري الطبيب، وابن القـاضي شريـح، وابـن الجـد، وأبو الحسن ابن صاحب الصلاة، وأبو بكر بن السجرة، والهـوزني، وعبـدالعزيز الصـدفي، وابـن السـيد، وابـن الزاهر، وغيرهم من اقطاب العلم والادب والزعامة؛
مجهول الحلل الموشية، ص: ١٤٧؛
ابن الأبار: الحلة السيراء، ص:٢٠٤؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب، ص:١٩٠.

ومن هذه المدينة يصدر الأمر إلى باقي المقاطعات، وفيها استقر حكمهم، فزينوها بالمنشآت الخالدة الباقية إلى يومنا هذا؛ من قصور، وحمامات وصوامع، وقنوات، وبساتين، وأبراج، ومتنزهات الى غير ذلك من المآثر المؤمنية.(١)

اشتهرت بالعلماء والكتاب والادباء والشعراء، منهم: أبو العباس، احمد بن حنون الاشبيلي الذي اتهم بالثورة على الدولة، زمن المنصور بن يوسف بن عبدالمؤمن، وهو من فحول الشعراء والموشحات والكاتب، أبو محمد عبدالله بن عمر الاشبيلي، الملقب بالمهيرس الذي كان مدير دولة يحيى بن الناصر(رئيس ديوان)، ومستشاره الخاص، ولقي حتفه معه في الصدام مع المأمون بن المنصور، في احدى معارك مراكش التي دارت بين العم وابن اخيه للاستيلاء على الحكم، والأديب البليغ، أبو بكر محمد بن احمد بن البناء الاشبيلي، له قصائد في رثاء ابي عبدالله بن ابي حفص ابن عبد المؤمن والي اشبيلية، والنحوي اللغوي، أبو بكر محمد بن الحسين الزبيدي الاشبيلي، امام في النحو واللغة، سكن مراكش مستشارا للخليفة المستنصر، عاوده الحنين إلى بلده، استأذن الخليفة فلم يأذن له(٢)، والأديب الشاعر: الهيثم بن أحمد بن ابي غالب بن الهيثم، اشهر حفاظ اشبيلية واقدرهم على قول الشعر في مختلف اوجهه في آن احد، مرتجلاً ودون تلعثم، او انتظار؛ فهو تارة يملي على شخص شعرا، وعلى ثان موشحة، وعلى ثالث زجلا في جلسة واحدة ومن الذاكرة، وهو من كتاب الخليفة المأمون بن عبدالمؤمن.(٣)

ومن الاطباء، الطبيب الوشاح، أبو الحجاج يوسف بن عتبة، كان طبيبا، اديبا مطبوعا، مات في مستشفى القاهرة سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م(٤)، وأبو بكر محمد بن احمد بن الصابوني الاشبيلي، وهو يعد شاعر اشبيلية الذي يشار إليه بالبنان، ظهر أمره زمن الخليفة المأمون بن المنصور، لكنه رحل قاصدا سلطان افريقية، ابا زكريا بن ابي حفص، مؤسس الدولة الحفصية في تونس، لعله يرى فيه تجدد قوة الموحدين الذاهبة، فالتقاه في مدينة مليانه؛ مدينة في آخر افريقية، قائمة على بقايا آثار رومانية دارسة، ومدحه بقصيدة استهلها:

الله جارك في حِلّ ومرتَحَلِ   يا معليا ملّة الاسلام في المِلَلِ

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:٥٢٣.
(٢) ابن سعيد: المغرب، ج١، ص:٢٤٠، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٦٣.
(٣) المصدر نفسه، ص:٢٦٣؛ المقري: نفح الطيب، ج٤. ص:٣٥٢.
(٤) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٢٦٣.

ثم رحل الى مصر، فم يجد بها التقدير والاحترام، وازمع الرحيل عنها، لكـن المنيـة عاجلته، ومات بالاسكندرية، ودفن فيها سـنة ٦٣٨هــ/١٢٤٠م، ومـن شـعره قولـه، وقـد بعث إلى محبوب بمرآة:

بعثـــــت بمــــــرآة اليــــــك بديعــــــةٍ	فـــأطْلِع بســـامي افقهـــا قمـــرَ الســـعد
لتنظـــر فيهـــا حســـن وجهـــك منصـــفا	وتعـــذِرَني في مـــا اقـــاسي مـــن الوجْـــد
مثالـــك فيـــــها منـــك أقـــرب ملمســـاً	واكـــثر احســـانا وأبقـــى عـــلى العهـــد[1]

أما الشاعر الحدث الألمعي، اليهودي الأصل: هـو أبـو اسـحاق ابـراهيم بـن سـهل الاسرائيلي، كان اعجوبة زمانه، ذكاء، وحفظا، يحفظ كل ما يسمعه لأول مرة، ولقد شـك باسلامه كل معاصريه، ومن جـاء بعـدهم، تظـاهر باعتنـاق الاسـلام، وكـان شـاعرا جيـد النظم رقيقه، من شعراء البلاط الخليفي، وحينما كان يسأل عن اسلامه، يجيـب بلطـف، وأدب جم، احكم بالظاهر، توفي سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م، وقيل فيه غير ذلـك، والشـاعر أبـو جعفر، احـمد بـن ابـي محمد، كان ظـهـوره في مـدة الخليفة المـنصـور بـن يوسف بـن عبدالمؤمن وغيرهم كثير، نضرب صـفحا عـنهم، لأن هـذه الدراسـة لا تسـتوعب علـماء صنف واحد من صنوف العلم، فكيف لو كشفنا عن الجميع[2].

◆ **مرسـية:**

عاصمة ولاية تدمير، بناهـا الأمـير عبـدالرحمن بـن الحكـم الأمـوي، تقـع عـلى الضـفة اليسرى لنهر وادي تدمير شرق الاندلس، كانت مستقراً ومنطلقـاً للثـائر محمـد بـن مـردنيش، واصبحت عاصمته المفضله.[3] لها الصداره في انتاج الفواكـه، وانـواع الثمـر، واصـناف الشـجر، فضلا عن الصناعات المعدنية، والنسيجية، وصناعة السجاد، والفضة على الخصوص، واشـتهرت بكثرة جوامعها، وحماماتها، وأسواقها، يدور عليها، وعلى احيائها سور حصين يـرد عنهـا غـارات الاعداء، كما تحيط بها الحصون والقلاع، والقواعـد، وأقـاليم لا نظـير لهـا، بـأنواع المشـمومات والمأكولات، اوتتزود مرسيه بالماء من النهر المجاور

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٢٦٨.

(٢) ابن سعيد: المغرب في حـلى المغـرب ج١، ص:٢٦٣، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ومـن الشـعراء الموهـوبين والفحـول في الوقت نفسه: احمد بن شكيل من أهل شريـش، مـن الـذين مـدحوا منصـور بنـي عبـدالمؤمن، وتـوفي سـنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص:١٠٧.

عبر نفقين في داخل الجبل، لجر المياه إلى أنحاء المدينة.[1] علاوة على موقعها الجغرافي الممتاز فقد تميزت بمركزها العلمي الفريد، اذ أفرزت كثيرا من العلماء لمختلف الفنون والتخصصات، منهم: أبو غالب تمام بن غالب اللغوي المرسي المعروف بابن البناء، أو "التياني"، الذي صنف كتبا كثيرة، أهمها كتابه في اللغه "الموعب"[2].

واشتهر فيها من الساسة العلماء: أبو جعفر محمد بن عبدالله ابن أبي جعفر الخشني الفقيه الذي تولى تدبير مرسيه، اثر الفتنة، أواخر دولة المرابطين سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م، ولم يكن طموحا للامارة، ويقول: "ليست تصلح لي، ولست لها بأهل، ولكنني أريد ان امسك الناس عن بعض حتى يجيء من يكون لها أهلا".[3]

كما برز فيها من العلماء، عزيز بن عبدالملك بن محمد بن خطاب "أبو بكر"، اهتم بالعلوم العقلية، علاوة على مشاركته في النظم والنثر، وتولى ولاية مرسيه عاملا للمتوكل ابن هود سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م[4]، فشجع العلم، واستقدم اقطاب العلماء، وفحول الشعراء، وبخاصة الشاعر الذائع الصيت، أبو بكر محمد بن احمد بن الصابوني الاشبيلي، الذي ساد في بلده، لما أحرزه من التعفف والأدب والبلاغة والشعر، له ولع خاص في اقتناء نفائس الكتب ونسخها، ومن أروع شعره من قصيدة في رثاء أبي عبدالله بن أبي حفص بن عبدالمؤمن[5]

كأنك من جنس الكواكب كنت لم	**تفارق طُلوعا حَالَهَا وَتوَارِيا**
تحلّيت من شرق يروق تلألؤاً	**فلما انْتحيْتَ الغرب اصبحت هاويا**

(١) الحميري: الروض المعطار، ص:٥٣٩-٥٤٠، تح، احسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، لا.ت.
(٢) المصدر نفسه والصفحات نفسها.
(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص:١٢٨، حاشية رقم ٣؛ ص:٢٢٨.
(٤) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب،ج٢، ص:٢٥٢-٢٥٣؛ القدح المعلى، ص: ١٤٦-١٤٧؛ ويذكر أنه قتل في السنة نفسها التي تولى فيها حكم مرسية، لظلمه وجبروته.
(٥) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص:٣٠٨؛
ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج١، ص:٢٥٤؛
ويذكر ان الممدوح ابا عبدالله بن ابي حفص، كان واليا على بلنسية، وقد عزل عنها وهي في شرق الأندلس، وولي اشبيلية، وهي في غربها.

◆ **المريــة:**[1]

مدينة حديثة لا تتعدى عمق تاريخ الناصر الأموي، إذ رأى أن البناء دليل العظمة والسطوة والسلطان، وهو الذي تتناسب سياسته وطبيعته مع العمران.[2] فبنـى ثغـراً في جنوب شرق الاندلس، هو ميناء المريـة سـنة ٣٤٤هــ/٩٥٥م، لتكـون محطـة عـلى طـرق تجارة دولته شرقا وغربا، ليصبح هـذا الثغـر محرسـا بحريـا يرقـب الشـواطئ الجنوبيـة، ليدفع عنها غارات القرصنة البحرية الاجنبية.[3]

تطورت هذه المدينة، لتحتل قاعدة الجنوب البحري، وهشمت غيرها، لتجعلها في زاويـة النسـيان والاضـمحلال.[4] لتصـل هـي إلى اهـم مـوانئ الأنـدلس في القـرن الرابـع الهجري، على الاطلاق؛ بها قاعـدة الاسـطول، ودور للصـناعة لاصـلاح السـفن، وانشـائها، ومرفأ للحط والاقلاع.[5]

أضحت المرية، لاهميتها الاقتصادية والسياسية، والبحريـة (الاسـتراتيجية)، عرضـه لطمع الاقارب، وغارات الأباعد، ضمها الموحدون إلى امبراطوريتهم في أول عهدهم، رغـم ضعفهم.[6]

ثم بعد عام تقريبا دخلت في تبعية ملك قشتالة، على كره منها، فترة من الوقـت سـنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م، لما ثار أهل المدينة ضد الحكم الموحـدي الـذي لم يتغلغـل بعـد في الأنـدلس، وسقط القائد ابن مخلوف صريعا في ساحة الشرف، متشبثا بولاء المدينة الثائرة وثمة خبراً آخر أسوقه لمصرع ابن مخلوف؛ لما أشيع أن الموحدين بطنجة قاموا بقتل قاضي

---

(١) مدينة على البحر الأبيض المتوسط، بنيت على بقايا مدينـة قديمـة، لكـن العـرب وسـعوها وجعلوهـا مـرسى تجارياً وسموها المرية، بمعنى المرآة الصغيرة. كانت أيام ملوك الطوائف عاصمة بني تجيت، وقـد ازدهـرت في أيامهم، حتى أصبحت مركزاً ثقافياً مهماً، واسترجعها الاسـبان سـنة ١٤٨٩م. وتقـع في شرق مالقـة، حيـث تبعد عنها ٢٢٢ كليو متر، وكانت تعتبر أيام العرب من أعمال كورة بجانة؛ ابن خلدون: العـبر، ج٦، ص: ٣١٧ هامش ١؛ ياقوت: المعجم، ج٥، ص:١١٩؛ الحميري: الروض المعطار، ص:١٨٣، ٥٣٨.

(٢) ابن خاقان: مطمح الانفس ومسرح التأنس، تح، محمد عـلي شـوابكه، دار عـمار، مؤسسـة الرسـالة، بـيروت، ٤٠٣، ١٩٨٣.

(٣) المراكشي: المعجب، ص:٣١٩؛ ابن عذاري: البيان، ج٢، ص:٢٣١.

(٤) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص:١٩٠-١٩٣.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج١، ص:٢٥٣.

(٦) الادرسي: نزهة المشتاق،، ص:١٩٨؛ ابن سعيد: المغرب، ج٢، ص:١٩٨.

الدينة، فخاف أهل سبتة أن يقتل قاضيهم أبو الفضل عياض، فاغتالوا الوالي يوسف بن مخلوف وكان ساعتئذ في المرية.[1]

ويظهر ان المرية قامت بالثورة، طالما بدأت قوة الموحدين الفتية تهتز تحت ضربات ثورة مضادة، بقيادة محمد بن هود الماسي، التي انتهت بالفشل بالسرعة التي قامت بها.[2]

استعادت الدولة الموحدية عافيتها مرة أخرى، لترنو ببصرها إلى المرية، مركز الانطلاق البحري الذي لا غنى لها عنه، منها ينطلق من يود السفر الى مصر والشام، وغيرها من بلاد المشرق، واليها انتهى المهدي ابن تومرت في رحلته الاندلسية، ليمتطي متن بحرها ليواصل رحلته إلى الشام.[3] ثم منها انتقل ابن غانية الى جزيرة ميورقة على أثر الفتنة الثانية.[4]

واسترجعها الموحدون من النصارى صلحا، بعد سبعة أشهر من الحصار المنهك سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م، بفضل جهود الوزير ابن عطية.[5] اذ كان الاحتلال قد اخذ من جهدها وابداعها مأخذا، واحتفر في نفوس اهلها خنادق وحفرا ليس من السهولة ان تمحوها الأيام، فلم تستطع ان تستعيد ازدهارها القديم، رغم عودة العافية اليها في السنوات الأولى من القرن السابع الهجري؛ وكانت تبادلها البضائع سفن اسبانية النصرانية، والايطالية، وغيرها من البلدان على حد قول توريس بالباس.[6]

وعلى الرغم من ظروف المرية، السابقة، فقد نبغ من ادبائها أبو بكر يزيد بن صقلاب صاحب اعمال المرية، كان واسع الأدب، ممتع الحديث له في الشعر سوق، ومن بضاعته الشعرية.[7]

وطَفْلة الاطراف خُمْصانة في قامة السيف وشكل الغلام

---

(١) المراكشي: المعجب، ص:٣٠٨؛ ابن سعيد: المغرب، ص:١٩٨، ١٩٩؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٣١١؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ق٣، ص٢٠-٢١؛ وكانت المرية تابعة إدارياً الى سبتة.

(٢) الناصري: الاستقصاء، ج٢، ص:١١١؛ ابن ابي زرع: الأنيس المطرب، ص:١٩٠.

(٣) مجهول: الحلل، ص:١٠٤؛ المقري: النفح، ج٤، ص:٢٠٩.

(٤) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج٢، ص:٢٣٠.

(٥) الناصري: الاستقصاء، ح٢، ص:١٢٢؛ المقري: النفح، ج٦، ص:٢٥٤، حيث اقنع ابن عطية النصارى بالنزول على الأمان والاستسلام، مع حفظ حياتهم بالمقابل، اي مبادلة الأرض بسلامة ارواحهم واموالهم وذراريهم.

(٦) Torres Balbas, P, 445.، المقري: النفح، ج٦، ص:٢٥٤.

(٧) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ح٢، ص:٢٠٦-٢٠٧.

مكحولـــــــــة العينـــــــــين حوريـــــــــة **مـــــن اللـــــواتي قُصِرَــــت في الخيــــام**

تكـــــاد أن تعقـــــد مـــــن لينـــــها **وفـــــترة العِطـــــف وهـــــز القَـــــوام**

يحلـــــف مـــــن أبصرـــــها أنهـــــا **قُـــدَّت لهـــا مـــن خيـــزران عظـــام**

قـــــد جمّـــــع الله بهـــــا فتنـــــةً **حـــلاوة اللفـــظ وسحـــرَ الكـــلام**

تفـــــتر عـــــن ذي أشُرٍ بـــــارد **اشـــهى مـــن الخمـــر بمـــاء الغـــمام**

نعمـــــت فيهـــــا ليلتـــــي كُلّهـــــا **بأرشَـــقِ الخلـــقَ وأحـــلى الأنـــام**

ومنها الشاعر الوشاح ابو الحكم بن هرودس، وأبو الحسن ابـن عـلي بـن المرينـي، والزجـال احمد بن الحاج المعروف بمدغليس، المار ذكرهم سابقا.[1]

ثم مـن الكتـاب النـابهين الـذين خـدموا في ظـل الموحـدين، اثنـاء ولايـة السـيد عـثمان بـن عبدالمؤمن، ابو محمد عبدالغني بن ظاهر، اذ كانت مقدرته على الكتابة، وتطويعه للكـلام المنمـق، وتحليه بسرعة البديهة، سبب حتفه، حينما بعث برسالة سرية، وقعت في يـدي ابي سـعيد، كـان قـد بعثها إلى أخيه السيد أبي حفص بن عبـدالمؤمن والي اشـبيلية، إذ جـاد فيهـا، وبـرّز، متجـاوزا حـدود غرناطة، وواليها ابا سعيد عثمان، وكان ذلك مما احقده عليه قال فيها : "وما على غير يدك الكريمـة، يكون هذا المكان سراحي، ولا أرجو من غير التفاتك ان يراش جناحي، فاجعلني ببـال مـن اعتنائـك، فإني لم أوجه وجهي الى غير رجائك وتمثل شعرا فقال:[2]

فلـــو زارني مـــن نحـــو افقـــك بـــارق **لهـــزّ جنـــاحي طـــائراً نحـــوك الـــودُّ**

وقال:

تَبَسّـــــم شـــــيبي في عـــــذارى منكّبـــــا **فقلـــت لـــه يـــا ليـــت طـــرفيَ قـــد عمِـــى**

فقـــال عجيـــب بُغْـــض مـــن لاح طالعـــاً **كصـــبحٍ ولم يُظْهـــرْ خـــلافَ التبســـم**

ولم يـــدرِ أن الليـــل والويـــل طيّـــهُ **وهـــل هـــو الامثـــل رقـــمٍ بـــأرقمِ**

تـــراني أهـــواه وقـــد صـــار مـــن بـــه **أهـــيمُ إذا مـــا مـــرّ بـــي لم يســـمِ**

---

(١) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص:ج٢، ص:٢١٣-٥١٥.

(٢) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ص:ج٢، ص:٢٢٥-٢٢٦.

أما علوم الفقه والتفسير والحديث والأحكام، والنحو واللغة والأدب، فقد بلغ علماء المرية فيها الغاية، اذ نبغ الكثيرون منهم: أبو عليّ الحسن بن محمد الانصاري المعروف بابن الرهبيل، وهو من كبار المحدثين المتوفي عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م، والفقيه عبدالحق بن غالب ابن عطية المحاربي المتوفي عام ٥٤٦هـ/١١٥١م، وقد جمع علوم الفقه واللغة والأدب، ثم أبو امية ابراهيم بن منبه بن عمر بن احمد الغافقي، والمحدث ابو علي منصور بن خميس اللخمي المري العالم، ومنصور ابن لب بن عيسى الانصاري،[١] والحافظ عبد الرحمن بن محمد ابن الصقر الانصاري الخزرجي المتوفي عام ٥٩٩هـ/١١٦٣م.[٢] والمحدث ابن حبيش والخضر بن عبدالرحمن[٣]، ومنهم الحافظ النابه عبدالله بن علي بن عبدالله الرشاطي، اصله من أريوله، وسكن المرية، ونشأ بها، وطلب العلم في معاهدها حتى عد من أهلها، ثم استشهد عند دخول النصارى اليها في جمادي الاولى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م[٤]، وكان من المقربين الى الدولة علي بن عبدالله الجذامي البرجي، والمحدث علي بن ابراهيم المعروف باللوان،[٥] والفقيه ابو عيسى محمد بن محمد بن ابي السداد؛ فهو فقيه مالكي، تولى القضاء بمرسية، ونائبا قضائياً عاما فيها، وكانت وفاته ببلده عام ٦٤٠هـ/١٢٥٢م.[٦]

والمريه ذلك البلد المشهور الذكر بموقعها البحري الذي أبانها به عن سائر المدن، شرقية أم غربيه، اسلامية ام نصرانية، حيث كان ساحلها انظف السواحل واشرحها واملحها منظراً، وفيها الحصى الملون النادر الذي يستعمله الملوك والسلاطين والأثرياء مكان الرخام في دواوينهم، وواديها أفرج الأودية وأكثرها متنزهات.[٧]

فضلاً عن جمال نهرها وعذوبة مياهه، اذ كانت هذه مصدر الهام شعرائها، وصفاء ذهنية علمائها، اذ تركت بصماتها أثرا في اعتدال مزاج اهلها، وجمال منظرهم، وحسن اخلاقهم ولين طباعهم، مع براعتهم النادرة لصناعة الوشي والديباج والخز على اختلاف انواعه.[٨]

---

(١) المقري: النفح، ج٣، ص: ٢٦، ٢٨٠، ٢٦١، ٣٨٥، ٣٩٨.
(٢) جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسي، ص:٢٨١.
(٣) ابن بشكوال: اصلة، ق١، ص:١٨١.
(٤) المصدر نفسه، ص:٢٩٧؛ وللرشاطي عدة كتب منها: "اقتباس الانوار والتماس الازهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار".
(٥) المصدر نفسه، ق٢، ص:٤٢٦، رقم ٩١٦ ق٢، ح٧، ص:٤٢٧، رقم:٩١٨.
(٦) ابن منقذ: الوفيات، ص:٣١٧.
(٧) ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج٢، ص:١٩٣-١٩٤.
(٨) المقري: نفح الطيب، ج٤، ص:٢٠٩-٢١٠.

جعلت دولة الموحدين مـن الجهـاد مثـل سـابقتها دولـة المـرابطين، هـدفا رئيسـا حشدت له كل الجهود، ووضعته شـعارا لهـا، ومـن اجـل ذلـك وفي سـبيل تحقيـق هـذا الهدف، اتخذ ابن تومرت من رحلاته المشرقية، واتصاله بالعلماء نهجا مغايراً لمـن سـبقه من الدعاة؛ فقدتلقب بالمهدي، وأطلق على اتباعه الموحدين، ورفـض التقليـد والتبعيـة، ونحا منحى الاجتهـاد (المـذهب الظـاهري).[1] فكـان شخصـية طريفـة وثريـة، سـواء في مقوماته الذاتية، أو في انتاجه العلمـي، أو في تجربتـه التـي خاضـها في الاصـلاح الشـامل عقيدة ومنهجاً في الفكر الشرعي، وسياسة واجتماعاً.

فقد شمر عن سـاعد الجـد، اذ حـرك اتباعـه جهـة مـراكش أولاً- حـاضرة اعدائـه التقليديين- إلى أن ظهر على مسرح الاحداث صديقه وخليفته عبدالمؤمن بن عـلي الـذي لم يقف طموحه عند بسط سلطانه على المغرب الاقصي، بل تعداه، ليضم المغرب الكبـير كله، وعدوه الاندلس، تحقيقا لحلمه وحلم اسـتاذه في تكـوين امبراطوريـة كـبرى، تضـم عدوتي المغرب والاندلس، ومن بين الاسباب التي اسرعت في قيام دولة الموحدين بامتداد نفوذهم، أولاً، ضعف دولتي بني باديس "الزيرية والحمادية" بفعل الصـدام الـذي كـان بينهما من جهة، وصراعهما مع العرب رسـل الدولـة الفاطميـة مـن جهـة ثانيـة، وثانيـاً، وقوع افريقية فريسة في يد النورمان، واخيرا تشظي المجتمع الاندلسي ـ ووقوعـه فريسـة سهلة يلوكها نصارى اسبانية.

هكذا لم يتردد عبدالمؤمن في تلبية نداء الواجب لتخليص افريقيـة والانـدلس مـن اطماع الفرنجة وغطرستهم في القطرين كليهما.

وبعد ان فرغ من نورمـان صـقلية في افريقيـة سـنة ٥٥٥هــ/١١٦٠م، لم يتـوانَ في عبور المجاز إلى الاندلس، والاجتماع بالسادة الامـراء، والقـادة والشـيوخ، وبأعيـان الـبلاد وفقهائهـا، لرسـم الخطـط الحربيـة لحمياتهـا وانقاذهـا مـما يحـيط بهـا مـن دسـائس ومؤامرات، ولما انهى عبدالمؤمن استعداداته لخـوض معركـة فاصـلة في تلـك الـبلاد عـلى غرار الزلاقة، عاجلته المنية، وترك مهمة تنفيذها إلى خلفائه من بعده.

(١) يقول المذهب الظاهري: المجتهد المخطئ خير من المقلد المصيب؛ ابن حزم الظاري: الفصل في الملل والاهواء والنحل، ج٤، ص:١٤٥-١٦١، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ١٤٠٣/١٩٨٣.

ولقد تبين من خلال هذه الدراسة ان انتعاش الاقتصاد زمن الموحدين، لم يتعدّ في بادىء الامر منهج ابن تومرت؛ كالزكاة والاعشار واخماس الغنائم المحققة من توسعات الحرب. وتبادل المنتجات الزراعية والصناعية، بين الشمال والجنوب، ومن القوافل التجارية التي كانت تتردد طوال الوقت بين الاندلس والمغرب من جهة، وبلاد غانة في الجنوب، وبين المغرب والشرق العربي عبر الاسكندرية من جهة ثانية. وقد تطور الاقتصاد المغربي مدة بني عبد المؤمن حيث مسحوا الأراضي التي يسيطرون عليها من حدود اسبانيا الى جنوب المغرب، ومن المحيط الاطلسي- غربا الى حدود مصر- شرقاً، ووضعوا عليها اخراج الذي امد خزينة الدولة بفائض كبير من الاموال، ونتيجة لهذا التطور سكت العملة من الذهب والفضة، وان اول نقد تداوله الموحدون في الاسواق التجارية هو الدرهم المربع الذي احدثه المهدي، وكان يقوى هذا النقد بازدهار الاقتصاد، وينخفض بتراجعه. ونتيجة حتمية لنمو الاقتصاد انتعشت الحياة الاجتماعية والعمرانية زمن الموحدين؛ اذ كانت ايامهم خيراً وبركة، وعاش الشعب المغربي في كنفهم حياة آمنة بسيطة في بداياتها بعيدة عن اللهو البذخ والاغراق في متع الحياة.

غير ان هذه الحياة تغيرت بسبب الرفاه المعيشي الذي ساد بلاد المغرب، ونتيجة للحرية الفكرية والاجتماعية التي عمت مجتمعهم. فقد عاشت فئات من المجتمع منفلتة من كل قيد اخلاقي او عرف اجتماعي بين المروج والمغنيات، تعيش للطرب والغواية، دونما خفر ام حياء، او احساس بخوف او شعور برقيب الى نهاية الدولة.

ورغم كل ما قيل عن الموحدين فقد وصلوا الى مستوى رفيع من المنعة العسكرية والسياسية، وابدعوا في النواحي العمرانية والانشائية وكان اثرهم على جيرانهم انقلابا في الحياة الاجتماعية الاسبانية؛ اذ كان تأثير الاسلام على الفرد الاسباني يتجلى في ظهور الفرق الدينية العسكرية، ومعاملة الاسرى، وتطرق هذا التأثير الى الاطعمة والألبسة والتزين بالحياء والنظافة والآداب العامة؛ من عبارات التحية والمجاملة واحترام الوالدين.

وأوضح البحث الدور السياسي والثقافي الذي قام به الموحدون على عهد خلفائهم، وبخاصة الثلاثة الأوائل، واستعادتهم هيبة الاسلام في الأندلس، بعد أن توافق ملوك الاسبان على اقتسام أراضي المسلمين فيما بينهم، واستعد كل من جهته -منفردين ومجتمعين- للاستيلاء عليها وفقا للمخطط الموضوع.

لذا فقد استطعت ان اصور جهادهم تصويرا واقعيا، وأن أزيل ولو إلى حين، الآثار السيئة التي رسخت في الاذهان، حول الاسس المدخوله الواهنة "المهدوية والعصمة"، حين

اثمرت دعوته في المجال السياسي دولة قوية، واسهمت في اثراء الثقافة الاسلامية، وعطلت الزحف الصليبي، بما انتهجته من طريق الجهاد لعدة قرون، وعلى الرغم من هذه الانتصارات المظفرة، والنهضة الفكرية الاسلامية التي وصلت منتهاها، لم يستطع من خلفهم الى يومنا هذا، أن يحاكي او يصل إلى مستوى ذلك الابداع الحضاري الشامل المتميز، لكنها سرعان ما دبت عوامل الضعف الداخلي فيها- فآلت بها إلى السقوط، وتبين بوضوح اخفاق النهج التومرتي و "الايدويولوجية" الموحدية التي بدأت تتهاوى على ايدي امرائها، وتتمثل في التراجعات العسكرية الحادة امام النصارى، انهيارا رأسياً ودفعة واحدة زمن الناصر الذي كان يبدو لجميع المحللين أنه خير من يخلف أباه المنصور. فكانت هزيمة العقاب نتيجة للطيش والتهور والغرور، واهمال الشورى التي قام عليها الحكم الموحدي، وبدأ يعود المغرب القهقري، واستمر إلى ما بعد الموحدين، واصبحت معه الاندلس في زاوية جنوب شبه الجزيرة "مملكة غرناطة"، تعالج سكرات الموت في حشرجات متتالية، لم تجد من يقدم لها العون، إلى أن طويت هذه الصفحة المشرقة من تاريخ المسلمين في اسبانية، الذي نيف على ثمانية قرون وكان لهم منها ضوء ساطع لا تزال اسبانية تستضيء به إلي يومنا هذا.

ولعل من اسباب ذلك، أن ابن تومرت لم يضع اسسا متينة يقوم عليها الحكم من بعده، وتكون عاصمة من التناحر على السلطة الذي كثيرا ما يؤول بالدول الى الفناء، وسرعان ما لفظ المجتمع المغربي المهدوية، وما يتصل بها من آراء، رغم المحاولات الجادة التي قامت للتأصيل في الفكر الشرعي، وتنشيط الاعتناء بالقرآن والحديث دراسة وحفظا، ولكن تأصل المنهج الفروعي (مذهب مالك) بالمغرب، واستحكامه، وتشبث المغاربة بكتب الفروع المروية عن شيوخ المالكية، كان عامل مقاومة شديداً للنهج الاصولي الذي بشر به ابن تومرت، وقد ترسخ في بعض النفوس، أن التنازل عن أقوال المشايخ، انما هو تنازل عن المذهب المالكي المتعمق الجذور في اهل المغرب. وان ما انتهجه بعض حكام الموحدين، وبخاصة المنصور، من منهج العنف، وفرض الرأي بالقوة -تهديداً وتحريقا- جعلا منهج التأصيل الذي دعا اليه المهدي محدود الأثر قليل الانتشار، والذي بسببه تعرض الشعب المغربي للوعيد، وفقدانه كتبا الفوها، وكان لها عندهم المقام الاول، كما جعلهم يزدادون تمسكا بمنهجم، واعتبروا الحفاظ على ذلك من ضروب الجهاد، والتضحية التي تقربهم الى الله زلفى.

وقد أثبتت احداث التاريخ، أن الآراء التي يسلك اصحابها في اثباتها واشاعتها مسلك الاضطهاد والفرض بالقوة، ينتج عنها دوما عكس ما أريد لها، فتؤول الى الانقراض والتلاشي.

لذا فالموحدون، على ما يبدو، لم يسلكوا في سبيل انجاح هذا المنهج ما يلزم من التمهيد والتدرج، رغم سماح عبدالمؤمن للفقهاء بالرد على المالكية، وأصحاب الآراء الاخرى بالاسلوب العلمي، ومقارعة الحجة بالحجة في بعض الاحيان، ويلوح ان استنباط الأحكام من الاصول درجة عالية من التفقه تستلزم اعدادا تربويا معمقا طويل النفس، قد يستغرق عدة أجيال كي يؤتى كله، كما يتطلب فرز القوى الخلاقة المتصفة بالحجة والوضوح حتى تصبح قدوة للناس، لتحدث حركة التغيير شيئا فشيئاً، لتتحقق النتيجة المرجوة.

وأن ما كان من محاولات علمية قام بها المنصور، وبعض العلماء الآخرين، لم تكن على قدر من الكفاية في الاقناع بالمنهج التومرتي، وابرازه بالحجة، فآل أمره إلى نتيجة لا يحسد عليها.

ويتضح أن بني عبدالمؤمن، دعوا إلى منهجهم بقرار سياسي تدعمه قوة السلطة، لم تواكبه حركة علمية كافية ومتطورة، ومن المعروف أن التغيير في المجال الفكري، لا يحدث إلا بالحركة العلمية المستمرة، أما القرار السياسي فلا يكون الا منشطا أو مساعدا فحسب.

ومن الجدير أن نلاحظ، أن المهدي نفسه شرع في التغيير الى المنهج الاصولي بحركة علمية، تمثلت فيما كتبه من مؤلفات في شرح التأصيل والاستدلال عليه،وأن ما قام به من محاولة في الاصلاح الشامل بالمغرب، كانت تجربة ثرية وعميقة الى حدما، اصلها صاحبها على فكر علمي، ظهرت فيه الغزارة في المادة، والمتانة في الاستدلال، ثم انطلق في الدعوة لهذا الفكر على اساسه، فكان التوفيق إلى جانبه في كثير من الاحيان، ولم يسلم في أحيان أخرى من الهفوات -اذ أن هذه الحركة لم تتطور بعده في اتجاه البحث العلمي لاثراء مذهبه، بل جنحت كما رأينا إلى القرار السياسي- فكثيرا ما كان يقع فيها من جابهوا واقع الناس، وتصدوا لتغييره، إن الواقع محك صعب يكاد لا يدركه اولئك الذين يكتفون بالتنظر العلمي المنعزل، حيث للواقع منحى غير منحى الذهن ووقعه وطعمه غير التصور النظري ولا تدرك الأمور حقاً حق إدراكها إلا إذا ذاقتها وجربتها، وان اكثر ما يقع من الانحراف أو الفشل، في الحركات الاصلاحية، وبخاصة الثورية منها، راجع إلى سوء التقدير للمنطق الواقعي.

- المصادر باللغة العربية

ابن الأبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله أبي بكر الفضاعي. (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م).

التكملة، طبعة دوزي.

الحلة السيراء، ج١، ج٢، طبعة دوزي، تح حسين مؤنس، مصر ١٩٦٣م/١٣٨٣هـ

ابن الأثير: علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م).

- العلماء، نشر دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧م/١٣٨٧هـ

- الكامل في التاريخ، تسعة اجزاء، راجعه وعلق عليه نخبة من العلماء، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧م/ ١٣٨٧هـ

ابن ابي اصيبة: موفق الدين أبو العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي اصيبعة، (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م).

عيون الأنباء في طبقات الاطباء، نشره الدكتور، نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م/١٣٨٥هـ

ابن الأزرق: أبو عبدالله بن الأزرق (ت ٨٩٦هـ/١٤٩٠م)

بدائع السلك في طبائع الملك، تح وتعليق، د. علي سامي النشار، منشورات وزارة الاعلام العراقية، ١٩٧٧م/١٣٩٧هـ.

الأنصاري: أبو محمد عبدالله جمال الدين بن هشام (ت ٧٦١هـ/١٣٥٩م).

- شرح قطر الندى وبل الصدى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

ابن بسّام: ابو الحسن علي الشننشرني (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م).

- الذخير في محاسن اهل الجزيرة، تح، احسان عباس، دار الثقافة، بيروت- لبنان- ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبدالملك (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م).

- كتاب الصلة، جزآن، المكتبة الاندلسية. الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد الطنجي اللواتي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)

- تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، الجزء الاول والثاني تح، د.علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

البكري: ابو عبدالله بن عبدالعزيز المرسي (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م).
المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، باريس، ١٣٢٩هـ/١٩١١م، نشر دي سلان، وهو مأخوذ من كتاب المسالك والممالك، الجزائر، ١٣٢٩هـ/١٩١١م.
البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م).
انساب الاشراف، مخطوط وصور، دار الكتب المصرية، ١١٠٣هـ/١٦٩١م، محقق منه، ج١، ٢، الجامعة الاردنية.
فتوح البلدان، القاهرة، ١٣١٨هـ/١٩٠٠م.
ابن بلقين: الأمير عبد الله آخر أمراء بني زيري بغرناطة.
- التبيان، نشر وتحقيق، ليفي بروفنسال، لا.ت.
البيدق: أبو عبدالله بن عبدالعزيز (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م).
اخبار المهدي بن تومرت، نشر، ليفي بروفنسال، باريس، ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م.
التيجاني: أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد (ت ٧١٧هـ/١٣١٧م).
- رحلة التيجاني، نشر، حسن حسني عبدالوهاب، تونس، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.
ابن جبير: ابو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني، الأندلس، البلنسي (ت٦١٤هـ/١٢١٧م).
- (الرحلة)، تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار، القاهرة، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.
الجزنائي: أبو الحسن علي (ت القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي).
- زهرة الآس في بناء مدينة فاس، نشر، الفريدبل، الجزائر، ١٣٤١هـ/١٩٢٢م.
حاجي خليفة: مصطفى (ت١٠٦٧هـ/١٦٥٧م).
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ط، لوزان، ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م.
ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد القرطبي (ت٤٥٦هـ/١٠٦م).
طوق الحمامة، ط، مصر، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م.
الفصل في الملل والأهواء والنحل، اربعة أجزاء، القاهرة، ١٣١٧هـ/١٨٩٩م، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
رسالة نقط العروس، فصل من مجلة كلية الآداب، بالقاهرة.
ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن علي، (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م).
صورة الارض، بيروت، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

الحميـــدي: ابـــو عبـــدالله ممحمـــد بـــن أبي نصرـــ فتـــوح بـــن عبـــدالله الأزدي، (ت٤٨٨هـ/١٠٩٥م).

جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والنشرـ والترجمـة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

جذوة المقتبس، تح، محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.

الحميري: ابو عبدالله بن عبدالمنعم، (ت٩٠٠هـ/١٤٩٥م).

الروض المعطار في خبر الاقطار، تـح، د. احسـان عبـاس، مكتبـة لبنـان. بـيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

ابن حيان: حيان بن خلف، (ت٤٢٢هـ/١٠٣١م).

- المقتـــبس في تـــاريخ رجـــال الأنـــدلس، تـــح، محمـــود عـــلي مـــكي، بـــيروت، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

ابن خاقان: الفتح بن محمد بن عبدالله القيسي (ت ٥٣٥هـ/١١٤٠م).

قلائد العقيان، فاس، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م.

ابن خرداذبة:ابو القاسم عبيدالله بن عبدالله، لا.ت .

- المسالك والممالك، ط، دوزي، ليدن، ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م.

الخشني: محمد بن الحارث بن أسد (ت٦٦١هـ/١٢٦٣م).

- تاريخ قضاة قرطبة، نشر مع نشرجمة اسبانية، الربيرا، مدريد، ١٣٣٣هـ/١٩١٤م.

- قضاة قرطبة، تح، ابراهيم الابياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢.

ابن الخطيب: الوزير محمد لسان الدين (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م).

- الاحاطة في أخبار غرناطه، القاهرة، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.

- اعمال الاعلام نشر بروفنسال، الرباط، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

- أعمال الأعلام، بيروت، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.

- رقم الحلل، تونس، ١٣٣٥هـ/١٩١٦م.

- رقم الحلل، المدينة المنورة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٦م.

- كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تح، د. محمد كمال شبانه، راجعه، د. حسـن محمود، القاهرة، ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م.

- نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب، تح، مختار العبادي، القاهرة، لا.ت.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م).

- العـــبر وديـــوان المبتـــدأ والخـــبر، ثمانيـــة اجـــزاء، ط، دي ســـلان، الجزائـــر، ١٢٩٩هـ/١٩٩١م بيروت، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

- ج١ (المقدمة)، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

ابن خلكان: شمس الدين احمد بن ابراهيم، (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م).

- وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان، تسعة اجزاء، القاهرة، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م.
- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، سبعة اجزاء دار صادر بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

ابن دحية: عمر بن الحسن بن علي بن محمد الجميل البلنسي الأندلسي (ت٦٣٣هـ/١٢٣٥م).

- المطرب من أشعار اهل المغرب، القاهرة، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

ابن ابي دينار: محمد بن أبي القاسم القيرواني، (ت ١١١٠/١٦٩٨م).

- المؤنس في ذكر افريقية وتونس، تونس، ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م.

الزبيدي: محمد مرتضى، لا.ت.

تاج العروس، عشرة مجلدات، مكتبة الحياة، بيروت، لا.ت.

ابن الزبير: أحمد بن ابراهيم (ت٧٥٨هـ/١٣٥٨م).

- صلة الصلة، نشر ليفي بروفنسال، الجزائر، ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م.

ابن ابي زرع: أبو الحسن علي بن عبدالله الفاسي، (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م).

- الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣/١٣٩٣م.

الزركشي: محمد بن ابراهيم (ت القرن الحاديث عشر الهجري/ السادس عشر الميللادي).

- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تونس، ١٢٩٩هـ/١٨٨١م.

الزركلي: خير الدين، لا.ت.

- الاعلام، أحد عشر جزءاً، ط٣، بيروت، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

السراج: محمد بن محمد الأندلسي الوزير (ت ١١٤٩هـ/١٧٣٧م).

- الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج١، ق٤، تح، محمد الحبيب الهيلة، لا. ت.

ابن سعيد: علي بن محمد عبد الملك بن سعيد المغربي الغرناطي الأندلسي، (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م).

- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تح، ابراهيم الأبياري، ط٣، دار المعارف بمصر-١١١٩، كورنيش النيل، القاهرة، لا، ت.
- رايات المبرزين وغايات المميزين، تح، الدكتور، النعمان عبد المتعال التاجي، الكتاب الثامن والعشرون، القاهرة، ١٩٧٣/١٣٩٣.

- المغرب في حلي المغرب، جزآن، تح، شوقي ضيف، ط٢، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣.
- القدح المعلى في التاريخ المحلي، تح، ابراهيم الأبياري، ط٢، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

السيوطي: الامام جلال الدين السيوطي) ت ٩١١هـ/١٥٥٠م)

- تاريخ الخلفاء، تح، محمد محي الدين عبد الحميد، لانشر، لا.ت.

ابن شاكر: محمد بن شاكر الكتبي الدمشقي، (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)،

- عيون التواريخ، تح، نبيلة عبد المنعم داود،مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٩١/١٤١١م.
- فوات الوفيات ، تح، احسان عباس، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٨٨٣م.

أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الشافعي، (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م).

- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ١+٢، دار الجيل، بيروت، لا. ت.
- كتاب القسم اللثاني، تح، محمد حلمي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، (ت ٥٤٨هـ/١١٥٤م)

- الملل والنحل، ثلاثة أجزاء، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

ابن أبي صاحب الصلاة: عبد الملك محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم، الباجي المكنى أبا مروان، (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م).

- المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، السفر الثاني، تح، عبد الهادي التازي، منشورات وزارة الثقافة والفنون العراقية، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

الضبي: أحمد يحيى بن أحمد بن عميرة. (ت ٥٩٩هـ/١٢٠٣م).

- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير لطبري، (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م).

- تاريخ الرسل والملوك، تح، محمود أو الفضل ابراهيم. لا. ت.

ابن عبد الحكم: عبد الرحمن بن عبداللة بن عبد الحكم، (ت ٢٥٧هـ/٨٧١).

- فتوح افريقية والأندلس، تح عبدالله أنيس الطباع، بيروت، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

ابن عبد ربه: شهاب الدين أحمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير ابن سالم القرطبي الأندلسي، (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م).

- العقد الفريد، تح، محمد سعيد العريان، مج ٣+٥، دار الفكر، بيروت، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م.

ابن عذاري: محمد المراكشي، (ت ٦٩٥هـ/١٢٩٥م).

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تج، ليفي بروفنشال، نشر احسان عباس، بيروت، ط١، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

- البيان المغرب في اختصار ملوك الأندلس والمغرب، ق٣ من تاريخ الموحدين، نشر أمبروس هويس مراندة، دار كريماديس للطباعة، تطوان، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

أبو بكر بن العربي: محمد بن عبداللة بن محمد بم عبدالله بن أحمد العربي المعافري (ت ٥٤٣هـ/١١٤٩م).

- العواصم من القواصم، تج، محب الدين بن الخطيب، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

ابن عقيل: بهاء الدين عبد الله، (ت ٧٦٩هـ/١٣٦٨م).

- شرح ابن عقيل، ج١+٢، دار الفكر، ط١٦، بيروت، لا. ت.

ابن العماد الحمبلي: أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩/١٦٧٨).

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م.

ابن غازي: أبو عبداللة محمد بن أحمد، (ت ٩١٩هـ/١٥١٤م).

- الروض الهنون في أخبار مكناسة الزيتون، تح، عبد الوهاب منصور، ط، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

ابن غالب: محمد بن أيوب الاندلسي، لا. ت

- فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، نشر د. لطفي عبد البديع في مجلة المخطوطات العربية، مجلد الاول، ج٢، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

الغبريني: أحمد بن أحمد بن عبداللة، (ت ٧١٤هـ/١٣١٥م).

- عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة، تح، عادل نويهض، دار الآفاق، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

الغزالي: أبو حامد (ت ٥٠٥هـ/١١١١م).

- احياء علوم الدين، نشر جولد تسيهر، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

أبو الفداء: إسماعيل بن علي عماد الدين، (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م).

المختصر في أخبار البشر، أربعة أجزاء، القاهرة، ١٣٥١هـ/١٩٣٢م.

ابن الفرضي: عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي الحافظ، (ت ٤٠٣هـ/١٠١٣م).

تاريخ علماء الأندلس، جزآن، نشر، كوديرا، مدريد، ١٣٠٩هـ/١٨٩١م.

فيروز أبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب، لا. ت

القاموس المحيط، أربعة أجزاء، المؤسسة العربية للطباعة والنشر بيروت، لبنان، لا. ت، وطباعة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

ابن القاضي: أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي، (ت ٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م).

جذوة الاقتباس في من حل من الأعلام في مدينة فاس؛ فاس، ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م، نشر دار المنصور؛ الرباط، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

القرطبي: يوسف بن عبداللة بن محمد بن عبد البر النّمري القرطبي، (ت ٤٦٣هـ/١٠٧١م)

الكافي في فقه أهل المدينة المالكي، تح، الموريتاني، نشر مكتبة الرياض الحديثة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

ابن القطان: علي بن محمد بن يحى بن ابراهيم الكامي الحميري الفاسي، (ت ٥٢٨هـ/١١٣٤).

نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح ونشر محمود علي مكي، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي، (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)

صبح الأعشى في صناعة الانشا، تح، احسان عباس، بيروت، لا. ت.

ابن قنفذ القسنطيني: أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب، (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٧م).

كتاب الوفيات، تح، عادل نويهض، منشورات، دار الآفاق الجديدة، ط٤، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

ابن القوطية: عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم، (ت ٣٦٧هـ/٩٧٨م).

تاريخ افتتاح الأندلس، تح، عبدالله أنيس الطباع، بيروت، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

ابن كثير الدمشقي: الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل، (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م).

البداية والنهاية في التاريخ، ج١٢، مصر، ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م.

ابن الكردبوس: عبد الملك (ت السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي).

- كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تح، أحمد مختار العبادي، مدريد، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

المراكشي: محي الدين عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، (ت ٦٦٩هـ/١٢٧١م)

المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط، روزي، ليدن، ١٢٩٩هـ/١٨٨١م؛ القاهرة، ١٣٦٩هـ/١٩٤٩م.

مسكين: محمد منلامسكين، لا. ت.

الكنز، ج٢، ط، بولاق، ١٢٨٧هـ/١٩٧٠م.

المقدسي: شمس الدين أبو عبيدالله، (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م).

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، القاهرة، ١٣١٨هـ/١٩٠٠م.

المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م).

السلوك في معرفة دول الملوك، نشر، محمد مصطفى زيادة القاهرة، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م،

المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، ثلاثة أجزاء، دار التحرير، ط، بولاق، القاهرة، ١٢٧٠هـ/١٨٣٥م.

اغاثة الامة بكشف الغمة، نشر، محمد مصطفى زيادة، دار الجماهير، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.

المقّري: أحمد بن محمد التلمساني، (ت ١٠٤١هـ/١٦٣٢م

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح، يوسف الشيخ حمد البقاعي، ط١، دار الفكر بيروت، ١٤٠٦/١٩٨٦. ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م.

المكناسي: محمد بن عثمان، (لا. ت).

الاكسير في فكاك الأسير، تح، محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

المناوي: محمد عبد الرؤوف تاج المعارفين بن علي المناوي، (ت ١٠٣١هـ/١٦٢٢م).

منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

مؤلف مجهول: (؟)

الاستبصار في عجائب الأقطار، نشر سعد زغلول عبد الحميد، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

مؤلف مجهول: (القرن الثامن الهجري)

الحلل الموشية، نشر، علوش، الرباط، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

الحلل الموشية، تح، سهيل زكار، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

مؤلف مجهول: (؟)

ذكر بلاد الأندلس، مخطوطة الخزانة العامة، الرباط، رقم، ٥٨، لا. ت.

مؤلف مجهول: (؟)

مفاخر البربر، تح، ليفي بروفنسال، الرباط، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م

مؤلف مجهول: (؟)

أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر امرائها والحروب الواقعة بينهم، تح، لا فونتي الكوانترا، ط في مدينة مجريط، بمطبعة، ربد نيْر، ١٢٨٥هـ/١٨٦٧م.

أخبار مجموعة في فتح الأندلس، وذكر امرائها- رحمهم الله- والحروب الواقعة بها بينهم، تح، ابراهيم االأبياري، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

الناصري: الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، (ت ١٣١٥هـ/١٨٩٧م).

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح، ولدي لمؤلف جعفر الناصري، ومحمد الناصري ج١+٢، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

النباهي: أبو الحسن على بن عبدالله بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي المالقي النباهي، (ت ٧٩٨هـ/١٣٩٦).

كتاب المرقبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا (تاريخ قضاة الأندلس)، منشورات، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، لا. ت.

الهرغي: ابراهيم بن موسى بن أحمد، (ت ٣١٤هـ/١٣١٤م).

كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، نشر ليفي بروفنسال، باريس، ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م.

الونشريسي: أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني (ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م).

أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه من النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر، نشر وتح، حسين مؤنس، مج٥؛ مجلة مدريد للدراسات الاسلامية،١٣٧٧هـ١٩٥٧م.

ياقوت: شهاب الدين الرومي، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م).

- معجم البلدان، القاهرة، ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م، بيروت، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

اليعقوبي: أحمد يعقوب بن جعفر، (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م).

البلدان، نشر، دي خوية، ليدن، ١٣٠٩هـ/١٨٩١؛ القاهرة ١٣٣٠هـ/١٩١١م.

- المراجع باللغة العربية

أحمد: مصطفى أبو حنيف.

أثر العرب في تاريخ المغرب، ط١، مطبعة دار النشر المغربية الدار البيضاء، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

القبائل العربية المغرب في عصري الموحدين والمرينيين، رسالة ماجستير، الاسكندرية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

ارسلان، شكيب
خلاصة تاريخ الأندلس، مكتبة الحياة، لبنان، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
أمين، أحمد
ظهر الاسلام، ج٣، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٤م.
بدر، أحمد
الأندلس وحضارتها، ج١، لا. ت.
بنعبد الله، عبد العزيز
مظاهر الحضارة العربية، الدار البيضاء، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.
بشتاوي، عادل سعيد
الاندلسيون المواركة، دار أسامة، ط١، القاهرة، ط٢، دمشق، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
بيضون، ابراهيم
الدولة العربية في اسبانية، دار النهضة، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
التوانتي، عبد الكريم.
مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، نشر وتوزيع مكتبة الدار البيضاء، لا. ت.
الجمل، شوقي عطا الله.
المغرب العربي الكبير، ط١، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
جنون، عبدالله
الينبوع المغربي، تطوان، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.
جودة، علي محمد.
تاريخ الأندلس، مطابع الكتاب العربي، مصر، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.
حتاملة، محمد عبده.
محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة، ط، عمان ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين، ط، عمان، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
التهجر القسري لمسلمي الأندلس، ط، عمان، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

حتى: فيليب.
تاريخ العرب في الأندلس، مطول، ج٣، ط٢، بيروت، ١٣٦٩هـ/١٩٢٩م.
الحجى: عبد الرحمن علي.
التاريخ الاسلامي، نشر جامعة بغداد، ط١، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦.
التاريخ الأندلسي، نشر جامعة بغداد، ط١، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
حسن، ابراهيم
تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ثلاثة أجزاء، ط٧، النهضة العربية، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
حسين، حمدي عبد المنعم.
تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٤٠٦/١٩٨٦.
حمودة، علي محمد.
تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي، ط١، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.
حوق، أسعد.
محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، لا.
حميدة، عبد الرحمن
أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، ط١، دمشق، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.
خالص، صلاح
اشبيلية في القرن الخامس الهجري، دار الثقافة، بيروت، لا. ت.
خليل، عماد الدين
دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، دار النفائس، ط٩، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.
ديوز، محمد علي
المغرب الكبير، القاهرة، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣.
أبو رميلة، هشام.
علاقات الموحدين الخارجية، دار الفرقان، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
الريسوني، محمد المنتصر
الشعر النسوي في الأندلس، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

زنيبر، محمد

تاريخ العصر الوسيط، نشر وطبع دار النشر المغربية، الدار البيضاء، لا. ت.

زيدان، عبد الكريم.

المدخل لدراسة الشريعة الاسلامية، مكتبة القدس، مؤسسة الرسالة، ط٩، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

سالم، عبد العزيز

تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربة، بيروت، ١٩٨٩م.

تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف، بيروت، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

تاريخ مدينة المرية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩/١٣٨٩م.

تاريخ المغرب الكبير، العصر الاسلامي، القاهرة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

المساجد والقصور سلسلة اقرأ، رقم ١٩٠، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

سائح، حسن

الحضارة المغربية عبر التاريخ، الدار البيضاء، ط١، ١٩٧٥/١٣٤٥م.

السعيد، محمد مجيد السعيد.

الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية، بغداد، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠.

السامرائي، خليل ابراهيم صالح.

الثغر الأعلى الأندلسي، مطبعة أسعد، جامعة بغداد، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

شلبي، أحمد

تاريخ التربية الاسلامية، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤.

التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، خمسة أجزاء، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٠/١٣٩١.

كيف تكتب بحثا أو رسالة، مكتة النهضة المصرية، القاهرة، لا. ت.

الشعراوي، أحمد ابراهيم

الامويون أمراء الأندلس الأول، القاهرة، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

هشام الرضا، القاهرة، لا. ت.
طلفاح، خيرالله.
صلاح الدين الأيوبي والحروب الصليبية، ج١، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤٠٣/١٩٨٣م.
عاشور، سعيد عبد الفتاح.
اوروبا العصور الوسطى، التاريخ السياسي، ج١، ط٤، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
محاضرات في التاريخ العباسي والأندلسي، كريدية اخوان، بيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
عامر، أحمد
الدولة الصنهاجية، الدار التونسية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
العبادي، أحمد مختار
سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية، مج٥، مدريد، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.
الصقالية في اسبانية، مدريد، ٣٧٧هـ/١٩٥٧م.
صور لحياة الحرب في المغرب والأندلس، مجلة البيئة، الرباط، ١٣٧٢-١٣٨٣هـ/١٩٦٢-١٩٦٣م.
في تاريخ المغرب والأندلس، مجلة الاسكندرية، لا. ت.
العبادي، عبد الحميد.
المجمل في تاريخ الأندلس، القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٨٥م.
عبد البديع، أحمد لطفي.
الاسلام في اسبانية، المكتبة التاريخية، ط١، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.
عبد العواد، حسن علي حسن.
الحياة الادارية والاقتصادية والاجتماعية في المغرب الاقصى في القرنين الخامس والسادس الهجريين، القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
العزاوي، عباس.
تاريخ النقود العراقية، نشر وزارة المعارف، بغداد، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.
عباس، احسان.

تاريخ الأدب الأندلسيـ عصرـ الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

عنان، محمد عبدالله.

دولة الاسلام في الأندلس من الفتح الى نهاية غرناطة، ط٢، القاهرة، ١٩٥٥/١٣٧٥م.

عصر المرابطين والموحدين في المغرب، ج١+٢، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

عهد الفتنة الكبرى حتى نهاية عبد الرحمن الناصر، ط١، القاهرة، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.

مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام، ط٤، القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

نهاية الأندلس، ط٢، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

عتيق، عبد العزيز.

الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

علي، محمد كرد.

غابر الأندلس وحاضرها، المكتبة الأهلية، لا. ت.

الغناي، مراجع عقيلة.

سقوط دولة الموحدين، منشورات جامعة بنغازي، ليبيا، ط١، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

الفاسي، محمد بن أحمد.

المورد المنى (مخطوطات بالخزانة العامة بالرباط).

الكاتب، سيف الدين.

أعلام من المغرب والأندلس، مؤسسة عز الدين، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

لقيال، موسى.

المغرب الاسلامي، الشركة الوطنية للنشرـ والتوزيع، ق٣، الجزائر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

ماجد، عبد المنعم.

الاطلسي التاريخي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

محمد، يوسف نجم.

كتاب الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة، مجلة الابحاث، ج١، السنة ٤١، آذار، ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

محمود، حسن.

قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.

مصطفى، عدنان صالح.

في الشعر الأندلسي، دار الثقافة، الدوحة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

مكي، محمد علي.

مدريد العربية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، لا. ت.

ملين، محمد رشيد.

عصر المنصور الموحدي، مطبعة الشمال الافريقي، ومطبعة مجريط، لا. ت.

ملا، أحمد علي.

أثر العلماء المسلمين في الحضارة الاوروبية، دار الفكر، الجزائر، لا. ت.

مؤنس، حسين.

فتح العرب للمغرب، نشر مكتبة الآداب، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

فجر الأندلس، نشر الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

نجاة باشا،

التجارة في المغرب الاسلامي من القرن الرابع الهجري- القرن الثامن الهجري، تونس، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

نجار، عبد المجيد.

المهدي بن تومرت، دار الغرب الاسلامي، ط١، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

النقشبندي، ناصر السيد محمود.

الدينار الاموي والعباسي، ج١، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م.

الدرهم الاسلامي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

هيكل، أحمد.

فتح العرب للمغرب، نشر مكتبة الآداب، القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

اليوسف، عبد العزيز.

العصور الوسطى الاوروبية، بيروت، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

الموسـوعات:

ثابت، محمد

دائـرة المعـارف الإسـلامية، لجنـة الترجمـة، القـاهرة، ١٣٥٢هــ/١٩٣٣م، ١٣٦٣هـ/١٩٤٣م.

علام، محمد مهدي.

دائرة المعارف الإسلامية، خمسة عشر جزءاً.

عزبال، محمد شفيق.

الموســوعة العربيــة الميسرــة، دار النهضــة، بــيروت، لبنــان، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

وجدي، محمد فريد

دائــرة معــارف القــرن العشرــين، دار المعرفــة، ط٣، بــيروت، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

المراجع المترجمة

أشباخ، يوسف (القرن التاسع عشر الميلادي).

تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، نشرـ عنـان، ج١+٢، مطبعــة لجنــة التــأليف والترجمــة، القــاهرة، ١٣٥٩هــــ/١٩٤٠، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

اوليري، ديلاسي.

تاريخ الحضـارة الاسـلامية، تـر، حمـزة طـاهر، دار المعـارف، ط٢، القاهرة، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

بالباس، ليوبولدتوريس.

الفن المرابطي والموحدي، تر، سيدي غازي، منشأة المعـارف، الاسكندرية، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

بالنثيا، أنخل جنثالث.

تاريخ الفكر الأندلسي، تـر، حسـين مـؤنس، ط١، النهضـة المصرـية القااهرة، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

بروفنسال، ليفي.

الاسـلام في المغـرب والأنـدلس، تـر، عبـد العزيـز سـالم، القـاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

الشرق الاسلامي والحضارة الأندلسية، معهد الجنرال فرانكو للابحاث العربية الاسبانية، تطوان، ١٣٧١هـ/١٩٥١م.

بروكلمان، كارل.

تاريخ الشعوب الاسلامية، تر، نبيه فارس، دار العلم للملايين، ط٤، بيروت، ١٣٨٥، ١٩٦٥م.

تراند، ج.

تراث الاسلام، جزءان، تر، حسن زكي، لجنة الجامعيين للنشر القاهرة، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

جب، سير هاملتون.

علم التاريخ، تر، دائرة المعارف الاسلامية، ط١، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

جوليان، شارل اندريه.

تاريخ افريقية الشمالية، ثلاثة أجزاء، تر، محمد فرالي، ط٢، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م. الدار التونسية للنشر، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

جيروم وجان وطارو:

أزهار البساتين في أخبار المغرب والأندلس على عهد المرابطين والموحدين، تر، محمد الفاسي، ط، الرباط، ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م.

درزي، رينهارت درزي (١٨٨٤/١٣٨٢).

تاريخ مسلمي اسبانية، ج١، تر، حسن حبشي- وآخرون، القاهرة، ١٩٦٣م/١٣٨٣هـ

دومنيك وجانين سارديل.

الحضارة الاسلامية في عضرها الذهبي، ج١، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٠م/١٤٠٠هـ.

ديردي، ادوارد.

تاريخ الحضارات، تر، يوسف داغر، فريدم داغر، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٦٩م/١٣٨٩هـ

ديمالد.

الفنون الاسلامية، لم أتبين المترجم لتآكل الصفحات الاولى من الكتاب.

ديماند، (م. ي).

الفنون الاسلامية، تر، أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم احمد فكري، القاهرة، ١٩٥٨/١٣٧٨هـ

ديلاسي، اوليري.

الفكر العربي والكتابة في التاريخ، تر، تمام حسان، راجعه محمد مصطفى حلمي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة، ١٩٦١/١٣٨١هـ

روم، لاندو.

الاسلام والعرب، تر، منير بعلبكي، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٦٢/١٣٨٢هـ

رينان، ارنست.

ابن رشد والرشدية، تر، عادل زعيتر، باريس، ١٨٨١/١٢٩٩هـ

سيديو، العلامة ل. أ. سيديو.

تاريخ العرب، تر، عادل زعينشر، ط٣، القاهرة، ١٩٥٦/١٣٧٦هـ

شاخت ويوزورث.

نشراث الاسلام، ثلاثة أجزاء، تر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨/١٣٩٨هـ

عروي، د. عبدالله.

تاريخ المغرب، محاولة تركيب، تر، ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٧/١٣٩٧هـ

فشر، هـ. أ. ل.

تاريخ اوروبة في العصور الوسطى، تر، الباز العربي، القاهرة، ١٩٦٦/١٣٨٦.

لوبون غستاف.

حضارة العرب، تر، عادل زعيتر، دار احياء الكتب المصرية، ط٢، القاهرة، ١٩٥٦/١٣٧٦هـ

لودر، دروثي لودر.

اسبانية شعبها وأرضها، تر، طارق فوده، القاهرة، ١٩٦٥/١٣٨٥هـ

لومبار، موريس.

الاسلام في فجر عظمته، تر، حسين العودات، مراجعة علي الخش، لا، ت.

لويس، ارشيبالد.

القوى البحرية والتجارية، تر، أحمد محمد عيسى، تقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٠/١٣٧٠هـ

مورينو، مانويل جومث.

الفن الاسلامي في اسبانية، تر، احمد لطفي، الدار العربية، لا. ت.

ميتز، آدم.

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، تر، محمد عبد الهادي أبو ريده، دار الكتاب العربي، ط٤، بيروت، ١٩٦٧/١٣٨٧هـ

ميراند: أمير سيواوتي.

التاريخ السياسي للدولة الموحدية، تر، الاستاذ محمد بن تاويت وابراهيم الكتاني، تطوان، ١٩٦١/١٣٨١هـ.

نوغالس، سلفادور غومس.

الفلسفة الاسلامية، وتأثيرها الحاسم في فكر الغرب اثناء العصور الوسطى، تر، عثمان الكعاك، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٧/١٣٩٧هـ

ويدغري، البان ويدغري.

التاريخ وكيف يفسرونه، تر، عبد العزيز جاويد، القاهرة، ١٩٧٢/١٣٩٢هـ.

المراجع باللغة الانجليزية والاسبانية

1. Altamira, R:

- A history of Spain from the Beginings to the present day Translated by munaLee. Copyright, 1949/1369, by D. van Nostrand company canad, Ltd.

2. Barbour. N:

- Asurvey of north west africa (The maghrib) Oxford University Press, London, 1959/1379هـ

3. Barker. E and Clerk G:

- TheEuropean inheritance, 3 volumes Oxford, 1954/1374هـ.

4. Barnard. L and Hodges, T.B:

- Reading in European History, New-york, 1958/1378هـ.

5. Bell, A:

- Less Benou Ghanya Patis, 1903/1321.

6. Brockelmann, Carl:

- History of Islamic people, Translated by Joel carmichael and moshe parlmann Routledge and Regan Poul, London & Henley.

7. Bury: JB:

- The cambridge Medieval, History 8 Vol, cambridge, 1967/1387, 1936/1355.

8. Conde J-A: History of the Dominion of the Arab in Spain, Vol, I. London, 1899, 1317.

9. Cheijne: ANwar

- Moslem Spain, Jbs.
- History and Culture, the University of Minnesota Press Minneq, polis, 1973/1392هـ.

10. Dozy and stokes, E,

- Spainish Islam, London, 1913/1332هـ.
- History of the moslems in spain.

11. Hoyt Robart.

- Europe in the Middle Ages, London, 1957/1377هـ.

12. Hulme: M. E.

The middle ages, Newyork, Hery Haltanel, company, 1936/1355هـ.

13. Ibars, Ap:

- Valencia arabe, valencia, 1901/1319هـ.

14. Juan Vernet: La Cultura, hispanoarabe, en Oriento, Yoccidont, de Editorial Aril, Barcelona, 1978/1398.

15. Lewis: Barnard.

- Islamic history, London, 1978/1398.

16. Livermore: Harald.

- A history of Spain, London, 1960/1380.

17. Meakin. B:

- The morrish empire, London, Newyork.

18. Norman: Daniel.

- The Arabs and medieval Europe, London and, Newyork, Libririe du liban.

19. O'callaghan, F, J:

- A history of medieval Spain, copyright, 1975/1395, Cornall University, Ithaca, Newyork.

20. **Rachel Arie: Historia DE Espana, Espana Musulmana [siglos VIII-XV] Espana Barcelona, 1982/1402.**

21. **Scott, SP:**
    - A history of the moorish empire in Europe, vol, 1, II. Philladelphia, London, 1904/1322هـ.

22. **Sephen son, G:**
    - Medieval History [Europe from the second to the sixteenth century]. Harper and brothers, Publishers, Newyork and London.

23. **Smith: Rhea marsh, Spain and Modern history, Michigan, 1965/1385.**

24. **Thompson, W. J:**
    - The middle ages, 300-1500, vol,II, III, Printed in the united states of America by the plimpon Press.

25. **Trend: JBrande,**
    - The Civilization of Spain, London, 1967/1387.

26. **W, Lanax: Derak.**
    - The Reconquest of Spain, London and Newyork.

فهرس الاعلام

ابن الابار	ابن بشكوال
اسكندر	اسماء العامريه
ابن طفيل	ابن حبوس
ادريس	ابن المنخل
ابن المعلم	ابن باجه
ابن جلداسن	ابن هرودس
اسماعيل	ابن حبيش
ابو العباس	ابن مضا
ابو اسحاق	ابو علي الاشيري
ابراهيم بن الفخار	ابن محشوّه
أنوسان	ابو جعفر الحميري
ابن قادس	احمد بن سيد
ابن جامع	ابن قزمان
ابن نصر	احمد بن طلحة
ابو زكريا	ابن حزمون
احمد الحوفي	ابن زهر
ابو بكر الحذاء	ابو بكر الزهري
ابن واجاج	ابو حامد الغرناطي
ابن باسّه	احمد بن حسان
ابو بكر الطرطوشي	(ب)
ابن دحيه	بيدق
ابن الجد	بشير
ابو بكر الغافقي	براز بن محمد
ابو دبوس	بطروجي
ابن سعيد	الببوج
ابو علي بن يبقى	بيدرو
ابن رشد	البياسي
ابو الحسن بن الربرتير	بلاسكودي
احمد الصقلي	البابيريث
ابو الليث الصفور	بنيامين
احمد البطروجي	

(ت)	(س)
تاشفين	سير
(ج)	سدراي
جومز	سيف الدرله
جرانده،	سوسي
جيرالدو	سليمان بن محمد
(ح)	سعيد بن عيسى
الحسين بن حسون	سانشو
حفص	سويرو
الحسن	سانت
الحافظ	السعيد الموحدي
حباب	ساحر
حفصه	سرالحسن
حمدة	سلمان الاندلسي
(خ)	سليمان الموحدي
خيار بن الجياني	(ش)
الخشني	الشرقي
خايمي	شانجة
(د)	شمس الضحى
دياجو	الشلبية
دون رودريجو	(ص)
(ر)	صلاح الدين
ريمونديز	الصديق بن العربي
ربرتير	صفيه
ريمند	(ط)
روان	طرطوشي
ريحان	(ظ)
رشيد	الظافر
(ز)	
زيان	

(ع)	عمر المرتضى
عبدالله بن ياسين	علي بن الغازي
علي بن يوسف	عبد المؤمن بن علي
عزيز بن الناصر	عبدالسلام الكومي
عمر بن يحيى	عنبر
عمر بن ازناج	عمر الشلوبين
عبدالله فلويات	عبدالرحمن القاملي
عبد العزيز	عياش القرطبي
عيسى بن تومرت	عيسى الجزولي
عبد الرحمن بن زجو	عبدالله الجياني
عبد الواحد الشرقي	عيسى العبدري
علي بن عيسى	علي الانصاري
عمر بن صالح	علي الجياني
عيسى بن ميمون	عبدالله بن محمد
عياض	عبد الواحد المراكشي
علي بن ميمون	(غ)
عثمان ابو سعيد	الغمر
عبدالله بن مردنيش	غانم
عبدالله بن سليمان	(ف)
مروان بن عبدالله	الفونسو
عبد الله بن سعد	فندة
عبر الرحمن بن عياض	الفاررودريكيت
عبدالله بن شراحيل	فرديناند
عبد الله بن أبي حفص	فرنانده
عبدالله بن عبد المؤمن	فرناند
علي بن عبد المؤمن	(ق)
عبد الرحمن بن أبي مروان	قمر
عبد الله بن جامع	قمط
عمر بن سحنون	(ك)
علي بن غانية	كوسيران
عبد الله بن اسحاق	كافور

(ل)	الناصر
لوشي	نزهون
اللورقي	(ي)
(م)	يحيى الفهري
المنتصر الحفصي	يحيى بن اسحاق
مالك	يحيى بن الصحراوي
محمد الماسي	يحيى بن الناصر
محمد المخزومي	يحيى بن تاشفين
محمد المعلم	يحيى بن تاكسفت
محمد بن الحاج	يحيى بن عبدالمؤمن
محمد بن الفخار	يحيى بن علي
محمد بن المنذر	يحيى بن عمر
محمد بن تانكالا	يحيى بن غانية
محمد بن تومرت	يحيى بن هبيرة
محمد بن تيفوت	يحيى بن يغمور.
محمد بن حواء	يصلاتن
محمد بن سعد	يعقوب القديس
محمد بن عبد المؤمن	يعقوب المنصور
محمد بن علي	يعيش المهندس
محمد بن عيسى	يوسف البطروجي
محمد بن مروان	يوسف بن الناصر
محمد بن ميمون	يوسف بن تاشفين
مرتضا	يوسف بن تيجيت
موسى المارتلي	يوسف بن سليمان
موسى بن سعيد	يوسف بن عبد المؤمن
موسى بن ميمون	يوسف بن مخلوف
ميمون بن يدر	يسف بن مردنيش
مينوس	يوسف بن وانودين
(ن)	ييتان
الناصري	
نونه	

فهرس البلدان والمدن (الأماكن)

(ح)	سجلماسة	طلبيرة
حصن	السبيكة	طرّش
حلال	سبطاط	(ع)
حدارّة	السام	العراق
الحمة	سنغال	العدوه
الحجاز	سردانية	عفرا
جامع حسان	(ش)	عنابه
حلب	شلب	عكا
(خ)	شرق	(غ)
خودار	الشام	غرناطة
خوارزم	شريش	الغرب
(د)	شنتمرية	غماره
درن	شنترين	(ف)
دانية	شراجب	فاس
درعة	شذونة	فتوح
دمشق	شرانية	فندوق
(ر)	شقر	فرنسا
رباطات	شلمنقة	فرال
رباط	شلبترّة	مدينة الفتح
رنده	شاطبة	فراكسينت
ربض	(ص)	(ق)
رباح	صقلية	قرطبة
روما العظمى	(ط)	قشتالة
(ز)	طرابلس	قرمونة
زوايا	طنجة	قصر
(س)	طريف	قلعة
سرقسطة	طلياطة	قادس
سبتة	طبيرة	قلمرية
سلا	طرطوشة	قرقشونة
سوس	طرّكونه	قيروان
سيرات	طليطلة	قونقة

القنطرة	مرج الرقاد	(ي)
قسطنطينية	مرسية	يابرة
قيجاطة	مرسيليا	
قطالونية	مزمّة	
قفصة	مساجد	
القاهرة	مصر	
قونية	معمورة	
قرطاجنة	مكة	
قدس	مكناسة	
(ك)	ملالة	
كتندة	منستير	
كرّس	موصل	
(ل)	ميرتلة	
لبلبة	ميورقة	
ليون	(ن)	
لورقة	ندورمة	
لاردة	نفيس	
لوشة	نا ار	
(م)	ناضوش	
المدينة	نول	
المرية	(هـ)	
المشرق	هزرجة	
المغرب	هيلانة	
المهدية	هسكورة	
حصن المعدن	هنجاريا	
ماردة	(و)	
مالقة	ونشريس	
مجريط	وهران	
مدرسة	وجدة	
مديونة	وادي	
مراكش	وبذة	